

الأستاذ
بوسيف فورة الخليل

دروس في التفسير

الاجل في القرآن

www.christianlib.com

مكتبة
الكتاب المقدس

دروس قرآنية

١

الانجيل في القرآن

جميع الحقوق محفوظة

١٩٩٣

طبعة ثالثة

منشورات المكتبة البولسية

شارع لبنان - بيروت - ص.ب. ٤٤٥٩ - ١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب. ١٦٥٦ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

دروس قرآنية

١

الانجيل في القرآن

الاستاذ يوسف درة المراد

الهداء

الى عتاق الخبيثه الخالصة

الى ذوي الضمائر الجيده المفضة عمه بيمه الله

الى جميع الذبيمه يتدرونه الطريق والخبيثه والجهانه

اقدم هذه الدروس القريبه

فهرس

صفحة

ط

ك

س

تقديم عام

مصادر

مقدمة الكتاب الاول

القسم الاول : الفراءه والكتاب

٣

نظرية القرآن في الأديان

١٥

التوحيد القرآني كتابي

٣٨

هل نسخ القرآن الانجيل والتوراة ؟

٤٧

القرآن يشهد بالصحة للكتاب الموجود في زمانه

٦٤

هل يقول القرآن الكريم بتحريف الكتاب المقدس

٨٨

تذييل على استحالة تحريف الكتاب

٩١

قيمة الكتاب في القرآن

٩٩

قيمة الانجيل في القرآن

١٠٣

موقف القرآن من أهل الكتاب

القسم الثاني : مريم ام الميع في الفراءه

الجزء الاول : النصوص القرآنية

١٤٤

النص الاول : سورة مريم ١٥ - ٣٣

صفحة	
١٥١	النص الثاني : انبياء ٩١
١٥٣	النص الثالث : المؤمنون ٥١
١٥٤	النص الرابع : آل عمران ٣٣ - ٤٧
١٦٤	النص الخامس : النساء ١٥٧ و ١٧٠
١٦٦	النص السادس : تحريم ١٢
١٦٨	النص السابع : مائدة ٧٦ - ٨٠ و ١١٣ - ١١٩

الجزء الثاني : تحليل النصوص

١٧٢	أولاً : مريم العذراء آية للعالمين في اصطفاؤها
١٧٣	ثانياً : مريم العذراء آية للعالمين في ميلادها
١٧٤	ثالثاً : مريم العذراء آية للعالمين في طفولتها وحدثاتها
١٧٧	رابعاً : مريم العذراء آية للعالمين بمعجزة حبلها البتولي بالمسيح
١٨٢	خامساً : مريم العذراء آية للعالمين في ولادتها المسيح
١٨٤	سادساً : مريم العذراء آية للعالمين مع ابنها في حدثاته
١٨٥	سابعاً : مريم ام المسيح آية للعالمين في حياتها كلها وشخصيتها
١٨٧	خاتمة : موجز تعليم القرآن

القسم الثالث : البيع في القرآن

توطئة

١٩٢

الجزء الاول : النصوص القرآنية في المسيح

١٩٥	النص الاول : سورة مريم ١٥ - ٤٠
٢٠٣	النص الثاني : سورة الزخرف ٥٧ - ٦٢ ؛ ٦٣ - ٦٥
٢٠٧	النص الثالث : سورة الانبياء ٩١ - ١٠٣
٢٠٩	النص الرابع : سورة المؤمنون ٥١ - ٥٧

صفحة	
٢١١	النص الخامس : سورة الاعراف ١٥٦ - ١٥٨
٢١٣	النص السادس : سورة الأنعام ٨٣ - ٩٠
٢١٥	النص السابع : سورة الشورى ١٣ - ١٦
٢١٧	النص الثامن : سورة البقرة ٨٦ ، ١٣٦ - ١٣٨ ، ٢٥٣
٢٢٦	النص التاسع : فاتحة آل عمران
٢٥٠	النص العاشر : سورة الاحزاب ٧ - ٨
٢٥٢	النص الحادي عشر : القسم الثاني من سورة النساء
٢٦٦	النص الثاني عشر : سورة الحديد ٢٥ - ٢٩
٢٧١	النص الثالث عشر : سورة التحريم ١٢
٢٧٢	النص الرابع عشر : سورة الصف ٦ - ١٤
٢٧٥	النص الخامس عشر : سورة المائدة (متفرقات)
٣٠١	النص السادس عشر : صدر سورة التوبة (او براءة) ١ - ٣٨

الجزء الثاني : تحليل النصوص القرآنية في المسيح

٣٠٩	عيسى ابن مريم آية في مولده
٣١٥	عيسى ابن مريم آية في حديثه
٣١٧	عيسى ابن مريم آية في رسالته
	عيسى ابن مريم آية في آخرته :
٣٢٤	تمهيد
٣٢٦	اولاً : شهادة القرآن بموت المسيح
٣٣٨	ثانياً : صعود المسيح الى السماء
	عيسى ابن مريم آية في يوم الدين :
٣٤٠	اولاً : عيسى ابن مريم « علمٌ للساعة »
٣٤٢	ثانياً : عيسى ابن مريم وجيه وشفيع في يوم الدين
٣٤٦	عيسى ابن مريم آية في قداسته وكاله

صفحة	
٣٥٢	عيسى ابن مريم آية في شخصه
٣٥٣	بحث اول : الوهية المسيح في القرآن
٣٦١	بحث ثانٍ : التثليث في القرآن
	بحث ثالث : القاب المسيح في القرآن :
٣٧٩	اولاً : القاب المسيح النبوية في القرآن
٣٨٣	ثانياً : القاب المسيح الالهية في القرآن
٣٨٤	(١) عيسى ابن مريم هو مسيح الله
٣٨٨	(٢) عيسى ابن مريم هو كلمة الله
٣٩٨	(٣) عيسى ابن مريم هو روح الله
٤٠٦	ملحق : هل من تثليث في القرآن
٤٠٩	شخصية المسيح في القرآن
٤١٩	كلمة الختام



دروس قرآنية

تقديم عام

كانت هذه الدروس استجابة الى الدعوة التي وجهها شيخ مشايخ الازهر الشريف فضيلة الاستاذ مصطفى المراغي، ورئيس مجلس الشيوخ المصري السابق الدكتور حسين هيكل في تقديم (حياة محمد) : « ألا تراه يقول : وأذهب أبعد مما تقدم فأقول ان هذا البحث جدير بأن يهدي الانسانية طريقها الى الحضارة الجديدة التي تلتبسها . واذا كانت نصرانية الغرب تستكبر ان تجد النور الجديد في الاسلام ورسوله وتلتبس هذا النور في «ثيوزوفية الهند» وفي مختلف مذاهب الشرق الاقصى ، فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى خليقون بأن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالتزاهة والانصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول الى الحق » .

استجبنا الدعوة وبقيننا انا فعلنا بتزاهة واخلاص .

بدأنا منذ زمن بعيد بمقالات ، تطورت الى كتاب ، اتسع الى هذه « الدروس القرآنية » . وهذا هو الكتاب الاول منها .

لا نبغي فيه تبشيراً، ولا نقصد منه جدلاً عقيماً. بل كان رائدنا الدرس العلمي التزيه أملاً بالوصول الى حق القرآن.

ونبتهل الى الله تعالى مع فاتحة القرآن :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين.

اياك نعبد واياك نستعين : أهدنا الصراط المستقيم...»

عسانا نسمع الجواب :

« أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة...»

« أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده (ايها النبي)».

(أنعام ٨٩ و ٩٠)

مصادر

- القرآن الكريم
الكتاب المقدس
تفاسير الكتاب لأئمة التفسير، خاصة لاغرانج
تفاسير القرآن لأئمة التفسير خاصة الطبري والزمخشري والبيضاوي والجلالين
والرازي
السيرة لابن هشام - تحقيق مصطفى السقا ورفاقه . مصر ١٩٣٦
الفهرست لابن النديم (فيه ترتيب لسور القرآن)
الرد الجميل لاهية عيسى بصريح الانجيل . لحجة الاسلام، الغزالي
نشر الاب شديق
حجج القرآن لجميع أهل الملل والاديان - للامام أبي الفضل أحمد الرازي
هداية الحيارى من اليهود والنصارى - لابن القيم الجوزية
رسالة عبدالله الهاشمي (عن النصرانية)
رسالة عبد المسيح بن اسحاق الكندي (يرد بها على عبدالله الهاشمي - وقد
ذكرها البيروني)
الاسلام - رد على غبريال هانوتو - للامام محمد عبده مفتي الديار المصرية
الاسلام والنصرانية « « « «
الاسلام والرد على منتقديه « « مع فريد وجدي
الشفاء بتعريف حقوق المصطفى - للقاضي عياض أبو الفضل بن موسى الاندلسي
طبع سنة ١٩٥٠
تفصيل آيات القرآن الحكيم - وضعه بالفرنسية جول لا بوم - ترجمة فؤاد
عبد اليافي

حياة محمد - حسين هيكل - مصر ١٣٥٤ هـ

عبقريّة محمد - للعقاد

عبقريّة المسيح - للعقاد

الحضارة العربيّة الاموية في دمشق - لعمر ابي النصر

الاسلام على مفترق الطرق - وضعه ليوبولد فايس ونقله عمر فروخ

مقالة في الاسلام - لجرجس سال الانكليزي - مع الذيل المشهور لعبدالله

مرآة الحلبي؟

المسيحية في الاسلام - لابراهيم لوقا - مصر ١٩٣٨

المسيح في الاسلام - للاستاذ كولد ساك الانكليزي وضعه بينغال الهند

المسيح في القرآن - جرجس فرج صفي

بطل الابطال أو أبرز صفات النبي - للاستاذ عبد الرحمن بك عزّام

الاسلام في نظر الغرب - نقله الى العربية الدكتور اسحاق موسى الحسيني

التصوير الفني في القرآن - سيد قطب

المشرع - للقس بولس مباط

التبشير والاستعمار - للدكتورين مصطفى خالدي وعمر فروخ - بيروت ١٩٥٣

قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام - للدكتور توفيق الطويل ١٩٤٧

التعصّب والتسامح بين المسيحية والاسلام - محمد الفزالي

البرهان الصريح في بشارت النبي والمسيح - أحمد ترجمان

كفاية الطالبين لرد شبهات المبشرين - محمد حفناوي ١٩١٢

الأجوبة السنية عن شبهات النصرانية

دعوى اليسوعيين وفضل محمد على سائر النبيين - ابو نصر السلاوي

الطرفة الشبهة في انتصار الانجيل

مباحث المجتهدين في الخلاف بين النصارى والمسلمين - نقولا يعقوب غبريل ١٩٢٢

المسلمون والنصارى - محاضرة للسيد عبدالله مخلص

- تاريخ العرب - فيليب حتي
العرب في التاريخ - برنارد لويس
لماذا أنا مسلم - لعبد الرحمن العيسوي
دراسات اسلامية - لعبد المتعال الصعيدي
أثر القرآن في تطور النقد العربي - لمحمد زغلول سلام
روح الدين الاسلامي - لعفيف عبد الفتاح طباره - بيروت ١٩٥٥

L'Encyclopédie de L'Islam

Penseurs de l'Islam - Carra de Vaux

Dictionnaire de Théologie

Christus - ou Histoire des Religions

Le Coran - Traduction selon un essai de reclassement des sourates

par *Regis Blachère* 1947 - 51

Le Problème de Mahomet

par *Regis Blachère* 1953

Mahomet - sa vie, sa doctrine

par *Tor Andrac*

Le Christ Dans les Évangiles selon Al Gazali - Louis Massignon

La Vision musulmane du mystère de Jésus - Charles Ledit

مقدمة الكتاب الاول

« وقولوا : آما بالذي أنزل إلينا وانزل إليكم والها
والهكم واحد ونحن له مسلمون » (العنكبوت ٤٦)

ما جاء في القرآن الكريم عن المسيح والانجيل والنصارى،
والكتاب عامة، مفخرة للمسلمين والنصارى، فيليق بكل مؤمن
بالله واليوم الآخر ان يطلع عليه .

هذا ما اردنا ان نقوله في هذا الكتاب الاول من سلسلة
دراستنا التي نقدمها لأبناء الشرق العربي .

كثيرون من المسلمين يجهلون الكتاب المقدس، وكثيرون
من المسيحيين لا يعرفون القرآن الكريم؛ ولو أن الجميع تعارفوا
لتقاربوا وتصافوا وتحابوا .

يعيش الاسلام والنصرانية في الشرق معاً : لذلك يجب عليهما
أن يتفاهما؛ وأن لها أن يفعلا . أقول هذا خاصة في هذا الزمن
العصيب الذي نجاهد فيه لأجل تراثنا الروحي، وقوميتنا العربية
لكي نحافظ على كياننا فلا تبتلعنا الكتل الاجنبية؛ وأرسله
نداءً حاراً لكل الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر كي يتمسكوا
بحجر الزاوية هذا . وما احوجنا في عصر المادة الذي نجتازه، تجاه

تيار الإلحاد الجارف، أن نتذكر هذه الحقيقة الجوهرية، وجعلها
رابطة لنا دينية وقومية في هذا الشرق موطن الوحي ومهبط
الروح.

وأملني ان نخرج من هذه الابحاث كما ختم النبي العربي
كرازته في مكة بهذا المبدأ السَّخَّح الموحَّد : « ولا تجادلوا اهل
الكتاب إلا بالتي هي أحسن - ألا الذين ظلموا منهم - وقولوا:
آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له
مسلمون» .
(عنكبت ٤٦)

(١) تنبيه عام : لا نقصد بهذا الكتاب عرض الديانة المسيحية على المسلمين ولا عرض
الاسلام على المسيحيين : فليعذرنا الجميع اذا وجدونا مقصيرين . إننا ندرس فيما نعرض له وجهة
نظر القرآن وحدها ، كما فهمناها ، وليس وجهة نظر الانجيل او المسيحية ؛ فنرجو الانتباه
لثلاثتهم بما نحن منه براء .

القسم الاول

القرآن والكتب

نظرية القرآن في الاديان

« بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق »
(بقرة ٢١٣)

« لا نفرق بين احد من رسله » (بقرة ١٣٦ و ٢٨٥؛ آل عمران ٤
نساء ١٦٣)

من يتصفح الكتاب والقرآن يتحقق من بادرة لا ريب فيها الا وهي
اتفاقهما في الجوهر على التوحيد، أي « الايمان بالله واليوم الآخر ». تلك هي
حقيقة الحقائق وهما يرددانها بكل لحن، وبلا ملل .

نشأ محمد في الحجاز ودعا الى الله (سجدة ٧٢) في محيط مشبع بدعوة
التوحيد الاسرائيلية والمسيحية والحنيفية وسط الشرك الحاكم .

فكان لا بد للنبي العربي من أن يتعرض للكتاب والانجيل . فما كان صدى
تأثيراته؟

وكان لا بد له ايضاً من أن يتصدى للأديان السابقة، والكتب المنزلة،
والانبياء المتعاقبين : فما هي نظرية القرآن في الاديان؟

(١) التوحيد هو الايمان بالله واليوم الآخر . ستري ذلك من مجموع الآيات التي سنقلها
في هذا الكتاب . نكتفي هنا بذكر آية من القرآن : « ليس البير ان ثولوا وجوهكم
قبل المشرق والمغرب ولكن البير من آمن بالله واليوم الآخر... » (بقرة ١٧٧) وآية من
الانجيل في رسالة القديس بولس الى العبرانيين : « وبدون ايمان يستحيل ارضاء الله اذ لا
يُبدّ لمن يدنو الى الله أن يؤمن بأنه كائن وأنه يشيب الذين يبتغونه » (ف ١١ ع ٦) .

للقرآن نظرية خاصة، جامعة في الأديان المنزلة، ولا نقول غير المنزلة لأنه لا يعترف بها. فالقرآن يُعلم بصراحة وحدة الكتاب المنزل على جميع الأنبياء، ووحدة الرسالة النبوية عند جميع المرسلين، ووحدة الدين الموحى به لجميعهم.

الكتاب المنزل واحد

يُعلم القرآن أن أصل الكتب المنزلة واحد، عند الله، (مؤمنون ٦٣) ويسميه « أم الكتاب »، (زخرف ٤)، و « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (رعد ٤١)، ويدعوه أيضاً « اللوح المحفوظ » (البروج ٢١ و ٢٢)، « والامام المبين »: « وكل شيء احصيناه في إمام مبين » (يس ١٢) .

وقد أنزل الله كتابه الواحد على جميع الأنبياء والمرسلين: « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » (بقره ٢١٢) . يقول « الكتاب » فهو معروف، وهو واحد .

ونزل كتاب الله على آجال: « ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله: لكل أجل كتاب . يحو الله ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب » (رعد ٤٠ - ٤١) . من أجل إلى أجل قد يحو الله ما يشاء بما أنزل ويثبت غيره، محتفظاً بوحدة التنزيل لأن عنده أم الكتاب في اللوح المحفوظ .

والكتب المنزلة عديدة بقي منها أربعة: توراة موسى، وزبور (مزامير) داود، وانجيل عيسى، وقرآن محمد . وكلها نسخ طبق الأصل عن الكتاب الأزلي: « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه (قبله) . وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان » (آل عمران ٣)^٢

(١) « وعنده أم الكتاب » أصله الذي لا يتغير منه شيء وهو ما كتبه في الازل (الجلالان) .
(٢) « وأنزل الفرقان » ذكر ذلك بعد الكتب الثلاثة ليعم ما عداها . وقد يراد به الزبور أو القرآن كرره مدحا (البيضاوي)

فبإنزاله القرآن والانجيل والتوراة اوحى الله الفرقان كله اي « جنس الكتب السماوية لانها كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل » (الزمخشري) .

وهذه النسخ يصدق بعضها بعضاً، ويشهد بعضها لبعض : « وقفنا على اثرهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور . وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه (قبله) من الكتاب ومهيماً عليه » (مائدة ٤٦ - ٥١)^١ .

وهكذا يكون القرآن نسخة عربية عن الكتاب : « والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (زخرف ١ و ٢) .

لذلك يأمر القرآن أهله ان يؤمنوا ايماناً واحداً بالكتب المنزلة كلها : « يا ايها الذين آمنوا، آمنوا بالله ورسوله، والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبله ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » (نساء ١٣٥) .

وهذا الايمان الواحد الذي يأمرهم به - بسبب وحدة التنزيل والكتاب - يجعله ركناً من اركان الاسلام : « ليس البر أن تولتوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين » (بقره ١٧٧) .

وبسبب وحدة الوحي ووحدة الكتاب المنزل مع الرسل جميعهم ينذر القرآن بعذاب واحد من كفر بأحد الكتب لأنها جميعها « الكتاب » : « الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلاً فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يُسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون » (غافر ٧٢) .

وهكذا يرى القرآن في الكتب المنزلة تسخاً عن « الكتاب » الواحد .

(١) « مهيماً عليه » شأهداً له (الجلالان) رقيباً عليه (البيضاوي) ؛ « والتوراة والانجيل : اسمان اعجميان وتكلف اشتقاقهما الفرقان : جنس الكتب السماوية لان كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل أو للكتب التي ذكرها » .

والرسالة النبوية واحدة عند جميع الانبياء والمرسلين

ان تصريحات القرآن في هذا الصدد واضحة متكررة^١.

فهو يعلن وحدة الايمان في وحدة الرسالة: «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم. لا نفرق بين أحد منهم؛ ونحن له مسلمون^٢» (بقرة ١٣٦) يعلن ان من الاسلام الايمان بالانبياء جميعهم على السواء، راداً بذلك على دعوة اليهود والنصارى الى ملتهم: «وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا! قل: بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (بقرة ١٣٥)، لأن الاصل التوحيد ولا خلاف بين المسلمين والكتابيين عليه: «قل: أتتاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون» (بقرة ١٣٩).

وتقوم وحدة النبوة ووحدة الرسالة على التوحيد، ويُسمى هذا التوحيد إسلاماً^٣: «أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السماوات والارض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون. قل آمنا بالله وبما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» (آل عمران ٨٣-٨٥) فكل الانبياء يريدون دين الله وقد دعوا اليه.

(١) في مكة يعتبر محمد نفسه واحداً من أهل الكتاب كما سترى في فصل «التوحيد القرآني كتابي»، وفي المدينة يستقل عنهم في الملة ويبقى معهم في العقيدة كما ترى من النصوص المدنية التي نوردها.

(٢) «لا نفرق بين أحد منهم» فنؤمن ببعض ونكفر ببعض (الجلالان) كاليهود «فنؤمن ببعض ونكفر ببعض، ونحن لله مدعون مخلصون» بياضوي.

(٣) نعتقد مع بعض العلماء ان لفظ «اسلام» كناية عن التوحيد وهي من صنع محمد أو بالحري من المحيط الحنيفي الذي مال اليه محمد في المدينة؛ كما يستدل من قوله: «هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا». (الحج ٧٨).

ويصرّح بأن وحدة الرسالة والنبوة تأتي من وحدة الوحي : «إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبين من بعده، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل' ورسلاً لم نقصصهم عليك، وكلم الله موسى تكليماً، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً» (نساء ١٦٢ - ١٦٤) .

وهكذا فلا تجوز التفرقة بين الانبياء لأن الموحى اليهم واحد، والوحي واحد عند جميعهم فهم سلسلة واحدة متصلة الحلقات يحملون رسالة واحدة .

والدبره واحد في جميع الكتب ومع جميع الانبياء

ان كل رسول دعا الى الله : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة » (نحل ٣٦) و«نمير البشر بالرسول الداعين الى التوحيد : « جاءتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله » (السجدة ١٤) وكل ذكّر نزل من الله أوحى ان لا إله الا الله : « أم اتخذوا من دونه آلهة ! قل هاتوا برهانكم ! هذا ذكر من معي وذكر من قبلي^١ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله الا أنا فاعبدون » (انبياء ٢٤ و ٢٥) ؛ أوحى الله التوحيد لكل رسول أرسله، وهذه كتب الله الموحاة كلها ليس في واحد منها أن مع الله إلهاً بما قالوا (الجلالان) .

ودعوة الانبياء الى الله هي التوحيد وهي الاسلام الذي يركز به القرآن : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والارض طوعاً وكرهاً .

(١) « هذا ذكر من معي » اي اتمني وهو القرآن « وذكر من قبلي » من الامم وهو التوراة والانجيل وغيرها من كتب الله ليس في واحد منها أن مع الله إلهاً بما قالوا (الجلالان) .

قل آما بالله وبما أنزل علينا وبما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» (آل عمران ٨٣ و٨٤ و٨٥) . نصٌ خطير، جامع مانع، يحدد معنى الاسلام بالتوحيد، «دين الله» الذي يخضع له من في السماوات والارض طوعاً وكرهاً، وهو الذي أنزل على الانبياء جميعهم كما أنزل على محمد، ومن يتبع غير اسلام التوحيد فهو من الخاسرين في الدنيا والآخرة .

بهذا الدين، وبهذا التوحيد شهد الانبياء جميعهم، وأولو العلم، والملائكة والله نفسه : «شهد الله أنه لا إله الا هو، والملائكة وأولو العلم، قائماً بالقسط، لا إله الا هو العزيز الحكيم أن الدين عند الله الاسلام» (آل عمران ١٨ و١٩)؛ فالسما والارض تشهدان أن «لا دين مرضي عند الله سوى الاسلام وهو التوحيد» (البيضاوي) . قرن منزلة «أولي العلم» بالملائكة والله ! (الرازي) .

وحسب نظرية القرآن، جميع الانبياء ليس فقط كرزوا بالاسلام بل كانوا هم انفسهم مسلمين . فابراهيم^٢ وابنه اسماعيل مسلمان «ربنا ، واجعلنا مسلمين لك» (بقرة ١٢٨) ووصى ابراهيم بنيه من بعده بالاسلام : «اذ قال له ربه : أسلم . قال اسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه» (بقرة ١٣١) . فحفظوا الوصية وتناقلوها : «ويعقوب : يا بني، ان الله اصطفى لكم الدين

(١) راجع الزمخشري آل عمران ١٩ و٨٥ . والزمخشري يرجع لفظه الاسلام الى قوله «اسلم وجهه لله» (مائدة ١١٤) أي اخلص له العباد .

(٢) الاسلام من «اسلم وجهه لله وحده» اي دعا الله مخلصاً له الدين بعيداً عن كل شرك (المؤمن ١٤؛ الزمر ٢، ٣، ١١، ١٢، ١٤، ١٥) «ان الدين عند الله الاسلام» اي الشرع المبعوث به المرسل المبني على التوحيد (الجلالان) وفي قراءة (أن) بدل من (أنه)، بدل اشتال (الجلالان)؛ وفي قراءة إن جملة مستأنفة مؤكدة للأولى اي لا دين مرضي عند الله سوى الاسلام وهو التوحيد (البيضاوي) .

(٣) ابراهيم حنيف مسلم (آل عمران) ١٦٧ لا بل هو اصل الاسلام وهو سمي الموحدين مسلمين (الحج ٧٨) .

فلا تتوتنّ الا وأنتم مسلمون» (بقره ١٣٢) ؛ وقبل الاسباط هذه الوصية بالاسلام (بقره ١٣٣). وهكذا فمِلّة ابراهيم بفرعيها من اسماعيل واسحاق مسلمة : «ومن ذريتنا امّة مسلمة لك» (بقره ١٢٨) ، فقد قال الاسباط ليعقوب : «نعبد إلهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحداً ونحن له مسلمون» (بقره ١٣٣) .

والنبيّون ما بين موسى وعيسى مسلمون : «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا» (مائدة ٤٧) يعني أنبياء بني اسرائيل أو موسى ومن بعده (البيضاوي) . واليهود الذين يحفظون التوراة بهدي أنبيائهم مسلمون معهم : «ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» (آل عمران ٨٠) ، فيشهد أن اليهود الذين يخاطبهم ويسفّه غلوّهم في اكرام الملائكة والبنين هم مسلمون : انها حال قائمة «بعد إذ انتم مسلمون!»

والمسيح نفسه وأنصاره الحواريون مسلمون : «ولما أحس عيسى منهم الكفر (اي من اليهود) قال : من أنصاري الى الله؟ قال الحواريون^١ : نحن انصار الله! آمنا بالله! واشهد بأننا مسلمون» (آل عمران ٥٢ و ٥٣) . وقد قبل الحواريون دعوة عيسى واعتنقوا «الاسلام» بعد معجزة المائدة التي أنزلها عيسى عليهم من السماء : «واذ اوحيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي! قالوا : آمنا، واشهد بأننا مسلمون» (مائدة ١١٥ - ١١٩) .

لذلك لما حاول محمد ان يجتذب اهل الكتاب الى ملته التي انشأها في المدينة مستقلاً عن اهل الكتاب أجابوه بأنهم مسلمون من قبله : «الذين آتيناهم الكتاب من قبله (من قبل القرآن) هم به مؤمنون؛ واذا يُتلى عليهم

(١) الحواريون : أعوان دينه، او هم اصفياء عيسى واول من آمن به . وكانوا اثني عشر رجلاً من الحور : أي البياض . وقيل كانوا فصّارين يحوِّرون النياب اي يبيضونها . (الجلالان) وعندنا ان الكلمة اعجمية مأخوذة عن الأرامية أو الحبشية .

قالوا : آمنّا به، انه الحق من ربنا، إنا كنا من قبله مسلمين ! أولئك يؤتون
أجرهم مرتين ! (قصص ٥٢ - ٥٤) .

وهكذا بشهادة القرآن الصريحة، وبنص الوحي القاطع، اليهود
والنصارى، المعاصرون محمداً، مسلمون قبل النبي العربي وامته، وسوف يؤتون
أجرهم مرتين بما صبروا . « وإيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذ وإنما هو امر
تقادم عهده لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة وكونهم على دين الاسلام قبل
نزول القرآن » (البيضاوي) .

ومحمد اقتفى آثار من سبقه من انبياء الكتاب « قل انما انا بشر مثلكم
يوحى اليّ انما الحكم واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا
يشرك بعبادة ربه احداً (الكهف ١١١) . واقتدى بهداهم (انبياء ٩٠)
وتبع اسلامهم : « أمرت ان اكون من المسلمين » (انعام ١٤) وبلغ قومه
هذا الدين : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم
الاسلام ديناً » (مائدة ٣) وبذلك أمسى هو اول المسلمين : « قل ان صلاتي
ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وانا اول
المسلمين » (انعام ١٦٣) والمسلمون متبعو عيسى في اصل الاسلام وان اختلفت
الشرائع » (الزمخشري، آل عمران) .

فحسب تعليم القرآن الصريح إن اهل التوراة واهل الانجيل واهل القرآن
كلهم مسلمون أي موحدون يؤمنون ايماناً واحداً بالله واليوم الآخر . وقد

(١) « إنا كنا من قبله مسلمين » موحدين . « أولئك يؤتون أجرهم مرتين » لإيمانهم
بالكتابين (الجلالان)، بالتوحيد الذي فيهما - نزلت في مؤمني اهل الكتاب . والضمير في
« من قبله » للقرآن . « انه الحق من ربنا » استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به . « إنا كنا
من قبله مسلمين » استئناف آخر للدلالة على ان إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذ وإنما هو
امر تقادم عهده لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة وكونهم على دين الاسلام قبل نزول
القرآن او تلاوته عليهم » (البيضاوي) .

أكد القرآن ذلك الى اخر عهده : « مِلَّةَ ابيكم ابراهيم، هو اسمكم المسلمين من قبل وفي هذا » (الحج ٧٨) فانه سمي المؤمنين به مسلمين في القرآن وفي الكتب التي سبقته منذ ابراهيم : فالدين واحد .

وهذا الاتفاق الجوهرى على العقيدة لا يضيره اختلاف ثانوي في الشريعة ؛ ففي صفحة خالدة من اواخر حياة النبي العربي يقرّ القرآن في سورة المائدة هذا التفرّق ويجعله سبب تنافس وتساوق في الخيرات .

فهو يقرّ امة موسى على شريعتهم : « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ... إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استَحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » (مائدة ٤٧ و ٤٨) .

ويقرّ امة عيسى على شريعتهم : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين : وليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه؛ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (٤٩-٥١) .

ويقرّ امة محمد على شريعتهم : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه . فاحكم بينهم بما أنزل الله » (٥١) .

ويختتم بهذا المبدأ الجامع المانع، الشامل الكامل، الأولي النهائي : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ! ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة^٢ . ولكن ليلوكم

(١) هو : الله من قبل : من قبل القرآن في الكتب المتقدمة، وفي هذا : في القرآن (البيضاوي) .

(٢) لكل جعلنا منكم ايها الامم شرعة وطريقاً واضحاً في الدين ثمثون عليه ولو شاء الله لجعلكم على شرعة واحدة ولكن فرقكم فرقاً ليختبركم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة » (الجلالان) « لكل جعلنا منكم ايها الناس شرعة (والشرعة هي الطريق الى المساء شبه بها

في ما آتاكم : فاستبقوا الخيرات » (٥١) لقد جمعكم الله على عقيدة واحدة، ولو شاء لجعلكم على شريعة واحدة ولكن فرقكم فرقاً ليختبركم فيما آتاكم حتى تتنافسوا وتتسابقوا في الخيرات « كلٌ حسب شريعته ومنهاجه » .

تلك نظرية القرآن في الأديان والأنبياء والكتب المنزلة : الدين واحد، ورسالة الأنبياء التي تحمله واحدة، والكتاب الذي بحويه رغم تعدد نسخه واحد. لذلك يكرر تصريحاته بشجب التفرقة بين الأديان والرسل والكتب : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم » (نساء ١٥١) أجل « لا تفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون » (بقرة ١٣٦ و ٢٨٥، آل عمران ٨٤، نساء ١٦٣) لأن الله « بعث النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق » (بقرة ٢١٣) .

الدين لانه طريق الى ما هو سبب الحياة الابدية) وضريقتا واضحا في الدين، ولو شاء الله لجعلكم جماعة متفقة على دين واحد في جميع الاعصار . واستدل به على أننا غير متقدين بالشرائع المتقدمة » (البيضاوي) ولا هم متقيدون بشريعة القرآن . « ولكن اراد ان يبلوكم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة هل تعملون بها مدعين معتقدين انها مصالح قد اختلفت على حسب الاحوال والاوقات معترفين بأن الله لم يقصد باختلافها الا ما اقتضته الحكمة أم تبغون الشبه وتفرضون في العمل » (الزمخشري) .

تذليل نظرية الفرائد في وحدة الاديان المزره

نجد في كتاب الملل والنحل ص ٢٠٢ للشهرستاني (طبعة Cureton Leipzig 1923) خلاصة الرأي القديم عن وحدة الدين بين اهل الكتاب واهل القرآن نقلها لتام الفائدة : « والتقسيم الضابط أن نقول : من الناس من لا يقول بمحسوس ولا معقول وهم السفسطائية . ومنهم من يقول بالمحسوس ولا يقول بالمعقول وهم الطبيعية ، ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول ولا يقول بحدود واحكام وهم الفلاسفة الدهرية . ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول والحدود والاحكام ولا يقول بالشرية والاسلام وهم الصائبة : ومنهم من يقول بهذه كلها وبشريعة ما واسلام ولا يقول بشريعة المصطفى ص . وهم اليهود والنصارى . ومنهم من يقول بهذه كلها ، وهم المسلمون ، . اذاً خلاف اهل الكتاب واهل القرآن ليس في العقيدة حسب زعمهم بل في الشريعة وحدها كما رأينا في القرآن .

ونجد في (حياة محمد) لحسين هيكمل خلاصة الرأي الحديث : « صحيح ان تعاليمهم (موسى وعيسى) تنتهي في جوهرها الى ما تنتهي اليه تعاليم محمد في جوهرها ، مع خلاف في التفاصيل ليس هنا موضع ايضاحه ، (ص ١١٢) . وقال آخر : « اما المسلمون ففي دينهم قسم مشترك بين الديانات كلها ؛ فهم يؤمنون بموسى ويوقرونه ، ويعتبرون التهجيم على مكانته كفراً بالاسلام . وهم كذلك يؤمنون بعيسى ويكرمون مولده وينزهون نسبه ويرون الطعن في عفاف امه أو شرف ابنها كفراً بالاسلام . وهم يضمون الى ايمانهم بموسى وتوراته ، وعيسى وانجيله ايماناً جديداً بمحمد وقرآنه على اساس ان النبوة الاخيرة جاءت تصديقاً لما قبلها ومحوراً للفوارق والخلافات التي مزقت شمل العالم . فالاسلام هو يهودية موسى ونصرانية عيسى معاً وهدايات من قبلها من رسل الله الأكرمين جميعاً (التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ص ٥٧) لمحمد الغزالي .

ومن احدث ما قرأنا مقالاً في مجلة الهلال ١ يناير ١٩٥٥ بقلم منصور رجب الاستاذ بكلية اصول الدين في الازهر الشريف عن رسالة الازهر :
نص قرآني بـين يقرر في صراحة ان الاديان السماوية، كلها في الاصل شيء واحد، لا فرق بين يهودية او مسيحية او اسلام ولذلك يقول في سورة الشورى:
شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً - والذي اوحينا اليك - وما وصىنا به ابراهيم وموسى وعيسى ان : اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . والبخاري نفسه نقل تفسير هذه الآية بأن قال « اوصيناك يا محمد وانبياءه ديناً واحداً ...
وكأني بواحد يُسائل نفسه : وما الفرق اذن بين هذه الاديان ؟ - الفرق انما هو في الشرائع اي في الفروع ولذلك يقول القرآن الكريم في سورة المائدة
« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً . مثلاً الصلاة اصل من اصول الدين الا انها تختلف في الكيفية في كل شريعة عنها في الاخرى . وهكذا يقال في كل ما يتصل بهذه الناحية (٤٧ و ١٤٨) .

التوحيد القرآني كتابي

« هو ستماكم المسلمين من قبل وفي هذا »

(الحج ٧٨)

القرآن الكريم دعوة جارفة الى التوحيد . فهل كان مستقلاً في هذه الدعوة عن الكتاب الذي نزل من قبله أي عن الانجيل والتوراة؟

من يقرأ القرآن حسب ترتيب نزوله كما ورد في المصحف الاميري^١ يلحظ تطوراً ظاهراً . لقد جاء التوحيد القرآني في مكة كتابياً محضاً . ثم استقل بأحكامه في المدينة قومياً حنيفياً، ولكن ظل في عقيدته وفي دعوة التوحيد كتابياً^٢ .

يعلن القرآن منذ السور المكية الاولى عن مصادره^٣ .

ففي آخر سورة الاعلى يقول عن تعليمه فيها : « إن هذا لفي الصحف الاولى

-
- (١) للمستشرقين ترتيب تزعمه الالماني نلديكه، وللمسلمين ترتيب قد يختلف عنه، ونقل لنا صاحب الفهرست ترتيباً مقبولاً وهو يقرب من ترتيب المصحف الاميري الذي اعتمده في دروسنا . وقد فضلناه لمزايا سنعرض لها في حينها وللغائدة العملية .
 - (٢) نشير في هذا الفصل الى وحدة العقيدة بين المسلمين والكتابيين كما يراها القرآن .
 - (٣) قضية المصادر التي يأخذ عنها كتاب منزل لا تنفي عنه ضرورة صفة الوحي والتنزيل يدرس العلماء مصادر التوراة والانجيل والقرآن بمزول عن مسألة الوحي فيها ودون طعن فيها . وقد اورد انجيل متى نفسه موافقة الانجيل للتوراة والانبياء .

صحف ابراهيم وموسى» (١٨ و ١٩) . قد أخذ القرآن كرازته عن توحيد الخالق الاعلى (١ و ٢) وعن الآخرة التي هي خيرٌ من الحياة الدنيا وأبقى (١٦ و ١٧) وعن فلاح من تركى وذكر اسم ربه فصلتى (١٥ و ١٦) عن صحف ابراهيم وموسى أي عن الكتاب المقدس . قال الشهرستاني^١ : « ثم قال عزّ من قائل إن هذا لفي الصحف الاولى : فيبين ان الذي اشتملت عليه هذه الصحف هو ما اشتملت عليه هذه السورة » .

يسند القرآن الى الكتاب تعليمه العام، وتعاليمه الخاصة ايضاً . ففي سورة النجم يقول : « أولم يُنبأ بما في صحف موسى و ابراهيم الذي وقى ألا ترزّ وازرة و زر أخرى وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى » (٣٧ - ٤٠) يقول : لا تحمل نفس ذنب غيرها وليس لها من سعي غيرها للخير شيء (الجلالان) . ويضيف « أن الى ربك المنتهى وانه هو امات وأحيا وانه خلق الزوجين الذكر والانثى، وأن عليه النشأة الاخرى، وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعري وأنه أهلك عاداً الاولى وثموداً فما ابقى... فبأي آلاء ربك تتبارى ! هذا نذير من النذر الاولى » (٤١ - ٥٦) سياق الحديث يدلنا على انه ينقل تعاليم السورة عن صحف ابراهيم وموسى وأنه يعتبر نفسه نذيراً من جنس المنذرين الاولين^٢ وهذا يدلنا على وحدة الرسالة ووحدة التعليم .

وفي سورة البروج يعطي استشهاد نصارى نجران على يد ذي نواس ملك اليمن المتهود مثلاً على التوحيد وصحة الايمان بالله : « قتل اصحاب الاخدود، النار ذات الوقود، وهم عليها قعود ! وما نعموا منهم إلا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (١ - ١٠) قد فهم العلماء منذ سيرة ابن هشام ان المقصود باصحاب الاخدود نصارى نجران^٣ . ألا يدل هذا الاستشهاد بهم على وحدة الدين والايمان بينهم وبين النبي العربي؟

(١) كتاب الملل والنحل ١٧٩ .

(٢) « هذا نذير من النذر الاولى » اي انذار من جنس الانذارات المتقدمة أو هذا الرسول نذير من جنس المنذرين الاولين (البيضاوي) شبيهاً بهم بالرسالة والتعليم (الجلالان) .
 (٣) قال ابن هشام : « واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر وكان على ما

وفي سورة القمر يذكر قومه بعاقبة الكفار الغابرين مستخلصاً من -يرثهم
 عبرة لقومه : « أكفاركم خيرٌ من أولئكم؟ أم لكم براءة في الزبر؟ » اي «زبر
 الأولين» كتبهم كالتوراة والانجيل (الجلالان: شعراء) ؛ يقول «اكفاركم
 يا معشر العرب خير من اولئك الكفار المعدودين قوة وعدة أو مكانة وديناً
 عند الله تعالى؟ أم انزل لكم في الكتب السهاوية أن من كفر منكم فهو في أمان
 من العذاب؟» (البيضاوي) . أليس فيه دليل على أن من آمن بإيمان الكتاب
 المقدس معه براءة من العذاب؟ ثم أليس في هذا الانتباه الى الكتاب إشارة
 جلية الى مصدر تعليمه وإيمانه؟ ويعود ايضاً الى مثلها في قوله : «ولقد أهلكنا
 أشياعكم فهل من مذكر؟ وكل شيء فعلوه في الزبر» (٥١ - ٥٢) فتعاليمه
 وقصصه مأخوذة عن الكتب المقدسة التي تقدمته . وما وظيفة القرآن سوى
 تذكير العرب بما جاء في الكتاب المقدس : «وقد يسّرنا القرآن للذِّكر فهل
 من مذكر؟» (١٧ و ٢٣ و ٣٢ و ٤٠) .

ويطلبون من النبي آية على صحة رسالته وصدق نبوءته فيجيبهم : آيته انه
 يبين لهم ما في الصحف الاولى : «وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه؟ أولم تأتهم
 بيّنة ما في الصحف الاولى فيكفيه برهاناً أنه بلتغهم تعليم الكتاب . ويضيف
 أنه اهتدى الى الصراط السوي بإيمانه بما في الصحف الاولى : «قل كلُّ متربص!
 فتربصوا! فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى» (طه ١٣٥)
 من الضلالة، أنحن الذين آمننا بالصحف الاولى أم أنتم المنكرون لها!

جاء به عيسى ابن مريم من الانجيل وحكمه ثم اصابهم ما اصاب اهل دينهم من الاحداث...
 فسار اليهم نو نواس مجنوده فدعاهم الى اليهودية وخيرهم بين ذلك والقتل فاختراروا القتل
 فخذ لهم الاخذود فحرق من حرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم حتى قتل منهم قريباً
 من عشرين الفاً . ففي ذي نواس وجنسه انزل الله تعالى على رسوله : قتل اصحاب
 الاخذود ...» ج ١ ص ٣٧ .

(١) «بيّنة» بيان (الجلالان) «ما في الصحف الاولى» من التوراة والانجيل وسائر
 الكتب السهاوية فإن اشتاله على زبدة ما فيها من العقائد والاحكام الكلية اعجاز بين»
 (البيضاوي) .

يعود في الشعراء الى الجواب على طلبهم منه آية ليؤمنوا : « وانه لتتربل رب العالمين على قلبك لنكون من المنذرين بلسان عربي مبين، وانه لفي زبر الاولين » (١٩٢ - ١٩٦) اي « ان ذكر القرآن المنزل على محمد لفي كتب الاولين كالتوراة والانجيل » (الجلالان) فآية النبي العربي مطابقة قرآنه للكتاب . ويعطيهم آية اخرى تؤيد الأولى : « أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل ؟ » (١٩٧) والبرهان على مطابقة القرآن للكتاب شهادة علماء بني اسرائيل بذلك . ستظل هذه الشهادة منهم له حجته الكبرى الى آخر حياته : « كفى بالله شهيداً ومن عنده علم الكتاب » (آخر الرعد)^١ .

ومحمد يعتد ويتقوى ويطمئن بشهادة الذين أوتوا العلم من اهل الكتاب له على موافقة تعليمه تعليمهم : « وبالحق انزلناه وبالحق نزل . وما ارسلناك الا مبشراً ونذيراً . وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكثب ونزلناه تنزيلاً . قل آمنوا به او لا تؤمنوا : ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يُتلى عليهم يخرون للاذقان سُجداً، ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولاً . ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً » (١٠٥ - ١٠٩) . لقد فرح اهل الكتاب وازدادوا خشوعاً لموافقة القرآن تعليمهم، وهكذا قويت شوكتهم تجاه المشركين، واطمأن محمد الى تلك الموافقة واعطاها دليلاً على صحة رسالته وصدق نزول قرآنه .

وفي فاطر يبين لقومه اصطفاء الله لعباده الذين يتلون كتاب الله الذي اورثوه وجاء قرآنه مصدقاً له : « ان الذين يتلون كتاب الله . . . يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم اجرهم ويزيدهم من فضله . - والذي اوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه ان الله بعباده خير بصير - ثم

(١) لاحظ ان حجة القرآن على صحتها وصدقها، من اعجازه، ظهرت في العهد الاخير بمكة، وبعد البقرة لا ذكر لها في المدينة؛ اما حجته بشهادة علماء الكتاب له فتظهر من اول القرآن الى آخره في مكة والمدينة .

(٢) « من قبله » من قبل نزول القرآن وهم مؤمنو اهل الكتاب (الجلالان) .

اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير، (٢٩ و ٣١ و ٣٢) ١ . انه يثني على مؤمني الكتاب، ويستجلب الثناء لنفسه لأن قرآنه من الكتاب « وحقيقته تستلزم موافقته إياه في العقائد وأصول الاحكام، (البيضاوي) وفضل الله الكبير في اصطفاء اهل الكتاب وتوريثهم الكتاب . انه يشهد لأهل الكتاب ويستشهد بهم . ألا يخيل اليك ان صاحب هذا الاعتقاد واحد منهم ؟

القرآن يأخذ « من الكتاب » . لا بل يأمر نبيّه أن يهتدي بهدي الكتاب واهله .

في صفحة رائعة من سورة الانعام يجرّض القرآن محمداً على الاقتداء بهدي أنبياء الكتاب المقدس : يذكر سلسلة الأنبياء المحسنين الصالحين الذين فضلهم على العالمين « ومن آباؤهم وذريّاتهم واخوانهم، واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم : ذلك هدى الله يهدي به مَنْ يشاء من عباده . ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون - أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء (مشركي مكة) فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين (اهل الكتاب) أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » (٨٣ - ٩٠) . مَنْ هم المقصودون الذين

(١) « ان الذين يتلون كتاب الله » القرآن او جنس كتب الله فيكون ثناءً على المصدقين من الامم . « والذي اوحينا اليك من الكتاب » يعني القرآن و« من » لتبيين او الجنس او التبويض . « مصداقاً لما تقدمه من الكتب السالوية »، حال مؤكدة، لأن حقيقته تستلزم موافقته إياه في العقائد واصول الاحكام . « ثم اورثنا الكتاب » منك او من الامم السالفة والعطف على « ان الذين يتلون » - « والذي اوحينا اليك » اعتراض (البيضاوي) « ثم اورثنا الكتاب » (٣٢) آية زيدت فيما بعد لتحدّ من ثناء الآية ٢٩ على اهل الكتاب فتبين انهم لا يستحقون كلهم هذا الثناء اذ منهم ظالم لنفسه بالتقصير، ومنهم مقتصد في عمل الخير، ومنهم سابق بالخيرات ؛ وهكذا بمطرفة الآية ٣٢ على ٢٩ يكون الذين اصطفاهم الله من عباده هم اهل الكتاب الذين يستشهد محمد بهم .

يجب ان يقتدي النبي بهداهم؟ «هم الانبياء المذكورون ومتابعوهم . والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد واصول الدين دون الفروع المختلف فيها فإنها ليست هدى مضافاً الى الكل^١ . اذن يجرّض القرآن النبي على الاقتداء بهدى وتوحيد ودين انبياء الكتاب ومتابعيهم من اليهود والنصارى . وبعبارة أصرح يأمر القرآن محمداً ان يتبع اهل الكتاب في هداهم وايمانهم على آثار انبيائهم . فهدى الكتاب المقدس هو وحده صراط القرآن المستقيم .

فهل بعد هذا التصريح من شك في ان محمداً كان يدعو الى التوحيد الكتابي في مكة ويهتدي بأنوار الكتاب المقدس؟ وانه يسترشد «بمن عنده علم الكتاب» (رعد ٤٥)؟

وفي سورة الانعام ايضاً يجعل القرآن ذاته تفصيل الكتاب: «أفغير الله ابتغي حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً؛ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق، فلا تكوننّ من الممترين» (١١٤) لاحظ من تعريف «الكتاب» في الموضعين ان المنزل على محمد والمنزل من قبل واحد؛ والثاني تفصيل الاول .

ويدعو محمد قومه الى «دراسة» الكتاب الذي نزل على طائفتين من قبلهم فقد كانوا الى زمانه غافلين عن دراستهم: «أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين» (انعام ١٧٦)^٢؛ فسبب نزول

(١) البيضاوي بخلاف الجلالين اللذين يزعمان ان المقصودين هم «المهاجرون والانصار» لا ذكر لهم في سياق الحديث بل الحديث كله عن انبياء الكتاب . والآية «اولئك الذين هدى الله» بدل من «اولئك الذين آتيناهم الكتاب» . ويجب ان يهتدي المهاجرون والانصار بهدى النبي لا العكس! والآية مكينة فلا وجود بعد للمهاجرين والانصار .

(٢) «انما انزل الكتاب على اليهود والنصارى وانما كنا عن قراءتهم لغافلين» (الجلالان) «أن تقولوا: كراهة أن تقولوا علة لا تزاه؛ انزل على اليهود والنصارى، ولعل الاختصاص في «انما» لان الباقي المشهور حينئذ من الكتب السهاوية لم يكن غير كتبهم؛ ودراستهم اي قراءتهم» (البيضاوي) .

القرآن (١٥٥) هو عدم قراءتهم للكتاب الذي نزل على اليهود والنصارى لجهلهم لفته، وهو ينقله لهم بلسان عربي مبين ليقرأوه. فيفهمون منه جلياً انه درس الكتاب الذي ينقله لهم ويدعوهم الى دراسته: «وليقولوا: درست» اي «ذاكرت أهل الكتاب أو درست كتب الماضين وجئت بهذا منها» (الجلالان).

فهل من شهادة اوضح وأصرح على اتصال محمد بأهل الكتاب، ودرسه، ونقل القرآن عن الكتاب؟

ويرجع الى الاستشهاد بأهل الكتاب في سورة صبا: «ويرى الذين أوتوا العلم^٢ الذي أنزل اليك من ربك هو الحق، او يهدي الى صراط العزيز الحميد» (٦) يستشهد دائماً بالذين أوتوا العلم المنزل؛ وهؤلاء يشهدون له بصحة تعليمه التوحيد وأحكامه، وشهادتهم له هي حجته الكبرى.

وفي سورة الأحقاف يصرح نهائياً بما لا يقبل الشك ان إمام القرآن كتاب موسى: «قل ما كنت بدعاً من الرسل! وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، إن أتبع الا ما يوحى اليّ! وما أنا الا نذير مبين. قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به - وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم - .. واذا لم يهتدوا به فسيقولون: هذا إفك قديم! ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين» (٩-١٢)^٣. لقد شهد شاهد من بني اسرائيل على ان القرآن مثل التوراة، كيف

(١) في قراءة: دارست أي ذاكرت أهل الكتاب. وفي قراءة درست من درس القراءة والتعلم. وجاز اضمار (أهل الكتاب) لشهرتهم بالدراسة - عن البيضاوي.

(٢) «الذين أوتوا العلم» مؤمنو أهل الكتاب (الجلالان).

(٣) «ما كنت بدعاً من الرسل» بديعاً منهم ادعوكم الى ما لا يدعون اليه أو أقدر على ما لم يقدروا عليه. «ما أدري ما يفعل بي ولا بكم» في الدارين على التفصيل. «وشهد شاهد على مثله» اعتراضية، والشاهد عبد الله بن سلام بقول الجميع وقيل هو موسى وشهادته ما في التوراة، على مثل القرآن، وهو ما في التوراة من المعاني المصدقة للقرآن

لا وإمام القرآن كتاب موسى، وهو كتابٌ مصدقٌ التوراة لساناً عربياً، لينذر المشركين وبشرى للمؤمنين بالكتاب والقرآن - لا فارق بين الكتابين ولا جديد سوى اللسان العربي .

كما ان الكتاب السماوي امام للكتاب المنزل (يس ١٢) كذلك كتاب موسى امام للقرآن (احقاف ١٢) .

في سورة الانبياء يوضح تضامنه مع اهل الكتاب في التوحيد، تجاه جميع المشركين: « أم اتخذوا من دونه آلهة ! قل هاتوا برهانكم ! هذا ذكرٌ من معي وذكورٌ من قبلي ! بل اكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون » (٢٤ - ٢٥) رسالة الأنبياء جميعهم هي التوحيد، وهو تعليم القرآن والانجيل والتوراة والمؤمنين بها . فبرهان النبي المتواصل على صحة دعونه هو ذكرٌ من قبله من المؤمنين المطابق للقرآن . يكثر في هذه الفترة من الاستشهاد بأهل الكتاب، على كل شيء: « وما ارسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم : فسئلوا اهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (انبياء ٧) « اهل الذكر هم العلماء بالانجيل والتوراة فإنهم يعلمونه وأنتم الى تصديقهم اقرب من تصديق محمد، فاسألوهم . (الجلالان) . ويختم اخبار الانبياء في هذه السورة بقوله: « إن هذه أمتكم، امة واحدة » . وأنا ربكم فاعبدون » (٩٢) امة الانبياء واحدة وهي

المطابقة لها، « فآمن » بالقرآن لما رآه من جنس الوحي مطابقاً « للحق » (البيضاوي) « لينذر الذين ظلموا المشركين » « وبشرى للمحسنين » المؤمنين (الجلالان) « إفاك قديم » افتراء على الله منذ الانجيل والتوراة مثل قوله « اساطير الاولين »

(١) « ذكر من معي وذكور من قبلي » من الامم وهو التوراة والانجيل وغيرها من كتب الله فليس في واحد منها ان مع الله إلهها مما قالوا « الجلالان .
(٢) « ان هذه أمتكم » وقرئ « أمتكم » بالنصب على البدل من هذه « وأمته » بالرفع على الخبر؛ وقرئنا بالرفع على انهما خبران والمراد ان ملّة التوحيد أو الاسلام ملّةكم التي يجب ان تكونوا عليها فكونوا عليها امة واحدة غير مختلفة بين الانبياء ولا مشاركة لغيرها في صحة الاتباع » (البيضاوي) .

يضاً امتهم، فاتبعوها . وفي آخر سورة الانبياء ينقل آية بنصها الحرفي عن المزامير التي اخذتها عن التوراة : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر (التوراة) ان الارض يرثها عبادي الصالحون^١ ، فالوحي حسب القرآن واحد من نوح الى ابراهيم الى موسى الى عيسى الى محمد . كما نقل آية اخرى في سورة الحج « وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » : من ينقل عن كتاب إلا يؤمن به، ألا يعرفه، ألا يتضامن معه ؟ أمجوز ان يتنكر له، او يتهمه بالتحريف، او يدعي نسخه ؟

حجة محمد الكبرى كما رأيت هي شهادة اهل الكتاب له . فهو يجيل سامعيه في سورة النحل اليهم ليستوثقوا منهم عن صحة ما يوحى الى محمد : « وما أرسلنا من قبلك الا رجلاً نوحياً اليهم : فستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبور . وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلتهم يتفكرون » (نحل ٤٣ و ٤٤) ؛ ان كانوا يجهلون المعجزات المنزلة والكتب المقدسة فهو يعلمها وهي تقول بإرسال البشر للبشر لا الملائكة . وإن كنتم لا تعلمون ولا تصدقوني فاسألوا العلماء بالتوراة والانجيل فإنهم يعلمونه وانتم الى تصديقهم اقرب (الجلالان) . لاحظ أن الوحي القديم والجديد كلاهما وردا بلفظ واحد معرفت بال للدلالة على وحدة التعليم ؛ وأن وظيفة التعليم الجديد هي تذكير الناس بما نزل اليهم من قبل لعلهم يتفكرون . وأهل مكة يشهدون له أن قرآنه من خرافات الأولين : « واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا : أساطير الأولين » (نحل ٢٤) وهم بالذ كثرين كافرون .

لا بسل يأمر القرآن محمداً في يونس اذا ارتاب من نفسه ومن صحة ما يوحى اليه ان يطمئن نفسه وبوطد ايمانه عند أهل الكتاب الاول : « فإن كنت

(١) لقد فهم الجلالان هذه الآية فهما خاطئا . قال السيوطي : « الزبور كتاب داود، والذكر التوراة » .

في شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك^١ : لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين» (يونس ٩٤) يقول : « إن كنت يا محمد تشك فيما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون التوراة من قبلك فإنه ثابت عندهم بخبروك بصدقه فلا تكونن من الشاكين فيه» (الجلالان) فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك فإنه محقق عندهم ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك : والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة وأن القرآن مصدق لما فيها؛ ثم وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إليه (البيضاوي). واذ كان يجب على النبي العربي أن يتثبت من إيمانه وتعليمه لدى علماء اليهود والنصارى أفلا يكونون هم أساتذته في الدين والتوحيد؟

وفي سورة يونس أيضاً بصرح بأن القرآن تفصيل الكتاب : « وما كان هذا القرآن ليفتري من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه (قبله) وتفصيل الكتاب، لا ريب فيه، من رب العالمين » (٣٧). لا ريب أن القرآن تصديق الكتاب الذي سبقه وتفصيل له : فكيف نشك بعد ذلك أنه ليس منه ولا يأخذ عنه ! ألا نفهم أنه يبدع العرب تعليم الكتاب بلسان عربي، وأنه يعتبر قرآنه نسخة عربية عن الكتاب ؟

وفي سورة هود صدى لما ورد في الأحقاف : « أفمن كان على بينة من ربه - ويتلوه شاهد منه - ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً : أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده . فلا تك في مرية منه، إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » (١٧)^٢ فلا نشك يا محمد بالحق

(١) أليس في هذا النص إشارة إلى أنه كانت تنتاب محمداً سوراة من الشك يتغلب عليها بإرشادات أهل الكتاب؟ وشك محمد من نفسه ومن صدق وحيه وإيمانه (يونس ٩٤) يأتي بعد التأكيد من أن القرآن تفصيل الكتاب من رب العالمين (٣٧).

(٢) قال البيضاوي : « أفمن كان على برهان من الله يدل على الحق والصواب، والهمزة للانكار اغنت عن الخبر - وقيل المراد به النبي أو مؤمنوا أهل الكتاب . » ويتلوه شاهد

الذي معك فانه يشهد له من كان على بيّنة من ربه وهم اهل العلم من مؤمني الانجيل والتوراة، فإنهم « يؤمنون به » ولو انكره اهل مكة ومن تحزب معهم . الا يكفيه شهادة ان امامه كتاب موسى . فالقرآن ذاته ينوع التصاريح على ان « قاعدة » القرآن في تعليمه هي الكتاب : والترديد المتواصل زيادة في التأكيد .

وفي سورة السجدة يعود الى تأكيد علاقة النبي العربي بموسى والتوراة : « ولقد آتينا موسى الكتاب، فلا تكن في مرية من لقائه^١، وجعلناه هدى لبني اسرائيل، أو جعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » (٢٣ و ٢٤) ؛ اي لا تشك يا محمد في اتصالك بكتاب موسى بواسطة ائمة بني اسرائيل فإنهم يهدون بأمرنا الى هدى الكتاب كما يفعلون معك .

وفي سورة الشورى يُعطي نظريته في طريقة الوحي والتنزيل، ومكانه منها : « وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم . وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا . ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا، وإنك لنتهدي (لنتهدى) الى صراط مستقيم،

منه » اي يتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن (قال الجلالان : وهو جبريل) . ومن قبل القرآن كتاب موسى (بالضم) اي التوراة، اماماً اي كتاباً مؤتمناً به في الدين . وقرىء « كتاب موسى » (بالنصب) عطفاً على الضمير في يتلوه اي يتلو القرآن شاهد مما كان على بيّنة دالة على انه حق، كقوله « وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله » . « اولئك يؤمنون به » اشارة الى من كان على بيّنة . « من الاحزاب » أهل مكة . ومن تحزب معهم . « فلا تك في مرية منه » في شك من المولى او من القرآن . - نقول ألا يستفاد من هذا النص انه كان يتلو محمد القرآن والكتاب في هذه الفترة اسرائيلي ! ؟

(١) « من لقائه » من لقائك الكتاب أو موسى او من لقاء موسى الكتاب . « وجعلناه المنزل على موسى . وجعلنا منهم أئمة يهدون الناس الى ما فيه من الحكم والاحكام » البيضاوي . - هذا مديح رائع على صحة ايمانهم وتعليمهم الكتاب

صراط الله ، (٥١ و ٥٢) وقال في مطلع السورة : « كذلك يُوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » (٢) دالاً على مواصلة الوحي في موضوعه ونوعه لكن هذا الوحي كان على طرائق ثلاث : بالوحي اى بالمشافهة او المناداة كما وقع للمسيح ؛ او من وراء حجاب كما حصل لموسى عند قبة الشهادة ؛ او بواسطة رسول منه الى النبي . وهذه الطريقة الثالثة ، في العدد والرتبة ، كانت من نصيب محمد وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا . وكيف كانت واسطة الوحي هذه عند النبي العربي ؟ كانت بواسطة الايمان بالكتاب الذي نزل قبله فقد جعله الله نوراً يَهْدِي به من يشاء ، وابن عبد الله اهتدى به الى صراط الله المستقيم . فبواسطة الكتاب المقدس الذي آمن به اهتدى وهدى « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب » وامرتُ لأعدِلَ بينكم ، (شورى ١٥) .

اخيراً في سورة **العنكبوت** يأتي التصريح النهائي بوحدة الايمان والتعليم بين الكتاب والقرآن ، بين محمد والنبيين قبله بين اهل القرآن واهل الكتاب : « اتل ما اوحى اليك من الكتاب (فالقرآن من الكتاب) . . . ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن - الا الذين ظلموا منهم - وقولوا : آما بالذي انزل البنا وانزل اليكم (بالقرآن والكتاب على السواء) ، والهناء والمحكم واحد (هذا هو موضوع ديننا المشترك) ونحن له مسلمون (موحدون ، وهذا

(١) اى يوحى مثل ما في هذه السورة من المعاني او ايجاء مثل ايجائها أوحى الله اليك والى المرسل من قبلك . وانما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي وإن ايجاء مثله عادته (الاية ٢) « وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً » كلاماً خفياً يسرك بسرعة لأنه تمثيل ليس في ذاته مركباً من حروف مقطعة يتوقف على تموجات متعاقبة وهو ما يعم المشافهة به والمهتف به . (البيضاوي والجلالان) « وحياً » في المنام او بالهام « من وراء حجاب » بأن يسمعه ولا يراه « او يرسل رسولاً » ملكاً كجبريل « فيوحى » الرسول الى المرسل اليه ان يكلمه ما يشاء الله . « وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا » يعني ما اوحى اليه وقيل جبريل ارسلناه اليك بالوحي . « ولكن جعلناه » الروح او الكتاب او الايمان ، والافضل الكتاب حسب سياق المعنى . « وانك لتَهْدِي » وفي قراءة اخرى « لتَهْدِي » .

(٢) « من كتاب » يعني جميع الكتب المنزلة قبله (البيضاوي) .

موضوع ايماننا المشترك) . وكذلك « انزلنا اليك الكتاب (فالقرآن هو الكتاب الذي نزل من قبل) : فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء (اهل مكة) من يؤمن به ، وما يجحد بآيتنا الا الكافرون (مشركو العرب) . . . بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم (اليهود والنصارى) وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » (٤٥ - ٥٠) . في آخر عهده بمكة يتحقق محمد ان اليهود والنصارى وبعض العرب الذين انضموا اليه متفقون على وحدة الكتاب ووحدة الوحي ووحدة الايمان ووحدة الدين ، وما جحد بالقرآن الا كفار مكة الظالمون . فكما انزل الله الكتاب من قبل نوراً يهدي به انزله اليوم واوحى منه الى محمد ، واهل العلم بالكتاب شهداء على ذلك .

وهكذا كانت الدعوة الاسلامية في مكة كتابية من كل نواحيها .

كانت كتابية في مصدرها .

فالقرآن يعتبر ذاته نسخة عن الكتاب بلسان عربي مبين : « إن هذا (القرآن) لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى » (الاعلى ١٨ و ١٩ ، النجم ٣٧ ، طه ١٣٣ ، شعراء ١٩٢) ؛ كل الآيات التي نقلناها تدل على أنه كان يهتدي بالكتاب المقدس ويهدي به (شورى ٥٢ ، عنكبوت ٥٠) .

كانت كتابية في موضوعها .

فالقرآن يدعو الى الايمان بالله واليوم الآخر ، اولا ببنداءاته ثم بقصصه . يأمره وحيه ان يقتدي بهدى الكتاب وأهله (انعام ٩٠) . ويصرح بما لا يقبل الشك ان إمام القرآن كتاب موسى (أحقاف ١٢ ، هود ١٧) . ويعلن بأجلى بيان ان القرآن تصديق الكتاب وتفصيله (بونس ١٧ ، أنعام ١١٤) .

كانت كتابية في طريقتها .

أي كانت دعوى دينية اجتماعية . مزج محمد الاصلاح الاجتماعي بالديني، لا بل كان الاصلاح الاجتماعي سبيلاً الى الاصلاح الديني . كما كان يركز قبله في سورية الارامية يوحنا فم الذهب وأفرام السرياني أو السوري . بدأ محمد كرازته مثل الانجيل . « بدأ يسوع يطوف القرى كلها يبشر قائلًا : توبوا فقد اقترب ملكوت الله » كذلك القرآن : « إنَّ الى ربك الرجعى » (علق ٨) « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » (اعلى ١٦) . وكما بدأ الانجيل شريعته على الجبل بتطويب المحرومين والدعاء بالويل على الاثرياء الفاسقين : « طوبى لكم أيها المساكين ! طوبى لكم أيها الجياع ! طوبى لكم أيها الباكون ! ولكن ويل لكم أيها الاغنياء ! ويل لكم أيها المشبعون ! ويل لكم أيها الضاحكون » (لوقا ف ٨ ع ٢٠ - ٢٦) كذلك كانت كرازة محمد في مطلعها : ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده » (همزة ١ و ٢) « فأما اليتيم فلا تقهر ! وأما السائل فلا تنهر » (الضحى ٩ و ١٠) « أرايت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » (ماعون ١ - ٤) وما تنفع صلاة الفاشين الوزن والكيل « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون، ويمنعون الماعون » (٥ - ٧) « فويل للمطففين الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، (المطففين ١ - ٢) . ومن الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي ارتقى الى الدعوة للاصلاح الديني، ومن الكرازة باليوم الآخر وعداً ووعداً انتقل الى تعليم التوحيد .

كانت الدعوة الاسلامية كتابية في قصصها .

والقصص القرآني طريقة خاصة بمحمد حاول بها الاقتداء بأمثال الانجيل، ونقل أخبار الانبياء الاولين وهي تملأ القسم الثاني من السور المكية : « ولأخبار القرآن أمثلة تقابلها في التوراة خلا بعض الانبياء الذين قصتهم عزبية محضة، كذلك عاد وثمود ولقمان وأصحاب الفيل وخلا قصتين ترمزان الى الاسكندر

(١) كل آلة وزن وكيل .

والى اصحاب الكهف^١ . وهكذا تعليمة وأخباره واسلوبه كتابي بلسان عربي مبين .

وكانت الدعوة القرآنية كتابية في جدها .

حجة محمد على صحة رسالته وصدق نبوءته من اعجاز القرآن، موقوتة عابرة ظهرت في اواخر العهد بمكة ولم تتعدَّ سورة البقرة (يونس ٣٨، هود ١٣، إسراء ٨٨، بقره ٢٣). أما استشهاد القرآن بأهل الكتاب وشهادتهم له على صحة تعليمة التوحيد فهي من أول سورة الى آخر سورة . وكفى بما نقلناه في هذا البحث دليلاً . حتى ان محمداً نفسه يؤمّر ان يستظمن عن صحة تعليمة وإيمانه ووحية لدى أهل الكتاب : « فإن كنت في شك مما اوحينا اليك فسنل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك : لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين » (يونس ٩٤) .

وهكذا « فمن البيّن انه كان في ظل المؤثرات اليهودية والنصرانية . ويؤكد هذا فكرة التوحيد والوحي نفسها والعناصر الكثيرة التي تعود الى الكتاب المقدس عن طريق غير مباشر^٢ » .

ثم كانت الهجرة الى المدينة، ذلك الانقلاب الشامل الكامل :

انقلاب في الدعوة، فقد دخلت السياسة الدين !

انقلاب في الداعية، الذي اصبح رجل دولة وحروب !

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ج ١ ص ١٧٣ .

(٢) برنار لويس : العرب في التاريخ - راجع في تاريخ العرب ج ١ ص ١٧٣ موجزاً للمواضع التي أخذ فيها القرآن عن الكتاب مباشرة : « العبارات التي تتوازي في الكتابين المقدسين... والآيات حيث النشابه صريح... والامثال السامية الواحدة . واكثر الامثلة على التوازي بين الكتابين هي بين انجيل متى والسور المكبة » .

انقلاب في طريقة الدعوة، لقتال المشركين حتى يؤمنوا، والكتابين حتى
يخضعوا للجزية!

انقلاب في الاسلوب، كان «بالحكمة والموعظة الحسنة» فصار بالقتال والجهاد!
لقد دخلت السياسة الدعوة الاسلامية فغيرت في موقفها من أهل الكتاب
لقد أمل محمد ان يجد بهجرته الى المدينة، نصرةً عند يهودها لوحدة التوحيد
بينه وبينهم، فينتصر بهم على قريش فيدينوا بالاسلام عنوةً واقتداراً بعد ان
رفضوه اختياراً. فشمع اليهود ان النبي يريد ان يستعلي عليهم، وخشوا خطره
فرفضوا اتباعه والاعتراف به فوقعت الواقعة بينه وبين انصار الامس
أصحاب الدعوة الواحدة.

لقد جمعهم الدين ففرقهم السياسة. وان السور المدنية لتصف لنا تطور
الاستقلال الاسلامي الذاتي، فالانفصال «الطائفي»^١.

(١) نجد في السور المكية بعض آيات مدنية زيدت عليها بقصد او بدون قصد من
زمن متأخر لتظهر ان استقلال محمد الديني عن اهل الكتاب كان منذ اول العهد في مكة.
ليس الأمر كذلك. فما أورفناه سابقاً يؤكد بأن توحيد القرآن كان في مكة كتابياً
عضواً لا حنيفياً. وما تحول التوحيد الكتابي في القرآن حنيفياً الا في المدينة بعد ان
اصطدم محمد مع اليهود فاستقل عنهم بانشاء «ملة وسط» على طريقة الحنفاء، وقد كان
هؤلاء عمرباً موحدين تأثروا بالتوحيد الكتابي فتركوا الوثنية والشرك واعتنقوه ولكن لم
يعملوا بشرع التوراة أو الانجيل بل ظلوا مواظبين على عادات بلادهم.

وتلك الآيات الزائدة على السور المكية في العهد المدني هي: ١ - «وأمرت ان اكون
من المؤمنين (زادوا عليها) وأن اقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين»
(يونس ١٠٥) انها زائدة لمعارضتها الآية ٩٤ التي تحيل النبي الى اهل الكتاب ليطمئنوه
على صحة وحيه. ٢ - «قل اني هداني ربي الى صراط مستقيم (زادوا عليها) ديناً قيماً
ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (انعام ١٦٢) فالزيادة ظاهرة من تغيير
الاعراب ومن معارضة الآيات ١٤٤ - ١٥٢ و ١١٥ و ٩٠ حيث يؤمر بالاعتناء بهدى الكتاب
واهله. ٣ - «ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»
(نحل ١٣٢) : كل النص المجاور من المدنية بروحه ومعناه. ٤ - «فاقم وجهك للدين
حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها، ذلك الدين القيم» (روم ٣٠) انها زائدة لانها
تقطع سياق الحديث مثل الآيات ٣٨ و ٣٩.

لقد ظلوا متفقين في عقيدة التوحيد، وتميز محمد عنهم في الشريعة والمنهاج .

ففي سورة البقرة يظهر استقلال النبي العربي عن اهل الكتاب بإنشاء « ملة وسط » . ليست الملة شيئاً فالأصل التوحيد : « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كانوا هوداً أو نصارى ! - تلك امانيتهم ! قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . بل من اسلم وجهه لله^١ وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١١١ و ١١٢) . فالخلاص في التوحيد وليس في ملة بعينها ؛ لذلك له الحق ان يستقل عنهم ، لا بل يجب عليه ذلك : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ! - قل ان الهدي هدى الله ، ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ، ما لك من الله من ولي ولا نصير » (١٢٠) . والافضل اذن ان يتبع ملة ابراهيم التي يتبعها حنفاء زمانه^٢ مسمين اياها « الحنيفية » : « وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا ! - بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (١٢٥) . فابراهيم والآباء والاسباط كانوا موحدين قبل نزول الانجيل والتوراة (١٤٠) فيحق لمحمد وقومه كما يقول الحنفاء ان ينتسبوا هم ايضاً الى ابراهيم مباشرة وان يستقلوا عن اهل الكتاب . « وكذلك جعلناكم امةً وسطاً^٣ لتكونوا شهداء على الناس

(١) من هنا اشتقت لفظه « الاسلام » ويتبين لنا ان معناها الاصلي « التوحيد » . كما جاء ايضاً في الانبياء : « قل انما يوحى الي انما الحكم واحد فهل انتم مسلمون » (١٠٨) يقترن الاسلام بالتوحيد لفظاً ومعنى . ويوضحه في موضع آخر « اخلص دينه لله » (نساء ١٤٥) .

(٢) « وتشير الاخبار الاسلامية الى قوم يسمون بالحنفاء : وهم مكيون وثنيون (في الاصل) لم يقنعوا بعبادة الاصنام السائدة بين قومهم وبجئوا عن صورة من الدين اطهر ولكنهم كانوا غير راغبين في اعتناق اليهودية او النصرانية . وقد يكون من الصحيح ان نبعث بينهم عن اصول محمد الروحية » (العرب في التاريخ ص ٥٠) .

(٣) « امة وسط » اي خياراً او عدولاً مزكّين بالعلم والعمل . وهو في الاصل اسم المكان الذي يستوي اليه المساحة من الجوانب، ثم استعمل لخصال الحميدة لوقوعها بين طرفي

ويكون الرسول عليكم شهيداً» (١٤٣) وتم الاستقلال باختيار يوم الجمعة للصلاة، وبتغيير القبلة، شعار الدين والمِلَّة: «ولئن اتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما اتبعوا قبلك وما انت بتابع قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض! ولئن انبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين» (١٤٥). فسبب الانشقاق «الاهواء» التي عصفت بالقوم! مع ذلك فالاستقلال في الملة ليس انفصالاً في الدين وعقيدة التوحيد لانه «لكلّ وجهة» هو مولتيها، فاستبقوا الخيرات» (١٤٨)١. ولان الاصل الاساسي الجامع هو الايمان بالله واليوم الآخر: «ليس السبّ أن تولتوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن السبّ من آمن بالله واليوم الآخر» (١٧٧). وهذا الاساس هو واحد عند الجميع.

في سورة آل عمران، بعد واقعة بدر وانتصار المسلمين، يتمكّن الاستقلال عن أهل الكتاب باعتراف الحنيفية القومية العربية. في هذه الفترة يسمي التوحيد الحنيفي «اسلاماً» والموحدين «مسلمين» ويصير ابراهيم، جدّ الموحدين، «حنيفاً مسلماً».

ليس الدين مقصوراً على اليهود والنصارى بل الدين القيم هو الاسلام لله بتوحيده: «شهد الله أنه لا إله الا هو، والملائكة، وأولو العلم، قائماً بالقسط»٢

افراط وتفريط. ثم اطلق على المتصف بها، مستويافيه الجمع والواحد والمذكر والمؤنث كسائر الاسماء التي وصف بها «(البيضاوي)». «وسطاً: خياراً وهي صفة» بالاسم الذي هو وسط الشيء». وعندني ان تلك الامة صارت وسطاً لتوسط دينها بين الكتابيين والمشرّكين العرب، فأخذ عن اهل الكتاب عقيدتهم في التوحيد، وعن العرب عوائدهم في الشرائع، كالخنفاء.

(١) «ولكلّ وجهة» قبلة اي لكل امة قبلة. وعادته تعالى تخصيص كل شريعة بقبلة (عن البيضاوي).

(٢) «قائماً بالقسط»: وانتصابه على الحال من الله او من هو العامل فيها معنى الجملة، أو المدح. وقريء «القائم بالقسط» على البدل من هو أو الخبر المحذوف (البيضاوي)

لا إله الا هو العزيز الحكيم : ان الدين عند الله الاسلام ! وما اختلف الذين
أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيراً بينهم، (آل عمران ١٨ و ١٩)^١ .
لم يختلفوا في العقيدة بل اختلفوا في التشريع والاحكام المفروضة بالتوحيد
الكتابي فيقول : « فإن حاجتك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني » (٢٠)
لا بل التوحيد وحده يكفي : « وقل للذين اوتوا الكتاب والامين (الذين لا
كتاب لهم كمشركي العرب) أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ؛ وإن تولوا
فإنما عليك البلاغ » (٢٠) . كيف تخالفون يا أهل الكتاب، وقد اتفق الانبياء
على اسلام التوحيد : « فالمسيح كان مسلماً والحواريون تلاميذه كذلك » (٥٢ و ٥١)
وابراهيم أيضاً كان حنيفاً مسلماً : « يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما
أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ؟ ما كان ابراهيم يهودياً ولا
نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين » (٦٤-٦٧) . -
في السور المكية كان ابراهيم من المؤمنين فقط فصار في سورة البقرة
حنيفاً (١٣٥) وأمسى في آل عمران مسلماً (٦٧) . - لذلك فمحمد والحنفاء

وعندي انه خبر لمحذوف (من كان منهم قائماً بالقسط) وهو بدل من « اولو العلم » اي
اهل الكتاب الذين لا يقتلون الذين يأمرون بالقسط (ايه ٢١)، ولا يوصف الله أو الملائكة
بالعدل لانه من خصائصهم المفروضة .

(١) « إن الدين عند الله الاسلام » بدل من « شهد الله انه لا اله الا هو » وهكذا
يكون الاسلام بشهادة التوحيد لا غير ؛ هذا حسب النص القاطع . الا انهم يتوسعون فيها .
قال البيضاوي « إن الدين... جملة مستأنفة مؤكدة للأولى (شهد) اي لا دين مرضي عند الله
سوى الاسلام وهو التوحيد والتذرع بالشرع المحمدي » . وقرأ الكسائي بالفتح (أن) على انه
بدل من (أنه) : بدل الكل أن فسر الاسلام بالايان أو ما يتضمنه، وبدل الاشتغال أن فسر
بالشريعة . فائدة هذا التوكيد ان قوله لا اله الا هو توحيد وقوله قائماً بالقسط تعديل فإذا
اردفه : ان الدين... فقد اذن ان الاسلام هو العدل والتوحيد وهو الدين عند الله «
(الزمخشري) . « وما اختلف الذين اوتوا الكتاب » على م اختلفوا ؟ من سياق الآيات (١٨
و ١٩) يظهر انهم خالفوا النبي على ان الاسلام هو التوحيد لا غير : « اختلف الذين اوتوا
الكتاب من اليهود والنصارى أو من أرباب الكتب المتقدمة في دين الاسلام فقال قوم انه
حق وقال قوم انه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون مطلقاً » (البيضاوي) .

الذين يأتون به مباشرة والمسلمون اولى بابراهيم من اليهود والنصارى « إن
اولى الناس بابراهيم الذين اتبعوه (الحنفاء) وهذا النبي (محمد) والذين آمنوا
(المسلمون) والله ولي المؤمنين » (٦٨) ١ . فالتوحيد وحده هو دين الله لا دين
غيره : « أفغير الله يبغون وله أسلم من في السموات والارض طوعاً وكرهاً
وإليه يرجعون » (٨٣) . هكذا آمن الانبياء جميعهم وعلموا (٨٤) « فمن يبتغ
غير الاسلام (التوحيد) ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ٢ »
(٨٥) ، « قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين (٩٣) قل صدق الله
فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (٩٥) .

وهكذا استقر محمد على « ملة ابراهيم » اي الحنيفية ، متخطياً عيسى
وموسى ليتصل مباشرة بجده الموحدين . وهكذا جاء الاسلام « ملة وسطاً »
بين الذين اتوا الكتاب والاميين (آل عمران ٢٠) فكان على مثال ابراهيم
حنيفاً ، وما كان يهودياً ولا نصرانياً في شرعه ، وما كان من المشركين (٦٧) .

في سورة النساء وما يليها يتم الانفصال عن اهل الكتاب ويظهر الرسول
افضلية الاسلام اي الحنيفية الابراهيمية على سائر مِلل التوحيد . اجل كل
موحد صالح يخلص : وقد تفاخر المسلمون واهل الكتاب في ضرورة ملة
كل منهم للخلاص فأجاب القرآن : « ليس بأمانيتكم ولا امانى اهل الكتاب !
من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ؛ ومن يعمل
من الصالحات من ذكر او أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون
نقيراً » (١٢٢ و ١٢٣) . ولكن أفضل الموحدين من اتبع ملة ابراهيم حنيفاً :

(١) هكذا فهمنا الآية ٦٨ من آل عمران بخلاف التفسير المتبع في الجلالين والبيضاوي
وهو يتعارض مع الآية ٦٧ .

(٢) « ومن يبتغ غير الاسلام » يعني التوحيد واسلام الوجه لله تعالى (الزنجشري) .

« ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً، واتخذ الله ابراهيم خليلاً » (نساء ١٢٥) .

فطلبوا منه البيّنة على هذه الافضلية « لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيّنة » (بيّنة ١) والبيّنة التي يطلبون « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيّمة » (٢ و ٣) اي نبي يتلو الكتاب فيؤمن به ويعمل بموجبه . فيجيب، لقد جاءتهم بيّنة ما في الصحف الاولى، صحف ابراهيم وموسى : « وما تفرّق الذين اتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البيّنة » المطلوبة (٤) . وهي في كتابهم ان التوحيد وحده هو الدين القويم : « وما أمرنا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين، حنفاء، ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (٦) .

كان الاسلام في مكة توحيداً كتابياً محضاً، فأمسى في المدينة توحيداً قومياً عربياً على طريقة الحنفاء^١ . وهذا التوحيد الحنيفي في المدينة ظلّ كتابياً في جوهره كما كان في مكة، ولم يتغيّر فيه الا التشريع^٢ . فبينما كان في مكة ينحو منحى الشريعة الكتابية أخذ في المدينة يُهمل أحكام الانجيل والتوراة، ويتقرب من شرائع قومه مع صبغها ودججها بالتوحيد كما كان يفعل الحنفاء . في سورة النساء يبيّن في آيتين متتابعتين اقتفاء القرآن سنن الكتاب ثم العدول عنها ليخفف عن قومه : « يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم... يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً » (٢٥ - ٢٧) . فالتخفيف عن

(١) « أخذ الاسلام نفسه يتطور . فقد بدأ محمد ينشر ديناً جديداً بصفته خاتم النبيين . وأصبح الدين الجديد عربياً بكل ما في الكلمة من معنى » . (العرب في التاريخ ص ٥٨)

(٢) « وقد زادت الامة في العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في بلاد العرب قبل الاسلام ولم تبطلها : احتفظت بنفس الاحكام السارية قبل الاسلام في مسائل الملكية والزواج والصلوات بين أفراد القبيلة الواحدة » (العرب في التاريخ ص ٥٦) .

قومه في الشرائع والاحكام الكتابية هو سبب الخلاف بين محمد وأهل الكتاب وليس الايمان بالله واليوم الآخر^١.

فالقرآن في المدينة صريح كل الصراحة كما كان في مكة على وحدة التوحيد فيه وفي الكتاب من سورة البقرة (١٣٦) الى آل عمران (٨٤) الى النساء (١٣٥) كما رأينا. وهو وان لام اهل الكتاب على غلوهم في الدين، بتعبدهم للملائكة والنبين، يشهد بأنهم مع ذلك مسلمون: «ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبين أرباباً! أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون؟!»، (آل عمران ٢٨٠) يشهد أن أهل الكتاب، والربانيين منهم الذين يدرسون الكتاب ويعلمونه للناس (آل عمران ٧٩) في حال خطابه لهم، هم مسلمون. وعندما حاول محمد أن يدعوهم الى الاسلام أجابوه بأنهم مسلمون من قبله: «الذين آتيناكم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. واذا يُتلى عليهم، قالوا: آمنا به، انه الحق من ربنا! إنا كنا من قبله مسلمين» (قصص ٥٢ و ٥٣) أي موحدين^٤ فذلك يدل على ان ايمانهم به ليس مما احدثوه حينئذ بل هو أمر تقادم عهده لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة وكوتهم على دين الاسلام قبل نزول القرآن» (البيضاوي).

(١) كما سترى تفصيل ذلك فيما بعد.

(٢) الخطاب في آل عمران ٨٠ لاهل الكتاب كما يتضح من سياق الحديث كله، ومن النص السابق «ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» ٧٩، بخلاف ما زعم البيضاوي والزحشري انه خطاب للمسلمين، ليعطل هذه الشهادة القيّمة عن اسلام اهل الكتاب.

(٣) قصص ٥٢ و ٥٣ «نزلت في مؤمني أهل الكتاب، والضمير في (من قبله) للقرآن. (انه الحق من ربنا) استئناف لبيان ما أوجب ايمانهم به. (إنا كنا من قبله مسلمين) استئناف آخر للدلالة على ان ايمانهم به ليس مما احدثوه حينئذ وانما هو أمر تقادم عهده لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة وكوتهم على دين الاسلام قبل نزول القرآن أو تلاوته عليهم باعتقادهم صحته بالجملة» (البيضاوي).

(٤) «مسلمين» أي موحدين (الجلالان).

ويشهد القرآن في آخر عهده أن الاسلام الذي يكرز به انما هو في الكتب المتقدمة : «وجاهدوا في الله حق جهاده : هو اجتباكم، ميّلة أبيكم ابراهيم ! هو سماء المسلمين من قبل وفي هذا» : من قبل في الكتاب المقدس ، وفي هذا القرآن (الحج ٧٨) ؛ فمعنى «الاسلام» موجود في الكتاب قبل القرآن ؛ لا بل اسم «الاسلام» ذاته حسب نص القرآن القاطع موجود في كتاب اليهود والنصارى قبل كتاب المسلمين : فالله مع ابراهيم الخليل سمي الموحدن مسلمين في التوراة والانجيل قبل القرآن :

قل : « هو سماء المسلمين من قبل وفي هذا » (الحج ٧٨) .

(١) هو سماء المسلمين من قبل : من قبل القرآن في الكتب المتقدمة (وفي هذا) وفي القرآن والضمير لله - وقرئ : الله سماءكم - أو لبراهيم . وتسميتهم مسلمين في القرآن ، وان لم يكن منه ، كان بسبب قوله « امة مسلمة لكل » - البيضاوي .

هل نسخ القرآن الانجيل والتوراة؟

« ما ننسخ من آية او ننسخها نأتِ بخير منها او مثلها »
(بقرة ١٠٦)

لقد شاع بين المسلمين رأي بأن القرآن نسخ الكتاب اي ابطله، كما نسخ الانجيل، التوراة من قبل . فهؤلاء القوم يقولون بنسخ كتاب بكتاب، ودين بدين، وشريعة بشريعة .

هذا الزعم لا اساس له في الانجيل، ولا اساس له في القرآن .

في الانجيل، يقول السيد المسيح صراحة في اعلان شريعته على الجبل :
« لا تظنوا اني جئت لانقض الناموس او الأنبياء : ما جئت لانقض بل لأكمل ! الحق اقول لكم، انه الى ان تزول السماء والارض لا يزول من الناموس ياء ولا نقطة حرف حتى يتم الكل » (متى ٥ : ١٧) .

وقد فسّر القديس بولس في رسالته الى الرومانيين (روم ٢ : ١٤ - ١٦)
والى العبرانيين (عب ٨ : ١٣) معنى هذا التكميل : فالعقيدة واحدة، والشريعة الحالدة واحدة قد طبعها الله في طبيعتنا قبل ان يُنزلها على موسى في الألواح . فإذا ما الأمم الذين ليس عندهم ناموس عملوا طبيعياً بما هو في الناموس، فهؤلاء الذين ليس عندهم ناموس هم ناموس لأنفسهم إذ يُظهرون أن ما يفرضه الناموس مكتوب في قلوبهم، وضميرهم يشهد . (روم ٢ : ١٤) . ولكن هناك بعض الاحكام الثانوية المرتبطة بزمان ومكان فهي عرضة للتحوّل

والتطور والتكميل ليس من قبل المشرع الالهي بل على ما يقضي رقي البشرية وحاجتها على مدى العصور : وليس هذا من النسخ في شيء .

والقرآن الكريم يجهل قضية نسخ دين بدين جهلاً تاماً . لا بل كلفه، روحاً ونصاً، ينفي تلك البدعة المسندة إليه .

ينكر اولاً نسخ عقيدة التوراة والانجيل .

فالقرآن يعلم ان عقيدة الكتاب والقرآن الجوهريّة، اي التوحيد، هي واحدة فكيف ينسخها ؟ كل انبياء الله قد كرزوا بالتوحيد : « وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون » (انبياء ٢٥) ولا يوحى الى محمد الا التوحيد : « قل انما يوحى اليّ انا افكم واحد، فهل انتم مسلمون » ؟ (انبياء ١٠٨) فكيف يمكنه ان ينسخ هذا التعليم ؟ والمسلمون يؤمنون بالكتاب كله (آل عمران ١١٩) بالذي أنزل اليهم والذي أنزل الى اليهود والنصارى (عنكبوت ٤٦) فكيف ينقض الوحي بعضه بعضاً ؟ ويعلن مراراً أنه لا يفرق بين احد من رسل الله، ونحن له مسلمون^١ (بقره ١٣٦ و ٢٨٥، آل عمران ٨٤، نساء ١٦٣) فكيف يُبطل نبياً ويعطل دعوته ؟ والدين عند الله الاسلام، من نوح الى محمد : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً – والذي اوحينا اليك – وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (شوري ١٣) فكيف يجسر أحد بعد هذا التصريح وغيره أن يقول بأن القرآن أو الاسلام نسخ ما قبله ؟ من أين تراهم جاؤوا بهذه البدعة ؟

(١) « ونحن له مسلمون » : موحدون، مخلصون انفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتها .
« ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » (آل عمران ١٩ ثم ٨٥) يعني « التوحيد واسلام الوجه لله تعالى » الزمخشري .

والقرآن يأمر بالايان بالكتاب فكيف ينسخه؟ يطلب ايماناً واحداً
 بالكتابين « يا ايها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على
 رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبله ومن يكفر بالله وملئكته وكتبه
 ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » (نساء ١٣٥) فكيف يجوز ان
 ندعي بأن القرآن قد أبطل الكتاب؟ ويعلن ايماناً واحداً بجميع الانبياء
 (آل عمران ٨٤) فكيف ندعي انهم يدحض بعضهم بعضاً؟ ويجعل الايمان
 بالتوراة والانجيل وانبيائهما ركناً من اركان الاسلام: « ليس البر ان تولوا
 وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر
 والملائكة والكتاب والنبين » (بقره ١٧٧) فكيف نقول ان الاسلام نسخ
 ما قبله؟! وكيف يأمر القرآن بالايان بما ينسخه ويبطله ويلغيه??

والقرآن تصديق الكتاب فكيف ينسخه؟ « لقد جاءهم كتاب من الله
 مصدق لما معهم » (بقره ٨٩) « وهو الحق مصدق لما معهم » (٩١ و ٩٧)
 فكيف ينسخ ما جاء تصديقاً له؟ « الله الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق
 مصدقاً لما بين يديه (قبله) وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس »
 (آل عمران ٣) فهل بطل هذا الهدى وقد جاء القرآن ليصدقه؟ ما هذه البدعة
 التي تفتري على القرآن نقيض ما يعلم صراحة؟ ان امامه في الهدى كتاب موسى
 وهو تصديق له: « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق
 لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » (احقاف ١٢) فكيف
 ينقض القرآن هدى امامه وهو يصدقه؟! من خصائص الكتاب إمامته
 للقرآن، ووظيفة القرآن تصديق الكتاب إنذاراً للعرب المشركين وبشرى
 للكتابين المحسنين: فكيف تنقض النسخة الاصل؟ وفي سورة المائدة نظرية
 القرآن النهائية في علاقة الانجيل بالتوراة وعلاقة القرآن بهما: يصدق بعضها
 بعضاً ويشهد بعضها لبعض: « وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور، ومصدقاً لما
 بين يديه (قبله) من التوراة... وأنزلنا اليك (يا محمد) الكتاب بالحق مصدقاً
 لما بين يديه (قبله) من الكتاب ومهيماً عليه » (٥٠ - ٥٢) . فالقرآن

رقيب للكتاب، شاهد للتوراة والانجيل، فكيف ينسخها؟ حقاً انها لفِريّة
كبيرة تلك القولة المشؤومة!!

والقرآن تفصيل الكتاب فكيف ينسخه؟ « ما كان هذا القرآن ان يُفترى
من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه (قبله) وتفصيل الكتاب، لا
ريب فيه، من رب العالمين » (يونس ٣٧) « جاء تصديقاً أي مطابقاً لما تقدمه من
الكتب الالهية المشهودة على صدقها، ولا يكون كذباً! كيف لا وهو لكونه
معجزاً دونها، عيار عليها، شاهد على صحتها. وتفصيلاً للكتاب أي تفصيل ما
أثبت وحقق من العقائد والشرائع » (البيضاوي)؛ ان رب العالمين يفصل في
القرآن عقائد وشرائع الكتاب، فكيف نقول انه ينقضها؟ يقول القرآن
عن نفسه انه تفصيل الكتاب للعرب: « أفغير الله ابتغي حكماً وهو الذي
أنزل اليك الكتاب مفصلاً » (انعام ١١٤) فكيف نفتري عليه ونقول انه
ينسخه؟ إنها مقالة سوء يقصد بها باطلا!

اصول الدين والتوحيد هدى ابدأ لا تنسخ على الاطلاق^١.

ينكر القرآن ثانياً نسخ شريعة الانجيل والتوراة.

قالوا لم ينسخ القرآن عقيدة الكتاب بل شريعته. كلا! بل نقل للعرب
حسب رأيه شريعة الكتاب: « شرع لكم من الدين^٢ ما وصى به نوحاً -

(١) قال الزمخشري: « اولئك الذين هدى الله فبهدهم اقتده^٣: المراد بهدهم طريقتهم
في الايمان بالله وتوحيده واصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة، وهي هدى ما لم تنسخ
فإذا نسخت لم تبق هدى. بخلاف اصول الدين فانها هدى ابدأ » (انعام ٩٠).

(٢) الدين بمعنى التوحيد (الجلالان) قد سبق الاستشهاد بها. والدين بمعنى الشرع هنا
« أي شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد ومن بينهما من ارباب الشرع، وهو الاصل المشترك
فما بينهم المفسر بقوله (أن أقيموا الدين) وهو الايمان بما يجب تصديقه والطاعة في احكام
الله. (ولا تتفرقوا فيه) ولا تختلفوا في هذا الاصل. أما فروع الشرع فتختلف كما قال:

والذي أوحينا إليك - وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، (شورى ١٣) فكيف يُبطلها؟ لقد شرع لجميع الأنبياء شريعة واحدة وأمرهم أن يقيموها ويعملوا بها، ولا يتفرقوا فيها، فكيف نزعهم أن القرآن ينقض شريعة من تقدمه؟ يعلن القرآن عن نفسه أنه يهدي العرب إلى سنن أهل الكتاب « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم، (نساء ٢٥) ١ فكيف يهدي القرآن إلى شرائع الأنبياء وندعي أنه ينسخها؟

والقرآن يأمر أهل الكتاب بالعمل بما في أحكام كتابهم، فكيف نقول إنه ينسخها؟ يأمر أهل التوراة أن يحكموا بما أنزل الله فيها: « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور... ومن لم يحكم بما أنزل الله فيها فأولئك هم الكافرون، (مائدة ٤٧) فهل ناقض الله نفسه ونسخ هذا الأمر؟ وأين؟ ثم يأمر أهل الانجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه: « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه، (مائدة ٥٠) فهل سنّها الله وأبطل أمره؟ ويؤكد القرآن أمره: « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل ٢ وما أنزل اليكم من ربكم، (مائدة ٧٢) . ويرغبهم في العمل بأحكام كتابهم: « ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، (مائدة ٦٩) - ألا تناقض نظرية النسخ تعاليم القرآن كلها??

ليس في تعليم القرآن نسخ شريعة بشرية . بل كما فسّر الزمخشري والبيضاوي سورة الشورى (آية ١٣) والمائدة (آية ٥١) والانعام (٩٠):
يُعلن وحدة الأصل في الدين والشريعة، مع الاستقلال والاختلاف في فروع

« لكل جعلنا شريعة ومنهاجاً » (البيضاوي): يعلم وحدة الأصل في الشريعة بين جميع الكتب واختلاف الفروع .

(١) نساء ٢٥ طرائق الأنبياء في التعليل والتعريم (الجلالان) .

(٢) إقامة التوراة والانجيل هي العمل بما فيها (مائدة ٦٩ و ٧٢) كما فسره الجلالان .

الشرع^١ . وهذا الاختلاف في الفروع الشرعية لا ينقض وحدة الاصول فيها
وكم بالاحرى وحدة التوحيد .

يقول القرآن في اول العهد بالمدينة بعد تغيير القبلة في الصلاة، وهي عنوان
تغيير المذهب والملة : « ولكل وجهة هو موليها : فاستبقوا الخيرات »
(بقرة ١٤٨)^٢ . لكل امّة من الموحدين قبلة في صلاتهم ولا هم الله اياها ليتسابقوا
في عمل الخير والصلاح : فلا تنسخ قبلة قبلة !

وفي منتصف العهد يصرّح : « لكل امّة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله
على ما رزقهم من بهيمة الانعام، فإلهكم اله واحد فله أسلموا » (الحج ٣٤)^٣
يقول : « لكل جماعة مؤمنة سلفت قبلكم جعلنا ذبجاً وقرباناً (أو مكان ذبح
وقربان) ليذكروا اسم الله عند ذبجها، فإلهكم اله واحد فله أسلموا » فتنوع
طرائق العبادة لا يعتبره القرآن اختلافاً في التوحيد ! فلا تنسخ ضحية ضحية !

ويقول ايضاً : « لكل امّة جعلنا منسكاً هم ناسكوه : فلا يُنازعنك في
الامر » (حج ٦٧) اي « لكل امّة جعلنا شريعة هم عاملون بها فلا تنازعنهم
في الامر، وادعُ الى دين ربك انك لعلي دين مستقيم » (الجلالان) فاختلف
الشريعة لا يعني اختلاف التوحيد حتى ولا نسخ الشريعة السابقة .

وفي آخر العهد بالمدينة، يقر اهل التوراة على دينهم (مائدة ٤٦) واهل
الانجيل على حكم كتابهم (٥٠) واهل القرآن على تشريعه (٥١) ويختم بقوله :
« لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم امّة واحدة . ولكن ليبلوكم
في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات، الى الله مرجعكم جميعاً » (٥١) فسره الجلالان :

(١) راجع تفسيرهم للآية ١٣ من سورة الشورى كما سبق، والآية ٩٠ من الانعام،
او الآية ٥١ من المائدة .

(٢) الجلالان : ولكل من الامم قبلة هو موليها وجهه في صلاته، فبادروا الى الطاعات
وقبولها « والبيضاوي : « والمعنى : وكلّ وجهة الله موليها اهلها » .

(٣) راجع الجلالين . قال البيضاوي : « لكل اهل دين جعلنا منسكاً متعبداً او قرباناً » .

« لكل جعلنا منكم ايها الامم شريعة وطريقاً واضحاً في الدين تمشون عليه ولو شاء الله لجعلكم على شريعة واحدة ولكن فرقكم فرقاً ليختبركم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة، لينظر المطيع منكم والعاصي، فسارعوا الى الخيرات .
وهكذا فقد أقرّ القرآن كلّ امة من امم التوحيد على شرعها المختص بها وهذا الاختصاص بشرع مختلف لا ينقض وحدة الشريعة الاصلية ، ولا وحدة العقيدة الدينية .

فالقول بأن القرآن نسخ شريعة الكتاب^١ فريية على الاثنين : روح القرآن ونصّه يقضيان عليها قضاءً مبرماً : فنظرية القرآن تؤكد وحدة الايمان، ووحدة الشريعة الاساسية، مع اختصاص واختلاف في الاحكام الثانوية لكل من اليهود والنصارى والمسلمين ؛ وقد صرح ببقاء شريعة الانجيل والتوراة ملازمة لاهلها، كما اعلن أن أحكام القرآن لا تلازم سوى أهله^٢ .

والقائلون ببدعة النسخ لا سند لهم سوى آية النسخ هذه : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها : ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير » (بقرة ١٠٦)^٣ . في أسباب النزول : « أخرج ابن ابي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : ربما نزل على النبي الوحي بالليل ونسيه بالنهار فأنزل الله الآية

(١) وهناك قوم من المسلمين يقولون : « شرع من قبلنا شرع لنا » استناداً الى الآية ٤٧ من المائدة - راجع البيضاوي فيها . قال الزمخشري : « وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس : أي لقوم موسى وعيسى ومن قال : نحن متعبدون بشرائع من قبلنا، فسرّه على العموم » .

(٢) وعن الزمخشري : « قيل كان رسول الله ص . مخيراً اذا تحاكم اليه أهل الكتاب بين ان يحكم بينهم وبين ان لا يحكم . وعن عطاء والنخعي والشامي أنهم اذا ارتفعوا الى حكم المسلمين فإن شاوروا حكموا وان شاوروا اعرضوا ؛ وقيل هو منسوخ بقوله : « واحكم بينهم بما أنزل الله » ؛ وعند ابي حنيفة : إن احتكموا اليها حُمِلوا على حكم الاسلام » مائدة ٤٦ .
(٣) للآية ١٠٦ قراءات مختلفة : اثبتنا التي اثبتتها المصحف الاميري .

(ما ننسخ) . قال الجلالان : « لما طعن الكفار في النسخ وقالوا : ان محمداً يأمر اصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غداً نزلت : ومعناها ما نُنزل حكم آية، مع لفظها أو لا، أو نَحْنُها من قلبك، نأت بأنفع منها للعباد في السهولة أو كثرة الاجر . قال البيضاوي : « نزلت لما قال المشركون أو اليهود : ألا ترون الى محمد يأمر اصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه . . . ونسخ الآية بيان انتهاء القيد بقراءتها او الحكم المستفاد منها او بهما جميعاً . » وهكذا نزلت الآية رداً على شكوك المشركين والكتابين والمسلمين في تبديل آي القرآن، والآية صريحة على اقتصار النسخ على آيات القرآن، يقع فيها ومنها وعليها، لا يتعداه الى سواها . وعليه قال السيوطي : « إن النسخ بما اختص به الله هذه الامة . » فنقلوا فكرة النسخ المحصورة في القرآن الى أمم اخرى وعمموها على الكتب المتقدمة ؛ بينما خصها القرآن بآيه فقط .

فلا أساس على الاطلاق في الآية وما حولها من معنى نسخ دين بدين وكتاب بكتاب وشريعة بشريعة . بل بالعكس يلزم القرآن كل امة بالتيقيد بشريعتها ويفرض القرآن على النبي والمسلمين احترام شريعة الانجيل والتوراة واحكامها (مائدة ٤٩ - ٥١) .

وقد يقول قائل ان القرآن كمال النبوة ومحمد خاتم النبيين، وقد تضمن كتاب النبي الأمي « تفصيل الكتاب » كله (يونس ٣٧) فلا حاجة بعده الى نبي او كتاب سابق او لاحق^١ : فهو يكفي وحده . - لقد نسي هؤلاء القوم ان القرآن يعتبر الكتاب المقدس لإمامه (احقاف ١٢) . ومحمد نفسه يعلن انه كان يقتدي بأنبياء الكتاب ويتبع هدايتهم (انعام ٩٠) فكيف يقولون انه ينقض نبوتهم وينسخ رسالتهم ويستغني عن كتبهم ! ويصرح القرآن بأن محمداً

(١) « الايمان بالقرآن يتضمن الايمان بجميع الكتب والرسل » التفسير الكبير للرازي

كان يتبع الكتاب والقرآن على السواء : « قالوا سحران تظاهرا ، وقالوا إنا بكل كافرين ! - قل فأتوا بكتاب من عند الله أهدي منهما اتبعه ان كنتم صادقين ، (قصص ٤٩) ألا يليق بنا ان نقفي اثار النبي العربي فنتبع الكتاب الذي كان إمامه ونقتدي بهدي انبيائه ؟

ونحن هذا البحث بدليل عام على استحالة نسخ القرآن للكتاب ، والاسلام لدين الانجيل والتوراة ، من تصريحات القرآن بأنه « لا مبدل لكلمات الله ، (انعام ٣٤ و ١١٥) بنقض او خلف (الجلالان) . فلا تبديل لوحى الله : « واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك : لا مبدل لكلماته » (كهف ٢٧) ولا تبديل لمواعيد وحيه : « الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا والآخرة : لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم » (يونس ٦٤) قال البيضاوي « لا تغيير لاقواله ولا اخلاف لمواعيده » . كيف يعلن القرآن ان كلام الله لا يبدل ، والانجيل « إنه الى ان تزول السماء والارض لا يزول من التاموس ياء ولا نقطة حرف حتى يتم الكل » ونفتري نحن عليها ببدعة النسخ .

فنسخ دين بدين ، وكتاب بكتاب ، وشريعة بشرية ، ونسخ الاسلام والقرآن للانجيل والتوراة ، إنما هي بدعة مفرضة وفرية مفضوحة لا اثر لها في القرآن الكريم . فالقرآن يهدي بهدي الكتاب وقصصه وسننه (انعام ٩٠ ، نساء ٢٥) ويهدي بها واليه ، فلا ينسخها ولا ينقضها ولا يبطلها ولا يستغني عنها . والنسخ المذكور في القرآن (بقرة ١٠٦) يقتصر على آي القران وحده لا يتعداه الى سواه :

« ما ننسخ من آية او ننسخها نأت بخير منها او مثلها » .

القرآن يشهد بالصحة للكتاب الموجود في زمانه

«الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون به»

(بقرة ١٢١)

أي «يقروونه كما أنزل» (الجلالان)

إنها تهمة شائعة بين الجبهة من المسلمين أن الكتاب الذي بين أيدي اليهود والنصارى محرف: فلا يمكن أن نطمئن إلى صحته. أجل يشهد القرآن للكتاب ولكن لذلك الكتاب الذي نزل على موسى وعيسى، وليس للذي بين أيدي الناس اليوم، أو للذي كان في زمن محمد. فشهادته لا تصدق على التوراة والانجيل في صورتها الراهنة...

أما العقلاء منهم والراسخون في العلم فيقولون معنا بأن القرآن يشهد للكتاب بصحته، وللتوراة والانجيل الموجودين في زمانه بسلامتهما من التحريف.

نجد دليلاً عاماً حيث يقول إنه «لا مبدل لكلمات الله».

(١) راجع مقالة في الإسلام في الذيل المشهور. والمسيحية في الإسلام ص ١٦. والبرازي مع غيره من المفسرين سجل تهمة التحريف «ان كتب سائر الانبياء حرفوها وبدوها ولا سبيل الى معرفة احوالها الا بما انزله الله على محمد ص. فكان ما انزل على محمد كالاصل لما انزل على سائر الانبياء» (آل عمران ٨٣).

(٢) اتخذنا هذه الآيات شاهداً على استحالة النسخ، وهنا نستشهد بها على استحالة التحريف ليس فقط من قبل الله الذي يحفظ كلامه (الحجر ٩) بل من قبل المؤمنين القائمين على حفظ كتاب الله، فالتحريف كفر محض، ولا يجتمع الايمان والكفر على صعيد واحد.

فالقُرآن يُردّد أنه «لا مبدّل لكلمات الله» (انعام ٣٤ و ١١٥، كهف ٢٧، يونس ٦٤) . وقد وردت في (انعام ٣٤) بمعنى لا يخلف الله مواعيده لأنبيائه المرسلين بنصرهم على قومهم الكافرين : أليس حفظ الوحي من ضمن هذا النصر الموعود؟ بتنزيل القرآن تمت كلمة الرب التي لا مبدّل لها: «أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل اليك الكتاب مفصلاً... وتمت كلمت ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدّل لكلماته وهو السميع العليم» (انعام ١١٤ و ١١٥) أي تمت كلمة الله بالأحكام والمواعيد، صدقاً وعدلاً، لا مبدّل لكلماته بنقض أو خُلفاً^١ . فبلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده لا أحد يبدّل شيئاً منها بما هو اصدق واعدل^٢ . لاحظ أن القرآن «كلمت من الرب» وقد سبقت له «كلمات»، وعدم التبديل بالنقض أو الخلف أو التحريف أو النسخ^٣ يشمل كل كلمات الرب : فكلام الله لا يتغير ولا يمكن ان يلحقه تحريف لا معنىً ولا مبنىً . فلا يليق بالله ان يغير وحيه، ولا المؤمن به الحافظ له يستطيع ذلك : «واتل ما اوحى اليك من كتاب ربك : لا مبدّل لكلماته» (كهف ٣٧) فالقرآن وحي من كتاب الله السابق لا يقدر النبي ذاته ان يبدّله، ردّاً على قولهم «ائت بقرآن غير هذا او بدّله» . لانه لا أحد يقدر على تغيير كلمات الله التي أنزلها . فكلام الله لا يلحقه التحريف في الفاظه ولا في معانيه : «الذين آمنوا وكانوا يتشكون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة : لا تبديل لكلمات الله ! ذلك هو الفوز العظيم» (يونس ٦٤) «فلا تغيير لأقوال الله ولا إخلاف لمواعيده» .

(١) الجلالان .

(٢) البيضاوي «صدقاً وعدلاً : نصبها يحتمل التمييز والحال والمفعول له» .

(٣) الجلالان والبيضاوي .

(٤) البيضاوي : «واتل اليك من القرآن ولا نسمع لقولهم : ائت بقرآن غير هذا او بدّله : لا مبدّل لكلماته لا احد يقدر على تبديلها او تغييرها» .

(٥) البيضاوي .

فالتوراة والزبور والانجيل كلام الله فاذا كان كلام الله لا يُبدل على الاطلاق فكيف يمكن ان يتسرب التحريف والتبديل والتغيير الى الكتاب المقدس^١. واذا كان الكتاب في زمن محمد قد تطرق اليه التحريف فكيف جاز للقرآن ان يقول على الاطلاق « لا مبدل لكلمات الله » وما القرآن سوى « كلمت » منها، و« وحي » مأخوذ من كتاب الله؟

ونجد دليلاً عاماً آخر في تسمية الكتاب المقدس الذي كان بين ايديهم في زمن النبي العربي : « كتاب الله » و « كلام الله » .

جاء في القرآن : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب، كتاب الله، وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » (بقرة ١٥١)^٢. فهو يسمي التوراة الموجودة في أيامه « كتاب الله » الذي يصدقه ويشهد له، ويستشهد به ضد اليهود فينبذونه وراء ظهورهم. وايضاً : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض » (توبة ٣٧) . فكيف يجوز للقرآن ان يسمي التوراة او الانجيل كتاب الله اذا كان محرفاً؟

ويسميه ايضاً : الكتاب المنير « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبور والكتاب المنير » (آل عمران ١٨٤) . اي الواضح وهو التوراة والانجيل (الجلالان) .

ويحتكم النبي في خلافاته مع اليهود إلى كتاب الله الذي بين ايديهم في عصره « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ! ذلك بأنهم قالوا : لن نمسنا النار الا أياماً

(١) يُتخذ هذا البرهان دليلاً على عدم التحريف كما اخذناه ايضاً دليلاً على عدم النسخ .
(٢) رسول : محمد . كتاب الله : التوراة، والخطاب عن اليهود . (البيضاوي والجلالان) . « كتاب الله » في توبة ٣٧ : الكتاب او اللوح المنفوظ .

معدودات، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون، (آل عمران ٢٣ و ٢٤)١ . يستشهد محمد بالتوراة ويحتمك اليها ويقبل حكمها : فكيف جاز له ذلك لو كان يعتقد انها محرقة؟ وكيف يمكن ان يسميها « كتاب الله »؟

ويجيء النص القاطع : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا، والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء » (مائدة ٤٧) : يسمي التوراة التي بها حكم النبيون وبها يحكم الربانيون والأخبار « كتاب الله » : فلو ان في التوراة او الانجيل تحريفاً لما جاز له ان يسميها كتاب الله على الاطلاق، دون ان يقيد هذه التسمية .

التوراة هي كتاب الله وهي ايضاً كلام الله : « افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » (بقرة ٧٥) ٢ اي كيف تريدون ايها المسلمون ان يؤمنوا بذكركم ولا يفسرونه على هواهم وقد كانوا يؤولون كلام الله المنزل اليهم حسب احوالهم بعد ان فهموه تماماً، وخالفوه وهم يعلمون، فحاذروا مخادعتهم لكم . فالقرآن يسمي « كلام الله » التوراة الموجودة في زمنه والتي نزلت على موسى، وفسرها قوم موسى ويهود عصر النبي على هواهم؛ ورغم هذا التأويل فهي تظل « كلام الله ». ولا يمكن ان يسميها « كلام الله » لو كانت محرقة مُبدلة مغيرة!

(١) الجلالان : « الكتاب : التوراة ؛ ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون عن قبيل حكمة : نزل في اليهود؛ زى منهم اثنان فتحاكموا الى النبي ص . فحكم عليهم بالرجم فأبوا فجيء بالتوراة فوجد فيها فرجاء فغضبوا » . والبيضاوي : « نصيباً من الكتاب : التوراة او جنس الكتب السبلوية . يُدعون : الداعي محمد، وكتاب الله : القرآن أو التوراة لما روي انه عليه الصلاة والسلام دخل مدارسهم فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على اي دين انت؟ فقال على دين ابراهيم . فقال له : ان ابراهيم كان يهودياً . فقال : هلوا الى التوراة انها بيننا وبينكم . فأبوا فنزلت . وقيل نزلت في الرجم . « ذلك بأنهم قالوا » : اشارة الى التولي والاعراض . - وهذه الاشارة مع النص الكامل تجزم بان « كتاب الله » هنا هو التوراة لا القرآن كما يدعي البيضاوي وكما يخالفه الجلالان .

(٢) « فريق منهم : طائفة من اسلاف اليهود؛ يسمعون كلام الله يعني التوراة ثم يحرفونه بتأويله فيفسرونه بما يشتهون ... »

ويسمي الكتاب «آيات الله» بقوله: «يا اهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون» (آل عمران) قال الزمخشري: «آيات الله التوراة والانجيل؛ وكفرهم بها. انهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة رسول الله» ويسفهمهم على مخالفتها. وايضاً: «فبا نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق» (نساء ١٥٤). وايضاً: «ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً» (مائدة ٤٧).

ويشهد القرآن بأن النصارى واليهود في زمانه يتلون كتاب الله حق تلاوته كما أنزل .

جاء في سورة البقرة: «الذين آتيناهم الكتاب - يتلونه حق تلاوته - اولئك يؤمنون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون» (١٢١) - هل بعد هذه الشهادة الصريحة من صراحة: الكتاب الذي نزل على موسى وعيسى وسائر النبيين، يتلوه المؤمنون به في زمن النبي «حق تلاوته» اي يقرأونه كما أنزل (الجلالان) . أجل يتلون الكتاب الذي يؤمنون به «حق تلاوته» بمراعاة اللفظ عن التحريف والتدبير في معناه والعمل بمقتضاه (البيضاوي) . واهل الكتاب على حق في ايمانهم بكتابهم لأن من يكفر بهذا الكتاب المقدس فهو من الخاسرين . فالنص واضح والتفسير صريح وكلاهما شهادة قاطعة بصحة الكتاب الموجود في زمن النبي، وصحة تلاوته . والقرآن يكفر من ينكر ذلك ويتوعده .

(١) قال الجلالان: «يتلونه حق تلاوته أي يقرؤونه كما أنزل، والجملة حال، وحق نصب على الحال . ومن يكفر به أي بالكتاب الموقر، بأن يحرفه» . وقال البيضاوي: «الذين آتيناهم الكتاب: يريد به مؤمني اهل الكتاب (يتلونه حق تلاوته) بمراعاة اللفظ عن التحريف، والتدبير في معناه والعمل بمقتضاه، وهو حال مقدر، والخبر ما بعده، أو خبر (الذين) على ان المراد بالموصول مؤمنو اهل الكتاب . (اولئك يؤمنون به) بكتابهم دون المحرفين (ومن يكفر به) بالتحريف أو بالكفر بما يصدفه (فأولئك هم الخاسرون) حيث اشتروا الكفر بالايمان» .

فهذا النص القاطع يكفي وحده لتأثيم تهمة التحريف اللفظي او المعنوي :
فاليهود والنصارى « يتلون كتابهم حق تلاوته » .

ويختصم اليهود والنصارى، ويكفر بعضهم بعضاً فيعجب محمد لذلك لأن
الطائفتين تتلوان الكتاب : « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت
النصارى ليست اليهود على شيء. وهم يتلون الكتاب ! » (بقرة ١١٣)^١ يوبخ
القرآن الفريقين على تكفير بعضهم بعضاً وانكار نبي الفريق الآخر وكتابه،
وهم يتلون الكتاب : الواو للحال، والفعل مضارع يدل على دوام الحال .
يستغرب القرآن وينكر هذه المناظرة وهذه المقابلة، فالفريقان « يتلون
الكتاب المنزل عليهم وفي كتاب اليهود بصديق عيسى وفي كتاب النصارى
تصديق موسى » ! (الجلالان) . فلو كان القرآن لا يعتقد بصحة التوراة
والانجيل الموجودين في زمانه، وصحة فهمهما، لما بقي مجال لدهشته .

والنبي الاتمي يوبخ اهل الكتاب على اهمال العمل بوجبه وهم يتلون
الكتاب، فهم لذلك ألزم من غيرهم بإقامته : « أتأمرون (يا بني اسرائيل)
الناس بالسبر وتذنون أنفسكم، وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون ! » (بقرة
٤٤)^٢ . يتعجب كيف يأمرون الناس بالايان (٤١) والصدقة (٤٣) وينسون

(١) قال البيضاوي : « نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله وأتاهم أحبار
اليهود فتناظروا وتقاولوا بذلك - (وهم يتلون الكتاب) الواو للحال والكتاب للجنس
اي قالوا ذلك وهم من اهل العلم والكتاب ! وتبجحهم على المكابرة والتشبه بالجهال » . وقال
الجلالان : « وهم اي الفريقان يتلون الكتاب المنزل عليهم، وفي كتاب اليهود تصديق عيسى
وفي كتاب النصارى تصديق موسى » .

(٢) قال الجلالان، : « وانتم تتلون الكتاب اي التوراة وفيها الوعيد على مخالفة القول
العمل » . وقال البيضاوي : « أتأمرون الناس بالسبر » تقرير مع توبيخ وتعجيب؛ والسبر
التوسيع في الخير من السبر وهو الفضاة الواسع يتناول كل خير . وعن ابن عباس أنها نزلت
في احبار المدينة كانوا يأمرون سراً من نصحوه باتباع محمد ص . ولا يتبعونه وقيل كانوا
يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون - وعندني انه يقصد المعنيين حسب الآية ٤١ و ٤٣ -
(وانتم تتلون الكتاب) تبيكيت لهم اي تتلون التوراة وفيها الوعيد على العناد وترك البر
ومخالفة القول العمل » .

انفسهم وهم ألزم الناس بذلك لانهم يعلمون من تلاوة التوراة وعيد الله على مخالفة القول العمل . فأي برّ في التلاوة والامر لو كان الكتاب محرّفاً؟ وأي مبرّر للتبكييت لو كان كتاب الله الذي يتلون مبدلاً؟ وأي معنى للآية كلها لو كان الكتاب الذي يتلونه غير ما انزل الله??

ويمدح القرآن رهبان عيسى على تلاوة آيات الله أثناء الليل وهم يسجدون ويستني على صلاحهم وتقواهم : « ليسوا سواء! من اهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أثناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر . ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ويسارعون في الخيرات . واولئك من الصالحين وما يعملوه من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » (آل عمران ١١٣) ١ .
تجد هذه الآية تفسيرها في سورة المائدة (٨٥) . ليس الخطاب للمسلمين فقد انتهى منه (١٠٠ - ١١٠) ؛ وليس لليهود (١١٠ - ١١٣) ، فهو يستني منهم هذه الأمة التقية ، أمة عيسى ورهبانه فهم أكثر مودة للذين آمنوا ولا يستكبر القسيسون منهم والرهبان عن احترام النبي الأمي (مائدة ٨٥) .
فهذه الأمة الصالحة يتلون كتاب الله « كما انزل » معنى ومبني : معنى من حيث

(١) من تراها تكون هذه الأمة التقية المواظبة طيلة الليل على الصلاة وتلاوة آيات الله؟ - جاء في أسباب النزول عن ابن عباس انها تقصد عبد الله بن سلام اليهودي الذي أسلم واصحابه، وعن ابن مسعود انها تعني المسلمين في صلاة العشاء . قال البيضاوي : « ليسوا سواء » في المساوي ، والضمير لاهل الكتاب ؛ (من اهل الكتاب أمة) استئناف لبيان نفي التساوي ، وهم الذين اسلموا منهم . - وعندي ان سياق الحديث يعني أمة عيسى ، وخاصة رهبانهم : ليس الخطاب للمسلمين فقد انتهى منه (١٠٠ - ١١٠) ودعا أمة منهم الى مثل هذه الآية ١١٣ ، وختم انهم خير أمة اخرجت للناس (١١٠) ؛ وليس الخطاب لليهود الذين يذكروهم من ١١٠ - ١١٣ والذين منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون (١١٠) ، وقد ضربت عليهم الذلة (١١٢) ، وكانوا يقتلون انبياء الله (١١٢) من هؤلاء يستني الأمة النقيصة ؛ وهذه ليست عصابة عبد الله بن سلام فقد دخلت فيمن أسلم من اهل الكتاب (١١٠) « منهم المؤمنون » . لم يبق اذن سوى أمة عيسى التي لم تقاوم النبي . والنص صريح : ليس « اهل الكتاب » سواء في المساوي ؛ اشدّ عداوة لليهود واكثر مودة للنصارى وذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً (مائدة ٨٥) وهي تفسير لآل عمران ١١٣ .

إنهم « يؤمنون بالله واليوم الآخر »، ومبني من حيث « يتلون آيات الله ». يؤمنون ويعملون بموجب إيمانهم لأنهم « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ». وهم من الصالحين الذين لا يضيع أجرهم . فهو يشهد بأنهم « يتلون آيات الله »، وهذه الشهادة تنطق بصحة كتابهم وصحة تلاوته . والا فكيف ينسب إليهم الصلاح إذا جاز أنهم حرقوا الكتاب ، أو قبلوا كتاباً محرّفاً، أو سمحوا بتحريفه ؟ ومهما كانت الأمة المقصودة، فالأصل هو الكتاب المتلو، أي الكتاب المقدس « آيات الله ». فكيف يمكنه أن يسمي كتابهم « آيات الله » إذا لم يكن بعدُ إلى زمنه « آيات الله » ؟

فيأمر محمد قومه أن يؤمنوا بالكتاب : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل » (نساء ١٣٥) فكيف يأمرهم أن يؤمنوا بكتاب قد تحرف وضاعت صورته الأصلية ؟ فهل يجوز أن يأمرهم بالإيمان بكتاب كأنه من الله وهو ليس بعد من الله ؟ إن أمراً كهذا لا يفهم مع إمكان التحريف ! بل هو مشاككة في التحريف وموافقة عليه !

يقولون انه يأمر بالإيمان بالكتاب السماوي ، أو بالذي انزل على عيسى وموسى، وليس بالكتاب الموجود في زمن النبي مع اليهود أو النصارى . - ان هذا القول لمردود لان التصاريح تؤكد انه يخاطب ويقصد اهل الكتاب في زمانه، وكتابهم الذي يتلونه : « وقل آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم » (عنكبوت ٤٦) . أيؤمنون بشيء لا وجود له ؟! أيأمرهم بالمحال ؟ فلو تغيرت التوراة والانجيل قبل زمن محمد، كيف كان يسمح أو يأمر قومه العائشين معه بالإيمان بها ؟

والإيمان بالكتاب كله، من التوراة إلى الزبور إلى الانجيل إلى القرآن، من أركان الإسلام حسب الآية الشهيرة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل

المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب
والنبيين » (بقرة ١٧٧) : أياكون الكتاب المزور موضوع ايمان، وباب
خلاص ؟ أليس من العبث تحريضهم على الايمان بكتاب زالت صحته وضاعت
صورته، وبدلت نبوته؟ وكيف يجوز الايمان بالكتاب كأساس في الدين مع
امكان الشك في صحته؟ وكيف يعلن ايمانه وايمان المسلمين بالكتاب كله:
«ها انتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم، وتؤمنون بالكتاب كله» (آل عمران
١١٩) «والحال انكم تؤمنون بكتابهم كله وهم مع ذلك يبغضونكم فما بالكم
تحبونهم» (الزخري)؟

فالقرآن يعدّ الشهادات والتحريضات والوامر على الايمان بكتاب منزل
موجود لا بكتاب غير موجود، والا فهي مناقضات لا معنى لها.

ويشهد القرآن لنفسه انه يصدق الكتاب الذي مع اليهود والنصارى في
زمانه: فهل يصدق التحريف والتزوير؟؟ قال: «أنزل اليك الكتاب بالحق
مصدقاً لما بين يديه» (قبله)، وقد جاء ذلك في مواضع شتى في اعراف، يونس،
يوسف، انعام، فاطر. إنه يصدق الكتاب الذي مع بني اسرائيل الذين
يخاطبهم: «يا بني اسرائيل آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم» (شورى)؛
ويحرض اهل الكتاب على الايمان بالقرآن لانه يصدق «لما معهم» (بقرة ٤١
و ٨٩ و ٩١)، وايضاً: «يا أيها الذين اتوا الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً
لما معكم» (نساء). وايضاً: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم»
(بقرة ٨٩). والرسول ايضاً يصدق لما معهم: «ولما جاءهم رسول من عند
الله مصدق لما معهم، نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب، كتاب الله، وراء

(١) الجلالان: «آمنوا بما أنزلت من القرآن مصدقاً لما معكم من التوراة بموافقه له
في التوحيد والنبوة».

ظهورهم كأنهم لا يعلمون» (بقره ١٠١) ١.

فهل يمكن ان يصدق القرآن كتاباً قد حُرِّف وضاع كلام الله فيه ؟

فكيف يجسرون على القول بان القرآن لا يقصد بتصديقه الكتاب المقدس الموجود في زمانه مع اليهود والنصارى، وهو يعني بكل صراحة الكتاب «الذي معهم» !

إنهم يفترون على القرآن ما لا يعلمون !

ويأمر القرآن اهل الكتاب ان يعملوا بما فيه . فهل يفهم أمر كهذا لو ان فكرة التحريف موجودة في ضمير النبي العربي ؟ «ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل، وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم» (مائده ٦٩) ٢ فهل يقصد معاصري موسى او عيسى، ام يخاطب معاصري زمانه ؟ انه يأمر يهود ومسيحي زمانه ان يعملوا باستقامة حسب كتابهم لأن ما فيه «أنزل اليهم من ربهم» . والعمل بموجب التوراة والانجيل سبب سعادة لهم، لو فطنوا، ينالون من ورائها خيرات الدنيا كلها .

وهو يحرض على تسميم احكام الكتاب تحريضاً بليغاً متواصلاً : «قل يا اهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل اليكم من ربكم» (مائده ٧١) - قل بربك هل يقصد كتاباً مضى، وقوماً مضوا ؟ ألا يخاطب

(١) الجلالان: «رسول من عند الله: محمد؛ نبذ فريق كتاب الله: التوراة؛ وراء ظهورهم: اي لم يعملوا بما فيها من الايمان بالرسول وغيره كأنهم لا يعلمون ما فيها من انه نبي حق أو أنها كتاب الله!»

(٢) الجلالان: (اقاموا) بالعمل بما فيها (لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم) بأن يوسع عليهم الرزق ويفيض من كل جهة - الا يعني الشجر والزرع ؟

كتابي وقته ويقصد التوراة والانجيل الموجودين معهم؟ فهل يجوز ان يبالغ القرآن في التحريض على اتمام شرائع الكتاب اذا فرضنا التحريف والتزوير في كلام الله وإرادته واحكامه؟ ام هل تنسجم فكرة التحريف الكلي او الجزئي، اللفظي او المعنوي، مع هذه الأوامر المتواصلة؟

بتهمة التحريف يفرضون المتناقضات على القرآن، ويحملونا على قبولها! إلا ساء ما يفترون!

والقرآن يأمر اهل الكتاب ان يحكموا بما فيه لانه حكم الله . فالكتاب الذي يشهد القرآن على صحة ما فيه من احكام الله، ويطلب تنفيذها، لا يجوز ولا يقبل على الاطلاق ان يكون محرفاً!

فالانجيل فيه حكم الله ويجب ان يحكم اهل الانجيل بما فيه من احكام: «وليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه^١ . ومن لم يحكم بما أنزل الله فيه فأولئك هم الفاسقون» (مائدة ٥٠)؛ فحكم الانجيل منزل من الله، والقرآن يأمر اهل الانجيل في زمانه ان ينزلوا عند احكام الله التي في كتابهم، وفاسق من لا يحكم بما أنزل الله فيه . فهل حُرِفَت احكام الله؟ وكيف بقيدنا بأحكام محرفة؟

والتوراة كذلك، تلك التي في عصر محمد، فيها أيضاً حكم الله: «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (مائدة ٤٧)^٢ إنه يكفر من لا يحكم بأحكام

(١) البيضاوي: «والآية تدل على ان الانجيل مشتمل على كل الاحكام» .

(٢) الجلالان: «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى من الضلالة وبيان للاحكام يحكم بها النبيون من بني اسرائيل للذين هادوا، والربانيون اي العلماء منهم، والاحبار أي الفقهاء، بسبب

التوراة لأنها هدى ونور، وهي كتاب الله، أنزله الله، بها حكم الأنبياء قديماً، وبها يحكم اليوم الربانيون والاحبار، كهنة اليهود وعلماؤهم، لانهم لم يزالوا شهداء على كتاب الله وأحكامه يحفظونها وينفذونها. فكيف نجترى على القول بأنها ليست كتاب الله وأحكامه؟ وكيف نكذب القرآن الذي يشهد ان علماء اليهود في زمانه شهداء على صحة الكتاب وحقيقته؟

بل يوبخ القرآن النبي الجديد فيما لو فكر ان يعدل بهم عن كتابهم: «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله!» (مائدة ٤٦) ١: الخطاب لمحمد عن يهود زمانه يحذره من الحكم بينهم بغير ما أنزل الله في التوراة من أحكام، كأن القرآن يردُّهم الى احكام كتابهم التي هي من الله. فأى معنى لهذا التحذير للنبي، ولارجاع اهل الكتاب الى كتابهم لو أن لتهمة التحريف ظلاً في ضمير محمد؟

فكل كلمة من هذه الآيات تنفي شبهة التحريف في الانجيل أو في التوراة: فأمر القرآن بالحكم في الحاضر والمستقبل بما أنزل الله في الكتاب المقدس، والتكفير لمن يرفض أحكام الانجيل والتوراة المنزلة من الله، وهذا التوبيخ للنبي الأمي فيما اذا حاول ان يفرض نفسه حكماً على اهل الكتاب لا تفهم مطلقاً مع فكرة التحريف.

محمد يحتمكم الى الكتاب اذا اختلف مع اهل الكتاب او غيرهم. فلو شك

الذي استودعوه أي استحفظهم الله اياه من كتاب الله ان يبدلوه وكانوا عليه شهداء أنه حق». وقال البيضاوي: «يحكم بها النبيون الذين اسلموا» يعني انبياء بني اسرائيل، أو موسى ومن بعده إن فلنسا «شرع من قبلنا شرع لنا» ما لم يُنسخ، وبهذه الآية تمسك القائل به.

(١) ينبغي من تحكيم اليهود محمداً والحال ان الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم. (البيضاوي).

النبي في صحة الكتاب او في سلامته من التحريف هل كان اتخذ شاهداً وحكماً
في صحة رسالته وصدق قرآنه؟

قال : « ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَوْنَ الى كتاب الله
ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ، (آل عمران ٢٣) : يرفض
اليهود النبيَّ الجليل فيحتكم الى التوراة « كتاب الله » الذي بين ايديهم
فيعرضون . ومع ذلك يشهد بأنهم يعرفون صحة تعليمه من كتابهم : « وان
الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم ، (بقرة ١٤٤) ؛ انهم
يعرفون صدق كرازة القرآن ولو كتبوا الحق : « الذين آتيناكم الكتاب
يعرفونه (محمداً او القرآن) كما يعرفون ابناءهم وان فريقاً منهم ليكتبون
الحق وهم يعلمون ، الحق من ربكم فلا تكونن من الممتريين ، (بقرة ١٤٦
و ١٤٧) .^١ يعتد بشهادة الكتاب ، ويسمّيها « الحق » ، « الحق من ربك » !
فكيف تبقى حقاً وقد حرقت ؟ وكيف يستشهد بما ليس حقاً ؟ وكيف يعانهم
على كتمان شهادة مزورة ، وحق مكدوب ؟

اختلف محمد مع اليهود لقولهم : « لن تمسنا النار إلا اياماً معدودات »
(آل عمران ٢٤) فدعاهم الى « كتاب الله » فأعرضوا (٢٣) . حاججهم في
قوله : « ان الدين عند الله الاسلام » اي التوحيد ، فأنكروا وقد علموا ذلك
من كتابهم « وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً
بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب » (آل عمران ١٩) ، كفروا
بآيات الله التي يعلمونها من كتابهم . ونزل لما قال اليهود إنك تزعم انك على
ملة ابراهيم وكان لا يأكل لحوم الابل والبانها ، فخاصهم قائلاً : « كل الطعام

(١) « الحق من ربك » اي الحق الذي يكتمونونه ، وهو إما مبتدأ خبره « من ربك » ،
ولما خبر مبتدأ محذوف اي هو الحق ومن ربك حال ، أو خبر بعد خبر . ونرى بالنصب على
انه بدل من « الحق » الاول او مفعول يعلمون . فلا تكن من الشاكين في انه من ربك
أو في كتابهم الحق عالمين به (البيضاوي) .

كان حلاً لبني اسرائيل - الا ما حرّم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة؛ قل فاتوا بها فاتلوها ان كنتم صادقين» (آل عمران ٩٣) .

فهل كان احتكم محمد الى التوراة التي في زمانه بين ايديهم، وطلب اليهم ان يتلوها أمامه لو لم تكن هي هي نفسها «كتاب الله» و«الحق» الذي انزله، وفيها «آيات الله» الى زمانه والى ابد الدهر؟ أمن الممكن ان يحتكم القرآن الى كتاب محرف او مزور او مفسوش؟!

محمد يستشهد على صحة تعليبه من صحة الكتاب الذي بيد اليهود والنصارى. اذا شك احد في صحة ما يوحى الى محمد فعليه ان يعرضه على الكتاب السابق، فإنه إمامه في الهدى (أحقاف ١٢) بل هو منه «تنزيل رب العالمين، بلسان عربي مبين، وإنه لفي زبُر الأولين» (شعراء ١٩٧) اي في كتبهم كالتوراة والانجيل (الجلالان). فمن شك في صحة الوحي الجديد، ونبيه، وطريقته فليسأل أهل الوحي القديم: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر^١ ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبور» (نحل ٤٣) . لاحظ انه يستشهد مباشرة بأهل الذكر وليس بكتبهم فقط مما يدل على صحة فهمهم له . ويتخذ شهادتهم آية له: «أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل؟» (شعراء ١٩٧) . فحجة محمد انما هي مطابقة تعليبه لتعليم أهل الكتاب، ومطابقة قرآنه للذكر الحكيم وزبُر الأولين .

فهل يجوز أو يُعقل ان يستشهد القرآن لنفسه بكتاب محرف وبعلماء محرفين؟

(١) «أهل الذكر: العلماء بالتوراة والانجيل؛ ان كنتم لا تعلمون ذلك فإنهم يعلمونه وانتم الى تصديقهم أقرب» (الجلالان) .

القرآن يعاتب اهل الكتاب على اختلافهم فيه، وعلى كتابه. لقد جاء في القرآن

قوله: «كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغيّاً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه، من الحق» (بقرة ٢١٣)، فالذين آمنوا على عهد محمد اهتموا الى ما اختلفوا فيه من حق الكتاب الذي نزل بالحق على النبيين: يشهد اذن بصحة نزول الكتاب، وبصحة بقاء الحق المنزل الى يومه.

ومن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه يعدّه القرآن وغيداً شديداً؛ «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردوه الى اشدّ العذاب»^١: أيتوعدّ اهل الكتاب بالهلاك لكفرهم ببعض الكتاب لو كان لا يؤمن بصحته كله!

ويهدّدهم بالنار الابدية اذا كتموا الكتاب الذي انزله الله بالحق او اختلفوا فيه: «ان الذين يكتُمون ما انزل الله من الكتاب، ويشترون به ثمناً قليلاً اولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم... ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد» (بقرة ١٧٤ و ١٧٦).

هل من معنى لهذه التهديدات الشديدة لو لم تبقى حقيقة الكتاب ثابتة كاملة كما أنزلت بالحق، الى يوم محمد؟

(١) «كانت فريضة قد حالفوا الأوس والنضير الخزرج فكان كل فريق يقابل مع حلفائه ويحرب ديارهم ويخرجهم واذا أسروا فدومهم. وكانوا اذا سئلوا لم تقاتلونهم وتغنونهم قالوا أمرنا بالفداء. فيقال لم تنادونهم؟ فيقولون حياء ان تستذلّ حنفاؤنا، فنزلت مع (الجلالان).

القرآن يجيل عمداً الى اهل الكتاب ليطمئن في حالات الشك من نفسه
ومن وحيه . الى من يجهل أمور الوحي وطرائقه يقول دائماً : « فاسألوا أهل
الذكر ان كنتم لا تعلمون » . فإذا كان هؤلاء لا يؤتمنون على كتابهم، فكيف
جاز له ان يجيل الناس اليهم ليطمئنوا في ايمانهم ؟

وإذا ارتاب محمد من نفسه، ومن حقيقة ما يوحى اليه، فعليه ان يطمئن
نفسه ويوطد ايمانه عند أهل الكتاب الاول : « فإن كنت في شك مما أنزلنا
اليك، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » (يونس ٩٤) فإنه ثابت عندهم
يخبرونك بصدقه^١، فهو يصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل
اليهم وأنزل الى محمد^٢. لاحظ ان القرآن يجيل عمداً الى اهل الكتاب، لا الى
الكتاب مباشرة، وهذه شهادة لهم على صدق أمانتهم في حفظ الكتاب، كما
أنها شهادة على صحة الكتاب ذاته .

فهل يجوز ان يجيل القرآن عمداً الى وحي مزور، محرّف، ضاعت صورته
الاولى؟ أيجتمع الوحي الصادق مع وحي كاذب؟!

وهل يمكن ان يطمئن رسول الله عند محرّفين لكتاب الله؟ ما معنى
هذه المواقف المتناقضة؟

ونختم بتصريح عام من القرآن على استحالة التحريف : ذلك ان الله يحفظ
وحيه وكفى به حفيظاً!

جاء في القرآن : « إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون » (حجر ٩) قالوا

(١) راجع الجلالين . وما تقدم صفحة ٢٣ حيث استشهدنا بهذه الآية على اتصال محمد
بالكتاب وعلمائه وأخذه عنهم . هنا نتخذ الآية دليلاً على اعتقاد القرآن بصحة الكتاب
وبصحة فهم أهله اياه في زمان محمد .

(٢) راجع البيضاوي .

ان المقصود بالذكر هنا هو القرآن^١ بناء على قوله: « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » (حجر ٦) . وفاتهم ان لفظه ذكر معناها الوحي، وقد وردت صفةً ونبأً واسماً للتوراة والانجيل والقرآن على السواء: « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون، (انبياء ١٠٥) » ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين . وهذا ذكر مبارك أنزلناه، (أنبياء ٤٨ و ٥٠) . فالقرآن كما سنرى يطلق اسماء « الذكر والفرقان والكتاب » على التوراة والانجيل والقرآن على السواء: لقد وحدها في التعليم، ألا يوحدتها في التسمية! وهكذا فالله يحفظ وحيه « من التبديل والتحرير والزيادة والنقص » كما قال الجلالان . وحفظ الذكر من عوادي الزمن يشمل كل وحي انزله الله، وإلا أضع الله الفائدة من وحيه . الله مكلف بحفظ وحيه كي لا تضع فائدته الخلاصية على الاجيال المتعاقبة، وكفى به حفيظاً!

فكل هذه الشهادات وكثير غيرها تدل دلالة جامعة مانعة على انه لا تحريف في الكتاب منذ نزوله الى زمن محمد، وأنه يستحيل ذلك . فشهادة القرآن قاطعة نهائية على صحة الكتاب في زمن النبي فانهم « يتلونهُ حق تلاوته » كما انزل^٢.

(١) الجلالان والبيضاوي .

(٢) الجلالان : في بقرة ١٢١ .

هل يقول القرآن الكريم بتحريف الكتاب المقدس؟

« بحرفون الكلم عن مواضعه »

(نساء ٤٥ مائدة ١٤ و ٤٤) .

يقول بعض الجبهة من المسلمين : « يخلف الاسلام اختلافاً جوهرياً في عقائده وتشاريعه ونظمه عن كلتا الديانتين الاسرائيلية والمسيحية في صورتيهما المعروفتين الآن بل في صورتيهما اللتين كانتا في عهد محمد عليه الصلاة والسلام . صحيح أن القرآن قد ذكر في اكثر من موضع أنه فيما يقرّره من عقائد قد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل . ولكن القرآن يقصد التوراة والانجيل في صورتها الاولى قبل ان يدخلها التحريف ويقرّر أن هذه الصورة قد بدلت وغيّرت وحرّفت عن مواضعها وطمست جميع معالمها فيما يُسمى الآن بالديانتين اليهودية والمسيحية »^١

- فهل من تحريف في الكتاب المقدس ؟

- وهل شهد القرآن بهذا التحريف ؟^٢

ان التهمة لخطيرة ؛ وهي ترد في كل مناسبة ؛ بل هي سلاحهم الاخير كلما قام جدل . لذلك سنوفيهما حقها من التمهيد ، فنذكر الآيات التي جاء فيها معنى التحريف تلميحاً أو تصريحاً ثم نرى ما يقصد بها القرآن أتغيير النص أم تأويل المعنى .

(١) من كتاب (الاسلام في نظر الغرب) بيروت ١٩٥٣ حاشية ص ١٨ .
(٢) رأينا في الفصل السابق شهود النفي على تهمة التحريف ، وندرس الآن شهادات الالبيات ، حسب التعبير القضائي .

اولاً: النصوص التي تحمل نعمة التحريف

سورة البقرة (١) « يا بني اسرائيل... آمِنُوا بما أنزلتُ مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به. ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، وإياي فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب، أفلا تعقلون؟ » (٤١ - ٤٤).

(٢) « أففتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا! وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون؟ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً! فويل لهم مما كتبت أيديهم! وويل لهم مما يكسبون! » (٧٥ - ٧٩).

(٣) « أفتمؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ » (٨٠).

بقرة ٤١ « وآمنوا بما أنزلت من القرآن (مصدق لما معكم) من التوراة بموافقته له في التوحيد والنبوة. (ولا تشتروا) تستبدلوا (بآياتي) التي في كتابكم من نعت محمد (ثمناً قليلاً) عوضاً يسيراً من الدنيا. أي لا تكتموها خوف فوات ما تأخذونه من سفلكم.

بقرة ٤٢ « ولا تلبسوا تملطوا (الحق) الذي أنزلت عليكم (بالباطل) الذي تفترونه (ولا تكتموا الحق) نعت محمد في التوراة (وأنتم تعلمون) انه الحق. »

بقرة ٤٤ (أتأمرون الناس بالبر) الايمان بمحمد (وتنسون أنفسكم) تتركونها فلا تأمرونها به، (وأنتم تتلون الكتاب) التوراة وفيها الوعيد على مخالفة القول بالعمل. - لاحظ ان الآية ٤٤ تفسر معنى إلباسهم الحق بالباطل في الآية ٤٢: يتعجب من إلباسهم الحق بالباطل ونسيانهم أنفسهم

٤) « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بثما اشترى به انفسهم أن يكفروا بما أنزل الله، بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . واذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم » (٨٩ - ٩١) .

٥) « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب، كتاب الله، وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلو الشياطين » (١٠١) .

٦) « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبّع ملتهم ... » (١٢٠) الذين آتيناكم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به . ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » (١٢١) .

عن البر الذي يأمرون الناس به وهم يتلون الكتاب : هذا اشعار بأن الكتاب لم يزل كما نزل وهم يتلونه كما نزل ولو ألبسوا حقه بباطلهم . والباء هنا للاستعانة كما قال الزمخشري .

بقرة ٧٥ - ٧٩ جاء في الجلالين : (أفطمعون) ايها المؤمنون (أن يؤمنوا لكم) اي اليهود (وقد كان فريق منهم) طائفة من احبارهم (يسمعون كلام الله) التوراة (ثم يحزفونه) يغيبونه (من بعدما عقلاه) فهموه (وهم يعلمون) انهم مغترون . والهمزة للانكار، اي لا تطمعوا فلهم سابقة بالكفر . (واذا لقوا) اي منافقو اليهود (الذين آمنوا قالوا : آمنا) بأن محمداً ص . نبي وهو المبشر به في كتابنا . (واذا خلا بعضهم الى بعض) اي رجع رؤساؤهم الذين لم ينافقوا لمن نافق (اتحدثونهم) اي المؤمنين (بما فتح الله عليكم) اي عرفكم في التوراة من نعت محمد (ليحاجوكم به عند ربكم) ليخاصموكم في الآخرة ويقسموا عليكم الحجة في ترك اتباعه مع علمكم بصدقه (أفلا تعقلون) فتنبهوا .

(٧) « وان الذين اوتوا الكتاب يعلمون انه الحق من ربهم . وما الله بغافل عما يعملون » (١٢٤) .

(٨) « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (١٤٦) .

(٩) « إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً، أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار... ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق. وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد » (١٧٤ و ١٧٦) .

وفسره البيضاوي : (أفظلمعون) الخطاب للنبي والمؤمنين، ان يصدقكم لاجل دعوتكم . يعني اليهود . وقد كان طائفة من اسلافهم يسمعون التوراة (ثم يحرفونه) كنعنت محمد ص . وآية الرجم . أو تأويله : فيفسرونه بما يشتهون . وقيل هؤلاء من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور ثم قالوا : سمعنا الله يقول في آخره ان استطعتم ان تفعلوا هذه الاشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا، فلا بأس . كذلك الزمخشري .

ومفاد تفسير الثلاثة أن الحديث عن اليهود وحدهم وعن التوراة وحدها . وان التحريف المذكور هو كتمان نعت محمد وآية الرجم أو تأويلها على ما يشتهون ؛ وفي ذلك إسرارهم الكفر واعلانهم الايمان .

بقرة ٨٥ أفتمننون بالفداء المذكور في الآية ٨٥ وتكفرون ببعض وهو ترك القتل والاخراج والمظاهرة لقومهم على حلفائهم .

بقرة ٨٩ (فلما جاءهم ما عرفوا من الحق) وهو بعثة محمد كفروا به حسداً وخوفاً على الرئاسة .

بقرة ١٠١ (نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب، كتاب الله، وراء ظهورهم) نبذ اليهود التوراة اي لم يعملوا بما فيها من الايمان بالرسول وغيره (كأنهم لا يعلمون) ما فيها من انه نبي حق أو انها كتاب الله .

١٠) « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءهم اليينات بغياب بينهم . فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه » (٢١٣) .



سورة الأنعام، وهي مكية؛ فيها آية مدنية في المعنى نفسه :

« وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا: ما انزل الله على بشر من شيء! قل: من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس

بقرة ١٢١ « يتلونه حق تلاوته اي يقرؤونه كما انزل » الجلالان . « يريد بالذين آتيناهم الكتاب مؤمني اهل الكتاب ؛ يتلونه حق تلاوته بمراعاة اللفظ عن التحريف ، والتدبر في معناه، والعمل بمقتضاه . وهو حال مقدرة او خبر . (اولئك يؤمنون به) بكتابهم دون المحرفين . البيضاوي . « هم مؤمنو اهل الكتاب لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله . - اولئك يؤمنون بكتابهم دون المحرفين ، الزمخشري . - هذه الآية وحدها تكفي لتفسير التحريف بالتأويل المنفرض .

بقرة ١٤٦ يعرفونه اي محمداً من نعتهم في كتبهم . يكتُمون الحق اي ذلك النعت .

بقرة ١٧٤ (ان الذين يكتُمون ما انزل الله من الكتاب) المشتمل على نعت محمد . وهم اليهود يتاجرون ببيع نسخ التوراة .

انعام ٩١ سورة الانعام متبعضة اي بعضها مكية وبعضها مدني . وهذه الآية مدنية لأنه كما يقول الزمخشري، لم يكن في مكة جدال مع اهل الكتاب . (ما قدروا الله حق قدره) ما عظموه حق عظمتهم، او ما عرفوه حق معرفته اذ قالوا للنبي وقسده خاصموه في القرآن : ما انزل الله على بشر من شيء .

تُبدونها وتخفون كثيراً وعُلِّمْتُمْ ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم؟ قل: الله! ثم ذرهم في خوضهم يلعبون» (٩١) .

«أفغير الله ابتغي حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً . والذين آتيناكم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكوننّ من الممترين» . (١١٤)

سورة آل عمران :

(١) «ألم ترّ الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يُدعَوْنَ الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون» (٢٣) .

(٢) «وددت طائفة من اهل الكتاب لو يضلّونكم . وما يضلّون الا انفسهم

(تجعلونه قراطيس) اي تكتبونه في دفاتر مقطعة، (تبدونها) اي ما تحبون ابداءه منها، (وتخفون كثيراً مما فيها) كنعت محمد، (وعلمتم) ايها اليهود، في القرآن (ما لم تعلموا) من التوراة، ببيان ما التبس عليكم .

انعام ١١٤ آية مدنية . (والذين آتيناكم الكتاب) التوراة (يعلمون انه) اي القرآن منزل من ربك .

آل عمران ٢٣ نزلت في اليهود : ذنبي منهم شريفان فتحا كموا الى النبي فحكم عليهما بالرجم كما في التوراة فأبوا . فجيء بالتوراة فوجد فيها الرجم فرُجِحا ففضبوا . (يدعون الى كتاب الله) التوراة .

آل عمران ٧٢ (لِمَ تكفرون بآيات الله) القرآن (تكتُمون الحق) نعت محمد في التوراة .

آل عمران ٧٣ تصف احدي مؤامرات اليهود : التظاهر بالايمان بمحمد ثم الكفر به ليحملوا الناس على التشبه بهم اذ يقولون : ما رجع هؤلاء عنه بعد دخولهم فيه وهم اولو علم إلا لعلمهم ببطلانه .

وما يشعرون . يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ! يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون !
وقالت طائفة من أهل الكتاب : « آمينوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم . »
(٦٩ - ٧٣) .

(٣) « وان منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب ، وما هو من الكتاب . ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (٧٨) .

(٤) « قل : يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله ، والله شهيد على ما

آل عمران ٧٨ « يلوون ألسنتهم بالكتاب » قال البيضاوي : « المحرفون ككعب ومالك وحيي بن اخطب يفتلون ألسنتهم بقراءة الكتاب فيميلونها عن المنزل الى المحرف ، او يعطفونها بشبه الكتاب » . قال الجلالان : يعطفونها بقراءة ته عن المنزل الى ما حرفوه من نعت النبي . (لتحسبوه) ايها المسلمون ، والضمير للمحرف . قال الزمخشري : « هم كعب بن الاشرف ومالك ابن الصيف وحيي بن اخطب وغيرهم يفتلون السنتهم بقراءة الكتاب عن الصحيح الى المحرف . والضمير في (لتحسبوه) يرجع الى ما دل عليه يلوون السنتهم بالكتاب وهو المحرف . ويجوز ان يراد يعطفون السنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب . وقرئ ليحسبوه . وعن ابن عباس هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الاشرف غيروا التوراة وكتبوا كتاباً بدلوها فيه صفة رسول الله ص . ثم اخذت قريظة ما كتبوه وخلطوه بالكتاب الذي عندهم . »

— فيظهر انها حيلة فريق منهم فيما يخص صفة النبي الذي تذكره التوراة : اخفوا النص الحقيقي واظهروا غيره وليس هذا بتحريف النص .

تعملون! قل: يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن، تبغونها
عوجاً وأنتم شهداء، وما الله بغافل عما تعملون. يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا
فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين» (٩٨).

(٥) «ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم. وتؤمنون بالكتاب كله. وإذا
لقوكم قالوا آمنا. وإذا خلوا عضوا عليكم الأهل من الغيظ» (١١٩).

(٦) «وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب: لَسَبِّيْنْتُهُ لِلنَّاسِ!
ولا تكتمونه! فنبدوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً! فبئس ما يشترون»
(١٧٨).

(٧) «وإن من أهل الكتاب لَمَن يُوْمِن بالله وما أنزل اليك وما أنزل
اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً. أولئك لهم اجرهم عند ربهم»
(١٩٩).

آل عمران ٩٨ المقصود بأهل الكتاب اليهود يكفرون بأقرآن ويصرفون
عن دين الله من آمن به بتكذيبهم النبي وكنه نعتهم وهم شهداء عالمون بأن
الدين المرخي القيم دين الاسلام كما في كتابكم (الجلالان والبيضاوي).

آل عمران ١١٩ «وتؤمنون بالكتاب كله» اي بالكتب المنزلة كلها
ولا يؤمنون بكتابكم (الجلالان)؛ والحال انكم تؤمنون بكتابهم كله،
وهم مع ذلك يبغضونكم ولا يؤمنون بشيء من كتابكم (الزمخشري). -
كيف يؤمن المسلمون بكتاب محرّف؟؟ وفي حال حملات النبي على تحريفه؟

آل عمران ١٧٨ «عهد في الكتاب الى اهل الكتاب ان يبينوا الكتاب
للناس ولا يكتمونه عنهم فطرحوا العهد وراء ظهورهم ولم يعملوا به بكتان
الكتاب عن النبي والمسلمين (عن الجلالين). «أكد عليهم ايجاب بيان
الكتاب واجتناب كتمانه» (الزمخشري) وهذا يدل ان التهمة كلها فيما يظن
كتان صفة النبي المذكورة في التوراة، لا تغيير تلك الصورة.

سورة النساء :

« ألم ترَ الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تضلّوا السبيل . . . من الذين هادوا بجرّ فون الكليم عن مواضعه ويقولون : سمعنا وعصينا ! واسمع غير مُسمعٍ وراعينا : لئلاّ بالسنتهم وطعنا في الدين »

« ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا، واسمع وانظرنا لكان خيراً وأقوم . ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلاً » .

نساء ٤٤ : « يجرفون الكلم عن مواضعه » . جاء في الجلالين : « قوم من اليهود يغيرون الكلم الذي انزل الله في التوراة من نعت محمد عن مواضعه التي وضع عليها . يقولون للنبي اذا أمر بشيء : سمعنا قولك وعصينا امرك ! واسمع غير مُسمعٍ : حال بمعنى الدعاء اي لا سمعت ! ويقولون له : راعينا ! وهي كلمة سب في لغتهم . لئلاّ بالسنتهم اي تحريفاً وقدحاً في الاسلام » . - وعندنا ان سياق الحديث يعني كلام محمد لا كلام التوراة : يلوون السنتهم عند النطق به هزءاً وسخريةً ، ويسبون محمداً بخطابه : راعينا !

قال البيضاوي : « من الذين هادوا قوم (يجرفون الكلم عن مواضعه) اي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها بإزالتها عنها واثبات غيره فيها . أو يؤرّلونه على ما يشتهون فيميلونه عما انزل الله فيه . (واسمع غير مُسمعٍ) اي مدعواً عليك بلا سمعت ! او اسمع غير مجاب الى ما تدعو اليه ! او غير مسمع كلاماً ترضاه » .

- ألا يظهر ان الكلام المحرّف عن معانيه لا عن الفاظه هو كلام محمد بدليل هزئهم به ؟

قال الزمخشري « يجرفون الكلم (او الكلم) عن مواضعه » يميلونه عنها ويزيلونه لأنهم اذا بدلوه ووضعوا كلاً غيره فقد امالوه عن مواضعه التي وضعه

« يا أيها الذين اوتوا الكتاب آمِنُوا بما نَزَّلنا مصدقاً لما معكم من قبل ان
نظمسَ وجوهاً فنردّها على أدبارها، او نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت وكان
امر الله مفعولاً » (٤٤ - ٤٧) .

« ... لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك
وما أنزل من قبلك » (٢٦٢) .

سورة المائدة :

« ولقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل . . . فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا
قلوبهم قاسية . سيحرفون الكلم عن مواضعه . ونسوا حظاً مما ذكروا
به . ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح ان
الله يحب المحسنين » (١٤) .

الله فيها وأزالوه عنها وذلك نحو تحريفهم « اسمر ربعة » عن موضعه في التوراة
بوضعهم « آدم طوال » مكانه ونحو تحريفهم الرجم بوضعهم الحد بدلّه . فإن
قلت كيف قيل ههنا « عن مواضعه » وفي المائدة « عن بعد مواضعه » قلت
اما عن مواضعه فعلى ما فسرناه من ازالته عن مواضعه التي اوجبت حكمة الله
وضعه فيها . واما عن بعد مواضعه فالمعنى انه كانت له مواضع هو قن بأن
يكون فيها فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه
ومقاره . والمعنيان متقاربان .

مأئده ١٤ « يحرفون الكلم عن مواضعه » . جاء في الجلالين : « يحرفون
الكلم الذي في التوراة من نعت محمد وغيره (عن مواضعه) التي وضعه الله
عليها اي يبدلونه . وتركوا نصيباً مما امروا به في التوراة من اتباع محمد » .

قال البيضاوي : « إستئناف لبيان قساوة قلوبهم فإنه لا قساوة اشد من
تغيير كلام الله والافتراء عليه . ويجوز ان يكون حالاً من مفعول لعناهم

«ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به .
فأغربنا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة . وسوف ينبئهم الله بما كانوا
يصنعون» (١٥) .

«يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من
الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين» (١٦) .
«يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يُسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا
بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . ومن الذين هادوا سماعون للكذب ، سماعون
لقوم آخرين لم يأتوك — يحرفون الكلم من بعد مواضعه : يقولون إن أوتيتم
هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا» (٤٤) .

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين

لا من القلوب اذ لا ضمير له فيه . والمعنى انهم حرفوا التوراة وتركوا حفظهم
بما أنزل عليهم فلم ينالوه . وقيل معناه انهم حرفوها فزلت بشؤمه اشياء
منها عن حفظهم» .

قال الزمخشري : لا قسوة اشد من الافتراء على الله وتغيير وحيه . وتركوا
نصيلاً جزيلاً وقسطاً وافياً بما ذكروا به من التوراة : يعني ان تركهم
واعراضهم عن التوراة اغفال حظ عظيم . وقيل تركوا نصيب انفسهم بما امروا
به من الايمان بحمد وبيان نعته .

مائدة ١٥ لاحظ انه لا ينسب تحريفاً ما الى النصارى بل يذكر البغض
بينهم وبين اليهود، او بين فرق النصارى (البيضاوي) .

مائدة ١٦ «يا اهل الكتاب . . . بما كنتم تخفون» المقصود بأهل الكتاب
اليهود وحدهم هنا لا اليهود والنصارى لأن تهمة كتمان الكتاب لم ينسبها
القرآن مطلقاً الى النصارى (١٥) كما نسبها الى اليهود (١٤) . «بما كنتم

اونوا الكتاب من قبلكم والكفار، أولياء... واذا ناديتم الى الصلوة اتخذوها هزواً ولعباً» (٥٧ و ٥٨) .

« لتجدنَّ اشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا، ولتجدنَّ اقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع بما عرفوا من الحق » (٨٥-٨٨) .

ثانياً : معنى التحريف المذكور

تلك هي مجموعة النصوص القرآنية التي وردت فيها تهمة التحريف والكتان والاختفاء واللسي والكذب والهزاء وإلباس الحق بالباطل . فما معنى هذه التهمة الخطيرة؟ وما قصد القرآن بإسناده اليهم التحريف؟

ملاحظات عامة هامة :

(١) لاحظ أنها تهمة واحدة من الاول الى الآخر ولو تنوع التعبير عنها .

تحفوت من نحو صفة الرسول ومن نحو الرجم» (الزمخشري والجلالان) .
 - نقول اليس في هذا الاختفاء معنى تحريف الكلم المذكور قبله ١٤ وبعده ١٧ مائدة ٤٤ قال الزمخشري : الساعون للكذب بنو قريظة والآخرين يهود خيبر (يحرفون الكلم) يميلونه ويزيلونه (عن بعد مواضعه) التي وضعه الله تعالى فيها فيهملونه بغير مواضع بعد ان كان ذا مواضع . (ان اوتيتم) هذا المحرف المزال عن مواضعه فخذوه واعلموا انه الحق واعملوا به وإن افتاكم محمد بخلافه اي بالجلد دون الرجم لمن زنى، فأياكم وإياه فهو الباطل . قال البيضاوي : يميلونه عن مواضعه اما لفظا بإهماله أو تغيير وضعه واما معنى بحمله على غير المراد . .

لذلك لا يجوز تفسير تلك الآيات بجزأة بل يجب ان يفسر بعضها بعضاً وإلا مسخ المعنى .

(٢) لقد أوردنا الآيات بحسب ترتيب نزولها فيبدو من ذلك ان تهمة التحريف ما وردت الا في السور المدنية فقط، ولا ذكر لها مطلقاً في السور المكية . واذا وجدت بعض آيات في السور المكية كما في سورة الانعام مثلاً فالمصاحف تدل على ان هذه الآيات مدنيّات أقحمت في السور المكية لغاية نجهلها . ومن ثم فلو كانت تهمة التحريف قديمة لوجدنا لها اثراً في حياة النبي المكية حيث نرى محمداً يستشهد بالكتاب وبمن عنده علم الكتاب على صحة قرآنه : أيجوز ان يستشهد بحرفين وبكتاب محرف ؟ (شعراء ١٩٧) .

(٣) لا شك انك لاحظت ايضاً ان النزاع قائم منذ البداية حتى النهاية (مائدة ٨٥) بين محمد واليهود : فلا ذكر هناك مطلقاً لنزاع بين النصارى ومحمد - وإن قال مرة واحدة انهم غير راضين عن تغيير القبلة وافتراقه عنهم (بقرة ١٢١) ؛ ولا هو يتهمهم بالكفر والتحريف (مائدة ١٥) : فتهمة التحريف اذن - معها كان معناها - لا يلصقها القرآن بالنصارى ولا بإنجيلهم، انما يوجه التهمة دائماً الى اليهود وحدهم، بل الى فريق منهم : «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه» (بقرة ٧٥)، و«نبد فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم» (بقرة ١٠١)، و«ان فريقاً منهم ليكتمون الحق» (بقرة ١٤٦)، «تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً» (انعام ٩١)؛ فتهمة التحريف والكتان اذن تقع على التوراة من قوم موسى . وكل اهل الكتاب المقصودين بالتحريف ومقاومة النبي في آل عمران هم اليهود وحدهم (٢٣ و ٦٩ - ٧٣ و ٧٨ و ٩٨) بدليل انه يستثني منهم رهبان عيسى وملته (١١٣) . وكذلك في سورة النساء : «الذين اوتوا نصيباً من الكتاب هم الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه» (٤٤) . والتمييز في سورة المائدة بين اليهود والنصارى، في شأن هذه التهمة، أصرح : «ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل... يحرفون الكلم عن مواضعه» (مائدة ١٣ - ١٤)، «ومن الذين

هادوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه» (مائدة ٤٤) . فالتهمة تعني صراحة قوماً من اليهود لا جميعهم ، وهم الذين كانوا يقاومونه ويتآمرون عليه بأقوالهم وأعمالهم .

فلا أثر اذن البتة لهذه التهمة بحق النصارى وانجيلهم . انه يذكر النصارى مرتين بقوله : « لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » (بقرة ١٢١) وقوله : « ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به » . (مائدة ١٥) ، وهذا القول لا يمت من قريب او بعيد الى تهمة التحريف التي يذكرها قبله (١٤) وبعده (٤٤) بحق فريق من اليهود . ولئن هو اضاف في المائدة ، بعد ذكر اليهود والنصارى (١٤ و ١٥) ، تهمة الاخفاء من الكتاب (١٦) فلا يقصد الا قوماً من اليهود فقط لأنه لا يخص النصارى بمثل هذه التهم على الاطلاق ، ثم لأن سياق الحديث لا يزال عن تغيير الرجم بالجلد (١٤) واخفاء نص الرجم عن الناس (١٦) كما ذكرت اسباب نزول هذه الآية .

ويستثني القرآن النصارى وبخاصة رهبانهم من مقاومة النبي الجديد من اول القرآن الى آخره في سورة التوبة . ويصرح بهذا الاستثناء حيث يذكر تهم المقاومة والتحريف والكتان والعداوة في سورة آل عمران (١١٣) والمائدة (٨٥) .

(٤) ان تهمة التحريف بحق فريق من اليهود تقتصر على آية او آيتين لا غير : ١ في حدّ الزنى بحسب التوراة هل هو الرجم ام الجلد ؛ ومدار الجدل وتغيير الكلم عن مواضعه في سورة المائدة (١٤ و ٤٤) هو عليه . قال الزمخشري : « روي ان شريقاً من خيبر زنى بشريفة وهما محصنان ، وحدثها الرجم في التوراة ، فكرهوا رجمها لشرفها . فبعثوا رهطاً منهم الى بني قريظة ليسألوا رسول الله (ص) عن ذلك وقالوا : ان امرئ مجرم بالجلد والتحميم فاقبلوا وان امرئ بالرجم فلا تقبلوا . وارسلوا الزانيين معهم فأمرهم بالرجم .

(١) يظهر ان لفظه « ولا النصارى » مدسوسة على الآية اذ لا شيء في سياق الحديث يقتضيها ، فغلافه ، الى سورة التوبة ، في القرآن كله مع اليهود وحدهم .

فأبوا ان يأخذوا به . فجعل بينه وبينهم حكماً ابن سوريا من فدك . فشهد بالرجم وشهد للنبي : انك رسول الله النبي الامي العربي الذي بشر به المرسلون ! وعليه المحدثون ، والمفسرون بالاجماع في تفسيرهم (مائدة ١٤ و ٤٤) ، وعليه اسباب النزول كلها (السيوطي في الجلالين) .

٢ ثم في صفة ونعت « النبي » الذي يذكره موسى في توراته : كان اهل مكة والمدينة يسمعون هذا الوصف قبل مبعث محمد . فلما بُعث ظنوا ان الوصف يعنيه . وقام بينهم وبين اليهود جدل كبير حول ذلك . وكان محمد يؤكّد انه هو « النبي الآتي » ويطالب اليهود بإظهار نص التوراة في وصف النبي المذكور فيحارلون كتابه واخفائه ، واذا اضطرّوا لتوّوا السنتم في التلاوة ليميلوا الالفاظ الى غير معنى .

ولا تجد في القرآن والاحاديث والتفاسير غير هاتين الآيتين يقصدهما القرآن عندما يتكلم على تحريف او كتمان مجريه بعض اليهود على بعض ما في التوراة .

النصوص الصريحة :

لقد حدّدنا الفاعل والمفعول في تهمة التحريف التي يذكرها القرآنت عند اهل الكتاب .

والآن فما معنى تلك التهمة ؟ لنراجع النصوص الواردة فالصريح منها اربعة :

النص الاول من سورة البقرة : « أفنتطمعون ان يؤمنوا لكم . وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه » (بقرة ٧٥) يذكر المفسرون ، ومنهم الزمخشري والبيضاوي ، ان السامعين كلام الله والمحرفين « طائفة من اسلافهم (اسلاف اليهود) ؛ وقيل هؤلاء من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور ثم قالوا سمعنا الله يقول في آخره : ان استطعتم ان تفعلوا هذه الاشياء فافعلوا وان شئتم فلا تفعلوا . والمعنى ان

اجبار هؤلاء ومقدميهم كانوا على هذه الحالة فما بالك بسفلتهم وجهالهم اليوم، !
فالنص يعني بعض معاصري موسى . ويعني انهم يتأولون كلام الله على
هوامم لا التغيير في النص النازل على موسى والذي سجله في التوراة . وما كان
لهم ان يفعلوا ذلك بحضوره، وما كان لهم اليه سبيل مع وجوده .

والقرآن صريح : ان هؤلاء القوم « يحرفون كلام الله من بعد ما عقولوه »
أي فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريبة . وهذا لا يعني تغييراً في النص بل
التأويل المغرض ، ولا يُقصد به اليهود والتوراة في زمان محمد بل التوراة
واليهود في ايام موسى .

وهب انه يقصد به توراة زمانه فالآية التالية (٧٥ و٧٦) تفسر التحريف
بالكتان : « واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم
ليحاجوكم به عند ربكم ؟ » يحاول فريق منهم ان يكتن على المسلمين « نعت النبي »
في التوراة ، فيحدثهم به الفريق الثاني الموالي للمسلمين ؛ فيختصم الفريقان
اليهوديان حول البوح بسر الكتاب الى قوم محمد . وهذا دليل قاطع على ان
لفظة « يحرفونه » لا تدل على تغيير النص بل على « تفسيره بما يشتهون » كما
ارتأى البيضاوي . وبما يزيد الدليل وضوحاً وقوة الخصام الناشب بين الطرفين .
ولا يمكن مع الخصام التواطؤ على تغيير النص لانه لو اعترزم على التغيير فريق
لتصدى الفريق الآخر الموالي للمسلمين واطلع هؤلاء على النص الحقيقي ومعناه
الراهن . فالنص اذن لم يُمس .

والنصوص الأخرى من سورة البقرة تبين ان التحريف المذكور هو
الكتان، أي كتان نص التوراة أو كتان معناه . انهم يكتمون الحق (٤٢)
أي نعت النبي في التوراة ؛ ويؤمنون ببعض ويكفرون ببعض (٨٥) أي لا
يعملون به ؛ ويؤمنون بما انزل عليهم ويكفرون بما وراءه (٩٠) أي بالقرآن
ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم لما عرفوا انه يشهد لمحمد (١٠١) . فكل
محاولاتهم اذن تعني كتان حقيقة الكتاب على المسلمين : « وان فريقاً منهم

ليكتبون الحق وهم يعلمون» (١٤٦)، «يكتبون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً» (١٧٥). ومع ذلك فإن هناك فريقاً آخر، هم الراسخون في العلم منهم «يتلون الكتاب حقيقاً تلاوته» (١٢١) ويظهرونه للمسلمين ويؤمنون بالقرآن.

وهكذا لا يوجد أي أثر في سورة البقرة للقول بتغيير وتبديل في نص التوراة، بل هناك شهادة صريحة بأن الراسخين في العلم منهم «يتلون الكتاب حقيقاً تلاوته» أي «يقرؤونه كما أنزل» (الجلالان).

النص الثاني من سورة النساء: «من الذين هادوا بحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا. واسمع غير مسمع! وراعينا! لئلاً بالسنتهم وطعناً في الدين!» (٤٥).

ان أوّل ما يتبادر الى الذهن هذا السؤال: ما المحرّف في هذه الآية
أكلام التوراة ام كلام القرآن ومحمد؟

وانّا لنجزم في يقين ان التحريف يقع على كلام القرآن او النبي لا على كلام التوراة بدليل قوله قبل الآية «يريدون ان تضلوا السبيل» (٤٣ و ٤٤)؛ وفيها: «لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلاً منهم» (٤٥)؛ فلا يعقل ان يكفر اليهود بتوراتهم، بل قد يجوز انهم فسروها على هواهم، ولا سيما وانه قد وصف حال تحريفهم الكلم عن مواضعه بقوله: «ويقولون: سمعنا وعصينا! واسمع غير مسمع! وراعينا! لئلاً بالسنتهم وطعناً في الدين!» (٤٥) وهي صفات أربع تشف عن نهكهم لاذع وطعن في الدين: ولا يعقل ان تكون من اليهود بحق كتابهم ودينهم! بل انها في كتاب لا يدينون به، وفي نبي لا يؤمنون برسالته، لهذا السبب يلعنهم لكفرهم وقلة ايمانهم (٤٥). وقد يكون المقصود كلام محمد لا كلام القرآن نفسه.

وهب ان «التحريف» المقصود يُسند الى التوراة، فهو لا يعني ضرورةً تغيير النص بل يفيد ايضاً تفسير المعنى بوحى الهوى : انه يقول «يخرفون الكلم عن مواضعه» التي وضعه الله فيها، اي عن معانيه، لا عن الفاظه. وقد جمع البيضاوي مجمل التفاسير لهذه الآية بقوله: «اي من الذين هادوا قوم يخرفون الكلم اي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها بإزالته عنها واثبات غيره فيها؛ او يؤوّلونه على ما يشتهون فيميلونه عما أنزل الله فيه، فالتحريف على رأيهم يتناول التغيير في اللفظ أو التغيير في المعنى؛ اذن ليس هناك ما يقول حتماً بتغيير اللفظ. ونستغرب منهم موقفهم المفروض اذ يقولون بتغيير اللفظ مع أن الآية صريحة في وصفها التحريف بأربع صفات لا يمكن ارجاعها الى اللفظ بل الى المعنى «ويقولون: سمعنا وعصينا! واسمع غير مسمع! وراينا! لياً بالسنتهم وطعناً في الدين». وهب ايضاً ان قوماً من الذين هادوا قد فسقوا وكفروا حتى «يلوون السنتهم» في توراتهم «ويطعنون في دينهم» ذاته، فكيف يسكت عنهم الراسخون في العلم منهم الذين «يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك»؟! (١٦٢).

فالأية اذن لا يُقصد بها التوراة، ولا يقصد بها تغيير لفظي في النص المذكور.

النص الثالث من سورة المائدة: «ولقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل... فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية: يخرفون الكلم عن مواضعه. ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلاً» (١٤). هذا النص يقع في مقطع واحد لا يتجزأ (١٣ - ٢١)، وهو حمله على اليهود بني اسرائيل (١٣) لنقضهم الميثاق الذي عاهد الله فيه على الايمان برسله وتعزيهم (١٧)؛ ولا يذكر النصارى فيه الا عرضاً (١٥) ليذكّرهم بميثاقهم، ولا ينسب اليهم فيه تحريفاً ولا مؤامرة على النبي.

واما اسباب نزول هذه الآية (١٤) والتي بعدها (١٤) فهي تعديل

اليهود حد الزنى من الرجم الى التحميم والجلد، كما ذكر السيوطي والزنجشيري .
فتحريف الكلم عن مواضعه يعني اذن هذا التأويل لا غير .

وإذا امعنا النظر في دقائق النص نرى ان الله لعن اليهود بسبب نقضهم
ميثاقهم الذي عهد الله فيه اليهم بالايمان بالرسول ومناصرتهم (١٣)، ومنهم محمد،
فقست قلوبهم وبانت لا قلين لقبول الايمان، بل مضت تحاول تأويل الميثاق
والميثاق به عن معناه بحسب اهوائهم؛ وقد نسوا حظاً مما ذكروا به على
لسان الأنبياء بوجوب الايمان بالنبي الآتي؛ فجاء محمد على فترة من الرسل يبين
لهم ما نسوه (٢١) ويبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب (١٦) .
فتحريف الكلم من ثم مقصور على نقض الميثاق وتناسي ذكر الانبياء، وإخفاء
اشياء من الكتاب على الناس .

فالتعبير « يحرفون الكلم عن مواضعه » يفسره ما قبله وما بعده من هذا
المقطع كله (١٣ - ٢١) : لقد أخذ الله على اليهود العهد بأن يؤمنوا برسوله
(١٣)، فنقضوا العهد ولم يؤمنوا بيحي ولا بعيسى ولا بمحمد؛ ووجدوا في
أنبيائهم نعت « النبي الآتي » فلما ظهر محمد كتموه وفسروه بمعنى آخر فغيروا
الكلم عن مواضعه أي عن معانيه . فهم لم يغيروا النص الأصلي بل «نقضوا
ميثاقهم» واهملوا العمل بما جاء في « ذكرهم » من نعت « النبي » وضرورة قبول
نبوته؛ ودسائسهم على النبي العربي لا تنتهي « فلا تزال تطلع على خائنة
منهم » . بيد ان جميع محاولاتهم هذه قد باءت بالفشل لأن الرسول « يبين لهم
كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب » (١٦) . وهذه الآية ١٦ الناطقة بالاخفاء
والكتمان تفسر الآية ١٤ عن التحريف . فالتحريف المذكور اذن لا يُقصد به
سوى كتمان النص أو كتمان معناه على الناس، لا غير .

النص الرابع من سورة المائدة ايضاً : « يا ايها الرسول لا يحزنك الذين
يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . ومن

الذين هادوا سمّاعون للكذب، سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك : بحرفون
الكلم من بعد مواضعه : يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه
فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً . أولئك الذين
لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب
عظيم » (٤٥) .

يعزّي الله الرسول عن كفر المنافقين من المشركين الذين آمنوا بأفواههم
ولم تؤمن قلوبهم ، وهؤلاء المنافقون من اليهود ؛ ونفاق اليهود يقسم على
« تحريف الكلم من بعد مواضعه » في حادثة معينة يذكر من ظروفها :
سماع قوم منهم لكذب قوم آخرين ، وتحريضهم لهم : « إن أوتيتهم هذا فخذوه
وإن لم تؤتوه فاحذروا » . وأجمع المحدثون والمفسرون ان الحادثة المذكورة
ترجع الى تفسير اليهود لآية الرجم في التوراة بالجلد . فالتحريف المنصوص عنه
هنا في القرآن يُقصد به آية واحدة بعينها . وهذا التحريف يفسره النص ذاته
بتغيير المعنى لا بتغيير اللفظ حيث يقول : « بحرفون الكلم من بعد مواضعه :
يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » فالتحريف اذن
انحراف في المعنى لا تبديل في اللفظ .

ومما يدعم قولنا ان « تحريف الكلم من بعد مواضعه » يراد به تأويل آية
الرجم بالجلد لا تغيير لفظها ، هو ما نعت به اليهود في قوله : « سمّاعون للكذب ،
سمّاعون لقوم آخرين » فالكذب على الكتاب هو تبديل معنى لا تغيير لفظ
وتحريف مبنى .

وإذا اقتصرنا على التعبير بحد ذاته « بحرفون الكلم من بعد مواضعه »
فصفة التعبير نفسها « من بعد مواضعه » تعني تحريف المعنى لا تغيير اللفظ .
وقد لحص البيضاوي مجمل التفاسير السابقة بقوله : « بحرفون الكلم من بعد
مواضعه ، أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها إما لفظاً بإهماله أو تغيير
وضعه ، وإما معنى بحمله على غير المراد واجرائه في غير مودده » . وكلاهما لا
يعني تبديل ألفاظ في النص بألفاظ غيرها ، فيقع التحريف بالمعنى الحصري .

والمقطع كله « سماعون للكذب ... يجرّفون الكلم من بعد مواضعه... »
يقولون : إن اوتينم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » قبل ذكره التحريف
ومعه وبعده لا يُقصد به سوى حمل الكلم، المقصود بسؤالهم، على غير المراد
منه واجرائه في غير موردّه فليس هناك دليل على تبديل ألفاظ بألفاظ غيرها .
وقد لاحظت، ولا شك، ان محاولة التحريف المعنوي المذكور قام بها
قوم « من الذين هادوا »، (« من » التبعية)، لا جميع اليهود معاً . والتحريف
من جانب افراد لمعنى آية يستحيل ان يتواطأ عليه الجميع ولا سيما اذا كانوا
على اختلاف كما هم عليه هنا اذ نراهم يختصمون الى النبي ويستفتونه فينتصر
للتفسير الحق . فليس من هذا القبيل ايضاً خوف على تحريف وتغيير في لفظ
التوراة .

ويختم هذا المقطع بذكر عداوة اليهود ومودة النصارى للمسلمين (٨٥) ؛
وفيه حصر آخر لفاعل التحريف ومعناه ومرماه . فيكون بما تقدّم ان تهمة
التحريف تنحصر في تغيير نفر من اليهود لمعنى آية واحدة لا غير .

فقل، بربك، ألا ترى تلك التهمة الخطيرة المدوية أنها مجرد فرقعة ! وهل
يستحق تغيير نفر من اليهود لمعنى آية الرجم بالجلد كل هذه الضجة الصاخبة،
واتهامهم اليهود كلهم تعسفاً وافتراءً بتحريف الكتاب اجمالاً ؟ ! « وإن اوهن
البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » ! (٤١) .

تهم غير صريحة

وهناك تهم غير صريحة تفسّر بمجموعها معنى التحريف المذكور في القرآن .
انه يتهم اليهود بالكفر بالوحي الجديد مع انه مصدق لما معهم (بقرة ٤١
و ٨٩ آل عمران ٦٩) .

ويتهمهم أنهم يُلبسون حقيقة معنى الكتاب بباطل تفسيرهم : « ولا تلبسوا
الحق بالباطل » (بقرة ٤١ آل عمران ٦١) .

ويتهمهم أكثر الاوقات بكتان معنى الكتاب عن الناس « لا تلبسوا الحق بالباطل، وتكتموا الحق وانتم تعلمون » (بقرة ٤١)، او كتان نص بعض الآيات: « يكتمون ما انزل الله من الكتاب، اذ يجعلونه قراطيس نبدونها وتخفون كثيراً » (انعام ٩١) بيدانه « يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب » (مائدة ١٦) .

يتهمهم بلسي السنتم في تلاوة الكتاب « لتحسبوه من الكتاب » (آل عمران ٧٨) وفي قراءة القرآن « لياً بالسنتم وطعناً في الدين » (نساء ٤٥) .

يتهمهم بالاعراض عن التوراة عند تحكيمها : فإذا استشهد محمد بالتوراة « نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » (بقرة ١٠١) و« يُدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » (آل عمران ٢٣) .

يتهمهم باخفاء الكتاب عن الناس لما ربههم وقد امرهم الله ان يبينوه لهم « لتبيننه للناس ! ولا تكتمونه ! فنبدوه وراء ظهورهم واشتروا به ثناً قليلاً » (آل عمران ١٨٧) .

يتهمهم بنقض الميثاق الذي عقده الله معهم باتباع رسله والايمان بالرسول الاعظم الذي نجتهم فنقضوا العهد (المائدة ١٣) .

يتهمهم بالتظاهر بالايمان مع اضمار الكفر وهذا هو النفاق : « واذا لقوكم قالوا آمنا . واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » (آل عمران ١١٩) ، وينافقون دائماً : « آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار و كفروا آخره لعلهم يرجعون » (آل عمران ٧٢) .

فكل هذه التهم ترجع في جوهرها الى موقف واحد: كتان بعض اليهود لبعض آيات التوراة، كتان نص الآية او كتان معناها الحقيقي كي لا يستشهد بها محمد وقومه : « اتحدثونهم بما فتوح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم افلا تعقلون؟ » (بقرة ٧٦) ؛ كانوا يخفون معنى بعض الآيات بشتى محاولات التأويل

الباطل والتفسير العاطل، وهذا كله ليس من التحريف الحقيقي في شيء لأن التحريف بمعناه الحصري هو تغيير النص بنص غيره .

وهذا التحريف اللفظي كان مستحيلاً بشهادة القرآن نفسه إذ عني تلميحاً وتصريحاً، كما رأينا، التحريف المعنوي لا اللفظي لبعض الآيات . وقد أظهر النبي « كثيراً بما كانوا يخفون من الكتاب » (مائدة ١٦) خاصة آية الرجم (مائدة ٤٤)، وآية نعت محمد (مائدة ١٤) . فلا مجال بعده للخوف من خطر التحريف ؛ فضلاً عن ان القرآن قد جاء مصداقاً للكتاب ومهيماً عليه فلا يمكن ان يشهد للتحريف ؛ ويشهد ايضاً ان المحاولة بإفساد بعض معاني الكتاب كانت من فريق من اليهود لم يُقرّم عليها الفريق الآخر ؛ وانها كانت محاولة فاشلة فضحها الموالون للنبي والمسلمين : « وان من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً » (آل عمران ١٦٩)، ولا سيما وان من هذا الفريق الكتابي رجالاً راسخين في العلم : « والراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك » (نساء ١٦٢)، وكانوا يتلون الكتاب حق تلاوته : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، اولئك يؤمنون به » بالكتاب والقرآن (بقره ١٢١) . فكيف يمكن ان يسمع ذلك النفر الصالح من الراسخين في العلم ، يؤيدهم محمد بقوته وقوة المسلمين، ان يمسّ خصومهم نص التوراة عابثين محرفين؟! ان محاولة الخصوم كانت فاشلة من كل الوجوه !

لقد ثبت من مراجعة القرآن كله، على نحو ما تقدم، ان تهمة التحريف متأخرة فهي من المدينة وليست من مكة . وهذه التهمة ملصقة باليهود وتوراتهم ولا يُقصد بها إطلاقاً النصارى وانجيلهم . وهي تُنسب الى نفر من اليهود فقط لا الى جميعهم ؛ وهي مقصورة على آية او آيتين من التوراة لا غير: آية الرجم في حد الزنى، وآية نعت النبي الآتي ؛ واعتزام هؤلاء النفر على تحريف

تبنك الآيتين كانت محاولة فاشلة، فضحها النبي كما فضحها الراسخون في العلم من أهل الكتاب. ومع ذلك فما كانت تعني تحريفاً لفظياً بل انحرافاً معنوياً ينحصر في كتابان معنى الآيتين المذكورتين .

لقد عني القرآن التحريف المعنوي - المحسود الفاعل والمفعول - لا التحريف اللفظي . وإذا فسرهُ بعض المسلمين بتغيير نص الكتاب فقد جاروا هوام لا علمهم، ولا نصوص القرآن الكريم . فالرازي الرصين بعد ان يعرض تفسيرهم ذاك يعقب عليه بقوله : « إن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة وحرف اللفظ عن معناه الحق الى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية كما يفعله اهل البدع في زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذهبهم . وهذا هو الاصح » . وفي موضع آخر : « التحريف يحتمل التأويل الباطل ويحتمل تغيير اللفظ وقد بيئنا فيما تقدم أن الأول أولى لأن الكتاب المنقول بالتواتر لا يتأتى فيه تغيير اللفظ » . وهذا هو القول الفصل يدعمه البحث التزيه والعلم البعيد عن الهوى .

وهكذا فقد شهد القرآن بصحة الكتاب المقدس أي التوراة والانجيل وسائر الأسفار وسلامتها من التحريف .

وفصل الخطاب في هذا الأمر هو شهادته الصريحة : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته » (بقرة ١٢١) أي « يقرؤونه كما أنزل » على حدّ تفسير الجلالين .

نزيب على استخالة تحريف الكتاب

لقد ثبتت لنا استحالة التحريف كتابياً، موضوعياً من شهادة القرآن نفسه .
 واذا ارتقينا الى جوّ أوسع واعم اتضحت لنا استحالة التحريف من كل الوجوه .
 يستحيل التحريف تاريخياً :

ان تهمة التحريف لا تُسند ابداً عندهم الى فاعل او مفعول بعينه، الى
 زمان ومكان معين . فاذا سألت : من المحرّف : اليهود ام النصاري أم
 الاثنان معاً؟ الاقدمون منهم ام المحدثون؟ العرب منهم أم الاجانب؟
 ما اثاروا جواباً! . . . واذا استوضحت عما هو محرّف : الكتاب كله، ام
 جلته، أم بعضه؟ ما ندسوا قط ببنت شفة! . . . يظنون ان التحريف واقع
 في الآيات التي تنبأت عن محمد؛ ولكن ما هي؟ ومن يعرفها؟ وهل كان ذلك
 قبل المسيح ام كان بعده؟ قبل محمد ام في زمانه؟ لا تعلم! . . . ومهما يكن
 من امر فان اثبات تهمة التحريف تاريخياً تقتضي اظهار النص الأصلي والنص
 المحرّف، ثم مقابلتها الواحد بالآخر : فأين الاول واين الآخر؟ .

يستحيل التحريف فلسفياً :

من المسلمات البديهية انه لا يجتمع الايمان بشيء والكفر به على صعيد
 واحد وفي آن واحد؛ فلا يمكن من ثم ان يؤمن اليهود بكتابهم ويحرفونه!
 لا يمكن ان يؤمن النصاري بانجيلهم وينفثونهم! لا يمكن ان يؤمن المسلمون
 بقرآنهم ويبدّلونه! وهب ان نفراً فاسقاً قصد ذلك فلا يعقل ان يكفر جميع
 المؤمنين معاً حتى يفعلوا بكتابهم ما يفعلون . واذا ما قسلة فاسدة حاولت
 التحريف تصدّت لها الكثرة الصالحة وابطلت محاولتها .

يستحيل التحريف اجتماعياً :

من اليقين الثابت ان الانجيل والتوراة كانا قد انتشرا قبل مجيء محمد في
 كل زمان ومكان انتشاراً عظيماً جداً حتى أُسميا «الكتاب» وُسّمي اليهود

والنصارى « اهل الكتاب » فهو عَلمٌ مُعلمٌ على جميع الكتب المبثوثة في العالم، واصحابه معروفون به، كما يظهر ذلك من القرآن نفسه الامر الذي يجعل محاولة التحريف شيئاً مستحيلاً اذ لا يمكن ان يتواطأ جميع الناس من كل الامم وكل الالسنه والاجناس على جمع كل النسخ، وكل النشرات وكل الترجمات وجرّوا كلام الله وما يكون من بقية باقية تنتصر للوحي الكريم وتبعث صرخة الاعتراض مدوية . واذا ضيقنا رقعة الزمان والمكان لنصل الى زمن نزول التوراة او الانجيل نرى انها تولا على مسمع ومشهد من أمة بكاملها، ونقلها بالسمع قبل ان ينقلا بالكتابة . وقد لحص الرازي الراي العام الصحيح بقوله : « ان الكتاب المنقول بالتواتر لا يتأني فيه تغيير اللفظ » .

يستحيل التحريف منطقياً :

لقد اختلف اليهود شيعاً متضاربة واختلف النصارى فرقاً متحاربة، واختلف المسلمون بدعاً متباغضة . وقد قال في ذلك حديث شريف : « افرقت اليهود على احدى وسبعين فرقة، وافرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وافرقت امتي على ثلاث وسبعين فرقة » ! ومع ذلك فالكتاب واحد بنصه عند الجميع كل يقرّ هذا النص بلفظه، وكل يؤيد رأيه بما يشقّ من هذا النص ومن آيه ! فهل يمكن التحريف والكل عين على خصمه ؟ !

يستحيل التحريف اثرياً :

قبل محمد بآت السنين كان كتاب اليهود وبخاصة كتاب النصارى قد فسروا في كتاباتهم آيات الكتاب باجمعها حتى لو ضاع لجمعوه من تلك النصوص المبثوثة . ونقدر اليوم ان نتحقق كل ذلك ونقارن بين الأصل والاقباسات . أمن المعقول ان تُلأشى من الوجود كل هذه الكتب والمنشورات والنسخ في جميع الامم والبلدان حتى يمكن التحريف ؟ ان القول بمثل ذلك لا يأخذ به عاقل .

واخيراً توجد اليوم في كبريات المكتبات ودور الكتب نسخ عن الانجيل والتوراة مع ترجمات متعددة، من كل العصور، قبل المسيح وبعده، خاصة من القرن الاول الميلادي الى القرن السادس اي الى ظهور محمد : وهناك نسخة ملكية من القرن الرابع، من عهد قسطنطين الملك النصراني الاول، بل بالحري اربع نسخ متجانسة ترتقي الى ما قبل محمد بعثي سنة ونيف، وتعرف باسم مصدرها او مقرها الأثري بالغاتيكانية والسينائية والاسكندرية والافرامية في مكتبات رومة ولندن وباريس يمكن مقابلتها بالنص المتداول اليوم وكل يوم : فلا تحريف ولا تباين يذكر ! وعن هذه النسخ العريقة ينقل علماء المؤمنين وغير المؤمنين النص الكريم ولا احد يقدر ان يقول بتحريف .

ان الكتاب يحمل كلمة الخلاص الى كل زمان وكل مكان، فلئن ضاعت هذه الكلمة أو فسدت او حرقت ضاع على الله سبحانه قصده الخلاصي ! فهو مسؤول عن حفظ كتابه : « إنا نحن انزلنا الذكر وانا له حافظون » ، ونعم المسؤول ونعم الوكيل ونعم الحفيظ !

قيمة الكتاب في القرآن

« لهم الجنة وعداً عليه حقاً في التوراة
والانجيل والقرآن » (توبة ١١١)

للقرآن نظرية طريفة في قيمة الكتاب عامة والقرآن .

إنه يعتبر للكتاب كله وللقرآن قيمة واحدة ودرجة واحدة ومنزلة واحدة؛
وآي الذكر الحكيم في مكة والمدينة تشهد بذلك . أولم يُختم القرآن كله بهذه
الآية من سورة التوبة : « إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم
الجنة . يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة
والانجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم
به . وذلك هو الفوز العظيم ! » (توبة ١١١) .

آية ملأى بالمعاني : للكتب الثلاثة درجة واحدة في التعبير وسباق الكلام؛
ومنزلة واحدة في المرمى والغرض : اله واحد يعد في الثلاثة ويشترى؛
ومؤمنون متماثلون يقبلون عهد الله في الثلاثة؛ وجهاد واحد مفروض على الجميع؛
رعاية واحدة في الثلاثة للجميع : لهم الجنة ! وهذا الوعد وهذا البيع وهذا
الفوز العظيم واحد في التوراة والانجيل والقرآن؛ فللثلاثة اذن، على حسب
شهادة القرآن الاخيرة، منزلة واحدة ودرجة واحدة وقيمة واحدة!
ويعدّد القرآن نواحي هذه الوحدة في المنزلة والقيمة .

الموحى في الثلاثة واحد، هو الله

هو أوحى الثلاثة على السواء: « الله لا إله الا هو، الحي القيوم نزل عليك

الكتاب بالحق، مصدقاً لما بين يديه . وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس . وأنزل الفرقان» (آل عمران ٢ و ٣) .

وهو أوحى للجميع على السواء : «إنا أوحينا إليك ، كما أوحينا الى نوح والنبين من بعده . وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان . وآتيننا داود زبوراً... وكلم الله موسى تكليماً : رسلاً . مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» (نساء ١٦٣) .

إله واحد، ووحي واحد، وغاية واحدة : فليكتتاب والقرآن قيمة واحدة.

الكتاب السماوي، اصل الكتب المنزلة، هو واحد

يعلم القرآن ان للكتب المنزلة جميعاً أصلاً واحداً في السماء عند الله .

يسميه «اللوحة المحفوظ» (بروج ٢٢) «وام الكتاب» : وإنه في ام الكتاب لدينا» (زخرف ٤) «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب» (رعد ٤١) ؛ أو «الكتاب» : «ولدينا كتاب ينطق بالحق» (مؤمنون ٦٣)؛ أو «الكتاب المبين» الذي به يستهل أقسام السور (زخرف ١) أو «الإمام المبين» : «وكل شيء أحصيناه في إمام مبين» (يس ١٢) .

فبما أن للكتب المنزلة أصل سماوي واحد فهي واحدة في قيمتها من جميع الوجوه .

والكتاب المنزل على جميع الانبياء واحد

أنزل الله كتابه على كل واحد من الانبياء المرسلين : «كان الناس امة واحدة ؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» (بقره ٢١٣) .

وعلى اساس هذا الكتاب المنزل الواحد بحاسب الله جميع الناس : « الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رُسُلنا فسوف يعلمون اذ الأغلالُ في اغناقهم والسلاسل، يُسحبون في الحميم ثم في النار يُسجرون، (غافر ٧٠) .

ولو تعددت النسخ مع موسى وداود وعيسى ومحمد، فلا يزال الكتاب المنزل واحداً : « وقفينا على اثرهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور . وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه (قبله) من الكتاب ومهيماً عليه » (مائدة ٤٦ - ٥١) .

فبما ان الكتاب المنزل واحد في التوراة والزبور والانجيل والقرآن فجميع اذن منزلة واحدة .

رسالة الانبياء في الكتاب والقرآن واحدة .

واحدة عند الله : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق » (بقره ٢١٣) .

واحدة بين الناس : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله : لا نفرق بين أحد من رُسله » (بقره ٢٨٥) .

ان وحدة الرسالة لعقيدة راسخة في القرآن (بقره ١٣٦، نساء ١٣٦ و١٦٣، آل عمران ٨٤) .

فبما ان الرسالة واحدة في الكتاب والقرآن فلها درجة واحدة .

التعليم واحد في الكتابين بشهادة القرآن .

الايان « بالله واليوم الآخر » هو خلاصة تعليم جميع الأنبياء في جميع الكتب

المنزلة . بهذا التعليم يُفتح القرآن، ويُطوى، ويُختم : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والناصري والصابئين^١ : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (بقره ٦٢) ؛ وكذلك ايضاً الحج ١٧ و٦٧ والمائدة ٦٩ .

وكثيرة هي السور التي تروي قصة بعثتهم في سلسلة متأسكة الحلقات، يأتي فيها كل نبي يقول كلمته ويمشي : « الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

ويتعاون الكتاب والقرآن في الدعوة الى الهدى، ويعضد بعضهما بعضاً : « قل فاتوا بكتاب من عند الله أهدي منها اتبعه إن كنتم صادقين » (قصص ٤٩) .

والقرآن يتخذ الكتاب إمامه في الهدى : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا، وبشرى للمحسنين » (احقاف ١٢) ؛ وبناء على هذه الشهادة فالقرآن لا يختلف عن الكتاب الا باللسان العربي .

لذلك فالقرآن والكتاب لها اعتبار واحد .

والدين في الكتاب والقرآن واحد : وهو إسلام التوحيد .

جميع الأنبياء في الكتابين كرزوا بالتوحيد أي بالاسلام الذي هو دين الله : « أفغير الله يبتغون وله أسلم من في السماوات والارض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون . قل آمننا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى من ربهم : لا نفرق بين

(١) الصابئون : يهود متصرفون على هامش اليهودية والنصرانية، وربما من تلاميذ يوحنا المعمدان . وليسوا بالمجوس كما زعموا .

أحد منهم ونحن له مسلمون ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين» (آل عمران ٤٣ - ٤٥) .

ويشهد القرآن في غير موضع ان اليهود والنصارى والمحمديين مسلمون : «ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً : أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» ! (آل عمران ٨٠) ؛ الخطاب لأهل الكتاب على ما يتضح من سياق الحديث ؛ وفيه موعظة للمسلمين .

ويشهد بخاصة على لسان أهل الكتاب أنهم مسلمون قبل نزول القرآن : «الذين آتيناهم الكتاب من قبله (القرآن) هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به ، انه الحق من ربنا : إنا كنا من قبله مسلمين» (قصص ٥٣) ؛ ذلك «يدل على ان ايمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذ وإنما هو أمر تقادم عندهم لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة وكونهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن أو تلاوته عليهم» (البيضاوي) .

وخلاصة القرآن والكتاب تنحصر في تعليم توحيد الإسلام أو اسلام التوحيد : «هذا ذكر من معي وذكر من قبلي : وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا إله الا أنا فاعبدون» (انبياء ٢٤ و ٢٥)^١

فدين الكتاب والقرآن هو «الإسلام» . واسم الموحدين في القرآن والكتاب هو «المسلمون» . هكذا ورد اسمهم في الكتب المتقدمة وفي الكتاب الأخير : «وجاهدوا في الله حق جهاده : هو اجتباكم ، ملّة ابراهيم ابيكم ؛ هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا»^٢ . ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس» (الحج ٧٨) .

فبما ان الدين واحد في الكتابين فلها حرمة واحدة .

(١) «ذكر من معي : أي أمّتي وهو القرآن ؛ وذكر من قبلي : أي من الأمم وهو التوراة والانجيل وغيرها من كتب الله . ليس في واحد منها ان مع الله لها مما قالوا» (الجلالان) .

(٢) من قبل : في الكتاب . وفي هذا : في القرآن (الزمخشري والبيضاوي والجلالان)

والايمان بالكتابين واحد

يا محمد قومه بأن يؤمنوا ايماناً واحداً بالوحي الجديد والقديم : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، (نساء ١٣٦) .

ويجعل هذا الايمان من أركان الاسلام : « ليس البير ان تولتوا وجوهكم قبيل المشرق والمغرب ولكن البير من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين » . (بقره ١٧٧) .

ويشجب التفرقة في الايمان بالكتب المنزلة والرسل والدعوات : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله : لا نفرق بين أحد من رسله » (بقره ٢٨٥) .

ويشدّد في توحيد الايمان بما في الكتاب والقرآن : « ان الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون ان يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، اولئك هم الكافرون ؛ واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم اولئك سوف يؤتيهم اجرهم » (نساء ١٥١) .

لذلك يجب ان يكون للناس ثقة واحدة بالكتاب والقرآن .

القرآن نسخة عربية عن الكتاب .

جاء محمد ليعلم قومه الكتاب الذي كانوا يجهلونه : « كما ارسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » (بقره ١٥١) .

غفلوا عن دراسة الكتاب الذي نزل على طائفتين من قبلهم فجاء القرآن يملأ هذا الفراغ : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك . . . ان تقولوا إنما أنزل

الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين، (أنعام ١٥٦)؛
فسبب نزول القرآن اذن هو عدم قراءة العرب للكتاب الذي نزل على اليهود
والنصارى، لجهلهم لغته : فهو ينقله لهم بلسان عربي مبين ليقرأوه .

فالكتاب هو القرآن معرباً : « وانه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح
الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين، وانه لفي زبر الاولين،
(شعراء ١٩٣) .

والقرآن هو الكتاب بلسان عربي مبين : « والكتاب المبين، إنا جعلناه
قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (زخرف ٢ و ٣) .

ويذكر مرتين بصراحة جاهرة أن إمامه الكتاب : « ومن قبله كتاب موسى
إماماً ورحمة، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً » (احقاف ١٢) . كذلك
(هود ١٧) .

ومن ثم، فاذا ما كان القرآن نسخة عربية عن الكتاب، فيجب لها احترام
واحد، وبها ايمان واحد .

القرآن تصديق الكتاب

يصرح بذلك مراراً : « يا بني اسرائيل آمنوا بما أنزلتُ مصدقاً لما معكم،
(بقرة ٤١، ٨٩، ٩١، ١٠١) . والرسول ذاته لا ينسب الى نفسه رسالة سوى
تصديق الكتاب : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق
من الذين اوتوا الكتاب، كتاب الله، وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون،
(بقرة ١٠١) .

يستغرب النبي العربي عدم ايمان اليهود به وبكتابه « وهو الحق مصدق
لما معهم » .

وهذا التصديق يعنى حتى يبلغ درجة الهيمنة : « وأنزلنا اليك الكتاب
بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيماً عليه، (مائدة ٥١) أي شاهداً

للكتاب (الجلالان)، ورقبياً على سائر الكتب يشهد لها بالصحة والثبات (البيضاوي).

فاذا كانت غاية القرآن والنبي العربي تصديق الكتاب فيجب للكتاب والقرآن كليهما محبة واحدة من الجميع.

وأخيراً، لا أخيراً، القرآن تفصيل الكتاب

يردّد هذه الحقيقة مراراً: «ما كان هذا القرآن أن يُفتري من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب، لا ريب فيه، من رب العالمين» (يونس ٣٧)؛ إنه مطابق لما تقدمه من الكتب الالهية، المشهود بصدقها، وهو شاهد على صحتها (البيضاوي).

وأهل الكتاب شهود على ذلك التفصيل الوارد في القرآن: «أفغير الله ابتغي حكماً. وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً؛ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكوننّ من الممترين» (انعام ١١٤). أتلاحظ من تعريف الكتاب في الموضوعين انه يعتبر المنزل على محمد والمنزل من قبل واحداً، وان الثاني تفصيل الاول.

فالقرآن من الكتاب: «اتل ما اوحى اليك من الكتاب... وكذلك انزلنا اليك الكتاب. فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به» (عنكبوت ٤٥-٥٠).

فما أن القرآن من الكتاب وتفصيل له، فقيمته من قيمة الكتاب.

كل هذه الاعتبارات وغيرها يجعل، بشهادة القرآن نفسه، للكتاب والقرآن رتبة واحدة وقيمة واحدة ودرجة واحدة ومنزلة واحدة؛ وقد جمعها على صعيد واحد في آخر ما نزل منه: «فقد اشترى الله من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة... وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن» (توبة ١١١).

قيمة الانجيل في القرآن

«واتيناه الانجيل فيه هدى ونور» (مائدة ٤٦)

للانجيل والقرآن بنوع خاص قيمة واحدة في نظر النبي العربي، بسبب النعوت والصفات الواحدة التي يطلقها سواءً بسواء على القرآن والانجيل.

انفرد المسيح بين الانبياء والمرسلين جميعهم بتأييد الروح القدس: «ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول. وآتينا عيسى ابن مريم البيئات وأيدناه بروح القدس» (٨٧). وكان هذا التأييد نعمة خاصة من الله يذكر الله بها المسيح: «اذ قال الله: يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ ايدتك بروح القدس» (مائدة ١١٣). بفضل هذا التأييد خرج عن نواميس الطبيعة بحياته الفريدة، واختصه الله بين الانبياء بالانجيل (مائدة ١١٣)؛ وبفضل هذا التأييد صار المسيح مفضلاً على المرسلين: «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض. منهم من كلم الله. ورفع بعضهم درجات. وآتينا عيسى ابن مريم البيئات وايدناه بروح القدس» (بقرة ٢٥٣).

الانجيل وحي مباشر: اختص الله المسيح بوحي الانجيل: «ثم قفينا على آثارهم برسلنا. وقفينا بعيسى ابن مريم وآتينا الانجيل» (حديد ٢٧). وأوحاه اليه مباشرة بدون واسطة كما فعل مع سائر الانبياء: «ويعلمه (الله) المسيح» الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل»، (آل عمران ٤٨)؛ وتعلم المسيح كذلك مباشرة من الله الكتب المنزلة كلها: «واذ علمتكم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل» (مائدة ١١٣، آل عمران ٤٨).

والانجيل هو الكتاب نزل على المسيح: «قال (المسيح في مهدده) إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً» (مريم ٣٠). والانجيل، بالاضافة الى

الوحي الجديد النازل فيه ، يحوي الوحي القديم كله : « وآتيناها الانجيل فيه هدى ونور ومصداقاً لما بين يديه من التوراة » (مائدة ٤٦) .

الانجيل علم التوحيد قبل القرآن : « وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون : إن الله ربي وربكم فاعبدوه : هذا صراط مستقيم » (آل عمران ٥٠ - ٥١) ، ومنع الشرك بالله حتى في المسيح نفسه : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم : وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يُشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار » (مائدة ٧٥) .

الانجيل كالقرآن : كلاهما تنزيل الحبي القيوم : « الله ، لا إله الا هو ، الحى القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس » . (آل عمران ٣) . كذلك (غافر ٢) .

وكلاهما محتويان وحي الله : « إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى . . . عيسى » (نساء ١٦٣) .

وكلاهما يُدعيان الكتاب على السواء . أنزل الله الكتاب مع جميع الانبياء : « بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق » (بقره ٢١٣) : فالقرآن هو الكتاب « تلك آيات الكتاب المبين (قصص ٢) ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » في مطلع عدة سور (شعراء كهف السجدة) . والانجيل هو الكتاب ايضاً : « قال اني عند الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً » (مريم ٣٠) .

وكلاهما الذكر الحكيم : « وما ارسلنا قبلك الا رجالاً نوحى اليهم فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (انبياء ٧) ، « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (نحل ٤٤) . وقد أطلق لفظة الذكر على الاثنين في آية واحدة : « وما ارسلنا من قبلك الا رجالاً نوحى اليهم فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزُّبر . وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (نحل ٤٣ و ٤٤) . كذلك في قوله : « هذا ذكر من معي وذكر من قبلي » (انبياء ٢٣) . فالذكر مرادف للكتاب ، وكلاهما يطلقان على الكتابين .

وكلاهما فرقان، قال: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده» (فرقان ١).
وقال عن الانجيل والتوراة: «نزل عليك الكتاب... وأنزل التوراة
والانجيل... وأنزل الفرقان» (آل عمران ٣ و ٤).

ترد الالقاب «كتاب، ذكر، فرقان» مترادفة في الانجيل والقرآن.

وكلاهما يحتويان الحق على السواء: «وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله! قالوا
نؤمن بما أنزل إلينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم» (بقرة ٩١)
كذلك «إن الله نزل الكتاب بالحق» (بقرة ١٧٦، يونس ٩٤).

وكلاهما نور وهدى: إذا كان القرآن هدى «فإنه نزل على قلبك بأذن الله
هدى وبشرى للمؤمنين» (بقرة ٩٧) فالانجيل هدى ونور: «وقفينا على اثرهم
بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور» (مائدة ٦٤).

وكلاهما رحمة للعالمين بل الانجيل قبل القرآن: جاء القرآن هدى ورحمة:
«وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه، وهدى ورحمة
لقوم يؤمنون» (نحل ٦٤) كما جاء الانجيل والمسيح آية ورحمة: «قال ربك:
هو عليّ هتّين: ولنجعله آية للناس ورحمة منا! وكان امراً مقضياً» (مريم ٢١).

وفيها كليهما على السواء وعد الله العظيم لمختاربه بالجنة «وعداً عليه حقاً في
التوراة والانجيل والقرآن» (توبة ١١١)، «يا ايها الناس ان وعد الله حق فلا
تفرتكم الحياة الدنيا» (فاطر ٥).

والانجيل يحوي احكام الله مثل القرآن: «وكيف يحكمونك وعندهم
التوراة فيها حكم الله» (مائدة ٤٣) كذلك «وليحكم اهل الانجيل بما أنزل
الله فيه: ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون» (مائدة ٤٧ - ٥٠).

بل القرآن يهدي الى سنن ما قبله: «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن
الذين من قبلكم» (نساء ٢٥) كما يقتدي بهدى الكتاب واهله: «اولئك الذين
هدى الله فبهدهم اقتد» (انبياء ٩٠).

وحكم الانجيل باقٍ الى زمن القرآن ومعه وبعده . ذلك ان الانجيل يحوي
شرعة نهائية ملزمة لأهلها مثل القرآن : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ،
ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة » (مائدة ٤٨) .

ويهدد القرآن اهل الانجيل والتوراة ان لم يعملوا بما فيها : « قل يا اهل
الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من
ربكم » (مائدة ٦٨) .

وهكذا ترى ان النبي العربي يجعل للقرآن والانجيل قيمة واحدة، من
الألقاب التي يضيفها على الكتابين، ومن الصفات والنعوت التي تترادف بين
الاثنين، ومن المواضيع الواحدة الواردة في الذكْرَيْن . وقد جمعها في قوله :

« لهم الجنة... واعدأ عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن » (توبة ١١١) .

حقاً لقد كان الانجيل وما يزال « هدى ونوراً » .

موقف القرآن من أهل الكتاب

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة... وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن » (توبة ١١٢).

يسود المسلمون والنصارى آراء غريبة في علاقاتهم بعضهم ببعض. فكثيرون من أهل الانجيل يفتكرون بإخوانهم ما لا يليق مع أن المسيح أوصاهم بحبة جميع الناس، حتى اعداءهم أنفسهم. وكثيرون من أهل القرآن يعتقدون بأهل الكتاب غير الذي جاء به محمد ونزل به القرآن، فيعتبرون النصارى واليهود شركين أو كافرين! مع انه لا وجود لآية واحدة تصرح بمثل ذلك. وبكلمة واحدة جريئة يعتبر بعض المسلمين أهل الكتاب أعداء دين! فما هو موقف القرآن من أهل الكتاب؟

لقد رأينا، فيما سبق، الموقف الديني^١: كان الاسلام في مكة كتابياً محضاً فأمسى في المدينة توحيداً قومياً عربياً على طريقة الحنفاء. وهذا التوحيد الكتابي ظل في المدينة كتابياً في العقيدة كما كان في مكة، ولم يتطور فيه الا التشريع، وفي فروعه لا في أصوله. ففيما كان في مكة ينحو منحى الشريعة الكتابية، أخذ في المدينة يُهمل أحكام الانجيل والتوراة ويتقرب من شرائع قومه مع صبغها ودمجها بالتوحيد كما كان يفعل الحنفاء قبله (نساء ٢٥-٢٧). لقد ظلّ الاتفاق في العقيدة التوحيدية قائماً في مكة والمدينة حتى النهاية.

(١) راجع فصل « التوحيد القرآني كتابي » وفصل « هل نسخ القرآن الانجيل ».

والاختلاف في التشريع أو بالحري في فروع الشريعة، أي الأحكام الثانوية، لا يضير وحدة الدين والايان في شيء .

والآن ندرس الموقف السياسي .

فالقرآن لا يعتبر أهل الكتاب اعداء دين : وكل ما رأيناه حتى الآن يعارض هذه التهمة، بل يعتبرهم - إذا هم لم يخضعوا للدولة الاسلامية - خطراً اجتماعياً عليها وخصوصاً سياسيين لها .

كان الاسلام ديناً في مكة فأسمى دولة في المدينة ؛ وحدّ الدين في مكة بين اهل الكتاب وأهل القرآن، ففرقتهم السياسة في المدينة .

الموقف العام

بهذا المبدأ العام الجامع المانع، الآتي في اول سورة من القرآن بحسب ترتيبه الحالي واول سورة نزلت في المدينة - نريد سورة البقرة التي هي اعظم سور القرآن على الاطلاق، بدأ محمد كرازته : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (بقرة ٦٢) ؛ وبهذا المبدأ ذاته ختم محمد حياته وكرازته، على ما جاء في سورة المائدة التي هي من اواخر حياة النبي العربي ولم يعقبها الا التوبة لا غير : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون، والنصارى : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (مائدة ٦٩) : لقد ختم كما بدأ .

(١) ادعى بعضهم ان الآية ٦٢ من البقرة نسخت بالآية ١٩ و ٨٥ من آل عمران : « ان الدين عند الله الاسلام . . . ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » . - لقد رأينا ان العقيدة المنزلة حقيقة خالدة لا تتنسخ ولا اثر لهذا الزعم في القرآن كله. وفاتهم ايضاً ان الآية ١٩ و ٨٥ من آل عمران اذا نسخت ما قبلها من سورة البقرة لا تنسخ ما بعدها من سورة الحج (٧٨) والمائدة (٦٩) ؛ وكيف تنسخها ومعنى

يسرنا ان نقول إن هذا المبدأ هو روح كرازة جميع الأنبياء في كل زمان
ومكان . قال بولس الرسول : « بغير ايمان لا يستطيع احد ان يرضي الله لأن
الذي يدنو الى الله يجب عليه أن يؤمن بأنه كائن وأنه يثيب الذين ينتفونه »
(عبر ١١: ٦) . هذا هو جوهر الدين كله : الايمان بالله واليوم الآخر . ولا يكفي
الايمان وحده بل يجب « عمل الصلاح » بحسب هذا الايمان ، كما قال يعقوب
الرسول ، احد الحواريين ايضاً : « الايمان بغير الاعمال ميت » (٢ : ٢١) .
وهذا ما يقره العقل السليم .

يقرن القرآن ذاك المبدأ العام بعبادة عامة توضح موقفه : انه يسمي
النصارى واليهود « أهل الكتاب » و « أولي العلم » اي العلم بكتاب الله ودينه .
قال الرازي : « يسميهم أهل الكتاب وهذا الاسم من احسن الاسماء واكمل
الالقباب حيث جعلهم اهلاً لكتاب الله (آل عمران ٦٤) ويسميهم ، اولي العلم
أو الذين يعلمون - بخلاف مشركي العرب الذين لا يعلمون ما أنزل الله - فقرن
ذكرهم بذكر الله والملائكة في قوله : شهد الله ان لا اله الا هو ، والملائكة
وأولو العلم » (آل عمران ١٨) .

فموقف القرآن العام موقف سمح من حيث المبدأ . فلنبحث الآن التفاصيل .

كانت الدعوة الاسلامية في مكة كتابية من كل الوجوه : في مصدرها وفي
موضوعها وفي طريقتها وفي قصصها وفي جملها ، كما رأينا .

بشر محمد في مكة « بالحكمة والموعظة الحسنة » مدة اثني عشرة سنة
(٦١٠ - ٦٢٢) . وكان موضوع كرازته الوحيد : الايمان بالله واليوم الآخر .

الآيتين (بقرة ٦٢ وآل عمران ١٩) واحد ، فالاسلام هو الايمان بالله واليوم الآخر لا غير .
ونسوا اخيراً ان الآية ٨٥ من آل عمران هي ختام ونتيجة الآية ٨٤ السابقة حيث يظهر
الاسلام دين الله الذي انزل على جميع الانبياء على السواء : « لا نفرق بين احد ونحن
مسلمون » . - كفانا الله شر هذا النسخ الذي هو المسخ بعينه ! -

فهو لا يعرف غير هذا التعليم، وهو يردّده بكل لحن . ونراه دائماً في جدال وخصام، وحرب باردة أحياناً ومحتدمة أخرى، مع المشركين من آل قريش والعرب . ولا أثر لخلاف ديني أو قومي أو سياسي، من أي نوع كان، مع أهل الكتاب، في السور الست والثمانين المكية كلها .

بل نجد فيها ثلاث شهادات قرآنية على وحدة الايمان والحياة بين اهل القرآن وأهل الكتاب . إنه يصرّح بأن مصدر القرآن وإمامه هو الكتاب (الأعلى ١٨ و ١٩، النجم ٥٦، القمر ٥٢، طه ١٣٥، شعراء ١٩٦، أحقاف ١٢، أنبياء ٢٤ - ٢٥، هود ١٧، السجدة ٢٣، شوري ١٥) «وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب» (شوري ١٥)؛ وجاء القرآن تصديقاً للكتاب وتفصيلاً لا ريب فيه من رب العالمين (يونس ٣٧)؛ وكانت حجة محمد الكبرى، طيلة حياته في مكة، شهادة أهل الكتاب له: فهو يستشهد بهم على صحة تعليمه وصحة رسالته: «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبور» (نحل ٤٣) . كذلك انبياء ٧، وشعراء ١٠٥ - ١٠٩، وأنعام ٨٩ - ٩٠، وسبأ ٦ «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب» (رعد ٤٥) . أخيراً يأمر القرآن محمداً، إذا ارتاب من نفسه ومن صحة ايمانه، أن يُطْمَئِنِّ نفسه عند أهل الكتاب: «فإن كنت في شك مما أوحينا إليك، فسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك» (يونس ٩٤) .

فهل أدلّ من ذلك على وحدة العقيدة والشريعة والسياسة؟ وفي هذه المدة طيلة اثنتي عشرة سنة لا نقف على خلاف بين محمد وأهل الكتاب بل نراه كأنه واحد منهم .

(١) استشهد محمد على صحة قرآنه بإعجازه في أربع مواضع (أسرى ٨٨، يونس ٣٨، هود ١٣، البقرة ٢٣ - ٢٤) ومن اسمائها شعر انها من فترة محدودة في حياته أي من اواخر العهد بمكة وفي سورة البقرة ثم ترك الاستشهاد بالاعجاز تحت ضغط أهل الكتاب . أما الاستشهاد بمن «عنده علم الكتاب» من اليهود والنصارى ظل يرافقه طيلة حياته في مكة وفي المدينة من اول سورة الى آخر سورة. وهكذا ترى ان الاستشهاد بالكتاب وأهله هي حجة القرآن الكبرى على صحة تعليم النبي العربي .

في آخر العهد بمكة ظهر أثر خلاف بين قوم محمد والكتابيين فشجبه النبي بشدة، مصرحاً تصريحاً قاطعاً بوحدة الاله الموحى، ووحدة الوحي، ووحدة الايمان والدين: « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن - إلا الذين ظلموا منهم - وقلوا: آمنا بما أنزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » (عنكبوت ٤٦) . يقول: لا تجادلوهم أبداً لأن كتابهم نزل إليكم، وأنتم متفقون معهم على ايمان واحد. والمجادلة بالتي هي أحسن هي الاقرار معهم بالايمان الواحد (البيضاوي) .

فلا قتال! ولا جدال! هذا هو الداعية الديني السامي .

ثم كانت الهجرة من مكة الى المدينة ٦٢٢ بعد المعاهدة العسكرية في العقبة الثانية، ذاك الانقلاب الهائل في الدعوة والداعي^١: « احارب من حاربتم واسالم من سالمتم^٢ » .

كان محمد في مكة يدعو الى توحيد الآلهة: « أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشيء عجاباً »! فصار في المدينة يدعو الى توحيد الأديان، حتى المنزلة منها، « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله » (آل عمران ٦٤) .

كانت الدعوة موجهة الى المشركين في مكة، فصارت في المدينة تلاحق المشركين والكتابيين: « ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم: منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (آل عمران ١٠٩) « قد جاءكم من الله رسول وكتاب مبين » . ومخاطب اليهود « ولا تكونوا أول كافر به »!

كان محمد يدغو في مكة الى سبيل الله « بالحكمة والموعظة الحسنة » فصار

(١) « وهذا الدور من حياة الرسول لم يسبقه اليه نبي او رسول... فأما محمد فقد أراد الله ان يتم نشر الاسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والقاتح » . (حياة محمد لحسين هيكل ص ١٩٠) .

(٢) السيرة لابن هشام (ج ٢ ص ٨٥) .

في المدينة يدعو « بالحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس » (حديد ٢٥).
يقوم محمد في المدينة بإنشاء « امة وسط » : « وكذلك جعلناكم امةً وسطاً
لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (بقرة ١٤٣).
امة وسط بين العرب المشركين وبين الكتابيين : تأخذ عن هؤلاء عقيدتهم ،
وترضى لاولئك بعوائدهم أو بعض من عوائدهم ؛ امة وسط أيضاً بين اليهود
والنصارى ، ولكنها ليست اليهودية ، وليست النصرانية ، بل هي منهما ، وهي
« وسط » بينهما : تقبل بعيسى ورسالة عيسى وتجعلها امتداداً لنبوّة موسى
وبعثة النبيين من بعده ، ولا تقول بالوهية عيسى كما يقول المسيحيون « المغالون »
وينكر اليهود المنكرون ، ولا تبطل نبوة عيسى كما يدعي اليهود والمدّعون ؛
ورأى في هذه الطريقة توحيد الأديان على توحيد الله .

كان الاسلام في مكة ديناً ، فأصبح في المدينة دولة ومن مقومات الامة
الدين والدولة . والامة الوسط التي أخرجت للناس في المدينة هي الدولة
الاسلامية الناشئة . والآن ندرس مراحل هذا التطور .

١ انشاء امة جديدة

في اول العهد بالمدينة ، في سورة البقرة^١ ، بدأ يتميز عن اهل الكتاب
بتأسيس « امة وسط » .

كان اليهود كثرة في المدينة والنصارى قلة ؛ والطائفتان اكثر في المدينة
منها بمكة . فكان لا بد للنبي الجديد ان يجد موقفه منهم منذ بدء عهده ، كما
نصت عليه معاهدة العقبة^٢ . وقد حفظت لنا سورة البقرة العلاقات الاولى بين

(١) ننبع في دروسنا الترتيب التاريخي المنصوص عنه في المصحف الاميري ، لا ترتيب
السور الحالي . وقد وجدناه أفضل من غيره مما وضعه المسلمون أو المستشرقون .

(٢) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٨٥ « فقال ابو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله ان بيننا
وبين الرجال جبالا ، وانا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت ان فعلنا ذلك ثم اظهرك
الله ان ترجع الى قومك وتدعنا ؟ » .

محمد ربهود المدينة . فلاحظ ان الجسدل يقوم دائماً بين محمد واليهود من اهل الكتاب، ولا علاقة له بالنصارى الا عَرَضاً وفيما ندر وحيث يصرح بذلك .

يظهر ان يهود المدينة وقفوا منذ البدء من محمد موقف الحذر . فحاول ان يدعوهم الى قبول دعوته كما قبلها يهود مكة : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم . . . وآمنوا بما انزلت مصداقاً لما معكم . . . ولا تكونوا اول كافرين به » (٤١) .

وهو اذ يحس منهم ذاك الحذر يجدر قومه من محاولاتهم : « افقطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوهم وهم يعلمون » (٧٥) . بما ان الدين واحد والكتاب واحد كما كان شائعاً فكر بعض المهاجرين والانصار ان يستميلوا حلفاءهم من اليهود لتقوى بهم حركتهم . فاعتصم اليهود في عزلتهم وأخذوا ينتقدون التعليم الجديد .

فابتدأ الاحتكاك، وبرزت الآراء المختلفة سافرة ؛ فأخذ النبي يجادلهم في آرائهم : « وقالوا : لن تمسنا النار الا اياماً معدودات ! - قل اتخذتم عند الله عهداً ؟ فلن يخلف الله عهده . ام تقولون على الله ما لا تعلمون » (٨٠) ؛ النار ليست من نصيب اهل الكتاب، والجنة ميراث لهم : « قل ان كانت الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس، فتمشوا الموت ان كنتم صادقين » (٩٤) ، ويعنون في تأكيدهم : « لن يدخل الجنة إلا من كانوا هوداً - أو نصارى » ! فيجيب : « تلك امانيتهم ! قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ! بلى، من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١١١ و ١١٢) . انك لتشعر تحسّسهم بتفوقهم على غيرهم واجتهاد النبي بمساواة قومه بهم على اساس اسمى من الملة : الايمان بالله وعمل الصلاح بموجبه هو سبب الخلاص وبلوغ الجنة، وهذا ليس وقفاً على ملة ؛ تلك عقيدة واسعة مكررة في القرآن .

ويستغرب مناظرة اليهود مع النصارى وهم اهل الكتاب الواحد : « وقالت

اليهود : ليست النصارى على شيء ! وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء !
وهم يتلون الكتاب ، (١١٣) فكيف يكفر بعضهم بعضاً !

ولكنه رغم هذا الاحتكاك يعترف القرآن دائماً بوحدة الدين بين المسلمين
والكتابيين : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم . . . كفروا
به » ! (٨٩) فكيف يكفرون به وهو يصدق كتابهم : « واذا قيل لهم آمنوا
بما أنزل الله ، قالوا نؤمن بما أنزل إلينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدق
لما معهم » (٩١) انهم يفعلون ذلك عن عناد عرفوا به منذ القديم : « ولما جاءهم
رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب
الله وراء ظهورهم » (١٠١) نبذوا توراتهم لأنها تذكر « النبي الآتي » .

وقد يجرب اليهود أن يستميلوا المهاجرين والانصار اليهم لما أنسوا عندهم
من الايمان المشترك : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم
حسداً من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (١٠٩) . لقد فهموا
وحدة الدين بينهم فأحبوا أن يكسبهم الى ملتهم كي لا يتقوى حزب محمد
وملته .

ويتوددون الى محمد نفسه كي يستميلوه الى ملتهم : « ولن ترضى عنك اليهود
— ولا النصارى — حتى تتبع ملتهم » (١١٩) ؛ اذن الخلاف الناشب هو على
الملة ، أي في القومية ، او — كما نقول اليوم — في الطائفية ، وليس في الدين
الواحد والايان المشترك . فجاء الجواب الحاسم : « وقالوا كونوا هوداً أو
نصارى تهتدوا ! — بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (١٣٥) .

إن محمداً يفضل أن يُنشئ ملة مستقلة عن اليهود والنصارى ، ملة عربية
تصل مباشرة بابراهيم ، جد المؤمنين جميعاً من الملل الثلاث الكتابية . وهذه
الامة الجديدة التي يسمى لتأليفها ستكون « وسطاً »^١ بعقائدها بين اليهودية

(١) الوسط هو في الاصل اسم المكان الذي يستوي اليه المساحة من الجوانب . ثم
استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي افراط وتفريط (البيضاوي) واستعيرت في الآية
لما اوردناه في النص .

والنصرانية ، وبعوائدها بين القومية العربية المشتركة والكتابية : « وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » (١٤٣) .

فينعيبون عليه عمله ويحاجونه في الله الذي لا يرضى عن ذلك : « قل ، انحاجونا في الله؟ وهو ربنا وربكم . ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم . ونحن له مخلصون » (١٣٩) . فتأسيس هذه الملة الجديدة لا يُقصد منه الى تفريق في الدين عن أهل الكتاب لأن الرب واحد، وإن تعددت طريقة عبادته . وبعلم محمد انه مخلص لله في عمله ذاك : فلا تحاجونا، فالاختلاف في الملة ليس اختلافاً في الدين .

ويميّز ملته الجديدة بقبيلة جديدة في الصلاة . كان المسلمون يواتون وجوههم مثل اليهود شطر بيت المقدس، ويعلم القرآن لمن يعيبهم من العرب: « الله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » (١١٥) : كيفما اتجه الانسان يقدر ان يصلّي لله الموجود في كل مكان . لكن لا بد من قبة جديدة هذه الملة الجديدة تكون علامة فارقة لها : « قد نرى تقلب وجهك في السماء . فلنولينك قبلة ترضاها . فولّ وجهك شطر المسجد الحرام! وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » (١٤٤) . إنها لضرية معلّم ماهر : لقد تميّز بذلك عن أهل الكتاب، وان وافقهم في موضوع الدين، وأرضى المهاجرين والانصار الذين يقدّسون شعائر قوميتهم ، واستمال العرب قاطبة في اتباع قبلتهم وإن خالفهم في شركهم . وقد يسمع الاعتراضات ترى على عمله فيجيب : « سيقول السفهاء من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ - قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » (١٤٢) ففي تغيير قبلة الصلاة مغزى كبير : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » (١٤٣) . وسوف يستحكم الخلاف على القبلة في الصلاة بين الملل الثلاث لأن القبلة مظهر استقلالها : « ولئن أنبت الذين اتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم . وما بعضهم بتابع قبلة بعض » (١٤٥) .

لكن هذا الخلاف على القبلة ثانوي ؛ فالملة الجديدة تدبّن بدبّن من سبقها من

أهل الكتاب الاول، وأركان الدين عند الجميع واحدة: « ليس البرّ ان تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب؛ ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين. وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي البرقاب، وأقام الصلوة وآتى الزكوة، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء » (١٧٧).

ويطلق القرآن على هذا الدين وهذا الايمان المتسلسل من ابراهيم الى محمد اسماً جديداً، أو بالحري اسماً عربياً: « الاسلام » من قوله « أسلم وجهه لله » أي عرفه واعترف به وسوف نرى انه يرجع بهذا الاسم لفظاً ومعنى الى ابراهيم (الحج ٧٨).

ويجعل ابراهيم واسماعيل ابنه مشيدين للبيت العتيق، كعبة بكّة: « وان اول بيت وضع للناس للذي ببكة » (آل عمران ٩٦). ويضع على لسان ابراهيم صلاة الى الله يطلب فيها رسولاً الى العرب منهم: « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت - واسماعيل - ربنا تقبل منا إنك السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتبّ علينا إنك انت التواب الرحيم؛ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم. انك انت العزيز الحكيم، (١٢٧-١٢٩). بل أمر قومه به: « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى » (١٢٥) ويختم بقوله: « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفّه نفسه؟! » (١٣٠)

ويهاجونه في ابراهيم، جدّ الدين الحنيف. ويحتج عليه اليهود والنصارى ديناً وعنصراً: انه ابوم وحدهم في الايمان والدم ولا علاقة له بمحمد ودينه، ولا بالكعبة والحجّ اليها: « أم تقولون ان ابراهيم واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى! قل أنتم أعلم أم الله؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله! وما الله بغافل عما تعملون » (١٤٠). راجعوا كتابكم فابراهيم قبل عيسى وقبل موسى، وقبل الانجيل وقبل التوراة، وقبل النصارى وقبل اليهود!

كما ان اختلاف القبلة في الصلاة لا يضير وحدة الدين، كذلك الانتساب مباشرة الى ابراهيم من فوق الانجيل والتوراة لا يقسم وحدة التوحيد في الايمان: « وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا! - بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قولوا آمناً بالله وما انزل البنا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط، وما اوتي موسى وعيسى، وما اوتي النبيون من ربهم: لا نفرق بين احد ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم فقد اهتدوا، وان تولتوا فإننا هم في شقاق، (١٣٥ - ١٣٧) لاحظ دقته في التعبير عن وجه الخلاف الذي يستحكم بينهم: انه شقاق في الدين الواحد؛ لا كفر!

٢ « مؤتمر الاديان الثلاثة الكتابية » (في آل عمران)

لقد توطدت الجماعة الاسلامية في المدينة وتعززت بنصر بدر في اواخر السنة الثانية للهجرة، وظهر الاسلام ملة توحيدية متميزة عن سابقتها. فجاء نصارى نجران الى النبي يفاوضونه، وانضم اليهم اليهود، فكان من ذلك ما يسميه حسين هيكل « مؤتمر الاديان الثلاثة » ويصف القسم الاول من آل عمران ما جرى في هذا المؤتمر وحوله من مباحثات وجدال. ولكن المفاوضات ادت الى الفشل: اكتفى النصارى من محمد بقبوله نبوة عيسى وان خالفهم في بُنُوته ووقفوا حتى النهاية من محمد ومن حركته موقف المسالمة و« المودة »، وخالف اليهود محمداً في دعوته الدينية والدينية اي في انتشار الدولة الاسلامية التي كانوا يشعرون أن امتدادها سيقتضي عليهم، ووقفوا من النبي العربي موقف الحسام والمقاومة المستترة حيناً والسافرة أحياناً الى درجة « العداوة ».

تقف سورة آل عمران على مفترق الطرق بين الطرائق الثلاث.

فترتيب السورة الحالي يقحم ذكر آل عمران بحبي ومريم وعيسى (٢٣ - ٦٤) في غمرة الجدل القائم بين محمد واليهود (١٨ - ١٢٠) : يذكر بحبي الذي سبق مصداقاً بكلمة الله (٣٩) ومريم التي تحبل بمعجزة إلهية وتلد كلمة الله :

«اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم: وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً، ومن الصالحين» (٤٥ - ٤٧) - اربعة القاب فريدة تسميه، واربع صفات وحيدة تعنيه - ثم يأتي على ذكر خوارق حياة المسيح ورسالته ويختم بقوله «ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم» (٥٨) . ويليه مقطع تفسيري متأخر في شخصية المسيح (٥٩ - ٦٤) جواباً لمن حاجته في بنوة عيسى من مريم ومن الله (٦١) : «إن هذا هو القصد الحق وما من إله الا الله» (٦٢) . كان الجدل عنيفاً مستمراً بين محمد واليهود: يذكر القرآن في آل عمران تسعة مواضع من ذلك الخلاف القائم .

الجدل الاول حول اسم التوحيد الجديد الذي اطلقه القرآن على لسان محمد: اي الاسلام «شهد الله انه لا اله الا هو، والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط - لا اله الا هو العزيز الحكيم: إن الدين عند الله الاسلام! وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم» (١٨ - ١٩) . خالفوه في الاسم وليس في موضوع التوحيد . ويقرر هو ان الاسلام هو التوحيد الحق المطلوب: «فإن حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعني . وقل للذين اوتوا الكتاب والامين ءأسلمتم؟ فإن اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ» (٢٠)، يود ان يرغمهم على الاعتراف بان ايمانهم وايمانه هو الاسلام لفظاً ومعنى .

الجدل الثاني في مدة العذاب: «قالوا: لن نمسنا النار الا اياماً معدودات!» . وغرم في دينهم ما كانوا يفترون . ويحتكم الى الكتاب على فساد قولهم فيعرضون «ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون» (٢٣) .

الجدل الثالث في ابراهيم وانتساب الامم الثلاثة اليه وأهم احق بهذا الانتساب وأولى: قد يُفهم احتجاجهم في امر موسى وعيسى، ولكن لا يقبل قولهم في نسبتهم الى ابراهيم: «يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما

أزلت التوراة والانجيل الا من بعده افلا تعقلون؟ ها انتم هؤلاء حاجبتم فيما لكم به علم . فلمَ تحاجون فيما ليس لكم به علم . والله يعلم (في الكتاب) وانتم لا تعلمون . . . لم تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون ، (٦٦ و ٧١) ، ومن ثم « فان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين »
 الجدل الرابع في زعمهم وخطتهم : « ولا تؤمنوا الا لمن اتبع دينكم ! -
 » قل ان الهدى هدى الله . . . يختص برحمته من يشاء » (٧٣ و ٧٤) .

الجدل الخامس في اكلهم حقوق الناس وقولهم : « ليس علينا في الامين سبيل ! يقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من اوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين الذين يوفون الناس حقهم ولا يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلاً » (٧٥ - ٧٧) .

الجدل السادس في اتخاذهم الملائكة والنبين ارباباً من دون الله : ليس هذا من الانبياء في شيء : « ما كان لبشر ان يؤتبه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » (٧٩) وليس ذلك من الله في شيء : « ايا امرم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون » (٨٠) وهذه شهادة عارضة ثينة على ان اهل الكتاب مسلمون ، وإن غالوا في اكرام الملائكة والنبين : إنهم مسلمون !

الجدل السابع على نقضهم ميثاق النبين بالايمان بالنبي الاعظم : « إن جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرته » ! هذا هو النبي الذي يدعو الى دين الله الذي كرز به الانبياء جميعاً ، وهو الاسلام الذي تدين به السماوات والارض : « أفغير دين الله يبغون وله اسلم من في السماوات والارض طوعاً وكرهاً » (٨١ - ٨٥) .

(١) قرابة الدم مع ابراهيم ليست شيئاً تجاه قرابة الروح والدين والايمان . فحمد الموحد له الحق ان ينتمي مثل اهل الكتاب الى ابراهيم مباشرة دون ان يمر بالانجيل او بالتوراة - بمثل هذا حاجج الرسول بولس اليهود : ان اولى الناس بابراهيم ليست سلالة الجسدية بل سلالة الروحية انه يُجمل ابا لامم كثيرة (انظر رومية الفصل ٤) .

الجدل الثامن على الطعام الحلال والحرام . قال لهم : « كل الطعام كان حلالاً لبني اسرائيل الا ما حرّم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة ! قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين . . . فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً ، (٩٣ - ٩٥) .

الجدل التاسع على اول بيت عبادة وضع للناس وهو الذي بالقدس ام بمكة . فكان يقول : « ان اول بيت وضع للناس لتلذي بيكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بيّنات : مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمناً ، (٩٦ و ٩٧) .

يتخلل هذا الجدل طائفة من الآيات التي تفضح مؤامرات اليهود وتحذر المسلمين منها :

إختلفوا عن اتباع الاسلام ، من بعد ما جاءهم العلم بصحته ، بغياً بينهم (١٩) والله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء (٢٦) إن الهدى هدى الله فليمنّ لا يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم ؟ (٧٣) .

ويسعون في اضلال المسلمين : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلّونكم ، (٦٩) بكفرهم بآيات التوراة والقرآن المشتملة على نعت محمد (٧٠) أو يلبسون حقها بباطل تفسيرهم ، ويكتمون الحق وهم يعلمون (٧١) فمن اساليبهم التزوير على كلام الله ، والمحادعة : « وقالت طائفة من اهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره لعلهم يرجعون ، (٧٢) اذ يقولون ما رجع هؤلاء عنه بعد دخولهم فيه وهم اولو علم الا لعلهم يبطلانه ! ثم التعصب الذمى « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم ، (٧٣) فيحذر قومه من محاولاتهم : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد ايمانكم كافرين ، (١٠٠) ويجرّض قومه على التمسك بملتهم الجديدة : « وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله ، وفيكم رسوله ، ! (١٠١) .

ويتوصل تطاولهم على آيات الله الى حد الكذب على الله : « وان لفريقاً منهم يلوون السننهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ! ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (٧٨) .

ويصلون عن الاسلام ببغونه عوجاً مثل ملتهم التي انحرفوا بها عن قصد منهم : « قل يا اهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن ، تبغونها عوجاً ! وانتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » (١٠٠) .

ويشعر باستعدادهم لقتال المسلمين فيقوي قومه عليهم : « لن يضروكم الا اذى وإن يقاتلوكم يؤلّوكم الادبار ثم لا يُنصرون » (١١١) .

ويحذرهم من اتخاذ اليهود اولياء (١٤٣) او بطانة لأنه قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم أكبر (١١٨) ثم « ها انتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله » ولا يؤمنون بما أنزل عليكم من الكتاب « واذا لقوكم قالوا آمنا . واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ » (١١٩) . أخيراً « إن تمسكتم حنة نسوهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » (١٢٠) .

في غمرة هذا الجدل المتواصل ، والتحذيرات المتتابعة من اليهود ، يستثني منهم امة تقية لا شك انها امة عيسى او بالاحرى رهبان عيسى : « لبسوا سواً . من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر . ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين . ما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » (١١٣ - ١١٥)^١ . كفاهم بهذه الشهادة فخراً على مدى الاجيال : انه يشهد بصحة دينهم وایمانهم ، وبصحة كتابهم الذي بين ايديهم في زمانه ،

(١) سترى شرحها في تعليقنا على آل عمران . ان المقصودين بالآية هم النصارى او رهبانهم .

وبنزاهة سيرتهم وتقواهم، وبنزاهة علمهم وتعليمهم، وبشهاد اخيراً بأن لهم الجنة . هذه اجمل شهادة قبلت في رهبان عيسى، ولا يُنقصها شيئاً شذوذ بعضهم عن هذا المثال الرائع كما ذكر في سورة التوبة «وان كثيراً من الاحبار والرهبان لياكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله» (٧٤) .

ترى ان الجدل قائم دائماً بين محمد واليهود ولا دخل للنصارى فيه على الاطلاق بل هو يجلبهم ويدافع عنهم . وفي آخر سورة آل عمران ننقل من الجدل الى الخصام : بعد هزيمة «أحد» ووصف وطأتها : «لقد سمع الله قول الذين قالوا : ان الله فقير ونحن اغنياء! - سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول : ذوقوا عذاب الحريق» (١٨٢) .

وفي آخر الأمر يكشف اليهود للنبي العربي عن حقيقة موقفهم منه : «ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار!» فيجيب : «قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين؟» (١٨٣) ليس موقفكم انتصاراً للحق بل هو عناد وخصام فقد فعلتم بأنبيائكم أكثر مني : «فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاوعوا بالبينات والكتاب المنير» (١٨٤) لقد انقسم الفريقان ولا بد ان تقع الواقعة بينهما : «لتبلون في أموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن المشركين اذى كثيراً» (١٨٦) .

إنه انقسام قومي، طائفي، سياسي، وليس دينياً؛ وتلك حالة فريق منهم وليست بحالة الجميع؛ فهو يختم سورة آل عمران بهذا التصريح : «وإن من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله . اولئك لهم اجرهم عند ربهم، انه سريع الحساب» (١٩٩) .

٣٠ اشتداد النزاع بين محمد واليهود (في سورة النساء)

يطلب النبي الى اخصامه من اليهود أن يكفوا عن مقاومته، محذراً المؤمنين من محاولاتهم : « ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم » (٤٣) . « فهم يبغضون ويأمرون الناس بالبخل (٣٦) ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » (٣٦) ، يحرفون كلام القرآن عن مواضعه ، ويسخرون بأقوال النبي ، يمهون ويفالطون لياً بالسنتهم وطعناً في الدين (٤٥) لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلاً منهم (٤٥) . وها ان النبي يأخذ في تهديدهم : « يا ايها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على ادبارها ونلعنهم كما لعنا اصحاب السبت^١ وكان امر الله مفعولاً » (٤٧) .

يهددهم ثم يهاجمهم : « يزكون انفسهم » بقولهم نحن أبناء الله واحباؤه ! (٤٨) انظر كيف يفترون على الله الكذب ! وكفى به اثماً ميئناً ! (٤٩) . وانهم يؤمنون بالجحبت والطاغوت ، صنمين لقريش ، بما يقولون للذين كفروا : هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلاً ! (٥٠) لقد توصلوا الى ان يفضوا مشركي العرب على المسلمين المؤمنين ! فيا ويلهم ، لعنهم الله ! (٥١) . لهم نصيب من الملك فلا يريدون ان يشاركهم فيه احد (٥٢) . « ام يحسدون الناس (اي النبي) على ما آتاهم الله من فضله » من نبوة وملك مملوء بكثرة النساء ، تعبيراً للنبي ! فيجيب « فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً » (٥٣) فلا تطعن كثرة نسائه في نبوته !

وهنا يلح القرآن الى حادثة ذات مغزى بعيد : تفاخر المسلمون وأهل الكتاب فيمن له اللجنة منهم ، وفيمن ملته افضل فكان جواب القرآن على الاول : « ليس بأمانيتكم ولا أمانيتي أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يُجْزَ به ،

(١) اصحاب السبت قوم من اليهود لم يحافظوا على شريعة السبت فسحهم الله فردة او خنازير حسب الروايات .

ولا يجذبه من دون الله ولياً ولا نصيراً» (١٢٢)، ليس الخلاص بالملة بل بالعمل الصالح ! فليس للخلاص سوى شرطين : الايمان بالله وعمل الخير بموجبه «ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً» (١٢٤)، تعليم مكرّر (بقره ٦٢ و ١٧٧) : «من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً» . - وكان جوابه على الثاني، اذا كان لا بد من المفاضلة، فالحنيفية دين ابراهيم افضل «ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملة ابراهيم حنيفاً، واتخذ الله ابراهيم خليلاً» (١٢٤) . - قد تكون هذه الآية مدسوسة هنا من زمن آخر تقويماً لسابقتها .

فينتج من هذا الموقف وهذا التعليم ان الايمان وشروط الخلاص واحدة بين المسلمين واهل الكتاب، والعبارة بهما لا بالملة المختلفة . واذا كان لا بد من مفاضلة فالحنيفية افضل اديان الكتاب لأنها دين جدّ الانبياء وخاتمهم . ويظهر من هذا النص ان محمداً أنهى استقلاله عن اهل الكتاب، واستقرّ على ملة جديدة هي الحنيفية دين ابراهيم .

وتؤكد سورة النساء ان هذا الاستقلال في الملة ليس استقلالاً في الدين : فقد وصّى الله الجميع بالتقوى «ولله ما في السماوات والارض ولقد وصّينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله» (١٣٠) ؛ ويأمر القرآن قومه ان يؤمنوا بالكتاب الاول ايمانهم بالقرآن : «يا ايها الذين آمنوا آمنوا

(١) هذان الشرطان الوحيدان اللذان يقرّهما القرآن للخلاص (هنا ١٢٤ وفي البقره ٦٢) «من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً» كذلك في ١٧٧ وفي غير موضع، هما الشرطان الوحيدان اللذان اقرّهما الانجيل من قبله : «بدون ايمان يستحيل ارضاء الله اذ لا بد لمن يدنو الى الله أن يؤمن بأنه كائن وانه يثيب الذين يتفوهه» (عب ١١) فلا بد للخلاص من الايمان بأن الله موجود وبأنه عناية تجزي الخير وتعاقب الشر. وفي اول اتصال لرسول الحوار بين مع الأميين فتح بطرس فاه وقال : «في الحقيقة قد علمت ان الله لا يُجاني الوجوه بل ان من اتقاء في كل امة وعمل البر يكون مقبولاً عنده» (اعمال ١٠ : ٣٤) .

(٢) فالجواب الثاني (١٢٤) قد يتعارض مع الجواب الاول (١٢٣) انهم يتفاضلون فينفي التفاضل ثم يفاضل . وقد تكون لتتمة الجواب .

بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبله،
ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، (١٣٥)؛
ويؤيده تكفيره للذين يفرّقون بين الرسل، أو بين الله ورسوله «والذين آمنوا
بالله ورسوله، ولم يفرّقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم»، (١٤٩)
- (١٥٢)، ويؤيده أيضاً اعلانه لوحدة الوحي عند جميع الانبياء «إنا أوحينا
إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده»، (١٦٢ - ١٦٤)

ويجتم بمحمة على اليهود عنيفة لأنهم سألوه ان ينزل عليهم كتاباً من
السماء: «فقد سألو موسى أكبر من ذلك فقالوا: أرنا الله جهرة! فأخذتهم
الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فغفونا عن ذلك
وآتيناهم موسى سلطاناً مبيناً. ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم... فبنا نقضهم
ميثاقهم وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الانبياء بغير حق... وبكفرهم وقولهم
على مريم بهتاناً عظيماً. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما
قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم... فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم
طيبات أحلت لهم، وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً، وأخذهم الربا وقد نُهِوا
عنه، وأكلهم اموال الناس بالباطل، واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً»
(١٥٢ - ١٦٠) انه يعدد مظالمهم التي تعودوها مع جميع الأنبياء من موسى
إلى النبيين الذين قتلوهم بغير حق إلى مريم إلى عيسى الذي ادعوا القضاء عليه
لما قتلوه ولكن لم يقضوا عليه بل رفعه الله إليه، إلى محمد الذي يطلبون منه ان
ينزل عليهم كتاباً من السماء علناً. - لاحظ ان القرآن يدافع عن شرف
المسيح وامه ضد اتهامات اليهود ويكفرهم على عدم ايمانهم بهما، ويستثني الفئة
الواعية منهم الراسخين في العلم منهم (١٦١).

وكما يهاجم القرآن اليهود على تفریطهم بحق عيسى وامه، يهاجم النصارى
على افراطهم وغلوهم في اكرام المسيح وامه: «يا اهل الكتاب لا تغلوا في
دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق: انما المسيح عيسى ابن مريم، رسول الله

و كلمته ألقاها الى مريم، وروح منه، فأمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا «ثلاثة»،
 انتهوا، خيراً لكم! إنما الله واحد، سبحانه ان يكون له ولد! له ما في
 السموات وما في الارض، وكفى الله وكيلاً، (١٧١)؛ ولا تنسبوا غلوكم
 الى المسيح: «لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله - ولا الملائكة
 المقربون - ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر، فسيحشرهم اليه جميعاً،
 . (١٧١) .

لاحظ ان الوفاق تام بين محمد والنصارى رغم ازدياد النزاع بينه وبين
 اليهود . والقرآن ينتصر لهم ويدافع عن عقائدهم ضد كفر اليهود بها . ولكن
 هذا التفاهم والوفاق لا يمنع ان يحذّرهم من غلوهم في تأليه المسيح، والاعتقاد
 بالتثليث: انه لا يكفر النصارى بسبب هذا الاعتقاد بل يحسبه غلوّاً منهم
 وينصحهم ان ينتهوا عنه . فالحديث معهم نصح وعتاب، لا جدال او خصام
 او هجوم كما هو الأمر مع اليهود .

٤ تهديد صريح لليهود (في سورة الحديد)

السور المدنية كلها، وهذه خاصة، تشرح لنا معنى النزاع القائم بين محمد
 واليهود: انه نزاع قومي، طائفي، سياسي، لا نزاع ديني .

لقد حرّض النبي كثيراً على الجهاد حتى الآن . فبعد الهجرة اذن الله
 للمهاجرين بقتال مشركي قريش: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وان الله على
 نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا: ربنا الله»
 (اول آية نزلت في مشروعية القتال، تجدها في سورة الحج) . يُساقون الى
 القتال في «بدر» كأنما يساقون الى الموت: «يجادلونك في الحق (القتال) بعد ما
 تبين كأنما يساقون الى الموت، وهم ينظرون» (انفال ٦)؛ «يا ايها النبي حرّض
 المؤمنين على القتال (٦٥) وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله»

(٢٩)؛ هذا هو السبب الذي اباح قتال المشركين « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله (١٣) . ثم نزلت شريعة القتال « كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون » (بقره ٢١٦) . فقالوا: « ربنا لم كتبت علينا القتال؟ لولا اجلنتنا الى اجل قريب! » (نساء ٧٦) فكان الجواب النهائي من الله في انتصارات محمد المتابعة تصديقاً لقوله في سورة الحديد: « لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسوله بالغيب ان الله قوي عزيز » (٢٥) في هذه السورة يجعل القرآن من القوة الدعامة الكبرى والحجة العظمى لنشر الوحي: لقد قرن بين الحديد والدين . فالقوة والحديد والسيف منزلة من الله مع الكتاب لنصرة الله ورسوله .

هذا مع الكفار المشركين اما مع اليهود من اهل الكتاب فقد بدأ بالتحذير منهم في سورتي البقرة وآل عمران، ثم انتقل الى التهديد في انفال ونساء والحديد: « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين » (انفال ٥٩)، « يا ايها الذين اتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل ان نطمس وجوهاً فنودها على ادبارها ونلعنهم كما لعنا اصحاب السبت، وكان امر الله مفعولاً » (نساء ٤٧) . وهنا يدعو النصارى الى التحالف مع المسلمين لابطال مؤامرات اليهود وتحزبهم مع المشركين على رسول الله: « يا ايها الذين آمنوا (يعيسى : الجلالان) اتقوا الله وآمنوا برسوله (محمد) يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم لئلا يعلم اهل الكتاب (اليهود) ألا يقدر الله على شيء من فضل الله وان الفضل (النبوة) بيد الله يؤتية من يشاء » (٢٨ و ٢٩) للمسلم نصيب من رحمة الله وللنصراني المؤمن بالقرآن نصيبان « بكفلين من رحمته »!

بل ينذر قومه أنفسهم بقوة الحديد الذي نزل مع الكتاب الجديد: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق؟ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون»! (١٦) انه يوبخ المسلمين على التشبه بفسق البعض من اهل الكتاب؛ هؤلاء هم من طول الأمد وبعد زمن الوحي عذر على قساوة قلوبهم وفسق اخلاقهم، اما أنتم فالنبي لم يزل بينكم . فهو لا يطعن في دين اهل الكتاب بل في سلوك بعضهم، ومثلهم السيء الذي يضر بالمسلمين . «ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب: فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون» (٢٦) . تصل الاخبار الى محمد كل يوم بأن بعض القبائل من يهود المدينة وغيرها ينضمون الى الاحزاب المعارضة، بل يتآمرون على الرسول مع قريش والمشركين، فيندد بفسقهم ولكن لا يطعن في دينهم .

ويلاحظ ان هذا الفسق قد لحق ببعض النصارى، وربما ببعض الرهبان فيحذرهم ويستميلهم: «وقفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل . وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة - ابتدعوها - ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون» (٢٧) . ألا ترى كيف يجمع المدح الى القديح، والدم الى التقدير، والتحذير الى الاسترضاء . لقد لحق الفسق بعضهم، والتهاون بعض رهبانهم، ولكن لم تقس قلوبهم كاليهود ولا كبعض قومه أنفسهم (١٦ و ٢٦) لذلك بمد يده لهم ليحالفهم على اليهود، واعداء ايام بأفضل ما للمسلمين «بكفلين من رحمته» تعالى .

٥- تحزب اليهود مع المشركين على محمد (في سورة البينة)

سورة البينة تظهر لنا تحزب اليهود مع المشركين في عداوة النبي، ومودة

(١) سورة البينة قيل مكية . وقيل مدنية (الجلالان) وقيل مختلف فيها (البيضاوي) .
وغن على رأي المصحف الأميري بأنها مدنية ومن الزمن الذي نحن بصده .

النصارى له ولقومه . انهم لا ينفكون عن مقاومته حتى تأتيهم منه البيئنة ولم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب (اليهود) والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيئنة ، (١) ، والبيئنة التي يطلبون رسول^١ يتبع توراتهم « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيّمة » (٢ و ٣) .

ياويهم! « ما تفرّق الذين اتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البيئنة » (٤) .
أليس دين القيّمة في الاخلاص لعبادة الله؟ « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكوة ، وذلك دين القيّمة » !
(٥ و ٥) .

ثم يصف كل فريق من أهل الكتاب بصفتهم: اليهود الذين والوا المشركين هم شر البرية « ان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدن فيها : اولئك هم شر البرية » (٦) والنصارى الذين يودّون المسلمين هم خير البرية : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات^١ اولئك هم خير البرية » (٧) .

٦ وقوع الواقعة بين محمد واليهود فيأمر بجلائهم عن بلاده (في سورتى الحشر والاحزاب)

كان اليهود في المدينة خطراً على وحدتها الدينية والقومية ؛ وكانت دسائسهم ومؤامراتهم لا تنتهي . وكان بنو قينقاع منهم وبنو النضير حلفاء للأوس ، وبنو قريظة حلفاء للخزرج . فخشي محمد من هذا التحالف المريب ، ومن تلك الدسائس المقلقة ، فذكرهم بعهد المودعة الذي بينه وبينهم فأجابوه « لا يفرّتك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة : إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس » متكلين على حليفهم عبد الله بن أبي ،

(١) ان الذين آمنوا (من اهل الكتاب) ، وسياق الحديث والنسق والمنطق يطلب هذا المعنى .

زعيم المدينة . فحاصر المسلمون بني قينقاع في دورهم خمسة عشر يوماً متتابة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد حتى لم يبق لهم الا النزول على حكم محمد . فلما سلموا قرّر محمد بعد مشاورة كبار المسلمين قتلهم جميعاً . فشفع فيهم حليفهم عبدالله بن أبي بن سلول، فنزلوا على حكم الجلاء^١ .

لم يتعظ بنو النضير ، وعلى رأسهم حبي بن أخطب ، بما جرى لآخوتهم . فبعث محمد اليهم محمد بن مسلمة يقول : « ان رسول الله أرسلني اليكم أن اخرجوا من بلادي . لقد نقضت العهد الذي جعلت لكم بما هممت به من الغدري . » فلم يسمعوا ولم يخرجوا . فسار اليهم المسلمون وقتلواهم عشرين ليلة كانوا أثناءها اذا ظهروا على الدرب أو الدار تأخر اليهود الى الدار التي من بعدها ، بعد تخريبهم اياها . ثم أمر محمد اصحابه أن يقطعوا نخل اليهود كي يئأسوا من معيشتهم فيستسلموا . وجزع اليهود ونادوا : « يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ! فأجاب « ياذن الله » . فلما ملأ اليأس قلوبهم رعباً سألوا محمداً ان يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذرائعهم حتى يخرجوا من المدينة . فصالحهم محمد على ان يخرجوا منها^٢ . وفي منازلة بني النضير وجلائهم نزلت سورة الحشر :

« سبح لله ما في السماوات وما في الارض وهو العزيز الحكيم ... هو الذي أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم . لأول الحشر ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . 'نجربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار ... ما قطعتم من لينة (نخلة) أو تركتموها قائمة على اصولها فبأذن الله ، وليخزي الفاسقين ... ولولا أن كتب عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق

(١) حياة محمد لحسين هيكلم ص ٢٤٦

(٢) حياة محمد لحسين هيكلم ص ٢٧٧

الله فالله شديد العقاب . الشقاق هو سبب المحاصرة والقتال والجلال . ففي غمرة الحرب وفي نشوة الظفر لا يطعن في دينهم بل يصرح بفسقهم « ليخزي الفاسقين » : فليسوا اذن أعداء دين بل أعداء دولة : شاقوا الله ورسوله !

وبقي في المدينة بنو قريظة خلفاء الحزرج، وساح حبي بن أخطب مع زعماء النصير واليهود يؤتسب الأحزاب من قريش وغطفان وقبائلهم على محمد . فساروا الى المدينة في نحو عشرة آلاف رجل أو نحوها . ففزع المسلمون اشد الفزع « هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . اذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنون » . فأشار سلمان الفارسي على محمد بحفر خندق حول المدينة يقبها شر الهجوم . ونقض بنو قريظة عهدهم مع المسلمين متآمرين مع الاحزاب . فلما كان الليل أرسل الله جنوده من الطبيعة : الريح والمطر والرعد والبرق واشتدت العاصفة واقتلعت خيام الاحزاب وكفأت قدورهم وأدخلت الرعب الى نفوسهم وخشوا مكر قريظة بهم ، فارتحلوا « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً » (احزاب ٢٥) . فلما ارتحلت الاحزاب حاصر المسلمون على الفور بني قريظة وأسروهم « واتزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم (حصونهم) وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً » (٢٦) . ثم خرج محمد الى سوق المدينة فأمر فحضرت بها خنادق ثم جيء باليهود أرسالا فضربت أعناقهم ، وفي هذه الخنادق دفنوا « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وارضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً » (٢٧) . وهكذا تطهرت المدينة من اليهود وسلمت للمسلمين يأمنون فيها على دينهم ودولتهم .

هذا الاضطهاد كانوا هم سببه بتحالفتهم مع مشركي العرب ، وتدخلهم في

الحرب الاهلية بين محمد وبني قومه . ولكن هذا كله لم يكن للدين القديم والجديد دخل فيه .

٧ الموقف النهائي من اهل الكتاب دينياً وقومياً (في سورة المائدة)

تقع سورة المائدة في السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠) بعد أن فتح محمد مدن اليهود الشمالية، وبين غزوة مؤتة الفاشلة ضد نصارى العرب في مشارف الشام وبين فتح مكة الاعظم . فهي من اواخر حياة النبي العربي وليس بعدها سوى سورة التوبة . لذلك لها قيمة كبرى في شرح العلاقات الاخيرة بين المسلمين واهل الكتاب .

لقد أكمل للمسلمين دينهم ويثس الذين كفروا من دينهم : « اليوم يثس الذين كفروا من دينكم : فلا تخشوم واخشون ! اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » (٤) . فإذا قد تم فتح عاصمة الشرك وكملت شريعة الاسلام كان في هذا الكمال الموقف النهائي من اهل الكتاب دينياً وقومياً .

يبرز القرآن في العلاقات الاجتماعية بين اهل الكتاب والمشركون من العرب وغيرهم . فطعام اهل الكتاب حل للمسلمين، والطعام في اخلاق العرب عربون الصداقة وشركة الحياة الاولى : « اليوم أحل لكم الطيبات . وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » (٦) . وزواج المسلمين بالكتابيات حل ايضاً سواءً بالمسلمات ، مع أنه منذ اول العهد بالمدينة حرّم الزواج من المشركات « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن » (بقرة ٢٢١) أما مع اهل الكتاب الواحد فيجب ان تلوم العلاقات الاجتماعية الحسنة : « والمحصنات من المؤمنات، والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان » (٦) . ترى كيف يفرق القرآن في المعاملة بين المشركون وبين اهل الكتاب . فلو لم يكن على دين واحد مع النصارى واليهود لما سمح بالطعام المشترك والزواج المشترك .

مع ذلك نجد اليهود كما عهدناهم على عداوتهم للنبي والمسلمين : لقد نقضوا

عهد الله بالايان برسله ونصرتهم « ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل . . . فيها
 نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية . يجرّون الكلم عن مواضعه .
 ونسوا حظاً مما ذكروا به . ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلاً منهم ،
 فاعف عنهم واصفح » (١٤) . يدعوهم لآخر مرة الى قبول رسالته : « يا اهل
 الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب
 ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » (١٦ و ١٧) . فلا
 تعتبوا بعد اليوم على الله قائلين لم ياتنا من نبي او رسول : « يا اهل الكتاب
 قد جاءكم رسولنا يبين لكم - على فترة من الرسل - ان تقولوا ما جاءنا من
 بشير ولا نذير ! فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » (٢١) . ولا
 تسرفوا في الارض كما اسرف آباؤكم : « ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات . ثم ان
 كثيراً منهم بعد ذلك في الارض لمسرفون » (٣٥) . ثم يجيء الانذار النهائي :
 « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الارض فساداً ان يُقتلوا
 او يُصلبوا او تُقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف او يُنقوا من الارض :
 ذلك لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم »^١ (٣٦) .

ويطراً حادث يستفتون به النبي ، فتأتي الفتوى وما يتبعها من احكام
 فصل الخطاب في موقف القرآن من اهل الكتاب . فإنه في صفحة خالدة من
 سورة المائدة يقرّ نهائياً الشرائع الثلاث ، ويلزم بها اهلها دون سواهم : يقرّ
 اليهود على توراتهم ويقرّ النصارى على انجيلهم ويقرّ المسلمين على قرآنهم .

زنى شريف بشريفة من اهل فديك ، وهما محصنان ، فكرهوا رجمها على حدّ
 التوراة واوتلوا الرجم بالجلد . ثم ارسلوا الى يهود في المدينة ان استفتوا النبي
 في ذلك فإن افتاكم بالجلد فخذوه وان افتاكم بالرجم فاحذروا . فاستحلف
 النبي عالمهم ابن صوريا عن حد الزنى في التوراة فقال هو الرجم فأقامه النبي

(١) سياق الحديث يقتضي نزول هذه الآيات في اليهود الذين يواصل الحملة عليهم . وقيل
 انها آية مستقلة نزلت في العرنيين الذين انعم عليهم الرسول فقتلوا راعيه وسبوا ابيه .

عليها فثارت ثأرتهم . فوصف القرآن الحادث بقوله : « ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون : ان اوتينم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم » (٤٤) .

ويعلق القرآن على الحادث وعلى استفتاء النبي فيه :

التوراة كتاب الله الذي انزله وفيها احكامه فليحكم اهل التوراة بما انزل الله فيها : « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله . . . انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا ، والربانيون والاحبار بما استُحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . . . ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » (٤٦ - ٤٧) .

والانجيل هو ايضاً كتاب الله الذي انزله وفيه كذلك احكام الله فليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه : « وقفينا على اثرهم بعيسى ابن مريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصداقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظه للمتقين : وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه . ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون »^١ (٤٩ - ٥٠) .

والقرآن هو الكتاب حقاً فليحكم النبي بما انزل الله فيه : « وانزلنا اليك الكتاب بالحق ، مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق » (٥١) . لقد خير القرآن النبي في الحكم بين المتقاضين اليه من اهل الكتاب « فإت جاؤوك فاحكم بينهم او اعرض عنهم . فان حكمت فاحكم بينهم بالقسط » (٤٥) وهذا

(١) عيسى يصدق ما قبله من انبياء الكتاب، والانجيل يصدق ما قبله من احكام الكتاب . لاحظ الفرق الذي يجعله القرآن بين المخالفين من اليهود « اولئك هم الكافرون » (٤٧) والمخالفين من النصارى « اولئك هم الفاسقون » (٥٠) .

القسط هو ما انزل الله في كتابهم « فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع
اهواءهم » في تفسير الكتاب على هوام (٥١) وهذا القسط ما انزل الله ايضاً
في القرآن « وأن احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك
عن بعض ما انزل الله اليك » (٥٢) .

ويختم القرآن بهذا الحكم النهائي : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً .
ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات .
الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٥١) . في هذا النص
الحكم الجامع المانع ، والقول الفاصل القاطع على انحسار اليهود والنصارى
والمسلمين في اصل الدين واستقلال كل منهم بشريعة كتابهم التي تلزم تابعيها
دون سواهم . قال الرازي : « الخطاب للامم الثلاث امة موسى وامة عيسى
وامة محمد عليهم السلام بدليل ان ذكر هؤلاء الثلاثة قد تقدم في قوله « انا انزلنا
التوراة فيها هدى ونور » (٤٧) ثم قال « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن
مريم » (٤٩) ثم قال « وانزلنا اليك الكتاب » (٥١) ثم قال « لكل جعلنا منكم
شرعة ومنهاجاً » : يعني شرائع مختلفة : للتوراة شريعة ، وللانجيل شريعة ،
وللقرآن شريعة . . . وقوله يدل على انه يجب ان يكون كل رسول مستقلاً
بشريعة خاصة ، وذلك بنفي كون امة احد الرسل مكلفة بشريعة الرسول
الآخر » وعليه اجماع المفسرين . فانه هو الذي اراد تمييز هذه الامم الثلاث
الموحدة للتنافس في الخيرات لا للتسابق في الخصومات والحروب : « ولو شاء
الله لجعلكم امة واحدة : فاستبقوا الخيرات » .

فهل أجلى بياناً من هذا الموقف وهذا التعليم ؟ انه لموقف الحق والمسألة .
انه لموقف الصراحة والموافقة . وكم هو بعيد عن موقف كثيرين من المسلمين
تجاه أهل الكتاب . وكم يشجع على التفاهم والتقارب ، ويقرب بين امم الكتاب
بعد طول الامد .

كما وجدنا اليهود على عداوتهم القومية للمسلمين نجد النصارى على مودتهم لهم فقد كانوا عربياً تنصروا، ولم يكونوا دخلاء استوطنوا واستعربوا .
 يذكرهم بما تناسوه من كتابهم : « ومن الذين قالوا إنا نصارى ، أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به . فأغرزنا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة »^١ (١٤) .

ويشدّد القرآن في تحذيرهم من الغلو في اكرام المسيح : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ! - قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن في الارض جميعاً » (١٧) ، بل يعود فيهدّد النصارى ليتركوا هذا الغلو في الدين : « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم » (٧٥) « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله الا واحد ! وإن لم ينتهوا عما قالوا ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٧٦) . ليس المسيح وأمه بإلهين فقد كانا يأكلان الطعام ، وهذا دليل على الاغراق في البشرية وحاجاتها : « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه حديقة : كانا يأكلان الطعام » (٧٨) فيا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم : « قل يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل » (٨٠) . حكى القرآن في هذه الآيات مقالة بدعتين من نصارى العرب البعيدين عن مراكز النصرانية الحنيفة : مقالة المثليتين ، ومقالة المرعيين . ونص على انها مقالة فثة من النصارى لا مقالة الجميع بقوله « ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٧٦) وعلى كل حال لا يسمي هذا الشطط الا غلواً في الدين (٨٠) .

وبعد ان اقرّم على دينهم وكتابهم وشريعتهم يحرضهم على العمل بموجبها :
 « قل يا اهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل

(١) بينهم أي بين فرق النصارى ، والافضل بين النصارى واليهود المذكورين
 انما (١٣) .

اليكم من ربكم» (٧١)، ويأسف لتقاعسهم عنها : «ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم . منهم امة مقتصدة و كثير منهم ساء ما يعملون» (٦٩) .

ويعود الى فضح مؤامرات اليهود والتحذير منهم . إنه يدعو اخيراً الى نقض الاحلاف بين المسلمين واهل الكتاب لأنهم خطر على الدين الجديد والدولة الجديدة : «يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزءاً ولعباً من الذين اتوا الكتاب من قبلكم والكفار، اولياء: واتقوا الله ان كنتم مؤمنين» (٦٠) يهزؤون خصوصاً بصلاتكم «واذا ناديتهم الى الصلاة اتخذوها هزءاً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون» (٦١) ويخادعونكم في دينكم «واذا جاؤوكم قالوا آمنا . وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به . والله اعلم بما كانوا يكتُمون» (٦٤) ؛ ويسارعون في الائم والعدوان «وترى كثيراً منهم يسارعون في الائم والعدوان، واكلهم السحت (الحرام) لبئس ما كانوا يعملون» (٦٥) ؛ ويتطاولون على الله بقولهم «يد الله مغلولة! - نعلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» (٦٧) ؛ ويسعون في الارض فساداً ويوقدون نار الحرب على رسول الله : «وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً ؛ والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ؛ كلما اوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ! ويسعون في الارض فساداً والله لا يحب المفسدين» (٦٧) ؛ ويحتم بلعنة اليهود، او بالحري منافقي اليهود الذين يفضلون مخالفة المشركين على المسلمين : «لعين الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا : لبئس ما قدمت لهم انفسهم، ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم اولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون» (٨١ - ٨٤) ؛ ويعلل القرآن عداوة اليهود بقوله : «قل يا اهل

الكتاب هل تنقمون منا؟ الا ان آمننا بالله وما انزل الينا وما انزل من قبل .
وان اكثركم فاسقون ، (٦٢) .

وتلخص سورة المائدة الموقف الديني بقوله : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٧٢) ويعلن القرآن وحدة الايمان بالوحي الواحد الجديد والقديم « آمننا بالله وما انزل الينا وما انزل من قبل » (٦٢) .

وتلخص الموقف القومي السياسي من اهل الكتاب : « لتجدنَّ اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا . ولتجدنَّ اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى : ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون . واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع لما عرفوا من الحق . يقولون : ربنا آمننا فاكذبنا مع الشاهدين » (٨٥ و ٨٦) . وهكذا تراهم على انحاد في الدين وخلاف على السياسة وعلى الدولة .

فلا تزال الى اليوم من اواخر حياة النبي نراه يندد بعبادة اليهود للمسلمين عداوة تفوق عداوة المشركين . ويشيد بمودة النصارى لهم . ويعزو دوام هذه المودة الى رؤساء دينهم القسيسين والرهبان . وهكذا يستمر الدليل على المودة القائمة بين النصارى والمسلمين طيلة عهد حياة النبي في الحياة الاجتماعية والسياسية فضلاً عن وحدة الحياة الدينية . هذه هي شهادة القرآن الدائمة .

٨ وصية محمد الاخيرة لامته (في سورة التوبة او براءة) .

روى البخاري عن البراء أنها آخر سورة نزلت (الجلالان) . بعد غزوة مؤتة الفاشلة، وفتح مكة الاعظم، واحتلال الجنوب، خضعت الجزيرة كلها ديناً ودولة للنبي العربي . فقصد المدينة ليستريح فيها ويجهز حملة خارج حدود الجزيرة الى بلاد الشام . فكان « جيش العسرة » وغزوة تبوك أدنى فيها

الجزية للمسلمين بعض امراء العرب النصارى . ولكن تهيّبوا دخول بلاد الشام فأشار عمر بن الخطاب على محمد بالرجوع فرجعوا عامهم هذا . وفي أحداث هذه الغزوة الفاشلة الثانية ضد بني الاصر (الروم) نزلت سورة التوبة .

وفي حجة الوداع، يوم حج ابو بكر بالناس الحج الاكبر، نزلت وصية محمد الاخيرة فأوفد الرسول عليّاً يتلوها على الناس . ووضعوها فيما بعد في صدر سورة التوبة . فيها يقسم غير المسلمين الى صفتين متباينتين : المشركين وأهل الكتاب . وبكل فئة يشرع خطة نهائية :

١ موقف الاسلام النهائي من المشركين : قتالهم بلا هوادة حتى يدينوا

بالاسلام .

المسلمون براء من كل عهد مع مشركي العرب : «براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين... وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أنت الله بريد من المشركين ورسوله... الا الذين عاهدتم من المشركين ولم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً: فأتوا لهم عهدهم الى مدته» (١ - ٤) ؛ فلا عهد للمشركين عند الله ورسوله (٧-١٢) .

بعد انقضاء مدة العهد، وانسلاخ الاشهر الحرم، يفرض على المسلمين قتال المشركين الدائم حتى يدينوا بالاسلام «فإذا انسلاخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم أنت الله غفور رحيم» (٦) : فلا مناص للمشرك العربي : فإما الاسلام وإما الموت !

المشركون المقصودون بهذه الفريضة هم اولاد العرب، وآل قريش خصيصاً: «ألا تقاتلوا قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول . وهم بدوؤكم اول مرة . أتخشونهم فالله أحق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين» (١٣) .

فالإسلام حد قاطع بين المؤمنين والمشركين : « ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر... إنما يعمرُ مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله » . (١٧ و ١٨) .

الإسلام يفرق بين المسلمين والمشركين حتى من اخوانهم وآبائهم : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان » (٢٣) .

ويحتم برفض المشركين وبمقاطعتهم على الإطلاق لأنهم نجس : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . وإن خفتهم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله » (٢٩) .

فوصية محمد الأخيرة وفريضة القرآن النهائية بحق المشركين هي اقصاؤهم عن الكعبة لأنهم نجس، وقتالهم الدائم حتى يدينوا بالإسلام .

٢ موقف الإسلام النهائي من أهل الكتاب : إخضاعهم للدولة الإسلامية لا للدين الإسلامي .

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يدفعوا الجزية عن يديهم صاغرون » (٣٠) .

من هم أهل الكتاب المقصود قتالهم في هذه الآية وإخضاعهم للجزية؟ قد يكونون اليهود وحدهم، وليس من أشكال حينئذٍ في الآية، ولها كثير من أمثلها في كل السور المدنية . وقد يكونون اليهود والنصارى بدليل ما تبعها من الآيات التفسيرية التي تبرّر قتال أهل الكتاب عموماً (٣١ - ٣٥) . وإقحام النصارى مع اليهود في جهادهم تطوّر مفاجئ لا ينسجم مع ما سبق

من آي القرآن كله^١. فهذه هي المرة الوحيدة في القرآن من أوله الى آخره يدعو فيها الى قتال النصارى كما دعا الى قتال اليهود. فقد ظل طيلة حياته يشيد بحسن ايمانهم وجميل مودتهم ويدافع عن دينهم ضد افتراءات اليهود. ولكن قد نجد مبرراً لهذا التطور الاخير: ان ظروف الدولة الدينية الجديدة تقضي بأن يخضع جميع الرعايا لهذه الدولة حرصاً على الوحدة الدينية، والوحدة القومية والوحدة الاجتماعية والوحدة السياسية. يفرض قتال أهل الكتاب عموماً اذا اقتضت الضرورة السياسية، لا من باب الضرورة الدينية.

ويشعر بأن فريضته بقتال اهل الكتاب خطيرة، صعبة الاستساغة، فيبررها بهذه الاسباب الاربعة: قولهم بأفواههم «عزيز ابن الله! المسيح ابن الله!» يضاهي قول الذين كفروا من قبل أي المشركين، قاتلهم الله أتى يؤفكون! (٣١) «اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله^٢ - والمسيح ابن مريم - وما أمروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله الا هو! سبحانه عما

(١) قال حسين هيكل: «يذهب بعض المستشرقين الى القول بأن هذه الآيات تضع اهل الكتاب والمشركين بما يشبه المساواة. وان محمداً وقد ظفر بالوثنية في شبه الجزيرة بعد ان استعان عليها باليهودية والمسيحية معلنا خلال اعوام رسالته الاولى انه انما جاء مبشراً بدين عيسى وموسى وابراهيم والرسل الذين خلوا من قبل؛ قد جعل وجهته الى اليهود الذين بدؤوه العداوة فظل بهم حتى اجلام عن شبه الجزيرة. واثناء ذلك كان يتوذن الى النصارى وتنزل عليه الآيات تشيد بحسن ايمانهم وجميل مودتهم... وها هوذا الآن يجعل وجهته الى النصرانية يريد بها ما اراد باليهودية من قبل فيجعل شأن النصارى كشأن الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. وهو يصل الى ذلك بعد أن أجاز النصارى من اتبعه من المسلمين حين ذهبوا الى الحبشة يستظلون بمعدل نجاشيها وبعد ان كتب محمد لاهل نجران وغيرهم من النصارى يقرهم على دينهم وعلى القيام بطقوس عبادتهم. ويذهب اولئك المستشرقون الى ان هذا التناقض في خطة محمد هو الذي ادعى الى استحكام العداوة بين المسلمين والنصارى من بعد، وانه هو الذي جعل التقريب بين اتباع عيسى واتباع محمد غير ميسور ان لم يكن في حكم المستعيل» (حياة محمد ص. ٤٥٤).

(٢) قال البيضاوي: اتخذوا ارباباً بأن أطاعوهم في تحريم ما احل الله وتحليل ما حرم الله. او بالسجود لهم.

يشركون» (٣٢) . لقد افسدوا في دينهم . وافسدوا في عملهم مع الله
 « يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره
 الكافرون» (٣٣) ومع الناس « يا ايها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار
 والرهبان لياكلون اموال الناس بالباطل، ويصلون عن سبيل الله» . (٣٥)
 فضرورة الدين والدولة تقتضي قتالهم واخضاعهم للجزية اي للدولة الاسلامية لا
 للدين الاسلامي .

والفرق عظيم والبون شاسع بين موقف القرآن من اهل الكتاب وموقفه
 من المشركين .

يُعلن ان المشركين نجس ويصدم عن المسجد الحرام . ولا يعلن او يلح
 الى شيء من ذلك بحق اهل الكتاب : فليسوا بنجس، ولا يصدّم عن الكعبة .

يذكر غلوهم في الدين بتاليه المسيح، وتربيب الملائكة والنبيين، والاولياء
 من الاحبار والرهبان، ويذكر فسق بعضهم، ولكن لا يطعن أبداً في اصل
 دينهم . وان قال قائل من المسيحيين او المسلمين او غيرهم بأن القرآن في آخر
 أمره جمع بين الوثنية واهل الكتاب على صعيد واحد من الشرك والكفر
 وأمر بقتالهم على السواء، نجيبه بأن هذا التأويل مناقض لنص الآية الصريح
 ولتعليم القرآن كله . فالحرب مع الوثنية والشرك حرب دينية بلا شرط ولا
 هوادة حتى يدعنوا للاسلام . اما الحرب مع اهل الكتاب فهي قومية
 مشروطة بالقسم الضال منهم «الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» ومشروطة
 باخضاعهم للدولة «حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون» لا بإرغامهم على
 اعتناق الاسلام . ومتى ارتفع المشروط بطل المفروض .

وهكذا بشرط لقتال الكتابيين زيفهم عن دين الحق «قاتلوا الذين لا
 يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر من الذين اوتوا الكتاب» (٣٠) وهو لا يفرض
 قتال اهل الكتاب كافة، بل الكفار منهم، كما يفرض قتال المشركين كافة
 «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» (٣٦) .

ويشترط لقتالهم ايضاً غاية هي اخضاعهم للدولة الاسلامية : فبينما يشرع قتال المشركين حتى يدينوا بالاسلام، يفرض بعامل المصلحة الدينية والمدنية قتال اهل الكتاب « حتى يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون » أي يخضعوا للدولة الاسلامية لا للدين الاسلامي : فالموقفان على طرفي نقيض .

وهكذا فالحرب مع المشركين حرب دينية حتى يُسلموا فيسلموا . أما الحرب مع اهل الكتاب فهي قومية حتى يدفعوا الجزية ويخضعوا للدولة الاسلامية فيسلموا .

أخيراً تشريع سورة التوبة محدود في الزمان والمكان : يحصر قتالهم في الجزيرة وفي عصر النبي لتبقى للجزيرة وحدتها الدينية والمدنية ؛ لذلك كان يقول على فراش الموت : لا يبقَ في جزيرة العرب دينان !

النتيجة :

ما هي نتيجة هذا البحث الطويل ؟ انا نوجزها بكلمتين :

الاولى : ان القرآن الكريم يعلن ان الله واحد، والوحي من آدم الى نوح الى ابراهيم الى موسى الى عيسى الى محمد واحد، والكتاب الذي أنزله مع النبيين واحد وان تنوعت وتعددت النسخ، والرسالة واحدة، والايان المشترك بين الجميع واحد، والدين، اي الاسلام وهو الايمان بالله واليوم الآخر، واحد . ويجعل مساواة تامة بين قيمة القرآن والكتاب اذ يعتبر الكتب كلها نسخاً متساوية للكتاب الازلي الواحد . فهو يبشر بوحدة الدين المنزل وإن اختلفت الشرائع وطرق العبادة من كتاب الى كتاب « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة » على شريعة واحدة . ولكن فرقناكم أمماً، ليس للتفرقة الدينية، بل للتنافس في الخير والفضيلة والصلاح .

الثانية : ان القرآن الكريم خلافاً لما يظنه بعض الجبهة من المسيحيين

والمسلمين لا يعتبر اهل الكتاب أعداء دين علي الاطلاق وما أمر قط بقتالهم كأعداء دين . بل توسم محمد في الفاسقين منهم خطراً سياسياً أو اجتماعياً على الدولة الاسلامية فطلب من امته وفرض عليها في وصيته الاخيرة اخضاع اهل الكتاب للدولة الاسلامية لا للدين الاسلامي كالمشركين، حرصاً على وحدة الدولة الناشئة . فلا يعتبر القرآن أهل الكتاب مشركين أو كافرين أو أعداء دين بل مسلمين موحدين كما أجاب وفد نجران النبي « إنا كنا من قبله مسلمين . (قصة ٥٤) . وكما صرح القرآن نفسه « هو سماكم المسلمين من قبل (في الكتاب) وفي هذا ، أي في القرآن (الحج ٧٨) .

وهكذا فالمبدأ العام الشامل الكامل الجامع المانع الذي به ابتدأ محمد رسالته وبه ختمها : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (بقرة ٦٢ مائدة ٢٨) .

وُيختم القرآن كله بأخر آية من آخر سورة بهذا الاعلان النهائي : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن . ومن اوفى بعهد من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم ! » (توبة ١١٢) .

القسم الثاني

مريم أم المسيح في القرآن

توطئة

« يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك
على نساء العالمين » (آل عمران ٤١)

ان موقف القرآن من مريم العذراء ام المسيح، موقف كريم ينقل لنا
بأمانة تعليم النصرانية الاولى عن « فتاة الله » « المصطفاة على نساء العالمين »
ويكفر ما تكفّره من تقصير المقصرين ومن غلوّ المغالين .

ونقدر ان نوجز تعليمه المريمي بهذه الآية الكريمة : « يا مريم ان الله اصطفاك
وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » .

سنقرأ النصوص القرآنية حسب ترتيبها التاريخي^١ ونتفهمها على ضوء
شروح الائمة المعروفين، المتداولة بين الناس .

ثم نحاول ، في جزء ثانٍ ؛ ان نعلق عليها بما تيسر .

(١) ترتيب سور القرآن حسب تاريخ تدوينها مشكلة عويصة . فاخترنا الترتيب والتزمين
النصوص عليه في مطلع بعض المصاحف (المصحف الاميري) .

الجزء الاول : النصوص الفرآنية

النص الاول (مریم ١٥ - ٣٣)

النص الثاني (انبیاء ٩١)

النص الثالث (المؤمنون ٥١)

النص الرابع (آل عمران ٣٣ - ٤٧)

النص الخامس (النساء ١٥٧ و ١٧٠)

النص السادس (تحریم ١٢)

النص السابع (مائدة ٧٦ - ٨٠ و ١١٣ - ١١٩)

النص الاول: سورة مريم ١٥ - ٣٣

يرينا بتولية مريم في أمومتها الصحيحة، وبعدد المعجزات التي تثبت الامومة والبتولية معاً . فنلمح من وراء ذلك ردّه على افتراءات اليهود بهذا الضدد .

١٥ واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً .

١٦ فاتخذت من دونهم حجاباً . فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً .

آية ١٥ - «الكتاب» القرآن، على معنى الحاضر والمستقبل، كما يقول الجلالان والبيضاوي . وعلى معنى الماضي، هو الكتاب المقدس . «مريم» خبر مريم او قصة مريم . «مكاناً شرقياً» حين اعتزلت في مكان نحو الشرق من الدار (الجلالان)، شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها (البيضاوي) . والافضل قول الجلالين بسبب «من أهلها» .

آية ١٦ - «اتخذت حجاباً» ارسلت ستراً تستر به (الجلالان) . «فأرسلنا إليها روحنا» جبريل؛ وأما ابن وقعت هذه الزيارة فلا يظهر بوضوح من النص اذ لا يعلم ابن كان أهلها: اناها جبريل بصورة شاب امرد «سويأ» تام الخلق (الجلالان) وسماه الله روحه على المجاز (الزنجشري) إنها نسبة الملكية وتختلف عن قوله في المسيح «روح منه» .

- ١٧ قالت : إني أعودُ بالرحمن منك ا ان كنتُ تقياً... .
- ١٨ قال : انما أنا رسولُ ربكِ لأهبَ لكِ غلاماً زكياً.
- ١٩ قالت : أئني يكون لي غلامٌ ، ولم يمسنني بشرٌ ، ولم أكُ
بغياً ؟
- ٢٠ قال : « كذلك ا قال ربك : هو علي هينٌ . ولنجعله
آيةً للناس ، ورحمة منا ، وكان أمراً مقضياً » .

آية ١٧ - « اني اعوذ بالرحمن منك » قالت من غاية عفافها (البيضاوي) .
« ان كنت تقياً » جواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله « ففنتهي عني
بتعويذي » (الجلالان) . قال الزمخشري : ودل على عفافها وورعها انها تعودت
بلثه من تلك الصورة الجميلة . والانتباز : الاعتزال والانفراد للعبادة - ويسف
المفسرون ايما اسفاف في تفسير الغاية من تلك العزلة . (راجع الزمخشري
والبيضاوي) .

آية ١٨ - اي اني اتقي الله وانما انا رسول ربك الذي استعدت به « لأهب »
وقرأ ابو عمر عن نافع ويعقوب بالياء « ليهب » . والمعنى : لأكون سبباً في هبته .
ويجوز ان يكون حكاية لقوله سبحانه (البيضاوي) . « زكياً » طاهراً من
الذنوب أو نامياً على الخير أي متوقفاً من سن الى سن على الخير والصلاح
(البيضاوي) . لاحظ ان مولودها طاهر من الذنوب منذ الحبل به .

آية ١٩ - « ولم يمسنني بشر » جعل المس كناية عن النكاح الحلال (الزمخشري)
ولم يباشرنني رجل بالحلال فان هذه الكنايات انما تطلق فيه (البيضاوي) .
« بغياً » زانية ، الفاجرة التي تبغي الرجال (الزمخشري) ولم تلحقه التاء لانه
للمبالغة او للنسبة كقوله طالق .

آية ٢٠ - « كذلك » اي الأمر كذلك : من خلق غلام منك من غير اب

٢١ فحملته . فانتبذت به مكاناً قصياً .

(الجلالان) . «ولنجعله» تعليل معمله محذوف او معطوف على تعليل مضر وقيل عطف على «لأهب» (الزحشري) . «آية للناس» علامة لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا . «ورحمة منا» على العباد يبتدون بارشاده (البيضاوي) . «وكان امرأ مفضياً» به في علمي (الجلالان) تعلق به قضاء الله في الازل او كان امرأ حقيقة بأن يقضى ويفعل لكونه آية ورحمة (البيضاوي) . - وعندي المعنى : وكان امرأ مفعولاً اي وصار كذلك . قال الزحشري «امرأ حقيقياً» .

آية ٢١ - «فحملته» . - كيف كان الحمل ؟ النص ساكت ويحتمل معنى الخلق مباشرة . اما المفسرون فيجعلون الحمل بنفخة من جبريل في جيب درع مريم . سترى في آل عمران ان الحمل صار مباشرة بمعجزة الهية دون واسطة مخلوقة . «اذا قضى امرأ فانما يقول له كن فيكون» . «فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً» تنحّت به بعيداً عن اهلها (الجلالان) فاعتزلت وهو في بطنها وراء الجبل وقيل اقصى الدار (البيضاوي والزحشري) . كم كانت مدة الحمل ؟ لا يذكرها القرآن ونقدر ان نفترضها معه طبيعية . ولكن المفسرين قد اختلفوا . قال الجلالان : والحمل والتصوير والولادة في ساعة . وقال البيضاوي : «وكانت مدة حملها سبعة اشهر وقيل ستة وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية غيره» . وقيل ساعة . وفي الزحشري ايضاً : «وقيل ثلاث ساعات ؛ وقيل حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعت في ساعة حين زالت الشمس من يومها» . وعن ابن عباس كانت مدة الحمل ساعة واحدة : و «كما حملته نبذته» . يتفننون في كثير المعجزات حول ام المسيح ! **وكم كان سن العذراء ؟** القرآن صامت . قال البيضاوي والزحشري «وسنها ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين . . .» وهكذا يعرف المفسرون دائماً أكثر من الكتاب ! فلا يحترمون صمته . «وقيل كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف فلما قيل حملت من الزنا خاف عليها قتل

٢٢ فأجاءها المخاضُ الى جذع النخلة . قالت : يا ليتني مُتُّ
قبل هذا و كنتُ نسيّاً منسياً .

٢٣ فنادها من تحتها : ألا تحزني، قد جعل ربك تحتك
سرياً .

الملك فهرب بها فلما كان ببعض الطريق حدثته نفسه بأن يقتلها فأناه جبريل
فقال انه من روح القدس فلا تقتلها فتركها .

آية ٢٢ - « فأجاءها المخاض » جاء بها، أجاها المخاض (بالفتح والكسر)
وهما مصدر مخضت المرأة اذا تحرك الولد في بطنها للخروج (البيضاوي) .
ومن ثم فلا يتحمل اللفظ في الاصل معنى « وجع الولادة » كما يقول الجلالان .
« الى جذع النخلة » لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة . وكانت نخلة يابسة لا
رأس لها ولا خضرة فيها : وكانت الوقت شتاء . والتعريف اما للجنس واما
للعهد اذ لم يكن ثمت غيرها . ولعله تعالى أهمها ذلك ليربها من آياتها ما يسكن
روعتها ويطعمها (البيضاوي) . قالت « يا » للتنبية . « مت قبل هذا » قالت
استحياء من الناس ومخافة لومهم . « و كنت نسيّاً منسياً » شيئاً متروكاً لا
يُعرف ولا يذكر (الجلالان) ، من حقه ان ينسى . قالت هذا لما رأت نفسها
قد حملت وولدت بمعجزة لن يصدقها الناس ، وهي كما حملته نبذته (البيضاوي) .

آية ٢٣ - « فنادها من تحتها » هنا يوجد غموض في الضمائر . قال البيضاوي :
فنادها عيسى وقيل جبريل . من اسفل من مكانها ، وقيل الضمير في تحتها
للنخلة . « قد جعل ربك تحتك سرياً » جدولاً وقيل سيداً من السرو ، والافضل
ان نختار مع الجلالين : نادها جبريل من دونها : أن لا تحزني، قد جعل ربك
تحتك جدول ماء، بدليل قوله بعد ذلك : فكلي واشربي . قال الزمخشري : لم
تقع التسلية بها من حيث انها طعام وشراب ولكن من حيث انها معجزتان
تريان الناس انها من اهل العصمة .

٢٤ وهزّي اليك بجدع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً .
 ٢٥ فكلي واشربي وقرّي عيناً . فإما ترين من الناس أحداً
 ٢٦ فقولي : اني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم
 إنسياً .

آية ٢٤ - « تساقط » فيه عدة قراءات . تساقط أدغمت التاء الثانية في السين . وحذفها حمزة « تساقط » . وقرأ يعقوب بالياء « يساقط » . وحفص « تساقط » من ساقط بمعنى اسقطت . وقرئ يتساقط ويسقط وتسقط فالتاء للنخلة والياء للجدع : سبع قراءات مقبولة . والزمخشري : فيه تسع قراءات ! « رطباً جنياً » تميز او مفعول . روي كانت يابسة وكان الوقت شتاء فهزتها فجعل الله تعالى لها رأساً وخصاً ورطباً . وتسليتها بذلك لما فيه من المعجزات الدالة على براءة ساحتها فان مثلها لا يتصور لمن يرتكب الفواحش والمنبهة لمن رآها عليه على ان من قدر ان يثمر النخلة اليابسة في الشتاء قدر ان يجبلها من غير رجل (البيضاوي) .

آية ٢٥ - فكلي من الرطب واشربي من السري وطيب نفسي وارفضي عنها ما احزنك . « وقرّي عيناً » وقرئ : قرّي بالكسر وهو لغة نجد ، واشتقاقه من القرار او القر . « فإما ترين » فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة . « ترين » حذف منه لام الفعل وعينه والقيت حركتها على الراء وكسرت ياء الضمير لالتقاء الساكنين . « من البشر احداً » يسالك عن ولدك (الجلالان) :

آية ٢٦ - وفي مصحف عبد الله : « صمتاً » ؛ « صوماً » امسكاً عن الكلام (الجلالان) وكانوا لا يتكلمون في صيامهم (البيضاوي) . يعلمها جبريل ان تدعي الصيام عن الكلام في شأن ولدها حتى يظهر الله امره بمعجزة باهرة . وقد نهى محمد عن صوم الصمت لأنه نسخ في امته .

٢٧ فأتت به قومها تحمِلُهُ . قالوا : يا مريم لقد جئتِ شيئاً
فريباً .

٢٨ يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأةً سوءاً وما كانت
أمكِ بيبياً .

٢٩ فأشارت إليه . قالوا : كيف تكلم من كان في
المهد صبياً ؟

٣٠ قال : اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً .

آية ٢٧ - « لقد جئت شيئاً فريباً » بديعاً مُنكرأ (البيضاوي) .

آية ٢٨ - « يا أخت هارون » ما كان أبوكِ زانياً وما كانت أمك زانية فمن
ابن لك هذا الولد؟ (الجلالان) قال البيضاوي : يعنون هارون النبي وكانت من
اعقاب من كان معه في طبقة الاخوة . وقيل كانت من نسله . وكان بينهما ألف
سنة (١٣٠٠ او ١٥٠٠) . وقيل هو رجل صالح او طالح كان في زمانهم
شبهوها به تهكماً . وعندني انها كناية عن عفته وضرب المثل بها . « وانما قيل
يا أخت هارون كما يقال : يا أخاهمدان أي يا واحداً منهم ، ولم ترد اخوة النسب ،
(الزمخشري) .

آية ٢٩ - « فأشارت إليه » الى عيسى ان كلموه ليحييكم .

آية ٣٠ - « قال » انطقه الله تعالى به . وقيل اكمل الله تعالى عقله واستنبأه
طفلاً . مثل قوله : « تكلم الناس في المهد » . « آتاني الكتاب وجعلني » التعبير
بلفظ الماضي اما باعتبار ما سبق في قضاؤه او يجعل المحقق وقوعه كالواقع .
« عبدالله » مرادف لما جاء في اعمال الرسل « فتاك القديس يسوع » (ف ٤
ع ٢٧ و ٣٠) .

٣١ وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة
والزكاة ما دمت حياً .

٣٢ وبرا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ا

٣٣ والسلام علي يوم وُلدتُ ويوم أموتُ ويوم أبعت حياً .

في هذا النص الاول نلاحظ تعدد المعجزات التي تظهر براءة مريم وبتوليبتها في امومتها . وتلك المعجزات ثلاثة انواع : معجزة الحبل ، والحمل السريع ، والولادة الغريبة « نبذته كما حملته » . ومعجزة الاكل من نخلة يابسة والشرب من جدول ناشف . ومعجزة نطق الطفل من مهده . هذه المعجزات سلّت مريم وبرأتها امام الناس . وفيها إفحام لاعداء مريم الذين يتهمونها بالزنى وهم يهود زمانها .

آية ٣١ - « وجعلني مباركاً » نفاعاً معلماً للخير . « وأوصاني بالصلاة والزكاة » زكاة المال او تطهير النفس عن الرذائل . « ما دمت حياً » تعبير يقيد حتماً انه سيموت لان الوصية بالصلاة والزكاة لا لزوم لها بعد الموت .

آية ٣٢ - « برا بوالدتي » عطف علي مباركا . وقرىء « بر » بالكسر حملاً على الصلوة . « ولم يجعلني جباراً شقياً » متعاضماً عاصياً لربه .

آية ٣٣ - « والسلام علي » التعريف للعهد والأظهر انه للجنس . والتعريض باللعن على اعدائه . قال الزمخشري : والمعنى ، ذلك السلام الموجه الى محبي في المواطن الثلاثة موجه اليّ سلّم الله عليه في هذه الاحوال لانها اوحش المواطن . وفي هذا السلام نبوة عن موت عيسى وبعثه ، وتؤيد تلك النبوة المستقبلية معجزة نطقه من المهده وهي حاضرة .

النص الثاني : سورة الانبيا ٩١

يذكر الانبياء جميعاً من موسى الى يوحنا بن زكريا . ويختم ذكر تلك الامة المؤمنة من الانبياء والصالحين بـمسك الحتام :

٩١ والتي أحصنت فرجها فننفخنا فيها من روحنا وجعلناها
وابنها آية للعالمين .

القرآن متمسك تمسكاً شديداً بطهارة مريم وعفافها وبتوليبتها . ويرى في امومتها مقرونة بالتولية « اذ ولدته من غير زوج » معجزة لا مثيل لها تدعش

انبياء ٩١ - قال الجلالان : « والتي احصنت فرجها » حفظته من أن ينال « فننفخنا فيها من روحنا » اي جبريل حيث نفخ في جيب درعها فحملت بعيسى . « آية للعالمين » الانس والجن والملائكة حيث ولدته من غير زوج .

قال البيضاوي : « والتي احصنت فرجها » من الحلال والحرام ، يعني مريم . « فننفخنا فيها » عيسى أي أحييناه في جوفها . وقيل فعلنا النفخ فيها . « من روحنا » : من الروح الذي هو بأمرنا وحده او من جهة روحنا جبريل . « وجعلناها وابنها » أي قصتها او حالها ولذلك وحد قوله « آية للعالمين » فان من تأمل حالها تحقق كمال قدرة الصانع تعالى .

بين البيضاوي والجلالين اختلاف على كيفية الحمل . فبينما يجعلها الجلالان بنفخة من الملاك جبريل ، يفضل ان يراها البيضاوي خلقاً مباشراً بنفخ الله عيسى في مريم ، روحاً منه : « احييناه في جوفها » .

العالمين « من الانس والجن والملائكة ». قال الرازي « ولولا أنه ظهر عليها من الحوارق، لم يصح ذلك الوصف » .

في سورة مريم لا يذكر كيف حملت بمعجزة، اما هنا فيروي لنا كيفية هذه المعجزة: « فنفخنا فيها من روحنا » أي نفخ جبريل في جيب درعها فحملت بعيسى؛ فالواسطة المعجزة كانت نفخة الملاك. غير ان البيضاوي مع الزمخشري يفضلان الخلق مباشرة « أحييناه في جوفها ». وتفسيرهما ينسجم أكثر مع آل عمران حيث الحبل يجري بخلق مباشر دون واسطة، ومع آية النساء حيث نقرأ ان « كلمة الله وروح الله » يُلقى مباشرة الى مريم (١٧٠)^١

والى ذلك فإن القرآن يربط بين طهارة مريم وامومتها المعجزة، كأن الامومة مع البتولية مكافأة لها على حصانتها وطهارتها وعفافها .

(١) وعندى ان التعبير « من روحنا » يحتمل معنى الفاعل والمفعول: النافخ والمنفوخ. اذا اخذناه بمعنى الفاعل يكون الروح هو النافخ في مريم لتحمل بمعجزة. واذا اخذناه بمعنى المفعول يكون الروح هو المفعول أي المنفوخ في مريم. وهذا المعنى هو الافضل لانه ينسجم مع تعليم سورة مريم وآل عمران على خلق المسيح في مريم دون واسطة معجزة، ولان آية الانبياء تعبير آخر لآية النساء: « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته انزلنا الى مريم وروح منه » فالملقى الى مريم كلمة الله وروح الله. قال احدهم: « نزل نفخ الروح في عيسى لكونه في جوف مريم فنزلت نفخ الروح في مريم، فعبّر بما يفهم ظاهر هذا » .

النص الثالث : سورة الموضع ٥١

يختم بها ذكر الانبياء من نوح الى ابن مريم على السياق نفسه :

٥١ وجعلنا ابن مريم وامه آية وآويناها الى ربوة ذات

قرارٍ ومعين .

يرى القرآن في ابن مريم وامه آية واحدة لا تنفصل . فكلمتا اتي على ذكرها تبدت له معجزتها الباهرة التي لا تدانيها حال احد من الناس حتى الانبياء . فإن هذه الآية تأتي دائماً مسك الحتام في سيرة الانبياء السالفين الصالحين . ويزيدنا بياناً عن حياة مريم وابنها، بعد ميلاد المسيح، كون الله قد آواها الى جنة على رابية فيها زروع وثمار ومياه يستريح الانسان في السكنى فيها . ولكن لا نعلم اين كانت تلك الربوة .

آية ٥١ - قال الجلالان : « وجعلنا عيسى وامه آية » ؛ لم يقل آيتين لان الآية فيها واحدة : ولادته من غير زوج . « وآويناها الى ربوة » مكان مرتفع وهو البيت المقدس او دمشق او فلسطين : اقول ! « ذات قرار » اي مستوية يستقر عليها ساكنوها . « ومعين » ماء جارٍ ظاهرٌ تراه العيون .

قال البيضاوي : « وجعلنا ابن مريم وامه آية » بولادتها اياه من غير مسيس فالآية امر واحد مضاف اليهما او جعلنا ابن مريم آية بأن يتكلم في المهد وظهر منه معجزات أخرى ، وامه آية بأن ولدت من غير مسيس فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها . « ربوة » ارض بيت المقدس فانها مرتفعة او دمشق او رملة فلسطين او مصر فان قراها على الربى . « ذات قرار » اي مستقر من ارض منبسطة . وقيل ذات ثمار وزروع فان ساكنيها يستقرون فيها لاجلها . « ومعين » ماء معين ظاهر جار . فالربوة جنة من ثمار وزروع ومياه .

النص الرابع آل عمران : ٣٣ - ٤٧

في هذا النص الخبر المفصل عن سيرة مريم : عن ميلادها، وعيشتها في الهيكل، وولادتها يسوع .

٣٣ ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين .

٣٤ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم .

١ الحبل بلا دنس :

٣٥ اذ قالت امرأة عمران : رب اني نذرتُ لك ما في بطني محرراً فتقبل مني انك انت السميع العليم .

آية ٣٣ - « ان الله اصطفى... » اختارهم يجعل الانبياء منهم . فمريم بنت عمران وام المسيح من الذرية المصطفاة على العالمين . وهذا يظهر شرف نسبها وحسبها الذي لا مثيل له في العالمين، وعظمة ابنها .

قال البيضاوي : « ان الله اصطفاهم بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية، وبسبب انسابها الجليلة لمحبة الله . وبه استدل على فضلهم على الملائكة . آل عمران : موسى وهارون ابنا عمران بن يصر بن قاهن بن لاوي بن يعقوب . وعيسى وامه مريم بنت عمران بن ماثان . . . وكان بين العمرانيين الف وثلاثمائة سنة . والحديث في السورة عن آل عمران ابي مريم لا ابي موسى » .

آية ٣٥ - قال الثعلبي في قصص الانبياء : « قال المفسرون هي حنة بنت فاقرز جدة عيسى عليه السلام . وعمران كما قال ابن عباس هو عمران بن ماثان

٣٦ فلما وضعتها قالت : رب اني وضعتها انثى ، والله عليما
بما وضعت ، وليس الذكر كالانثى . واني سميتها
مريم . واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان
الرجيم .

وليس بعمران ابي موسى اذ بينهما الف وثمانماية سنة . وكانت القصة في ذلك
ان زكريا بن يوحنا وعمران بن ماثان كانا متزوجين بأختين احدهما عند زكريا
وهي ايشاع (اليصابات) بنت فاقوز ام يحيى وكانت الاخرى عند عمران
وهي حنة بنت فاقوز ام مريم .

والبيضاوي يسميها حنة بنت فاقوزا . ويقول : « وكانت لعمران بن يصهر
بنت اسمها مريم اكبر من موسى وهارون فظن انه المراد » .

وينقل البيضاوي لنا عن (انجيل الطفولة) انها كانت عاقراً عجوزاً فيينا
هي في ظل شجرة اذ رأت طائراً يطعم فرخه فحنت الى الولد وتمنته وقالت :
اللهم ان لك علي نذراً ان رزقتني ولداً ان اتصدق به على بيت المقدس فيكون
من خدمه ، فحملت بمريم . « وهلك عمران وهي حامل » (الجلالان) كذلك
الزمخشري .

« اني نذرت كل ما في بطني محرراً » عتيقاً خالصاً من شواغل الدنيا لخدمة
بيتك المقدس (الجلالان) او مخلصاً للعبادة (البيضاوي) . والمحرر المنذور
لخدمة الهيكل ، يبقى فيه حتى يبلغ الحلم ، فاذا بلغ خبير بين ان يقيم وبين
ان يذهب حيث يشاء ، وهذه هي سداثة الهيكل .

آية ٣٦ - « قالت رب اني وضعتها انثى » قالته نحسراً ونحزناً الى ربها لانها
كانت ترجو ان تلد ذكراً ولذلك نذرت تحويره (البيضاوي) . « والله اعلم بما
وضعت » . وفي قراءة : وضعت ، بالضم على لسانها ، تسنية لنفسها اي : ولعل

٣٧ فتقبلها ربها بقبول حسن . وأنبئتها نباتاً حسناً . وكفلها
زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً ،

الله فيه سرّاً ، او الانثى كان خيراً . « وليس الذكر (الذي طلبت) كالانثى ،
(التي وهبت) في صلاحها لخدمة البيت المقدس وهي لا تصلح لها لضعفها
(الجلالان) واللام للعهد اي انك لا تعلمين قدر هذا الموهوب (الزمخشري) .
« واني سميتها مريم » انما ذكرت ذلك لربها تقرباً اليه وطلباً لان يعصمها
ويصلحها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها فان مريم في لغتهم بمعنى العابدة
(البيضاوي والرازي) .

« واني اعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » اجيرها بحفظك وامنعها
واصونها . وقد رأى الحديث في هذه الآية عصمة مريم من الخطيئة في ولادتها .
قال البيضاوي : « وعن النبي : ما من مولود يولد الا والشيطان يمسّه حين يولد
فيستهل صارخاً من مسه الا مريم وابنها » . ومعناه ان الشيطان يطمع في
اغواء كل مولود بحيث يتأثر منه الا مريم وابنها فان الله تعالى عصمها ببركة
الاستعاذة (البيضاوي والزمخشري) . وجاء في (الجلالين) : « في الحديث : ما من
مولود يولد الا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً الا مريم وابنها . رواه
الشيخان » . كذلك الزمخشري والرازي . أليس في الآية والحديث صدى لعقيدة
النصارى بعصمة مريم من الخطيئة الاصلية ؟

آية ٣٧ - « فتقبلها ربها » فرضي بها في النذر مكان الذكر (البيضاوي)

« بقبول حسن » بوجه حسن يقبل به النذائر . او تسلمها عقيب ولادتها
قبل ان تكبر وتصلح للسدانة فيكون تقبل بمعنى استقبال . روي ان حنة لما
ولدتها لفتها في خرقة وحملتها الى المسجد ووضعتها عند الاحبار وقالت : دونكم
هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها لانها كانت بنت امامهم وصاحب قربانهم (البيضاوي)
والزمخشري : « فأخذها في اول امرها حين ولدت بقبول حسن » .

قال : يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله
يرزق من يشاء بغير حساب .

وقال الرازي: ذكر المفسرون في تفسير ذلك القبول الحسن وجوهاً
(الاول) انه تعالى عصمها وعصم ولدها عيسى عليه السلام من مسّ الشيطان .
(الثاني) تقبلها في الهيكل بعبزة الاقلام . (الثالث) تقبلها في الحياة
بالمعجزات ؛ وعن الحسن : ان مريم تكلمت في صباها كما تكلم المسيح ، ولم
تلتقم ثدياً قط ، وان رزقها كان يأتيها من الجنة . (الرابع) قبلها وهي انثى
لا تصلح للخدمة في الهيكل .

«وانبتها نباتاً حسناً» أي سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان . وهذا
هو كمال الاخلاق (الثعلبي) ؛ مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع احوالها
(البيضاوي والزمخشري) ؛ وعن الجلالين : انشأها بخلق حسن ؛ فكانت تنبت
في اليوم كما ينبت المولود في العام . وقال الرازي : «منهم من صرف هذا
النبات الحسن الى ما يتعلق بالدنيا . ومنهم من صرفه الى ما يتعلق بالدين .
أما الاول فقالوا المعنى انها كانت تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام .
وأما في الدين فلأنها نبتت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة . . . وعن
الحسن : أنها كانت عاقلة في حال الصغر فإن ذلك كان من كراماتها .»

«وكفلها زكريا» زوج خالتها اليساع . سلمه اياها ليقوم بأمرها ويعولها
(الثعلبي) . قال زكريا للاحبار انا احق بها لان خالتها عندي فقالوا : لا حتى
نقترع . فانطلقوا وهم تسعة وعشرون الى نهر الاردن وألقوا اقلامهم على ان
من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو اولى بها ، فثبت قلم زكريا . فأخذها وبني لها
غرفة في المسجد بسلم لا يصعد اليها غيره وفيه قراءات : زكريا بالقصر وزكرياء
بالمدة . وكفلها بالتشديد وكفلها بالتخفيف (الرازي) . ثم اختلفوا متى كانت
هذه الكفالة هل حالاً بعد ذلك النبات الحسن أو بعد سن الرضاع والطفولية
(الرازي) .

٢ عزلة مريم في الهيكل :

٤٢ وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين .

« كلما دخل عليها المهراب » العرزة، وهي اشرف المجالس (الجلالان) ومقدمها سمي به لانه محل محاربة الشيطان كأنها وضعت في اشرف موضع من بيت المقدس . روي انه كان لا يدخل عليها غيره واذا خرج اغلق عليها سبعة ابواب (البيضاوي) . والمهراب من مكراب الحبشية أي الهيكل .

« وجد عندها رزقاً ، أي ليس منه بل « خارقاً للعادة » . وقيل ايضاً وجد عندها فاكهة في غير اوانها . قال الجلالان : « يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف » . وقال محسن : يجد عندها رزقها وكان يأتيها من الجنة . « قال يا مريم اني لك هذا ، الرزق الآتي في غير اوانه والابواب مغلقة عليك ؟ جعل ذلك معجزة لذكربا .

« قالت هو من عند الله » قيل تكلمت صغيرة كعيسى عليه السلام ولم ترضع ثدياً قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة (البيضاوي والجلالان والتعلي ومحسن والزمخشري) .

« ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » . يحتمل ان يكون من كلامها وان يكون من كلام الله . بغير حساب بغير تقدير لكثرتة او بغير استحقاق تفضلاً به (البيضاوي) رزقاً واسعاً بلا تبعة (الجلالان) .

آية ٤٢ - « يا مريم » : روي ان الملائكة كلموها شفاهاً (الزمخشري) كلموها شفاهاً كرامة لها (البيضاوي) ولم يتفق ذلك لانثى غيرها (الرازي) . « إن الله طهرك » اختارك وطهرك من مسيس الرجال (الجلالان) وعمّا يستقدر من النساء (البيضاوي) وبما يستقدر من الافعال وبما قرفك به اليهود (الزمخشري) وأضاف الرازي : طهرها عن الكفر والمعصية ومن الافعال الذميمة والعادات

٤٣ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مسع الراكعين

القبيحة . « **إن الله اصطفاك** » قال الرازي : الاصطفاء الاول ما حصل لها من الامور الحسنة في اول عمرها ، والاصطفاء الثاني ما حصل لها في آخر عمرها . « **اصطفاك** اولاً حين تقبلتك من امك وربك واختصك بالكرامة السنية » (الزمخشري) « **الاصطفاء الاول** تقبلها من امها ولم تقبل قبلها انثى ، وتفرغها للعبادة ، واغناؤها برزق الجنة عن الكسب » (البيضاوي) ؛ اما « **النوع الاول** من الاصطفاء فهو امور : ١ انه تعالى قبل تحريرها مع انها كانت انثى ولم يحصل مثل هذا المعنى من الاناث ؛ ٢ قال الحسن : ان امها لما وضعتها ما غدتها طرفة عين بل ألقته الى زكريا وكان رزقها يأتيها من الجنة ؛ ٣ انه تعالى فرغها لعبادته وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة ؛ ٤ انه كفها أمر معيشتها فكان يأتيها رزقها من عند الله ؛ ٥ انه تعالى اسمعها كلام الملائكة شفاهاً ولم يتفق ذلك لانثى غيرها .

« **واصطفاك على نساء العالمين** » أي نعم زمانها (الجلالان) . واصطفاك آخراً على نساء العالمين بأن وهب لك عيسى من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء (الزمخشري) . والاصطفاء الثاني (١) هدايتها ، (٢) ارسال الملائكة اليها ، (٣) تخصيصها بالكرامات السنية كلولد من غير أب (٤) تبرئتها مما قذفته اليهود بإنطاق الطفل ، (٥) جعلها وابنها آية للعالمين (البيضاوي) . وأضاف الرازي : « **روى انه عليه الصلاة والسلام قال : «حسبك من نساء العالمين أربع مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة عليهن السلام . هذا الحديث دل على ان هؤلاء الاربع أفضل من سائر النساء . وهذه الآية دللت على أن مريم عليها السلام أفضل من الكل . وقول من قال : المراد انها مصطفاة على عالمي زمانها فهذا ترك الظاهر !** »

آية ٤٣ — « **يا مريم اقنتي** » القنوت اقامة الطاعة ، « **واسجدي** » السجود الصلاة ؛ « **واركعي** » الركوع الخشوع .

٤٤ ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ
يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ
يختصمون .

٣ البشارة :

٤٥ اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه

آية ٤٤ - « اذ يلقون اقلامهم » كيفية كفالة زكريا لمريم لم تنزل في الانجيل
وجاءت في القرآن فسماها وحيأً جديداً . اقلامهم اقداحهم (سهامهم) للاقتراع
وقبل اقتراعوا باقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركاً . جاءت الآية
تفسيراً لقوله « وكفلها زكريا » لما سئل عنه، وتفسيراً للحادث كله لما سئل عنه
ايضاً، فقال انه من انباء الغيب يوحي اليه . ونعلم نحن ان القرآن والتفاسير
نقلت عن « انجيل الحداثة » المنحول الذي كان شائعاً في زمان محمد بين العرب .

آية ٤٥ - تعدد الآية اربعة ألقاب للمسيح وصفتين . وتضيف الآية ٤٦
صفتين اخريين :

١ - « بكلمة منه » لم ذكّر ضمير الكلمة ؟ - لأن المسمى بها مذكّر
(الزمخشري) . أي بعيسى سمي بذلك لانه وجد بأمره تعالى دون أب فشابه
البدعيات التي هي عالم الامر (البيضاوي) ، اي بعيسى انه روح الله وسمي كلمة
لانه خلق بكلمة « كن » (آية ٤٧) (الجلالان) . وعندنا ان اسم « كلمة »
يحتمل معنى إلهياً لان « هذا الكلمة » اسم شخص هو المسيح لا اسم امر، وهذا
الشخص صادر « منه » تعالى ازلياً غير مخلوق ، وهو « روح الله » كما يقول
الجلالان مع القرآن ؛ وروح الله لا يكون مجرد امر . وثلاثة اسماء لشخص
المسيح، عيسى، ابن مريم، تُبدل من « كلمة الله » واسماء الاشخاص لا تُبدل
من امر معنوي . ولكن بما ان المسلمين لا يؤمنون بالوهية عيسى فيضطرون

اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين .

ان يفستروا ذلك اللقب الكبير باشتقاقه من الامر «كن»... وبما يدل على ان «الكلمة» اسم شخص لا اسم امر كما يريدون (اولاً) ألقابه (ثانياً) توابعه: منه، اسمه، وجيهاً ومن المقربين وكلها تعود الى مفرد مذكر (تفسير العلامة ابي العود) .

٢ - «اسمه المسيح» قال البيضاوي : المسيح لقبه وهو من الالقاب المشرفة كالصديق . وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه المبارك . سمي كذلك لأنه مسح بالبركة - او بمسح طهره من الذنوب - او مسح الارض ولم يقم في موضع - او مسحه جبريل . - وعيسى معرب إيشوع . واشتقاقها من المسح والعيس تكلف لا طائل تحته : والزخشري : «ومشتقها من المسح والعيس كالراقم في الماء» .

قال الرازي : «المسيح هل هو اسم مشتق او موضوع؟ أصله بالعبرانية مشيحا فعربته العرب وغيروا لفظه . وعيسى أصله إيشوع وعلى هذا القول لا يكون له اشتقاق . والاكثر ان اشتق موضوع - ١) قال ابن عباس انما سمي مسيحاً لأنه ما كان يمسح بيده اذا عاهة الأبرياء من مرضه - ٢) قال احمد بن يحيى : لأنه كان يمسح الارض اي يقطعها في المدة القليلة - ٣) لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى - ٤) لأنه مسح من الاوزار والآثام - ٥) لأنه كان يمسح بدهن طاهر مبارك يمسح به الانبياء ولا يمسح به غيرهم - ٦) لأنه مسحه جبريل بجناحه وقت ولادته ليكون له ذلك صوتاً عن مس الشيطان - ٧) لأنه خرج من بطن امه ممسوحاً بالدهن» . وقدم اللقب على الاسم ليفيد علو درجته . وذكر الضمير في قوله «اسمه» عائداً الى الكلمة وهي مؤنثة لان المسمى بها مذكر .

٤٦، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ .

٣ - « واسمه عيسى » معرفت ابشوع .

٤ - « ابن مريم » صفة تميزت بتميز الاسماء ونظمت في سلكها . وانما قيل : « ابن مريم » والخطاب لها، تنبيهاً على انه يولد من غير أب اذ لا تنسب الاولاد الى الأم الا اذا فقد الاب (بالاجماع) . ويحتمل ان يراد : ان الذي يعرف به ويتميز عن غيره هذه الثلاثة، فان الاسم علامة المسمى والمميز له بمن سواه . - « وجهياً في الدنيا والآخرة » اول صفة، حال مقدرة من كلمة ؛ وتذكيرها « وجهياً » للمعنى ؛ والوجه ذو جاه . والوجهة في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة (البيضاوي، الجلالان) ؛ الوجهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة (الزمخشري) ؛ وعن الرازي : الوجهة في الدنيا هي النبوة او استجابة دعائه او براءته من العيوب، وفي الآخرة بالشفاعة او علو درجته ومنزلته او كثرة ثوابه . - « ومن المقربين » من الله : صفة ثانية، وقيل اشارة الى علو درجته في الجنة او رفعه الى السماء وصحبته الملائكة (الزمخشري والبيضاوي) ؛ وزاد الرازي : جعل ذلك كالمدهح العظيم للملائكة فالحقه بمثل منزلتهم .

آية ٤٦ - « وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا » صفة ثالثة، اي يكلمهم حال كونه طفلاً كما يكلمهم كهلاً، كلام الانبياء من غير تفاوت . وهذا لم يحدث لنبي غيره فكان صفة مميزة له . وقال ابو مسلم : « معناه انه يكلم حال كونه في المهد وحال كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة، وكذلك لا شك انه غاية في المعجزة » (عن الرازي) - « ومن الصالحين » صفة رابعة، « ولا رتبة اعظم من كون المرء صالحاً، ومعلوم ان ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين، فلما ذكر بعض التفاصيل اردفه بهذا الكلام الذي يدل على ارفع الدرجات » (الرازي)، فتمت القاب المبشر به، مولود مريم، الاربعة، وصفاته الاربعة المميزة له .

٤٧ قالت : ربّ أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر ؟
 قال : كذلك ا الله يخلق ما يشاء اذا قضى امراً فإنما
 يقول له : كن ، فيكون ا

(ومن بعد يأخذ القرآن فى ذكر نبوة المسيح ورسالته ومعجزاته ٤٨ -

٥٦) .

آية ٤٧ - « انى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر » تعجب او استبعاد عادى ،
 او استفهام عن انه يكون بتزوج او غيره . انى اى كيف يكون او من
 اين يكون . « ولم يمسنى بشر » جملة حالية منافية للولادة اى والحال انى على
 حالة تتنافى مع الولادة .

« قال : كذلك » دون ان يمسك بشر . و كيف ؟ « الله يخلق ما يشاء » .
 و كيف يخلقه ؟ « اذا قضى امراً انما يقول له كن فيكون » اشارة الى انه تعالى
 كما يقدر ان يخلق الاشياء مدرجاً بأسباب ومواد يقدر ان يخلقها دفعةً من غير
 ذلك (البيضاوى وابو العود) .

الآية ٤٧ من آل عمران تنقض تفسيرهم آية « الانبياء » و « المؤمنون » عن

خلق عيسى بنفخة من جبريل .

النص الخامس : سورة النساء ١٥٧ و ١٧٠

في المقطع الاول يحمل القرآن على اليهود حملة شعواء يعدد فيها مظالمهم لانهم انكروا رسالته وسألوه كتاباً من السماء : « يسألك اهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء! - ١ فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا : أرنا الله جهرة ! فأخذتهم الصاعقة بظلمهم . ٢ ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البيِّنات، فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً . ٣ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجداً، وقلنا لهم : لا تعدوا في السبت، واخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ! فبما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق، وقولهم : «قلوبنا غلغلة» ! بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلاً .

تلك انواع ثلاثة من كفرهم، واما النوع الرابع الاخير والعظيم فهو « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ! وقولهم : إنا قتلنا المسيح » (نساء ١٥٧) .

ذلك الكفر والقول والبهتان العظيم هو نسبتها الى الزنى (البيضاوي والجلالان) .

وفي المقطع الثاني، بعد حملته على اليهود يلتفت الى النصارى ليحذرهم من الغلو في اكرام المسيح . أجل انه « كلمة الله » و « روح منه » ولكنه ليس « ثالث ثلاثة » :

(١) اي فينقضهم، وما مزيدة للتوكيد (الزنجشيري) : والباء سببية .

١٧٠ « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله
 إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم ، رسولُ الله وكلمتهُ -
 ألقاها الى مريم - وروح منه . فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا :
 ثلاثة ا »

انه يصرّح بمن نحمل مريم ، بشخصية مولودها : هو مسيح الله ، وكلمة الله ،
 وروح الله . نحمل به مباشرةً من قبل الله ، دون واسطة ولو مُعجزة : ألقى
 الله كلمته الى مريم مباشرةً .

في هذه الآية يحمل القرآن ايضاً ، لا على التثليث المسيحي كما يُظنّ ، بل
 على بدعة نصرانية ظهرت قبل القرآن في الاجيال الاولى باسم المرقيونية ،
 وفي القرنين الخامس والسادس باسم «المثلثة او المثلثين» الذين جعلوا التثليث
 المسيحي المبني على وحدة الجوهر الالهي ، ثلاثة آلهة ، فعددوا الجوهر الالهي
 الفرد . فهل ظن القرآن ان في تلك البدعة الضالة يجتمع تعليم المسيحية الرسمي ؟

(١) راجع تاريخ مختصر الدول لابن العربي ، صفحة ١٢٢ ، بيروت ، ١٨٩٠ - وتعليقنا
 على سورة المائدة .

النص السادس : سورة التحريم ١٢

في آخر سورة التحريم يضرب القرآن لنساء النبي والمسلمين مثل النساء الفاسقات ليهربن منه، ومثل النساء المؤمنات ليقتدين به . ويقدم لهن في الختام وفي مريم خير مثال :

١٢ « ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا . وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين »

وهناك قراءة أخرى أبلغ :

« ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا . وصدقت بكلمة ربها وكتابه وكانت من القانتين »

قال البيضاوي : « التي أحصنت فرجها (من الرجال) فنفخنا فيه (في فرجها) وقريء « فيها » أي في مريم . « من روحنا » من روح خلقناهُ بلا توسط أصل . « بكلمات ربها وكتبه » وقريء « بكلمة الله وكتابه » أي بعيسى والانجيل .

قال الجلالان : نفخ جبريل في جيب درعها بخلق الله فعله الواصل الى فرجها فحملت بعيسى .

« من روحنا » تتحمل معنى الفاعل كما ارتأى الجلالان أي كان جبريل الواسطة الالهية المعجزة في حمل المسيح . وتتحمل معنى المفعول كما فهم البيضاوي : أي

حملت مريم بروح الله مباشرة . ورأى البيضاوي ينسجم أكثر مع تعليم السور
المدنية على الحبل المباشر المعجز دون واسطة نفخة جبريل .

وهكذا نجد تطوراً ملموساً في تعليم القرآن عن كيفية حمل مريم بالمسيح
بين السور المكية حيث يظهر جبريل وكأنه الواسطة المعجزة للحمْل ينفخته
الحلّاقة (مريم ١٨ ، مؤمنون ٥١ ، انبياء ٩١) وبين السور المدنية حيث تمت
المعجزة مباشرة ، دون واسطة على الاطلاق : « الله مخلوق ما يشاء ، إذا قضى
أمراً فأنما يقول له : كن ، فيكون » (آل عمران ٤٧) ، « انما المسيح عيسى ابن
مريم ، رسول الله وكلمته - ألقاهما الى مريم - وروح منه » (نساء ١٧٠)
فالملقى الى مريم مباشرة من الله هو كلمة الله وروح الله : « روح منه »
(نساء ١٧٠) « فنفخنا فيها من روحنا » (تحریم ١٢) .

النص السابع : سورة المائدة ٧٦ - ٨٠ و ١١٣ - ١١٩

في هذه السورة يرد القرآن على بدعة مؤلّهي مريم وكانوا يُدعون « مريميين ». ويسمّهم ابيفانس في (كتاب الهرطقة) « كَلْتِيرِيّين » لانهم كانوا يقدمون للعذراء قراييناً أقراصاً من الرقاق اسمها « كلتيرس ». فيظهر أن تلك الهرطقة قد وصلت الى الحجاز واخذ بها بعض نساء العرب الجاهلات فانبرى القرآن لدحضها .

٧٥ لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم

٧٦ لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة . . .

٧٨ ما المسيح ابن مريم الا رسولٌ قد خلت من قبله

الرسل . وامه صديقة . كانا يأكلان الطعام . انظر

كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يوثقون ا

٧٩ قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً

ولا نفعاً والله هو السميع العليم .

٨٠ قل : يا أهل الكتاب، لا تغلوا في دينكم غير الحق

(١) مائدة ٧٥ و ٧٦ فيها مقالة فئتين من النصارى لا مقالة فئة واحدة فمنهم من قال : الله هو المسيح ؛ ومنهم من قال : الله ثالث ثلاثة !

(٢) مائدة ٧٨ « وامه صديقة » لأنها صدقت بكلمات الله وابنها أو لأنها صدقت بكلمة جبريل في البشارة أو لأنها بلغت الكمال في العبادة (عن الرازي) .

ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، واضلوا
كثيراً وضلوا عن سواء السبيل^١.

ينكر القرآن تأليه عيسى وتأليه مريم بحجة أنهما ظهرا بظهور البشر، وما
أدلّ على بشرية شخص مثل أكل الطعام! فساقه دليلاً على ضلال تأليهما. كما
اعطاه المسيح في الانجيل برهاناً على صحة قيامته من القبر. ويقر بأن ضلال
تأليه مريم ليس من صلب النصرانية بل هو من أهواء قوم قد ضلوا من قبل
عن سواء السبيل: فليس الله ثالث ثلاثة، وليس المسيح الهاً مع الله، وليست
مريم إلهة من «الثلاثة». فهذا التكفير لمن قال من النصارى «الله هو المسيح»،
(٧٥) «الله ثالث ثلاثة» (٧٦) لا يشمل النصارى كلهم بل «الذين كفروا
منهم» (٧٦) لأنه بعد ان يلعن اليهود (٨١) يبارك النصارى ويمدحهم على
صداقتهم (٨٥) وإيمانهم (٨٦) ويعدهم بالجنة (٨٨).

ومن سورة المائدة مشهد لمحاسبة الرسل يوم القيامة:

١١٢ يوم يجمع الله الرسل

١١٣ اذ قال الله: يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك
وعلى والدتك اذ آيدتك بروح القدس...

(١) قال البيضاوي: بين اولاً اقصى ما لها من الكمال ودل على انه لا يوجب لها
ألوهية لأن كثيراً من الناس يشاركونها في مثله. ثم نبه على نقصها وذكر ما ينافي الربوبية
ويقتضي ان يكونا من عداد المركبات الكائنة الفاسدة. ثم عجب ممن يدعي لها الربوبية
مع امثال هذه الادلة الظاهرة.

وأى شيء ادل على البشرية من أكل الطعام وما ينشأ عنه! وهكذا ترى انهم لا يفقهون
من معنى التجسد شيئاً: فالتجسد يترك الله المتجسد الهاً كاملاً وانساناً كاملاً. قال الانجيل:
«والكلمة صار جسداً وحل فينا». وقال القرآن: «كلمته القاها الى مريم». – والنسبة
الى لاه يسميها البيضاوي «ألوهية» والزخشي «لاهوتية» والرازي والغزالي «إلهية».

ويعتد مفاعيل هذا التأييد : انواع المعجزات

١١٩ واذا قال الله : يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس

اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ ١ - قال : سبحانك

ما يكون لي ان اقول ما ليس بحق . . .

١٢٠ ما قلت لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي

وربكم . . . قال الله : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم .

في هذا المقطع يعدد الله للمسيح انواع الميزات والمعجزات التي اسبغها

عليه وعلى والدته ، والحوارق التي أجراها بواسطة تأييد الروح القدس له .

فيستدرجه بذلك الى السؤال العظيم عن البدعة الكبرى : أنت قلت للناس

اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ فينكر المسيح ذلك اشد الانكار ويوافق

الله على صدق اعترافه .

فيؤخذ من هذين المقطعين من سورة المائدة ان القرآن يجعل الثالوث المسيحي

مؤلفاً من الله وعيسى ومريم ! . . . فهل جعل مسيحيو العرب الجهال البعيدون

عن مراكز النصرانية الرسمية الثالوث الاقدس مركباً من الله والمسيح ومريم

حتى ثارت ثائرة القرآن عليهم فكذبهم على لسان عيسى نفسه بشهادته

للتوحيد في يوم الدين ؟ أم هل ظن ان تلك البدعة هي تعليم النصرانية الجامعة

فنسبها الى اهل الكتاب كلهم ؟ . . . أهذا اختلاق أم بدعة مسيحية مفرطة

وحضها بشدة ؟ . . . يظهر من قوله « لَيْسَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ »

(٧٦) انها مقالة بعضهم ، وأنها بدعة مسيحية غالى فيها نصارى العرب

البدائيون ، فأنكر عليهم جعل المسيح الهاً آخر مع الله ، ومريم الالهة اخرى

مع الله : يكفيها انها « الصديقة المصطفاة » .

(١) أي ليمسّن الذين بقوا على الكفر منهم لان كثيراً منهم تابوا (الزمخشري) .

الجزء الثاني : تحليل النصوص

مريم العذراء آية للعالمين في اصطفايتها

مريم العذراء آية للعالمين في ميلادها

مريم العذراء آية للعالمين في حداثتها

مريم العذراء آية للعالمين بمجزة حملها البتولي بالمسيح

مريم العذراء آية للعالمين في ولادتها المسيح

مريم العذراء آية للعالمين مع ابنها في حداثته

مريم العذراء آية للعالمين في حياتها كلها وشخصيتها

اولا : مريم العذراء آية للعالمين في اصطفاؤها .

« وجعلناها وابنها آية للعالمين »

(انبياء ٩١ ، مريم ٢١ ، آل عمران ٤٧ ، مؤمنون ٥١)

ان القرآن يرى في مريم ام المسيح آية في اصطفاؤها، آية في ميلادها، آية في اختلافها في الهيكل، آية في ولادتها المسيح، آية في طهارتها وقداستها، آية في شخصيتها .

ان اصطفاء مريم للمعجزة الكبرى، ولادة المسيح، يمتزج في اصطفاء المسيح لرسالته العظمى . فهي مع ابنها « آية واحدة للعالمين » (انبياء ٩١) .

وقد فكر الله في هذا الاختيار منذ اول الخليقة : فاصطفى آباء واجداد مريم والمسيح، من آدم الى عمران، على العالمين : « ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » (آل عمران ٣٣) اي على الانس والجن والملائكة (البيضاوي) . وعمران هذا هو زوج حنة أم مريم، لا ابو موسى وهارون ومريم اختها . وهذا يدل على شرف حسبها ونسبها وعلى عظمة ابنها الفريدة اذ وُلد من الذرية المصطفاة « بالنبوة والرسالة والخصائص الروحانية والجسدية » .

وكان الله اصطفاها جميعاً بسببها وسبب ابنها فجاءت هذه المقدمة لميلاد مريم « اذ قالت امرأة عمران . . . » (٣٥) .

اصطفى الله مريم خاصة على نساء العالمين : « واذ قالت الملائكة : يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » (٤٢ آل عمران) .
فما من امرأة بين الملائكة والبشر أشرف منها على ما نص به القرآن جازماً،

فلا أم موسى ولا أم غيره من الانبياء والمرسلين الا كُنَّ دونها كرامة ومنزلة .
ذلك انها بأمومتها للمسيح سمت عليهن جميعاً فكانت مع ابنتها آية الخلق :
« وجعلناها وابنتها آية للعالمين » .

ثانياً : مريم العذراء آية للعالمين في ميلادها .

لقد حملت بها امها حنة العجوز العاقر بمعجزة . قال البيضاوي في تفسيره :
فبينما هي في ظل شجرة اذ رأت طائراً يُطعم فرخه فحنت الى الولد وتمنته
فقلت : اللهم ان لك عليّ نذراً ان رزقتني ولداً ان اتصدق به على بيت
المقدس فيكون من خدمه ، فحملت بمریم : « اذ قالت امرأة عمران : رب اني
نذرت لك ما في بطني محرراً : فتقبل مني انك انت السميع العليم ،
(آل عمران ٣٥) .

لقد حبل بها ايضاً في طهارة كاملة تواكب اصطفاها « ان الله اصطفاك
وطهرك » فالاصطفاء الفريد يلزمه ويلازمه طهارة فريدة .

ولكن ، هل وصلت هذه الطهارة الى عصمة مريم من كل خطيئة ؟

إن امها حنة تستعبد في حملها وولادتها من الشيطان الرجيم : « اني
اعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » (آل عمران ٣٦) . ويقبل الله
إستعاذتها ، فتحمل بها وتلدّها بدون ان يكون للشيطان من سبيل اليها ،
فخلقت بدون خطيئة .

لا شك ان في هذا التعليم صدى لعقيدة النصارى بعصمة مريم العذراء من
الخطيئة الاصلية ؟ بل رأى المفسرون فيه اكثر من صدى ، رأوا تعليماً صريحاً .
اذ ما عمل الشيطان المستعاذ منه وتأثيره على المولود سوى مسّه بالخطيئة ؟
واية خطيئة تولد مع المولود غير التي يسميها النصارى « الخطيئة الاصلية »
الموروثة عن أصلنا آدم ؟

جاء في صحيح البخاري عن هذه الآية : « حدثني عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة أن النبي قال : « ما من مولود يولد الا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان اياه، الا مريم وابنها ». فهو يعتبر عن الخطيئة الاصلية الموروثة بمس الشيطان للمولود . فهل اوضح من هذه الشهادة وأصرح من هذا التفسير في ذكر خطيئة آدم المنقولة الى ذريته وعلاقتها بالآدميين جميعاً باستثناء العذراء مريم وابنها يسوع المسيح ؟ ومعنى الآية الكامل ان الله عصم مريم ثم ابنها من بعدها من إرث خطيئة الجدّين الاولين . ويشرح صحيح البخاري ايضاً عصمة مريم وابنها من تلك الخطيئة بنقله عن قتادة : « كل آدمي يطعن الشيطانُ بجنبه حين يولد الا عيسى وامه عليها السلام : جعلَ بينهما حجاب ولم ينفذ اليهما شيء منه ». . يعتبر هنا عن الخطيئة الآدمية بطعنة الشيطان للمولود بجنبه وقد حال حجابٌ دون طعنة الشيطان لمريم وابنها .

ويرى الحديث والتفسير ان الولد يُخلق صارخاً من مس الشيطان له وطعنته في جنبه . قال البيضاوي : « ومعناه ان الشيطان يطمع في اغواء كل مولود بحيث يتأثر منه الا مريم وابنها فان الله تعالى عصمها ببركة الاستعاذة » .

وهكذا، فبينما يولد جميع الناس، حتى الانبياء وامهاتهم، في حالة تلك الخطيئة الاصلية المتحدّرة اليها من ابينا الاول بمس الشيطان وطعنته، يشهد القرآن والحديث والتفسير الصريح ان الله تعالى عصم منها مريم العذراء وابنها يسوع المسيح .

فظهارة مريم في خلقها كاملة اصلية طبيعية هي العصمة من كل اذى شيطاني، وهذا هو المعنى الكامل البليغ لهذه الآية : « ان الله اصطفاك وطهرك ! » ! حقاً انه اصطفاء عجيب وطهر عجيب، صارت بهما مريم « آية للعالمين » .

ثالثاً : مريم العذراء آية للعالمين في طفولتها وحدثاتها

« واني سميتها مريم » . يرى البيضاوي ان معناه في لغتهم العابدة . وتذكر

أما حنة اسم ابنتها لله في صلاتها تقرّباً إليه تعالى وطلباً لأن يعصها ويصلحها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها .

«وانبتّها نباتاً حسناً» بهذه الكلمة يوجز القرآن حياة مريم وفضائلها الخلقية والخلقية . قال الثعلبي : «أي سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان» وهذا هو الكمال بعينه . وقال البيضاوي : «هذه الكلمة مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع احوالها» .

ويذكرون ان من جملة طهارتها ، تطهيرها عما يُستقدر من النساء (البيضاوي) ومن مسيس الرجال (الجلالان) .

ونقلوا ان حنة لما ولدتها، وكان ابوها قد مات، لقتها في خرقة وحملتها الى الهيكل ووضعتها عند الاحبار وقالت : «دونكم هذه النذيرة!» فتنافسوا فيها لانها كانت ابنة إمامهم وصاحب قربانهم^١ (البيضاوي) .

«فتقبلتها ربها بقبول حسن» ، استقبلها بوجه حسن . وكان لا يُقبل في الهيكل الا الذكور، فرضي الله بها بدل الذكر لوفاء النذر .

وكفّلها زكريا على اثر معجزة الاقلام . وينقلون لنا قصة كفالته لها عن «انجيل الحداثة» المنحول : قال زكريا للاخبار انا احق بها لان خالتها اليساع عندي . فقالوا : لا حتى نقترع . فانطلقوا وهم تسعة وعشرون الى نهر الاردن وألقوا اقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة على ان من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو اولى بها . فثبت قلم زكريا . فأخذها وبني لها غرفة في المسجد، وجعل بابها في وسطها من فوق لا يصعد اليها غيره، وبسّلم، وسمّى الغرفة المحراب لانه محل محاربة الشيطان كأنها وُضعت في اشرف موضع من الهيكل . وروي ايضاً انه كان لا يدخل عليها غيره واذا خرج اغلق عليها سبعة ابواب (عن البيضاوي) .

(١) لم يكن يواكيم من سبط لاوي!

أما حياة مريم في الهيكل فكانت مملأ بالمعجزات : « كفلها زكريا بمعجزة حتى يسهر على اعالتها وحياتها ؛ وغذّأها الله بمعجزة ايضاً : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ! قال يا مريم انى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب » . ونقل الثعلبي عن محسن : يجد عندها قوتها وكان رزقها يأتيها من الجنة . وقيل وجد عندها فاكهة في غير اوانها . قال الجلالان : يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ! فيستغرب الامر ويسألها : يا مريم انى لك هذا الرزق الآتي في غير اوانه والابواب مغلقة عليك ؟ فتجيب ببساطة « هو من عند الله » (آل عمران ٣٧) .

وقد وجدوا في جوابها هذا معجزة اخرى اذ نطقت به قبل اوان النطق : « تكلمت صغيرة كعيسى عليه السلام ، ولم ترضع ثدياً قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة » (البيضاوي) .

فمن هي هذه المخلوقة العجيبة التي تعيش منعزلة في غرفة في هيكل الرب حتى ان الله يهتم بقوتها فيرسله من السماء او يخلقها لها بنوع غريب ؟ انها ام المسيح التي يستعد الملائكة لبشارتها به .

فتقضي حدائتها في هيكل الرب لا تفكر الابعبادته تعالى قائنة له ، ساجدة كل يوم ، راكعة مع الراكعين : « يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » (٤٧) . انها لحياة اقرب الى عيشة السماء منها الى عيشة الارض .

فانها كما عصمت من الخطيئة في خلقها ، عصمت منها في حياتها : « تقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتاً حسناً » هذا كمال النفس وكمال الجسد . ونقل الثعلبي ايضاً : « وذكروا لنا ايضاً انها (مريم وابنها) كانا لا يُصيبان من الذنوب كما يُصيب سائر بني آدم » . فهذا الحديث الذي يفسر الآية يعني ان الله عصمها من الخطيئة الفعلية كما عصمها من الخطيئة الاصلية . فنحن اذن نعبر بكلام مسيحي عما يقولونه في احاديثهم وتفسيرهم .

ومن ثم فان حياة العذراء مريم في كنف العصمة من الخطيئة على انواعها

بل من كل غبار الشر، وفي كنف بيت الله تطوى على الصلاة والسجود وتعال من عند الله، لحياة اقرب الى حياة السماء منها الى حياة الارض؛ وبها ارتفعت مريم مع ابنها فوق سائر المخلوقات فكانا آية الدنيا: « فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » .

رابعاً : مريم العذراء آية للعالمين في حبلها البتولي بالمسيح

يذكر لنا القرآن في موضعين وبإسهاب قصة بشارة الملاك لمريم العذراء بالمسيح : في سورة مريم وفي سورة آل عمران . والنصان يكمل بعضهما بعضاً . وفي اربعة مواضع اخرى يوجز الخبر بآيات (انبياء، مؤمنون، نساء، تحریم) .

يرينا مريم في عزلة عن الناس وعن اهلها، في مكان شرقي بيت المقدس والهيكل حيث تتربى . ولم تكن تبارح الهيكل الا عن ضرورة : « واذا كرت في الكتاب مريم » - اي في الانجيل اذا كان هذا الامر يعني الماضي، واما اذا كان يحمل معنى الحاضر والمستقبل، فهو القرآن - اي اجعل واكتب في القرآن ذكر مريم وخبرها « اذ انتبذت من اهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً » . فالقرآن يشدد كثيراً على عزلة العذراء في كل اطوار حياتها وفي كل مواطن سكنها .

وبينا هي في عزلتها يأتيها روح الله، اي ملاكه، بهيئة بشر كامل الخلق : « فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » .

دُعوت مريم ورايها امر هذا الشاب فاستعازت بالرحمن منه، وان تكن قد علمت انه من الملائكة الصالحين، اذ انها لم تكن تعهد غيرهم يظهرون لها ويأتونها بطعامها من الجنة . « قالت : اني اعوذ بالرحمن منك ! ان كنت نقياً . . . » . قال : إنما انا رسول ربك ليهب او لأهب لك غلاماً زكياً ! والزكي هو الطاهر من الذنوب، النامي على الخير، المترقي من سن الى سن على

الصالح . وتلاحظ ان مولود مريم طاهر قدوس بريء من الذنوب من قبل ان يُجبل به ! استعازت بالله من الرؤيا فاجابها : لا تجزعي انما انا رسول ربك الذي استعذت به . ارسلني لا كون واسطة في هبته لك غلاماً . وقد عنّ لبعض الجهال ان الملاك قام مقام الرجل في حملها ! ولكن نصوص القرآن جميعها تبعد هذه الفكرة السمجة، وهذا الكفر الشنيع (نساء ١٥٧) .

ثم سألت مريم الملاك : « انتى يكون لي غلام، ولم يمسنى بشر؛ ولم اكُ بغيًا؟ » اي كيف يكون لي غلام ولم يقربني بشر، بالحلال او بالحرام؟ يؤكد القرآن، هنا وفي كل موضع جاء فيه ذكر ميلاد المسيح، بتولية مريم في حملها . هذه عقيدة راسخة ثابتة واضحة في القرآن : يعلنها في سورة مريم، والانبياء، والمؤمنون، وآل عمران، والنساء .

فطمأن الملاك العذراء بشأن حملها البتولي « قال : كذلك !، اي الامر كذلك بخلق غلام منك من غير اب (الجلالان) .

وخلق غلام منك من غير اب امر هين على الله : « قال ربك : هو علي هين !، لان هذا الحبل البتولي سيكون آية للناس به يعرفون عظمة الابن وامه، ويؤمنون برسالته ؛ فهذا المولود رحمة من الله : « ولنجعله آية للناس، ورحمة منا . وكان امراً مقضياً : فحملته ! .

وفي سورة آل عمران يبين لنا من هو هذا المولود العظيم، وكيفية الحبل به .

يظهر هنا مع روح الله ملائكة آخرون، لان الامر الالهي والرسالة الالهية ذات شأن : « اذ قالت الملائكة : يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه - اسمه المسيح - عيسى - ابن مريم - وجيهاً في الدنيا والآخرة - ومن المقربين - ويكلمك الناس في المهد وكهلاً - ومن الصالحين » . هذا هو الولد الموعود به : اربعة القاب تسميه، واربعة اوصاف تعنيه . ابنك يا مريم هو كلمة من الله ! في معنى هذا اللقب يضطرب المفسرون المسلمون ايضاً

اضطراب، ولا يجدون له مخرجاً مستساغاً لانهم يريدون تجريده من المعنى الذي نزل به في الانجيل وردّده القرآن . قال البيضاوي : سُمي كذلك لانه وُجد بأمره تعالى دون ابٍ فشابه البدعيات التي هي عالم الامر . وقال الجلالان : سُمي كلمة لانه نُخلق بكلمة « كُنْ » . ولكن الملائكة والانبياء والاولياء خلقوا جميعاً، وآدم وموسى ومحمد، خلقوا بأمر الله وبكلمة كُنْ، ومع ذلك لا يلقب القرآن احداً منهم بلقب « كلمة الله » ؛ وسياق الآية ٤٥ من آل عمران يظهر لنا ان كلمة الله اسم شخص مرسل معروف قائم بذات خاصة « اسمه المسيح » فليس هو اسم شيء او معنى امر . والآية ١٧٠ من سورة النساء ترينا ان الملقب والمتجسد والمحبول به في مريم والمولود منها هو الكلمة . فهل يكون هذا الكلمة مجرد امر ؟ « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه » . فهل حملت العذراء وولدت امراً معنوياً لا غير ؟ لا، بل بُشّرت بشخص وحملت شخصاً : اسمه كلمة الله وروح الله ومسيح الله ورسول الله كما في سورة النساء، واسمه المسيح ، عيسى ، ابن مريم كما في سورة آل عمران . لاحظ ان لقب « كلمة » يُبدّل منه في آل عمران بثلاثة ألقاب اخرى : « يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح ، عيسى ، ابن مريم » . ولاحظ كذلك ان هذه الالقاب تُبدّل في النساء بدورها من لقب كلمة : « انما المسيح ، عيسى ، ابن مريم ، رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه » . فلا تُبدّل اسماء شخص من امر معنوي ! ولكن بما ان المسلمين لا يؤمنون بالوهية المسيح يضطرون ان يفسروا ذلك اللقب الكبير، ذا المعنى العميق، باشتقاقه من الامر « كُنْ ! » ومما يكن من هذه التفاسير المضطربة القاصرة فان تسمية المسيح بـ « كلمة » قد تفرّد بها يسوع في القرآن دون سائر الانبياء والمرسلين، ولا تنتقص من اهميتها ومعناها شيئاً تفاسير المفسرين القسرية الظالعة .

بشّرها الملاك بكلمة من الله « اسمه المسيح » ؛ وقد اوضحت تلك التفاسير بعض الشيء من هذا اللقب ؛ قال البيضاوي : « المسيح لقبه وهو من الالقاب المشرفة واصله بالعبرية مشيحاً ومعناه المبارك . واشتقاقه من المسح لانه مُسح

بالبركة او بما طهره من الذنوب او مسح الارض ولم يقيم في موضع، او مسحه جبريل . وقال الامام فخر الدين الرازي : « المسيح : في ذلك مذاهب شتى : منها انه مسح من الاوزار والآثام، ومنها انه كان بمسوحاً بدهن طاهر مبارك يمسح به الانبياء . ومنها انه مسحه جبريل بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوتاً له من مس الشيطان . ومنها انه خرج من بطن امه بمسوحاً بالدهن . فولود مريم عظيم في مسحته : مسح من الخطيئة الآدمية : مسحه جبريل بجناحه صوتاً له من مس الشيطان في الحبل به وولادته . مسح من الخطايا الفعلية طيلة حياته « مسح من الآثام والاوزار » . وُلِدَ نبيّاً بينا غيره صار نبيّاً على كبر . خرج من بطن امه بمسوحاً بالدهن، وكان بمسوحاً بدهن طاهر يُمسح به الانبياء . وعظمت انه مسح الارض ولم يقيم في موضع . فهذه المسحات تجعل مولود مريم اكثر من نبي : انه « مسيح الله، اي كلمته وروح منه » .

بشر الملاك مريم بكلمة من الله اسمه المسيح، واسمه ايضاً عيسى، وابن مريم . وعندني ان عيسى نحت عربي لكلمة 'Insoū (ايسو) اليونانية في صيغة المنادى وليس معرباً عن « ايشوع » العبرانية كما يقول البيضاوي وغيره . و « ابن مريم » صفة تميزت تميز الاسماء ونُظمت في سلكها وانما اسنده الملاك اليها في خطابها تنبيهاً لأمه على انه يولد من غير اب اذ العادة نسبة الابن الى الاب ولا يُنسب الى الام الا اذا فقد الاب . ويسمي القرآن دائماً المسيح ابن مريم اعترافاً منه بأموتهما البتولية .

عدّد الملاك للعدراء القاب ابنها العظيمة . ووصفه لها باوصاف تليق بتلك الالقاب : انه « وجه في الدنيا والآخرة » . قالوا بالاجماع : الوجاهة في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة والدرجات العلى . وهو « من المقربين » ، اشارة الى علو درجته في الجنة وذنوه من الله تعالى . « ويكلم الناس في المهدي وكهلاً » اي يكلمهم حال كونه طفلاً كما يكلمهم كهلاً كلام الانبياء من غير تفاوت ، وهذا لم يحدث لنبي غيره فكان صفة مميزة له . وهو « من الصالحين » الذين يخلد ذكروهم .

بعد ذلك الوصف الرائع للمولود السماوي تستفسر البتول عن كيفية الحمل والولادة . ففي السور المكية يظهر ان الملاك كان واسطة المعجزة الالهية في حملها دون ان يمسه بشر . ففي سورة مريم : « قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكياً . قالت انى يكون لي غلام ولم يمسنى بشر ولم اك بغياً ؟ قال : (هو) كذلك ! قال ربك : هو عليّ هين ! » (١٨ - ٢٠) وعلى هذا النحو يجوز ان نفهم معهم سورة الانبياء ٩١ ، بمعنى ان المعجزة حصلت بنفخة جبريل .

ولكن سورة آل عمران (٤٧) توضح الامر فيصير الحمل مخلوق إلهي مباشر دون ادنى واسطة للمعجزة ، ويقتصر دور جبريل على نقل الحبر الى الوالدة المصطفاة . « قالت : رب انى يكون لي ولد ولم يمسنى بشر ؟ قال : كذلك ! (اي هو كذلك بدون مسيس بشر) . الله يخلق ما يشاء ، اذا قضى امراً فانما يقول له : كن ! فيكون » مباشرة وبدون واسطة : فلا اوضح ولا اصرح . قال البيضاوي : « فأحييناه في جوفها... اشارة الى انه تعالى كما يقدر ان يخلق الاشياء مدرجاً بأسباب ومواد ، يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك » . ونأتي سورة النساء فتوضح كيفية ذلك الامر : ألقى الله الى مريم مباشرة كلمته وروحه فحملت : « انما المسيح عيسى ابن مريم ، رسول الله و كلمته ألقاها الى مريم وروح منه » (١٧٠) قال الزمخشري : « وانما قيل ان عيسى كلمة الله فخص هذا الاسم لانه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة ، ولم يكن من نطفة تمني » (اعراف ١٥٧) بل هو روح من الله ألقى الى مريم (مؤمنون ٥١) .

بعد سورتي آل عمران والنساء لا يجوز ان يفهم معنى سورة التحريم وسورة الانبياء « والتي احصنت فرجها فننفخنا فيه (او فيها) من روحنا » بمعنى ان هذا الروح هو جبريل النافخ بل المسيح المنفوخ في مريم بنفخة الله الخلاقة مباشرة : « من روحنا » مستمدة من معنى قوله : « كلمته ألقاها الى مريم وروح منه » .

خامساً : مريم العذراء آية العالمين في ولادتها المسيح

لما حملت العذراء بالمسيح اعتزلت بسرّها بعيداً عن الناس « فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً » .

ولكن كم كانت مدة الحمل ؟ ان النصارى مع الانجيل يقولون هي المدة الطبيعية ؛ اما القرآن فصامت ، ولم يرق المفسرين صمته . واذ جعلوا من ام المسيح مجموعة عجائب ومعجزات ، فقد رأوا في مدة الحمل معجزة اخرى . قال البيضاوي : « وكانت مدة حملها سبعة اشهر وقيل ستة وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية ، غيره . وقيل ساعة » . والجلالان على الراي الاخير : « الحمل والتصوير والولادة في ساعة » . فبا ليتهم يحترمون صمت الكتاب !

وكم كان سن العذراء يوم ولادتها المسيح ؟ القرآن صامت . قال البيضاوي : « وسنها ثلاث عشرة سنة . وقيل عشر سنين . . . » وهكذا يعرف المفسرون دائماً اكثر من الكتاب فلا يحترمون صمته .

وكيف ولدت المسيح ؟ يذكر القرآن ذلك بهذه الكلمة : « فأجاءها المخاض الى جذع النخلة . قالت : يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ! »

قال البيضاوي : « المَخاض والمِخاض هما مصدر مَخَضَتِ المرأة اذا تحرك الولد في بطنها للخروج » . ومن ثم فلا يحتمل التعبير ضرورة معنى « وجع الولادة » كما يريد الجلالان .

فلما حان وقت ولادتها لجأت الى جذع النخلة – والتعريف هنا للعهد أي النخلة المعروفة أو للجنس اي النخلة الوحيدة من جنسها في المكان – فلجأت الى هذه الشجرة لتستتر بها وتعتمد عليها – ولعله تعالى ألهمها ذلك ليربها من آياتها ما يُسكّنُ روعها ، ويطعمها منها (البيضاوي) .

كيف كانت الولادة ؟ لا احد من المفسرين يراها كعادة النساء . والقرآن صامت . فلفظة المَخاض لا تعني انها توجعت عندما ولدت المسيح . ونقدر ان

نستنتج دون ان نخون النصوص بأنها كما حملته بمعجزة ولدته بمعجزة، وكما حبلت به وهي بتول ولدته وظلت بتولاً . قال البيضاوي « كما حملته نبذته، : اي حملته بمعجزة ونبذته بمعجزة !

وكيف لا تكون الولادة بمعجزة، وفي حال البتولية، عند الذين يرون ان الحمل والتصوير والولادة كانت في ساعة؟ (الجلالان) .

ولما ولدت العذراء المسيح قالت : « يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ! » قالت هذا لما رأت نفسها قد حملت وولدت بمعجزة قد لا يصدقها الناس، فقالت ما قالت استحياءً من الناس ومخافة لومهم .

وهنا تدخل الله الساهر عليها وارسل ملاكه ليسكن روعها بمعزتين جديدتين : « فناداها من تحتها : ألا تحزني، قد جعل ربك تحتك سرياً (جدول ماء) وهزتي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلي من جنى النخلة واشربي من النهر السري وقرني عيناً . قالوا : كان الوقت شتاء والنخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة فيها والوادي تحتها ناشفاً لا ماء فيه . فخلق الله لها ماءً وفاكهة ! وبذلك سكن روعها، واطعمها باعجوبة . ومن يتولى اعالتها هكذا، يتولى تبرئتها امام الناس من كل نعمة .

واوعز الله الى الملاك ان يوحى اليها بالامساك عن الكلام فلا تكلم احداً من الناس لان الله اعدّ معجزة كبرى لتبرئة ساحتها : سينطق طفلها فيتنبأ عن براءة امه ويؤكد امومتها البتولية : « فإمّا ترين من الناس احداً فقولي اني انذرت للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم انسياً » .

فأتت به قومها تحمله . قالوا : « يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان ابوك امراً سوءاً وما كانت امك بغياً ! فأشارت اليه (لانها صائمه عن الكلام) ! قالوا : كيف نكلم من كان في المهدي صيباً ؟

فانطق الله الطفل الوليد بمعجزة خارقة « قال : اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت

حيًا وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيماً . والسلام عليّ يوم ولدتُ ويوم اموت
ويوم أُبعثُ حيًا . فلما نطق الوليد وعرف الناس بذاته الشريفة، ورسالته
السامية، لفحهم عن الكلام وبراً والدته تبرئةً كاملة .

وبهذه الولادة الغريبة الفريدة التي تحف بها المعجزات من كل جانب صارت
مريم « آية للعالمين » .

سادساً : مريم العذراء آية للعالمين مع ابنها في حدائته

يوجز القرآن حدائته يسوع، وحياة العذراء مع وليدها بهذه الآية : « وجعلنا
ابن مريم وامه آية، وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » (مؤمنون ٥١) .
لم يقل آيتين لان الآية فيها واحدة : ولادة المسيح من مريم بلا أب (الجلالان
والبيضاوي) .

يظهر ان المسيح وامه قضيا اوقاتها بعد الميلاد في جنة غناء على رابية
يستقر الانسان عند اشجارها ومياها قريب العين .

ويلاحق القرآن دائماً ام المسيح بالعزلة والانفراد حتى لا تكون ولا
تفكر ولا تعمل الا لله وابنها .

والله يكفل مباشرة إعالة مزيم في الهيكل، وفي مدة حملها، وفي ولادتها،
وفي حدائته يسوع فيطعمها بمعجزة ويسقيها بمعجزة .

الا تذكرنا هذه العيشة الخيالية في الانفراد على رابية بنشيد اشعيا النبي :
« إني أنشد لحبيبي نشيد محبوبي في كرمه : كان لحبيبي كرم في رابية ذات
خصب » (ف ٥ عدد ١) .

وينقل لنا القرآن عن انجيل حدائته يسوع، تسليمة المسيح في صغره بمخلق
الطيور . وكان هذا من آيات رسالته : « ورسولاً الى بني اسرائيل أني قد
جئتكم بآية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون
طيراً بإذن الله » (آل عمران ٤٩) .

ويذكر القرآن عيشة يسوع مع امه في التقوى والفضيلة والكمال « وجعلني مباركاً اينما كنت، واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيماً » .

ويذكر طاعة مريم لله، طاعة الاسلام والاستسلام بالخضوع والقنوت وایمانها العظيم بمواعيده وكتبه . « وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » (نحریم) . وحسب قراءة اخرى « وصدقت بكلمة الله وكتبه » اي كانت اولی المؤمنین بالمسیح وانجیاه، والتابعین له .

وهكذا كيف تأمل القرآن حياة الولد العجيب والوالدة المصطفاة وجدها آية واحدة للعالمين : « وجعلنا ابن مريم وامه آية وآويناها الى ربوة ذات قرار ومعين » .

سابعاً : مريم ام المسيح آية للعالمين في حياتها كلها وشخصيتها

ظلت ام المسيح عائشة على تلك الربوة السعيدة الى ان اصطفاه الله الى جواره ليتم فيها آياته .

لا يذكر لنا القرآن شيئاً عن آخرة مريم كما ذكر عن آخرة المسيح انه ارتفع حياً الى الله (آل عمران ٥٥) « رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً » (نساء ١٥٩) . وهل تكون آخرة الام الا شبيهة بآخرة الابن كما كانت في كل حياتها آية واحدة معه ؟

وقد اوجز القرآن حياة مريم وقداستها وشخصيتها بهذه الكلمة الكتابية التقليدية : « وامه صدّيقة » . فهذا التعبير يعني مجموع الفضائل، وكامل القداسة . هكذا وصف الانجيل من قبل قداسة يوسف خطيبها : « وكان رجلها صدّيقاً » . « فإنه تعالى فرغها لعبادته وخصها بأنواع اللطف والهداية والعصمة » (الرازي آل عمران ٤٢) .

ويجتم القرآن ذكر مريم وخبرها برد افتراءات المفترين من اليهود، ونقض
غلوّ المغالين من النصارى :

إنه يكفر اليهود على قولهم « على مريم زوراً وبهتاناً عظيماً! » كانوا
يتهمون العذراء بالزنى ويجعلون ابنها مولود زنى!! فينتفض القرآن لهذه التهمة
السمجة ويصفها حقاً وصفها: « انها زور وبهتان عظيم! » وان القول بها كفر!
والقرآن لا يأخذ كلمة كفر الا في حق الله سبحانه. وقد شاركت تلك المقالة
كفر الكافرين به عز وجل .

ويحذر النصارى من الغلو في تكريمهم لام المسيح بجعلها الالهة . انها
« الصديقة المطهرة » المصطفاة على نساء العالمين . فليست « ثلاثة ثلاثة » : « وما
المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل . واما صديقة . كانا يأكلان
الطعام! » (٧٨) ومن يأكل الطعام كالبشر لا يكون الهاً على حدّ قوله : « قل
يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا
من قبل واضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » (مائدة ٨٠) . فهل تصور
اولئك العرب الجهال البدائيون البعيديون عن مراكز النصرانية، ان الثالث
المسيحي مؤلف من الله والمسيح ومريم حتى تارت نائرة القرآن عليهم فكذبهم
على لسان عيسى نفسه في استجوابه يوم الدين يوم يجمع الله الرسل : « يا عيسى
ابن مريم أنت قلت الناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله؟ - قال : سبحانك
ما يكون لي ان اقول ما ليس بحق . ان ضلال فرقة هزيلة من النصارى لا
يجوز ان يعتم ويطلق على جميع النصارى .

ومن ثم فليست مريم الالهة بل افضل مخلوقة، طهرها الله واصطفاها على
نساء العالمين، وجعلها بمعجزة لا مثيل لها في تاريخ البشرية، امّ مسيح الله
وكلمة الله وروح الله .

خاتمة : موجز تعليم القرآن

فكذا يعلم القرآن عن مريم بحسب ظروف زمانه ومكانه، تعليماً قيماً يستحق كل اعتبار. ونقدر ان نرى فيه صدى لتعليم الكنيسة المقدسة في قرونها الاولى كما وصل الى قلب الجزيرة .

مجد مريم وعظمتها :

يرى القرآن عظمة مريم ومجدها الفريد في كونها مسك الحتام للذرية النبوية المصطفاة : « ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » (آل عمران ٣٣) ، وفي كونها ام المسيح كلمة الله، البتول : « وجعلنا ابن مريم وامه آية للعالمين » (مؤمنون ٥١) .

اصطفاء مريم :

ويصرح باصطفائها على نساء العالمين : « يا مريم ان الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على نساء العالمين » من الملائكة والانس والجن (آل عمران ٤٣) . ويرى دائماً هذا الاصطفاء في صلة مع طهارتها وأمومتها : « والتي احصنت فرجها فننفخنا فيها من روحنا، وجعلناها وابنها آية للعالمين » (انبياء ٩١) . فصارت ببتوليتها الدائمة وامومتها « الصديقة المصطفاة على العالمين » ، « وآية للعالمين » .

عصمة مريم من الخطيئة :

يلمح القرآن تلميحاً واضحاً الى عصمة مريم من الخطيئة الاصلية اذ تصلي امها في وحي من الله : « اني اعيدتها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . فيقبل

الله استعاذة الأم ويخلق الابنة معصومة من مس الشيطان الذي لا ينجو منه احد . ويأتي الحديث فيصرح بذلك تصريحاً : « ما من مولود يولد الا ويطعنه الشيطان حين يولد في جنبه فيستهل صارخاً من مس الشيطان له الا مريم وابنها فذهب ليطعن فطعن في الحجاب » الموضوع بينه وبين مريم وابنها . ويضيف الحديث الى عصمتها الاولى العصمة من الخطيئة طيلة حياتها : « وذكروا لنا انها كانا لا يصيبان من الذنوب كما يصيب سائر بني آدم » (نقله الثعلبي) .

البتولية مع الامومة :

هذه هي الميزة الاولى والكبرى التي يراها القرآن في مريم ام المسيح، ويدهش لها دائماً ويقدمها آية للعالمين . ففي سورة مريم : « انى يكون ذلك ولم يمسنى بشر؟ قال الملاك (هو) كذلك » . وفي الانبياء والمؤمنون والتحريم : « فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ! » ومن ينكر هذه العقيدة يكفر مثل اليهود : « وبكفرهم وقولهم على مريم زوراً وبهتاناً عظيماً » .

قداستها الفائقة :

منذ صغرها اصطفاها وطهرها : « اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك ! » فتقضي حياتها في المحراب منعزلة مواظبة على القنوت والركوع والسجود : « يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » . ولما بشرتها الملائكة بميلاد كلمة الله وروحه منها بمعجزة لم تستسلم للامر الرباني حتى امتنت على بتوليتها . « الله يخلق ما يشاء ، اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون » . وبعد ميلاد المسيح تعيش مع ولدها منفردة على رابية غناء .

عناية الله الخاصة بها :

ويجتهد القرآن في اظهار عناية الله الخاصة بها : تولد بمعجزة من ام عاقر عجوز ؛ نعتزل طفلة في الهيكل حيث يعولها الله بمعجزة فيرسل لها رزقها من

الجنة؟ وتلد المسيح وهي بتول بمعجزة لا مثيل لها في تاريخ البشرية؛
ويغذي الله الوالدة والوليد من نخلة يابسة ويسقيهما من جدول ناشف ويحتفظ
بهما في جنة بعيداً عن اعين الناس . من هي تلك الخلوقة المصطفاة التي اختصها
الله بكل هذه الخوارق؟ هي ام المسيح ام كلمة الله وروح الله : «انما المسيح
عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه» (نساء ١٧٠) .

مريم آية للعالمين :

وهكذا يرى القرآن في مريم آية للعالمين في اصطفائها وميلادها وحدثاتها
وبشارة الملاك لها وولادتها المسيح وحياتها مع ابنها وكل اطوار حياتها :
«فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين !» .

القسم الثالث

المسيح في القرآن

الجزء الاول : النصوص القرآنية في المبيع

أولاً : المكيّة

رقم التنزيل	رقم المصحف	
٤٤	١٩	النص الاول : مريم ١٥ — ٣٣، ٣٤ — ٤٠
٦٣	٤٣	النص الثاني : زخرف ٥٧ — ٦٢، ٦٣ — ٦٥
٧٣	٢١	النص الثالث : الانبياء ٩١ — ١٠٣
٧٤	٢٣	النص الرابع : المؤمنون ٥١ — ٥٧

ثانياً : المتبعضة (أي بعضها مكّي وبعضها مدني)

٣٩	٧	النص الخامس : اعراف ١٥٦ — ١٥٨
٥٥	٦	النص السادس : انعام ٨٣ — ٩٠
٦٢	٤٢	النص السابع : الشورى ١٣ — ١٦

ثالثاً : المدنيّة

١	٢	النص الثامن : البقرة ١٣٦، ١٣٨ — ٢٥٣
		النص التاسع : آل عمران ١٨ — ٢١، ٣٣ — ٣٧
		٣٨ — ٤١، ٤٢ — ٤٤، ٤٥
٣	٣	٥١، ٥٢ — ٥٨، ٥٩ — ٦٤، ٧٩
		٨٥، ١١٠ — ١٢٠، ١٨٢

توطئة

« ولنجعله آيةً للناس ورحمةً منا، »

(مريم ٢١)

إن أجمل صورة رسمت للمسيح، في ما عدا الانجيل، هي تلك التي خطتها القرآن الكريم. نراها نسمو رويداً رويداً على ما لسائر الانبياء والمرسلين. فالصفات والألقاب التي يصف القرآن بها شخصية المسيح ويصور حياته كلها ترفعه الى ما فوق البشرية جمعاء. وقد لخصها بكلمة واحدة: « ولنجعله آيةً للناس ورحمةً منا، » (مريم ٢١) .

فالقرآن الكريم يعتبر يسوع المسيح، عيسى ابن مريم آيةً في مولده، آيةً في حدائته، آيةً في رسالته، آيةً في آخرته، آيةً في ارتفاعه حياً الى السماء، آيةً في يوم الدين، آيةً في حياته كلها وشخصيته الفدّية .

وها نحن ندرس اولاً النصوص القرآنية المكية ثم المدنية، ثم نحلل تلك النصوص الكريمة .

رقم التزويل رقم المصحف

٣٣ ٤

النص العاشر : الأحزاب ٧-٨

النص الحادي عشر : النساء ١٤٩-١٦١-١٦٢

٤ ٦

١٦٩ ١٧٠-١٧٣

٥٧ ٨

النص الثاني عشر : الحديد ٢٥-٢٩

٦٦ ٢١

النص الثالث عشر : التحريم ١٢

٦١ ٢٣

النص الرابع عشر : الصف ٢-١٠-١٤

النص الخامس عشر : المائدة ١٣-٣٠-٤٤-٥٤

٦٢-٧٣-٧٥-٨٠-٨١

٥ ٢٦

١٢٣-١١٢-٩٠

٩ ٢٨

النص السادس عشر : التوبة ١-٣٦

الفصل الاول : سورة مريم ١٥ - ٤٠

ان الدعوة الاسلامية، في السور المكية كلها، دعوة عامة الى التوحيد (اي الايمان بالله واليوم الآخر) : سورة مريم وحدها خصوصية ، يكثر فيها اسم الرحمن^١ ، ويقرن تنزيلها بهجرة المسلمين الى الحبشة ، سنة خمس للبعثة اي نحو ٦١٥ - ٦١٦ فقد حملهم اباها الرسول العربي لتشفع فيهم عند النجاشي وتكون دليلاً على وحدة الايمان بين العرب المسلمين والاحباش المسيحيين^٢ .

وبعد الهجرة الى الحبشة خرج النبي العربي من التأثير المسيحي الى التأثير الاسرائيلي: يدلنا على ذلك التعول من الكرازة باليوم الآخر الى الدعوة الى الله والتوحيد، مع قصص انبياء الكتاب الذي يملأ القسم الثاني من السور المكية ؛ وفي هذه المدة او بعدها اُضاف الى خبر المسيح (١٥ - ٣٣) مقطعاً آخر يختلف في لهجته ويحدُّ من اطراء المسيح السابق (٣٤ - ٤٠) :

(١) « الرحمن » اسم الجلالة في اليمن والحبشة، مما يدل على أصله المسيحي .

(٢) ان الهجرة الى الحبشة وسورة مريم حيث يكثر استعمال « الرحمن » دليل على ان محمداً في الفترة الاولى من عهده بمكة كان تحت التأثير المسيحي . وفي هذه الفترة كان موضوع كرازة النبي ايضاً اليوم الآخر، والتوبة، لا التوحيد؛ كما ابتداء المسيح تبشيره، وكما كان يعظ المبشرون السوريون في ما قبل عهد محمد بقليل، كالقديس أفرام والقديس يوحنا الذهبي الفم . فنولا وحدة الايمان بين محمد والنجاشي لما اودعه المؤمنين به . فلما زال هذا التأثير المسيحي وعقبه، في الفترة الثانية من مكة، التأثير الاسرائيلي، مع قصص انبياء الكتاب الذي يملأ القسم الثاني من السور المكية، واضطر محمد الى الهرب بنفسه، لجأ الى الطائف ثم الى المدينة حيث يكثر اليهود العرب . وقضية المؤثرات او الاقتباسات لا تظن ضرورة في صفة الوحي .

النص الاصيل ١٤ - ٣٣؛ وهو اول وصف للمسيح وأمه جاء في القرآن .

١٤ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حياً...

١٥ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من اهلها
مكاناً شرقياً .

١٦ فاتخذت من دونهم حجاباً . فأرسلنا اليها روحنا فتمثل
لها بشراً سوياً .

١٧ قالت : إني أعوذُ بالرحمن منك إن كنت تقياً !

١٨ قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً !

آية ١٨ - تعددت القراءات : فالمصحف الاميري : « لأهب لك » أي لأكون
سبباً في هبته بالنفخ في درعك ؛ ويجوز ان يكون حكاية لقوله سبحانه، ويؤيده
قراءة ابي عمرو وابن كثير عن نافع ويعقوب بالياء « ليهب » (البيضاوي) .
وفي بعض المصاحف : « إنما أنا رسول ربك، أمرني أن أهب لك » (الزمخشري)
وإذن فإما « لأهب » فيكون الملاك واسطة المعجزة ؛ وإما « ليهب »
فتكون المعجزة من الله مباشرة . « زكياً » : مزكياً بالنبوة (الجلالان) .
طاهراً من الذنوب أو نامياً على الخير أي مترقياً من سن الى سن على الخير
والصلاح (البيضاوي) . لاحظ ان مولود مريم العذراء طاهر من الذنوب منذ
البشارة بالحبل به .

(١) الكلام عن يحيى بن زكريا أوردهناه لترى انه يختم قصة يحيى كما يختم قصة عيسى .
« سلم الله عليه في هذه الاحوال، على قول ابن عيينة، لانها اوحشر المواطن » (الزمخشري)
(٢) لا نعلق على ما يرد في شأن مريم أم المسيح، فقد سبق ذلك، بل نكتفي بتفسير
تعليم القرآن عن المسيح .

١٩ قالت : أنى يكون لي غلام ولم يمسنى بشر ولم أكُ بغيًا.

٢٠ قال : (هو) كذلك اِ قال ربك : هو علي هين اِ
وانجعله آية للناس ورحمة منا اِ وكان أمراً مقضياً .

٢١ فحملته . فانتدت به مكاناً قصياً .

٢٢ فأجاءها المخاض الى جذع النخلة . قالت : يا ليتني مُتُّ
قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً اِ

٢٣ فناداها من تحتها : ألا تحزني اِ قد جعل ربك تحتك
سرياً اِ

آية ٢٠ - « آية للناس » علامة لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا (البيضاوي) ؛
ميلاده الفريد آية شخصه ورسالته . أي هو آية الله للناس ليؤمنوا (رومة ١ : ١٦ -
١٧) . « ورحمة منا » للعباد يهتدون بإرشاده (البيضاوي) أي في المسيح
تبدى رحمة الله (قابل تيطس ٣ : ٤ - ٦) .

آية ٢٣ « فناداها من تحتها » : يوجد غموض في الضمائر : من نادى ؟ قيل
عيسى وقيل جبريل ، والافضل الروح الذي يبشرها ؛ والضمير في « تحتها » يعود
الى مريم او الى النخلة . انتقل الملاك مع مريم من محل البشارة الى موضع
الولادة قرب النخلة ؛ وظل الحديث بينه وبينها . « من تحتها » من مكان اسفل
من مكانها . « قد جعل ربك تحتك سرياً » جدولاً ، وقيل سيداً من السرو ،
والمراد عيسى ؛ وعن الحسن : كان والله عبداً سرياً (البيضاوي والزنجشيري) .
والافضل جدولاً بسبب قوله « فكلي وإشربي » . قال الجلالان : ناداها جبريل
وكان اسفل منها : لا تحزني قد جعل ربك تحتك نهر ماءٍ كان قد انقطع .

٢٤ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا .

٢٥ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا . فَأِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا
فَقُولِي : أَنِي نَسِيتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ
إِنْسِيًّا . . .

٢٦ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ . قَالُوا : يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا
فَرِيًّا ۗ

٢٧ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ
أُمُّكَ بَغِيًّا ۗ

٢٨ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ . . . قَالُوا : كَيْفَ يَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي
الْمَهْدِ صَبِيًّا ۗ

٢٩ قَالَ : إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ، آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا .

آية ٢٤ « تُسَاقِطُ » فيه تسع قراءات (الزمخشري) ؛ والبيضاوي
يعدّد سبعاً .

آية ٢٩ « قَالَ أَنِي عَبْدُ اللَّهِ » قيل أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً (الزمخشري
والبيضاوي) يدعمه قوله : « تَكَلَّمَ الْإِنْسَانُ فِي الْمَهْدِ » (آل عمران والمائدة) :
يذكرونها معجزة نطق الطفل يسوع حال ميلاده لتبرئة أمه . ويُسميه
« عبد الله » . وهذا لقب الأنبياء والأولياء في الكتاب ؛ قابل أعمال الرسل
« فتاك القدوس يسوع » (٤ : ٢٧ ، ٣٠) ؛ انطقه الله به لانه اول المقامات
(البيضاوي) لا للرد على من يزعم ربوبيته اذ ليس في النص ما يحملنا اليه .
« آتَانِي الْكِتَابَ » الذي نزل قبله ، ومن نزل عليه الكتاب صار « نبيًّا » :

٣٠ وجعلني مباركاً أين ما كنتُ، وأوصاني بالصلوة
والزكاة ما دمتُ حياً.

٣١ وِبراً بوالدتي، ولم يجعلني جباراً شقيماً

٣٢ والسلام عليّ يومَ وُلدتُ، ويومَ أموتُ ويومَ أُبعثُ حياً

فهذا الوصف الرائع مبنى ومعنى هو أول ذكر ورد في القرآن عن المسيح .
يورد فيه المعجزات التي تمت في مريم أم المسيح، ومعجزة المسيح الكبرى بميلاده
من أم بتول بلا أب وقد انفرد بها دون سائر البشر والانبياء، وبها صار آيةً
من الله ؛ ثم معجزة نطقه من المهد تبرئةً لوالدته وشهادةً لرسالته ؛ ومعجزة
نبوته من المهد عن موته وانبعاثه . ويذكر فيه أيضاً صفات المسيح الأولى :
إنه عبد الله ونبيّه ؛ انه المبارك الطاهر ، رجل الصلاة والزكاة مدى الحياة،
الجاعل قرّة عينه في مناجاة الله ؛ إنه ذو الرحمة والبرّ والتواضع .

وان هذا النص لبعيد عن المجادلات اللاهوتية، يعبر عن الايمان البسيط،
الوطيد بالمسيح نبي الله وعبده، الذي جاء آيةً من الله ورحمةً للناس .

واللقبان « عبد الله والنبي » مترادفان . « وجعلني مباركاً » عن رسول الله ص :
« نفاعاً » وقيل « معلماً للخير » (الزمخشري) . « واوصاني بالصلوة والزكاة »
زكاة المال ان ملكته، او تطهير النفس عن الرذائل (البيضاوي) . « وِبراً »
عطف علي مباركاً . وقرى بالكسر والجر عطفاً علي الصلاة ؛ وعن ابي نهبك :
جعل ذاته برأ لفرط بره . « ولم يجعلني جباراً شقيماً » متعاضماً عاصياً لربه
(الجلالان) ، شقيماً عند الله من فرط تكبره . « والسلام عليّ » كما هو علي يحيى ؛
والتعريف للعهد، والأظهر انه للجنس، والتعريض باللعن علي اعدائه ؛ والمعنى :
ذلك السلام الموجه ليحيى في المواطن الثلاثة موجه اليّ (الزمخشري) .

وهكذا انتهت قصة عيسى كما انتهت قصة يحيى بنفس الاسلوب وذات
العبارة .

النص التفسيري المزيد على سورة مريم ٣٤ - ٤٠

٣٤ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون .

آية ٣٤ - هذا نص تفسيري مزيد على سورة مريم، ودليلنا اختلاف المعنى واختلاف الروي : في الاول ايمان ليس في الثاني، وفي الثاني جدال ليس في الاول . ثم في الآية ٣٣ يقف الروي على الياء « حياً » يقطعه روي مختلف على النون أو بديلها الميم ثم يعود الى روي السورة كلها في ٤١ « نبيّاً » .

« قول الحق » لقب عظيم ذو معنى فخيم انفرد به المسيح في القرآن . تعددت فيه القراءات والحركات : فعن ابن مسعود « قال الحق » و « قال الله » ! وعن الحسن « قول » بضم القاف - وكذلك في الانعام قوله الحق - والقول والقال والقول بمعنى واحد . وقرأ علي بن ابي طالب « الذي فيه يمترون » على الخطاب . وعن أبي بن كعب « قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون » . وقرئ قول بالنصب على المدح إن فُسر « بكلمة الله » ، وانه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد « قول الثبات والصدق » : وانما قيل لعيسى « كلمة الله وقول الحق » لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها وهي قوله : كن من غير واسطة اب . ويحتمل، اذا أريد بقول الحق عيسى، ان يكون « الحق » اسم الله عز وجل، وان يكون بمعنى الثبات والصدق، ويعضده قوله « الذي فيه يمترون » اي أمره حق يقين (الزمخشري) . وقرئ « قول الحق » بالرفع، خبراً لمخزوم أي « هو قول الحق » الذي لا ريب فيه، والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتام القصة ؛ وقيل صفة عيسى او بدله، أو خبر ثانٍ ومعناه « كلمة الله » . « سيمترون » يمترون يشكون أم يتنازعون فقالت اليهود ساحر وقال النصاري ابن الله (البيضاوي) . وهكذا لقب القرآن المسيح « قول الحق » كما لقبه « كلمة الله » .

٣٥ ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ سبحانه إذا قضي أمراً
فإنما يقول له : كن ! فيكون !

٣٦ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم .

٣٧ فاختلف الأحزاب من بينهم، فويل للذين كفروا من
مشهد يوم عظيم !

آية ٣٥ - « كن فيكون » بالرفع بتقدير هو، وبالنصب بتقدير أن « ومن ذلك خلق عيسى من غير أب » (الجلالان) ، و « بالنصب على الجواب » (البيضاوي) . « كذب النصارى وبكثهم بالدلالة على انتفاء الولد عنه اذ من المحال ان تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد أي الحيوان الوالد » (الزمخشري) ؛ « تبكيت لهم بأن من اذا أراد شيئاً أوجده « بكن » كان منزهاً عن شبه الخلق والحاجة في اتخاذ الولد بإحبال الاناث » ! (البيضاوي) .

آية ٣٦ - قرأ المدنيون بفتح « أن » ومعناه « ولأنه ربي وربكم فاعبدوه » . وقرأ الاستار وأبو عبيد بالكسر « إن » على الابتداء . وفي حرف أتي « إن » بالكسر بغير واو (الزمخشري) ، هنا يستشهد القرآن على عدم بنوّة عيسى وإلهيته من قول المسيح نفسه عن الله أنه « ربي وربكم » (يوحنا ٢٠ : ١٧) وذلك ما كان يردده الأريوسيون والنساطرة ضدّ ألوهية المسيح .

آية ٣٧ - « فاختلف الأحزاب » : اليهود والنصارى (عن الكلبي) . وقيل النصارى لتحزبهم ثلاث فرق نسطورية ويعقوبية وملكانية . وعن الحسن : « الذين تحزّبوا على الانبياء لما قص عليهم قصة عيسى ، اختلفوا فيه من بين الناس » (الزمخشري) . « اليهود والنصارى ، أو فرق النصارى : نسطورية قالوا انه ابن الله، ويعقوبية قالوا هو الله هبط الى الارض ثم صعد الى السماء، وملكانية قالوا هو ثالث ثلاثة ، وموحدون قالوا هو عبد الله ونبيته » (البيضاوي) .

٣٨ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ! لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين .

٣٩ وأنذرتهم يوم الحسرة إذ قُضي الأمر، وهم في غفلة، وهم لا يؤمنون .

٤٠ إنا نحن نرث الارض ومن عليها، وإلينا يرجعون .

ان هذا النص الاضافي يفسر ايمان القرآن بالمسيح وموقفه من احزاب النصارى واليهود : فعقيدته ان المسيح هو «قول الحق» اي كلمة الله (مريم ٣٤) كما هو «عبد الله ونيته» (٣٠) ولكن هذه الميزة لا تجعل المسيح «إلهاً» أو «ابن الله» كما يقول النصارى . فهو يرد هذا الزعم بالعقل : الخالق يخلق بأمره ولا يقدر ان يستولد بطريقة الجسد (مريم ٣٥)، وبالنقل عن عيسى : فقد شهد «ان الله ربي وربكم فاعبدوه» (٣٦) .

ويكفر احزاب اليهود الذين كفروا بالمسيح وامه، فويل لهم من مشهد يوم عظيم ! لا يريدون ان يبصروا ويسمعوا حتى يؤمنوا بالمسيح فالظالمون اليوم في ضلال مبين، ولكن سوف يبصرون ويسمعون يوم الحسرة والجزاء (٣٧ - ٤٠) حيث يشاهدون مجد المسيح ويشهدون له .

وهكذا ترى وجه الشبه بين هذا الموقف وآل عمران : فلا يُستبعد اذن ان يكون النصان من وقت واحد؛ وعلى كل حال فإن النص التفسيري ليس من مكة بل من المدينة لأنه ليس في مكة جدل مع اهل الكتاب . بقي ان القرآن في سورة مريم يسمي المسيح «عبد الله ونيته» كسائر الانبياء .

ويُفرد له لقباً اخص به دون سواه من الملائكة والبشر، والانبياء والمرسلين : انه «قول الحق» !

آية ٣٨ - صيغة تعجب بمعنى : ما اسمهم وأبصرهم يوم يأتون في الآخرة (الجلالان) ؛ وقد كفروا بعيسى وامه (الزخشري) .

النص الثاني : سورة الزخرف ٥٧ - ٦٢ ؛ ٦٣ - ٦٥

سورة الزخرف من السور المكية التي يكثر فيها القصص القرآني. والتأثير الكتابي ظاهر في السورة التي تدعو الى ذكر الرحمان (٣٦) وتوحيد حبه حسب تعليم الانبياء الأولين : « وَسئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا : أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ » (٤٥) وحسب الكتاب الاول : « أم آتيناكم كتابا من قبله (القرآن) فهم به مستمكون » (٢١) .

نجد ههنا نصاً أصلياً يردّ به على قومه القرشيين (٥٧) الذين اتخذوا من عبادة عيسى، وهو من انبياء الكتاب، ذريعة لتمسكهم بعبادة آلهتهم . قال لهم : إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ! - أجابوا : رضينا أن نكون آلهتنا مع عيسى لأنه عبّد من دون الله . فقال « إن هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل » (٥٩) .

ويضيف إليه نصاً متأخراً يجيب به على أحزاب اليهود والنصارى كما رأينا في سورة مريم، وهذا الجدل مع الكتابيين ليس من العهد المكّي بل من زمن متأخر في المدينة .

النص الاصلي (٥٧ - ٦٢) جواب للقرشيين عن عبادة عيسى .

٥٧ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون .

آية ٥٧ - قالت قريش : النصارى اهل الكتاب وهم يعبدون عيسى ويؤمنون انه ابن الله، والملائكة التي نعبدها (١٥ و ١٩) أولى بذلك . والمثل، هو الوعظة أو القصة العجيبة تسير مسير الامثال . « اذا قومك، قريش .

٥٨ وقالوا: أآلهتنا خير أم هو؟ - ما ضربوه لك إلا
جدلاً ابل هم قوم خصمون ا

٥٩ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل.

٦٠ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون.

٦١ وانه لعلم للساعة، فلا تفترون بها واتبعون، هذا صراط

مستقيم .

« يصدون » بالكسر اي يضجون فرحاً؛ او بالضم من الصدود اي يُعرضون
عن الحق؛ وقيل هما لغتان (البيضاوي) .

آية ٥٨ - قالت قريش : نحن اهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ونحن
نعبد الملائكة، تفضيلاً لآلهتهم على عيسى . « أآلهتنا » بتثنية الهزلة أو إمالتها .
« أم هو » في حرف ابن مسعود « أم هذا » أي محمد ، وغرضهم بالموازنة بينه
وبين آلهتهم السخرية به والاستهزاء (الزمخشري) .

آية ٥٩ جواب على اعتراضهم في الآية ٥٨ : المسيح عبد، والملائكة ايضاً
عبيد يقدر الله ان يخلقهم منكم كما خلق عيسى خلقاً عجبياً من أم بلا أب؛
وما عيسى « الا عبد » كسائر العبيد « انعمنا عليه » حيث جعلناه آية بأن
خلقناه من غير سبب كما خلقنا آدم وشرقناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل
السائر لبني اسرائيل (الزمخشري) .

آية ٦٠ « والمعنى ان حال عيسى عليه السلام وان كانت عجيبة فالله تعالى
قادر على ما هو اعجب من ذلك . وان الملائكة مثلكم من حيث انها ذوات
ممكنة، يُحتمل خلقها توليداً كما جاز خلقها ابداعاً فمن اين لهم استحقاق الالهية
والانتساب الى الله » (البيضاوي) .

آية ٦١ « وانه لعلم للساعة » وان عيسى عليه السلام لعلم للساعة اي

٦٢ ولا يَصُدُّكُمْ الشيطان، انه لكم عدوٌ مبين .

يقولون له : المسيح الذي تذكره وتؤمن به عَبْدٌ عُبدَ فَآهتْنَا الملائكة خيراً منه واحق ان تعبد . فأجاب : المسيح لا يُعْبَدُ لانه عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بالنبوة وجعلناه نبياً ؛ وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل بخلقه العجيب الفريد الذي يثبت نبوته ويشهد الله له بهذه المعجزة .

ويضيف في وصف دور المسيح : « إِنَّهُ لَعَلِمٌ لِّلسَّاعَةِ » اي تُعَلِّمُ بِنزوله . وهو « عَلِمٌ » لها اي علامة تدل على دنوتها . وهذه ايضاً ميزة أخرى في القرآن للمسيح اختص بها دون سواه من الانبياء والمرسلين .

فكما كان مجيئه الأول « مثلاً » لبني اسرائيل يهديهم ، يكون مجيئه الثاني قبل يوم الدين « علماً » للساعة يهدي العالم أجمع .

وكما دعا القرآن المسيح وحده بين الانبياء « آية » بخلقه وشخصه ، جعله كذلك وحده بين الانبياء « مثلاً » .

النص الاضافي ٦٣ - ٦٥

٦٣ ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة ولايين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون .

شرط من اشراطها تُعَلِّمُ به فسمي الشرط علماً لحصول العلم به . وقرأ ابن عباس « لَعَلِمٌ » وهو العلامة . وقرئ « لِّلْعَلِمِ » . وقرأ أبي « وانه لذكر الساعة » على تسمية ما يذكر به ذكراً كما سُمِّيَ ما يُعَلِّمُ به علماً . وعن الحسن : « ان الضمير للقرآن لأن فيه الاعلام بالساعة » (الزمخشري) - والقول الاخير بعيد الاحتمال لأنه لا ذكر للقرآن في المقطع المذكور .

آية ٦٣ - « بالبينات » بالمعجزات أو بآيات الانجيل أو بالشرائع الواضحات . « قال قد جئتكم بالحكمة » بالانجيل أو بالشرعة . « ولايين لكم بعض الذي تختلفون فيه » من أمر الدين (البيضاوي والزمخشري) .

٦٤ ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه : هذا صراط مستقيم.

٦٥ فاختلف الاحزاب من بينهم . فويل للذين ظلموا من

عذاب يوم أليم ا

يذكر القرآن في هذا النص الاضافي اليهود وحدهم اولئك الذين تحزبوا على المسيح فلم يتقوا الله ولم يطيعوا المسيح رسوله . وقد جاء بالبيّنات، والمعجزات الباهرة، وعلمهم آيات الله التي فيها الحكمة ؛ وموضوعها التوحيد : فتعليقه صراط مستقيم .

فخالفه قوم منهم تحزبوا عليه كما تحزبوا على محمد، فسّمّاهم «الاحزاب» . فنستخلص من هذا النص ان المسيح علّم التوحيد لا غير، وفي هذا التوحيد «الحكمة»، وأيد ذلك بالمعجزات .

وهذه الجملة على أهل الكتاب تشير الى ان النص مدني لا مكّي لانه في مكة لا جدال مع الكتابيين بل مع المشركين لا غير .

آية ٦٤ - « بيان لما أمرهم عيسى بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبّد بالشرائع » . « هذا صراط مستقيم » اشارة الى مجموع الامرين ؛ وهو تنمة كلام عيسى صلى الله عليه وسلم ، او استئناف من الله يدل على ما هو المقتضى للطاعة في ذلك (البيضاوي) .

آية ٦٥ - « فاختلف الاحزاب من بينهم » الفرق المتحزبة من بين النصارى، أو اليهود والنصارى من بين قوم المبعوث هو اليهم (البيضاوي) . « الاحزاب » الفرق المتحزبة بعد عيسى، وقيل اليهود والنصارى . والضمير في « من بينهم » يرجع الى الذين خاطبهم عيسى في قوله : « قد جئتكم بالحكمة » وهم قومه المبعوث اليهم (الزمخشري) . ونقول « من بينهم » تعود الى اليهود الذين كان المسيح يخاطبهم « فلا يتقون الله ولا يطيعون المسيح » : لذلك « فالأحزاب الذين ظلموا » بكفرهم بالمسيح هم اليهود لا النصارى .

انص الثالث : سورة الانبياء ٩١ - ١٠٣

يذكر القرآن الانبياء الصالحين الذين أحسن الله اليهم بالنبوة، ويختم ذكر تلك الامة المؤمنة بمسك الحتام :

٩١ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها
وابنها آية للعالمين .

٩٢ ان هذه امتكم امة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون .

آية ٩١ - احصنت فرجها، أي مريم، إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً كما قالت : « ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً » . « فنفخنا فيها من روحنا، معناه نفخنا الروح في عيسى وهو فيها أي أحييناه في جوفها (الزمخشري) وقيل فعلنا النفخ فيها من روحنا (البيضاوي) - راجع ما قلناه سابقاً في تفسير هذه الآية حيث يحتمل ان يكون الروح فاعل النفخ أو مفعول النفخ وهو الاصح كما يتضح من سورة النساء « كلمة الله القاها الى مريم وروح منه » فالملقى والمنفوخ هو روح الله أي روح عيسى .

« آية للعالمين » الانس والجن والملائكة حيث ولدته من غير زوج (الجلالان) ولم يقل آيتين لان حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي الولادة مع البتولية .

آية ٩٢ - فيها ثلاث قراءات : إن هذه امتكم امة (حال) ؛ وقرئ « امتكم بالنصب على البدل من هذه وامة بالرفع على الخبر ؛ وقرئتا بالرفع على انها خبران . ومعناه ان ملة التوحيد أو الاسلام ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها غير مختلفة فيما بين الانبياء ولا مشاركة لغيرها . « امة واحدة » متحدة في العقائد وأصول الشرائع متفقة على الايمان والتوحيد في العبادة (البيضاوي) .

٩٣ وتقطّعوا أمرهم بينهم، كلُّ الينا راجعون .

٩٤ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه
وانا له كاتبون . . .

٩٨ انكم وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم انتم لها
واردون .

١٠١ ان الذين سبقتم لهم منا الحسنی، اولئك عنها مُبعَدون .

انه لتعليم قيم رائع عن شخصية المسيح : فهو روح الله نفخه في مريم
فصار مع امه بهذا الحمل والميلاد العجيب الفريد آية واحدة للعالمين من الانس
والجنّ والملائكة . ولم يقل القرآن مثل هذا في أحد من الانبياء والمرسلين
من البشر أجمعين .

والمسيح وامه من الامّة المؤمنة المصطفاة بالنبوة على العالمين ، وختام
الذرية النبوية المصطفاة بالتوحيد والاسلام : لقد سبقتم لهم من الله الحسنی،
وهم مبعنون عن جهنم التي يريدونها ما يُعبدون من دون الله ؛ ولهم الحسنی في الآخرة
ايضاً حيث لا يحزنهم الفرع الاكبر وتلقاهم الملائكة (١٠٣) .

آية ٩٣ – نظن هذه الآية مدسوسة هنا اذ لا شيء في السورة يستدعيها،
وتذكر جدلاً مع الكتابيين لا وجود له في مكة .

آية ٩٨ – حَصَبُ جهنم او حطب أو حصب جهنم ثلاث قراءات او
ثلاث لغات (الزمخشري) .

آية ١٠١ – « الحسنی » السعادة أو التوفيق للطاعة أو البشرى بالجنة
(البيضاوي) « إن الذين سبقتم لهم الحسنی » من ذكر في السورة من الانبياء
(الجلالان) .

النص الرابع : سورة المؤمنون ٥١ - ٥٧

يختم بها ذكر الانبياء من نوح الى ابن مريم على السياق نفسه الذي في سورة الانبياء .

٥١ وجعلنا ابن مريم وامه آية ، وآويناها الى ربوة ذات قرار ومعين .

٥٢ يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ، اني بما تعملون عليم .

٥٣ وان هذه امتكم امة واحدة ، وانا ربكم فاتقون .

آية ٥١ يستعير هذه الكناية « ابن مريم » اسم علم له، إشارة الى انه لا ابا له . « ابن مريم وامه آية » يرى القرآن في المسيح وامه آية واحدة لا تنفصل . « لو قيل آيتين كان له وجه لأن مريم ولدت من غير مسيس ، وعيسى روح من الله ألقى اليها وقد تكلم في المهد وكان يجيي الموتى مع معجزات أخر فكان آية من غير وجه، واللفظ محتمل للتثنية ، (الزمخشري) .

آية ٥٢ « يا ايها الرسل » : نداء وخطاب لجميع الانبياء على معنى ان كلاً منهم خوطب به في زمانه فيدخل تحته عيسى دخولاً اولياً فيكون ابتداء كلام ذكر تنبيهاً الى ان تهيئة اسباب التنعم لم تكن له خاصة، وان اباحة الطيبات للانبياء شرع قديم ! أو حكاية لما ذكر لعيسى وامه عند ابوائها الى الربوة ليقتديا بالرسل في تناول ما رزقا . وقيل النداء له ولفظ الجمع للتعظيم .

٥٤ فقطعوا امرهم بينهم زُبراً ، كل حزب بما لديهم

فرحون . . .

يعتبر القرآن الكريم المسيح النبي الوحيد الذي جعله الله بين الاتبيساء «آية» منه للناس، بل للعالمين جميعاً، كما جعله وحده بين كافة المرسلين «مثلاً» لبني اسرائيل والعالمين . ويعود فيعلمه مع امه ختام الامة الموحدة المصطفاة . ويذكر لنا حادثة يسوع العجيبة في جنه غناء على رابية فريدة . ويدعوه صريحاً او تلميحاً الى التنعم بالطيبات، والملذات المباحة . والكلام في صيغة الخطاب إشارة الى جعله مثلاً في ذلك .

ونظن هنا ايضاً ان الآية ٥٤ مسسوسة لأنه لا جدال ولا وصف لجدال مع الكتابيين الذين فرقوا دينهم كتباً مختلفة ؛ بل السورة كلها ذكر لقوم محمد وهم عن ذكرهم معرضون (٧١) .

فالمسيح اذن بمولده وشخصه آية من الله، ومعجزة للعالمين بحدائته .

آية ٥٤ - قطعوا امر دينهم وجعلوه ادياناً مختلفة . «زُبراً» قطعاً اي فرقاً، وقيل كتباً فيكون مفعولاً ثانياً (البيضاوي) اي صار لهم اديان مختلفة وكتب متفرقة . وهذه الآية مسسوسة على السورة لترفع عن اهل الكتاب المديح الذي يعود عليهم من انبيائهم : فحديث السورة كله للقرشيين ذكراً لهم (٧١) .

النص الخامس : سورة الاعراف ١٥٦ - ١٥٨

الاعراف سورة مُتَبَعَةٌ اي بعضها تزل بمكة وبعضها تزل في المدينة .
وبما جاء في المدينة النص في « النبي الأمي » المكتوب عنه في التوراة والانجيل .
وهذا المقطع يظهر عليه انه مدسوس لأنه يقطع سياق الحديث في ذكر موسى
(١٥٢ - ١٦٢) بحديث لا يمت اليه بصلة عن النبي الأمي (١٥٦ - ١٥٨)
لا بل ينقضه : موسى يصلّي الى الرب ويسأله ان يكتب له ولأمته هذه الحنة
أنهم « هادوا » اليه اي آمنوا به ، فيجيبه الله : بلى سأكتبها للمؤمنين المتقين !
ثم اضافوا الى جواب الله على دعاء موسى الدعوة الى الايمان بالنبي الأمي .

١٥٦ الذين يتبعون الرسول ، النبي الأمي ، الذي يجدونه

آية ١٥٦ - « النبي الأمي » محمد (الجلالان) الذي لا يكتب ولا يقرأ ، وصفه
به تنبيهاً على ان كمال علمه مع حاله احدى معجزاته (البيضاوي) - هذا هو
تفسير اللقب لغةً ؛ اما اصطلاحاً عندهم فهو الذي لا يكتب ولا يقرأ الكتاب
اي لا يؤمن به ، اذن ليس من اهل الكتاب بل من « الامم » الذين ليسوا في

- (١) اسباب عديدة تدعو الى الاعتقاد بان مقطع النبي الأمي مدسوس على النص :
- (١) أنه يقطع حديث موسى (١٥٢ - ١٦٢) بحديث غريب عنه عن النبي الأمي (١٥٦ - ١٥٨) ؛ (٢) في جواب الله على دعاء موسى تفاوت واختلاف : بلى سيكتب الله الحنة للمؤمنين المتقين امثال موسى ، ثم يعقب بقوله : اولئك هم الذين يتبعون الرسول وينصرونه ، فيكون موسى بعيداً عنهم جداً ! فهل يعقل ان يجيب الله على دعاء موسى بضرورة الايمان بمحمد وهو بعده باكثر من الف سنة !! ثم اي حنة تبقى لموسى ?? (٣) والزيادة ظاهرة من إضافة « الانجيل » في جواب الله على دعاء موسى ، فليس في دعائه ما يؤخذ منه أنه يشفر بمحمد او بالانجيل . (٤) والزيادة ملهوسة في الاسلوب المختلف عن اسلوب السورة . (٥) واخيراً ما محل دعوة الناس الى الايمان بمحمد في قصة موسى ؟ (١٥٧) .

مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف
وينهاهم عن المنكر ويُجِلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم
الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال... .

١٥٧ قل : يا أيها الناس، اني رسول الله اليكم جميعاً...
فآمنوا بالله ورسوله، النبي الامي، الذي يؤمن بالله
وكلماته (او كلمته) واتبعوه لعلكم تهتدون .

يقول ليست الحسنة في اتباع موسى بل في اتباع محمد، وليس الهدى في
التهويد (هُذِنَا إِلَيْكَ) بل في نُصْرَةِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ ؛ اي في الاسلام . وقد
سبقت النبوة عن النبي العربي في التوراة والانجيل : فهذا دليل لهم ليؤمنوا
به . ولهم دليل آخر على صحة رسالته وصدق نبوته هو ايمان النبي الامي
بكلمات الله، وخصصها الانجيل والتوراة، والاصح هو ايمانه « بالله و كلمته » ،
عيسى ابن مريم ؛ وبناءً على هذا الايمان بالله والكتاب والمسيح يدعوم الى
الاعتراف به وبرسالته .

المحيط الحجازي سوى العرب المشركين : فأُتِيَ هنا معناها عربي غير كتابي .
آية ١٥٧ - « بالله و كلماته » : ما انزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من
كتبه ووحيه . وقرئ (و كلمته) على الافراد، وهي القرآن او اراد جنس
ما كُلم به . وعن مجاهد : اراد « عيسى ابن مريم » (الزمخشري والبيضاوي)
وهذا هو الاصح لانه لا معنى لايمان محمد بقرآنه !! فهذا بديهي !

النص السادس : سورة الانعام ٨٣ - ٩٠

يفرد القرآن في هذه السورة ذكراً لابراهيم (٧٤) يختمه بتسمية الأنبياء
المحسنين الصالحين من ذريته؛ ومن جملتهم عيسى . ويأمر القرآن محمداً ان
يقفدي بهدي هؤلاء الانبياء :

٨٣ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات
من نشاء، ان ربك حكيم عليم .

٨٤ ووهبنا له اسحق ويعقوب : كلاً هدينا - ونوحاً
هدينا من قبل - ومن ذريته داود وسليمان، وايوب،
ويوسف، وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين .

٨٥ وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين .

٨٦ واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على
العالمين .

٨٧ ومن آباؤهم وذرياتهم واخوانهم، واجتبيناهم وهديناهم
الى صراط مستقيم .

٨٨ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده . - ولو
أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون .

آية ٨٤ - « ونوحاً هدينا من قبل » : نظنها مزيدة لان الكلام على ذرية
ابراهيم لا على أجداده .

آية ٨٥ - هل ايوب من ذرية سليمان وداود وابراهيم ؟

٨٩ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة -
فإن يكفروا بها هؤلاء (قريش) فقد وكلنا بها قوماً
ليسوا بها بكافرين -

٩٠ أولئك الذين هدى الله، فبهدهم اقتده . قل لا
أسألكم عليه اجراً إن هو الا ذكرى للعالمين .

في سورة الاعراف رأينا أن محمداً يدعو الناس جميعاً الى الايمان برسالة
لأنه هو نفسه يؤمن بالله والكتاب وعيسى كلمة الله . وهنا في الانعام نرى
القرآن يأمر النبي العربي ان يقتدي بهدى الانبياء من ذرية ابراهيم الذين آتاهم
الله الكتاب والحكم والنبوة . وقد تحقق هدى الكتاب والحكم والنبوة
خاصة في التوراة والانجيل على يد موسى وعيسى .

فدعوة القرآن، والاسلام الحق هما الاقتداء بهدى انبياء الكتاب (٩٠) .

آية ٨٩ - « أولئك الذي آتيناهم الكتاب » يريد به الجنس و« الحكم،
الحكمة او فصل الامر على ما يقتضيه الحق » والنبوة، فان يكفروا بها - اي
بهذه الثلاثة - هؤلاء، يعني قريشاً « فقد وكلنا بها - اي بمراعاتها - قوماً
ليسوا بها بكافرين، هم الانبياء المذكورون ومتابعوهم او قيل هم الانصار
واصحاب النبي او كل من آمن به او الفرس وقيل الملائكة » (البيضاوي) ؛
« هؤلاء : اهل مكة . . . قوماً ليسوا بها بكافرين هم المهاجرون والانصار !
(الجللان) . ونقول كلاماً كلاً انما هم انبياء اهل الكتاب الذين يذكروهم ؛ فهل
يطلب من النبي ان يقتدي بهدى الانصار والمهاجرين ؟ !! قال الزمخشري :
هؤلاء يعني اهل مكة، « قوماً » هم الانبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل
قوله « أولئك الذين هدى الله فبهدهم اقتده او بدليل وصل قوله ، فان يكفر
بها هؤلاء « بما قبله » . وجملة « فإن يكفروا . . . » اعتراضية .

آية ٩٠ - « أولئك » الثانية بدل من الاولى . فاخص هدهم بالاقتداء ولا
نقتد الا بهم والمراد هدهم طريقهم في الايمان بالله وتوحيده » (الزمخشري) .

الفصل السابع : سورة النورى ١٣ - ١٦

تقصد هذه السورة الى تبيان مواصلة الوحي من نوح الى محمد كما ورد في مطلعها : « حم عسق » كذلك يوحي اليك ، والى الذين من قبلك ، الله العزيز الحكيم . استعظم المشركون دعوة القرآن الى التوحيد مع انه هو الدين الذي وصى به الله الأنبياء جميعاً :

١٣ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً - والذي أوحينا اليك - وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ا كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ا الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب .

١٤ وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ا ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لفضي بينهم ؛ وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب .

آية ١٣ - « والذي أوحينا اليك » اعتراضية وربما مزيدة . « كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » من التوحيد (البيضاوي) .

آية ١٤ - يرى الزمخشري ان هذه الآية تقصد أهل الكتاب : فالذين « تفرقوا » هم أهل الكتاب بعد انبيائهم ، « وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم » هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول ص . ، والبيضاوي يرى ذلك

١٥ فلذلك فادعُ واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ،
وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب ا وأمرت لأعدل
بينكم . الله ربنا وربكم ، لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ،
لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير .

الخطاب موجه الى المشركين « كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، من
التوحيد ، الذي شرعه الله وكرز به جميع الانبياء من نوح الى ابراهيم وموسى
وعيسى ومحمد : شرع الله التوحيد وشرع اتفاق الكلمة فيه .

تفرّق المشركون ، وشك الكتابيون . فأجاب المشركين : « فلذلك
(التوحيد) فادعُ واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ؛ وأجاب الكتابيين :
« وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب ، فلا تشكوا فيّ وفي تعليمي .

فالمسيح في هذا المقطع حلقة من سلسلة أنبياء التوحيد ، يؤمن به محمد
وبكتابه كما يؤمن بموسى وتوراته و ابراهيم وصحفه . وهكذا ترى في هذه السور
الثلاث الأعراف والأنعام والشورى ان منزلة المسيح الفريدة كما شاهدناها في
مريم والأنبياء والمؤمنين تتدّنى الى رتبة باقي الأنبياء والمرسلين ، لتعود فتسمو
مع السور المدنية الاولى .

ويرى انها تعني اولاً « الامم السالفة او قيل اهل الكتاب ، وان الذين اورثوا
الكتاب من بعدهم يعني اهل الكتاب في عهد الرسول ، أو المشركين الذين
اورثوا القرآن من بعد اهل الكتاب » . - لذلك اذا قصد بهذه الآية أهل
الكتاب « وما تفرّقوا » فنحن نراها مزيدة هنا لتجمع الكتابيين الى المشركين
في رفض توحيد القرآن . والافضل ان نرى ان الضمير في « تفرّقوا » يعود الى
المشركين الذين يخاطبهم في ١٣ فيكون المعنى : ان المشركين تفرّقوا عن محمد
وتعليمه والكتابيين شكوا .

آية ١٥ - جواب للمشركين على كفرهم ثم للكتابيين على شكهم به .

النص الثامن : سورة البقرة ٨٦، ١٣٦ - ١٣٨، ٢٥٣

لم يقيم في مكة جدال بين محمد وأهل الكتاب، بل يظهر النبي العربي في ذلك العهد كأنه واحد منهم، حتى انه لما نشب خلاف في آخر تلك المدة شجبه بشدة: «ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن - الا الذين ظلموا منهم وقلوا آمنا بالذي أنزل الينا وانزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناكم الكتاب يؤمنون به (بالقرآن) ومن هؤلاء (اهل مكة) من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا الا الكافرون (مشركو مكة) ... بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم (اهل الكتاب) وما يجحد بآياتنا الا الظالمون (المشركون)، (عنكبوت ٤٦ - ٤٩). - لا جدال بينهم فالله واحد والايمان بالكتاب والقرآن واحد، ودين التوحيد واحد.

في المدينة ظهر الخلاف شيئاً فشيئاً، وهو خلاف لا على الدين والتوحيد بل على الرئاسة^١ والمليّة، أو الطائفية كما نقول في عصرنا؛ فاختلف اليوم سياسياً اصحاب الامس: «ولن ترضى عنك اليهود - ولا النصارى - حتى تتبع ملتهم» (بقرة ١٢٠). وكان الخلاف طيلة العهد المدني بين محمد واليهود، ولم يشمل النصارى الا في آخره، في سورة التوبة، بعد غزوات النبي الى شمال الجزيرة حيث كانت اكثر مواطن العرب النصارى. ومن ثم نرى في سورة البقرة:

(١) ينسب هذا الخلاف الى «بغى» المختلفين (آل عمران) حشداً بينهم وطلباً منهم للرئاسة وحفظ الدنيا واستتباع كل فريق نلساً يطمنون اعقابهم لا شبهة في الاسلام (الزنجشري).

أولاً : حمة القرآن الأولى على اليهود : « وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لا معكم ولا تكونوا أول كافر به » (بقرة ٤١) . ويعتد لهم مظلّمهم . ومنها تكذيب الرسل وقتلهم .

٨٧ « ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ،

آية ٨٧ - قال الجلالان : « البيّنات : المعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص (وإيدناه) قويناه (بروح القدس) من إضافة الموصوف الى الصفة ، اي الروح المقدسة جبريل ، لطهارته يسير معه حيث سار . وقال البيضاوي : « و (عيسى) بالعبرية « يسوع » (؟) ومريم بمعنى الخادم (؟) . (البيّنات) المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والاخبار بالمغيّبات ، او الانجيل . (وأيدناه أو آيدناه) قويناه (بروح القدس) وقرأ ابن كثير « بروح القدس » بالاسكان في جميع القرآن ، اي بالروح المقدسة ، اراد به جبريل ، او روح عيسى - ووصفها به لطهارته من مس الشيطان أو لكرامته على الله تعالى ولذلك اضافها الى نفسه تعالى أو لأنه لم تضمه الاصلاب ولا الارحام الطوامث - او الانجيل ، او اسم الله الاعظم الذي كان يجي به الموتى ! « ففريقاً كذبتم ، كموسى وعيسى ، والفاء للسببية او التفصيل « وفريقاً تقتلون » كزكريا ويحيى . وانما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس او للدلالة على استمرارها ومراعاة للفواصل .

قال الزنجشري : « وقيل (عيسى) بالسريانية أيشوع و(مريم) بمعنى الخادم . (البيّنات) المعجزات الواضحات والحجج كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والاخبار بالمغيّبات . (بروح القدس) أي بالروح المقدسة - ووصفها بالقدس كما قال ، « وروح منه » فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة ، وقيل لأنه لم تضمه الاصلاب ولا أرحام الطوامث - وقيل بالانجيل كما قال في القرآن « وروحاً من أمرنا » ؛ وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يجي الموتى بذكره .

وآئنا عيسى ابن مريم البيئات، وأيدناه بروح القدس :
 أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ١٩
 ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ١٠ .

قال الرازي : « ابن مريم » إن مريم في لغتهم العسابة ؛ « وأيدناه بروح
 القدس » : فيه مسألتان (المسألة الاولى) « القدس » تثقله اهل الحجاز وتخففه
 نيم ، (المسألة الثانية) في تفسيره أقوال : الاول قال الحسن : القدس هو الله
 تعالى، وروحه جبريل عليه السلام : والذي يدل على ان روح القدس جبريل
 عليه السلام قوله تعالى : « قال نزلته روح القدس » والرازي على هذا الرأي ؛
 والقول الثاني وهو المنقول عن ابن عباس : ان روح القدس هو الاسم الذي
 كان يُجيب به عيسى عليه السلام الموتى ؛ والقول الثالث وهو قول ابي مسلم : ان
 روح القدس الذي ايد به يجوز ان يكون الروح الطاهرة التي نفخها الله تعالى
 فيه وأبانه بها عن غيره ممن خلق من اجتماع نطفتي الذكر والانثى ، (راجع
 تفسيره للآية ٢٥٣ الآتية) وفي غير موضع : وكان جبريل عليه السلام لا يفارقه
 ساعة وهو معنى قوله : « وأيدناه بروح القدس » (٥٤) .

— ونقول : قال بعضهم ذهب محمد ولما يدر ما الروح ؛ وكذلك مفسرو
 القرآن : فليس روح القدس روح عيسى التي نفخها الله تعالى فيه كما قال ابو
 مسلم : فالتأييد للمسيح بالروح القدس حاصل له بعد وجوده ، فالروح القدس
 اذن غير روح عيسى ؛ وهب ان ما زعم حق قلن يبقى في الآية نكته من
 اختصاص عيسى بميزة فضله الله بها على غيره (٨٧) ، وهو يذكرها ايضاً حيث
 يذكر فضائل الانبياء بأفضال الله عليهم (٢٥٣) ؛ وليس هو جبريل — وقد
 سموه كذلك على المشاكلة تشبيهاً له بحال محمد مع الموحى اليه — ولو ورد اسم
 جبريل موصوفاً بروح القدس في قوله « قل نزلته روح القدس » فهي هنا صفة
 ظاهرة لجبريل الموحى اليه، وأما عن المسيح فهي اسم ذات غيرهما . والمعلوم

يذكر هذا المقطع الاول من سورة البقرة للسيد المسيح ميزتين اختص بهما: انيان الله اياه البيّنات أي المعجزات الواضحات التي لا مثيل لها، وتأيد الله له بالروح القدس مما لم يفعله مع غيره من الانبياء. ويظهر ذلك جلياً في الآبة ٢٥٣ من سورة البقرة ذاتها حيث يؤكد هذه الميزات والخصائص للمسيح في باب مفاضلة الانبياء^١.

من التوراة والانجيل والقرآن ان الملائكة كانت واسطة الوحي بين الله والانبياء، فتخصيص المسيح بتأييد جبريل لا يفيد معنى التخصيص المطلوب وتفوت النكته المقصودة؛ وليس هو الانجيل، فهو غير وارد، او غير معقول اذ يصير روح القدس فاعلاً ومفعولاً معاً، والانجيل مؤيداً ومؤيداً. - فروح القدس اذن الذي به أيد الله المسيح هو ذات قائمة بنفسها غير ما ذكر: وهي «روح الله» كما قال الحسن، «والذي كان يُحيي به عيسى الموتى» كما قال ابن عباس. فالروح القدس هو «الامم الاعظم الذي كان يحيي به عيسى الموتى» ويصنع المعجزات.

(١) قال الزمخشري (بقرة ٢٥٣): «وأما قوله: وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات» فإنما اختار لفظ المخاطبة لأن الضمير في قوله (وآتينا) ضمير التعظيم، وتعظيم الموتى يدل على عظمة الالباء - لم خص موسى وعيسى من بين الانبياء بالذكر وهل يدل ذلك على أنها أفضل من غيرها؟ والجواب سبب التخصيص ان معجزاتها أهر وأقوى من غيرها - وتخصيص عيسى ابن مريم بإيتاء البيّنات يدل أو يوم ان إيتاء البيّنات ما حصل في غيره، أو خصتها بالذكر لأن تلك البيّنات أقوى عنده من غيره». على هذا يورد الزمخشري قول متن قال: ان بيّنات موسى أقوى من بيّنات عيسى فإن لم تكن أقوى فلا أقل من المساواة! - وهل في معجزات موسى ما يداني لإحياء الموتى والمقدرة على الخلق وهما من خصائص الخالق؟ لذلك خص القرآن المسيح وميزه على سائر الانبياء «بالبيّنات وتأيد الروح القدس».

ثانياً : يورد القرآن في نص جوهرى اسباب اختلاف بين محمد واليهود :

١٣٥ وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ۱ - بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين .

١٣٦ قولوا : آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى ، وما اوتي النبيون من ربهم : لا نفرق بين أحد منهم ا ونحن له مسلمون .

١٣٧ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيهم الله وهو السميع العليم .

آية ١٣٥ - كان ابراهيم في السورة المكية مؤمناً، فصار في البقرة حنيفاً، وفي آل عمران يكون مسلماً (٦٧) : فالخلاف على الملة وأبهم احق بالانتساب الى ابراهيم .

آية ١٣٦ - الخلاف ايضاً على نبوة اسماعيل وعيسى : فالقرآن يؤمن ليس فقط بالانبياء الذين يقبلهم اليهود بل ايضاً بالذين لا يقبلونهم مثل عيسى نبي النصرى واسماعيل نبي العرب الاقدمين : لا يفرق بين احد منهم فكلهم في توحيد الاسلام سواء .

آية ١٣٧ - « بمثل ما آمنتم به » : المعنى ان تحرّوا الايمان بطريق يهدي الى الحق مثل طريقكم فقد اهتدوا فإن وحدة المقصد لا تأبى تعدد الطرق و«المثل» مقصم كما في قوله « وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله » أي عليه ؛ ويشهد له قراءة « بما آمنتم به أو بالذي آمنتم به » (البيضاوي) .

« فإنما هم في شقاق » في خلاف (الجلالان) اي في مناوأة ومعاودة لا غير

١٣٨ صبغة الله ا ومن احسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون .

(الزنجشيري) لاحظ انه لا يقول في كفر . والآية ١٣٩ تبين ان الخلاف في طريق العبادة ليس خلافاً في الدين والتوحيد .

آية ١٣٨ - « صبغة الله » مصدر مؤكد منتصب عن قوله « آمنا بالله » وهي فعلة من (صَبَغَ) كالجلسة من جلس وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ . والمعنى تطهير الله بالايان لأن الايمان يطهر النفوس . والاصل فيه ان النصارى يغمسون اولادهم في ماء اصفر يسمونه المعمودية ويقولون هو تطهير لهم ، واذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال : الآن صار نصرانياً حقاً ! فأمر المسلمين ان يقولوا لهم : آمنا بالله وصبغنا الله بالايان صبغةً وطهرنا به تطهيراً . وانما جيء بلفظ الصبغة على طريق المشاكلة (ومن احسن من الله صبغةً) يعني انه يصبغ عباده بالايان ويطهرهم به من اضرار الكفر فلا صبغة احسن من صبغته (الزنجشيري) .

وقال البيضاوي : « اي صبغنا الله صبغته أو هدانا هدايته أو طهر قلوبنا بالايان تطهيره . وسماه (صبغة) لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب . أو للمشاركة فإن النصارى كانوا يغمسون اولادهم في ماء اصفر يسمونه المعمودية ويقولون هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم . ونصبها على انها مصدر مؤكد لقوله آمنا ، وقيل على الاغراء وقيل على البذل من ملة ابراهيم . »

ويظهر لي ان هذه الآية مزيدة هنا من وقت آخر لأن اقحامها فيه سبب تفكيك للنظم وسوء الترتيب واخراج الكلام عن التسامه وانتساقه (راجع الزنجشيري) ، فان الحديث كله (١٣٦ - ١٤١) جواب لليهود ، وليس فيه جواب للنصارى ، فاقحت جواباً لهم : صبغة الله بالايان أفضل من صبغة العبد بالماء !

١٣٩ قل : أتتجاجونا في الله وهو ربنا وربكم ولنا اعمالنا
ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون .

١٤٠ أم تقولون : ان ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب
والاسباط كانوا هوداً او نصارى ؟ قل انتم اعلم ام
الله ؟ ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما
الله بغافل عما تعملون .

١٤١ تلك أمةٌ قد خلت لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم
ولا تسألون عما كانوا يعملون .

تعود اسباب الخلاف بين محمد واليهود الى أربعة (وفي آل عمران تتسع الى

آية ١٣٩ - تورد سبباً ثالثاً للخلاف وهو على عبادة الله : لنا اعمالنا ولكم
اعمالكم . يقول : الله واحد ، وهو ربنا وربكم ، وان اختلفت طرق العبادة ،
« لنا اعمالنا ولكم اعمالكم » اذ ليس من الضروري لصحة الدين والايان
والتوحيد توحيد طرق العبادة . وقد يكون الخلاف على ادعاء ضرورة اليهودية
او النصرانية على الانبياء فلا يكون نبياً من غيرهم : الكل عنده سواء فهو
يصطفي من يشاء .

آية ١٤٠ - تورد سبباً رابعاً للخلاف : صحة انتساب كل ملة من الثلاث
الى ابراهيم ، فليس انتساب النصارى واليهود الى الآباء باصح من انتساب
المسلمين لأنهم كما يقول كانوا قبل الانجيل والتوراة ، وعيسى وموسى .

آية ١٤١ - ختام الجدال : على كل حال ليس الانتساب في صحة النسب
بل في صحة الايمان والعمل : لهم ما كسبوا ولنا ما نكسب فلا تزر وازرة
وزر اخرى .

تسع اختلفوا على صحة انتساب كل ملة منهم الى ابراهيم (١٣٥ و ١٤٠)
 و من اولى بهذا الانتساب . واختلفوا في قبول نبوة عيسى نبي النصارى، ونبوة
 اسماعيل نبي العرب الاقدمين، فالقرآن يقبل جميع الانبياء على السواء « لان فرق
 بين أحد منهم » . واختلفوا في طريقة عبادة الله، بأي شرع يجب ان يُعبد؛
 قالوا بشريعة موسى او عيسى، فقال ليس من الضروري لصحة التوحيد توحيد
 طرق العبادة فانه ربنا وربكم ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم فليس الاختلاف
 في طريقة العبادة شيئاً . وانكروا على محمد نبوته قائلين : الانبياء كلهم منا
 فلو كنت نبياً لكنت منا، فاجاب لا اختصاص لله بقوم دون قوم يصيب
 برحمته من يشاء .

وهكذا يؤيد القرآن صحة رسالة المسيح ضد اليهود

ثالثاً : ويختم بفاصلة القرآن بين الانبياء وفضل عيسى على غيره (٢٥٣)

٢٥٣ تلك الرسل ، فضلنا بعضهم على بعض : منهم من
 كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى ابن مريم
 البينات ، وأيدناه بروح القدس . ولو شاء الله ما اقتتل
 الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات .

آية ٢٥٣ - « فضلنا بعضهم على بعض » تقرير مبدئ التفضيل « بتخصيصه
 بمنقبة ليست لغيره » (الجلالان والبيضاوي) « منهم من كلم الله » وقرئ
 من كلم الله أو كلم الله، وهو موسى، وقيل موسى ومحمد، ولكن كيف
 رأوا فيه محمداً وكيف رأوه ايضاً في الثانية « ورفع بعضهم درجات » ؟ فمن
 هو هذا المرفوع درجات على غيره ؟ قيل هو محمد وقيل ابراهيم خصه بالحلة
 التي هي اعلى المراتب، وقيل ادريس عليه السلام لقوله « ورفعناه مكانا علياً »
 وقيل اولو العزم من الرسل ؛ وفي حديث عن ابن عباس انه يجيى . واتينا عيسى
 ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس » خصه بالتعيين لافراط اليهود والنصارى

يقر هنا مبدأ انفاضة بين الانبياء، فيخصّ كلاً منهم بمنقبة ليست لغيره (البيضاوي والجلالان) : خصّ موسى بتكليمه ومشافهته؛ وخصّ غيره (من؟) برفعه على سواه درجات؛ وخصّ المسيح بالبينات «وجعل معجزاته سبب تفضيله لأنها آيات واضحة ومعجزات عظيمة لم يستجمعها غيره» (البيضاوي) وإن عمّت البينات جميع الانبياء «ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات» وخصّه أيضاً بتأييد الروح القدس، ولم يذكر القرآن هذا التأييد السماوي الخاص لغير المسيح .

فقد أبان القرآن وجه تفضيل موسى، بالتكليم، ووجه تفضيل عيسى بالبينات وتأييد الروح القدس . وجعل تأييد الروح القدس للمسيح سبب المعجزات العظيمة التي لم يستجمعها غيره (البيضاوي) وهذا دليل بيّن على ان من زيد تفضيلاً بينهم بالآيات فقد فضل على غيره (الزمخشري) ؛ ومن زيد تفضيلاً بالآيات مثل المسيح ؟

في تحقيره وتعظيمه، وجعل معجزاته سبب تفضيله لأنها آيات واضحة ومعجزات عظيمة لم يستجمعها غيره» (البيضاوي) . وهذا التفسير ينقض زعم من قال مع الزمخشري : «تخصيص عيسى ابن مريم بإيتاء البينات يدل او يوهم ان ايتاء البينات ما حصل في غيره، ومعلوم ان ذلك غير جائز . فإن قلتم انما خصها بالذكر لأن تلك البينات اقوى ! فنقول ان بينات موسى عليه السلام اقوى من بينات عيسى عليه السلام فإن لم تكن اقوى فلا اقل من المساواة» (آية ٢٥٣) — فنجيب ان تخصيص عيسى بالبينات مع تعميمها على سائر الانبياء يوحى بأن بيناته اقوى حتى اختص بها كما قال البيضاوي .

وقال الرازي «ان الضمير في قوله «آتيننا» ضمير التعظيم وتعظيم المؤثي يدل على عظمة الايتاء وقد خص عيسى وموسى بالذكر بما يدل على انها افضل من غيرهما» . وقال الزمخشري : «خصص عيسى وموسى من بين الانبياء بالذكر لما اوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ولقد بيّن وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهذا دليل بيّن ان من زيد تفضيلاً بينهم بالآيات فقد فضل على غيره» .

النص التاسع : فاتحة آل عمران

قال ابن اسحاق : لما قدم أهل نجران على رسول الله ص . يسألونه عن عيسى بن مريم نزلت فيهم فاتحة آل عمران الى الثمانين منها . وحضر اليهود المناظرة واشتركوا فيها . فكان ما يسميه حسين هيكل « مؤتمر الاديان الثلاثة في المدينة » .

اولاً : يذكر خلاف محمد واليهود على « ان الدين عند الله الاسلام »

١٨ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط - لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

١٩ أن الدين عند الله الاسلام . وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم : ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب .

آية ١٨ - « أولو العلم » هم أهل الكتاب لمعرفة الوحي ، كما انه يسمي المشركين « الذين لا يعلمون » لأنهم لا يعرفون الكتاب .

آية ١٩ - « الذين اوتوا الكتاب » من اليهود والنصارى (الجلالان والبيضاوي والزخشري) . وعندي انه يقصد هنا اليهود وحدهم اذ خصهم بقتل الانبياء (٢١) . « ان الدين عند الله الاسلام » : الشرع المبعوث به الرسل المبني على التوحيد (الجلالان) . « وما اختلف الذين اوتوا الكتاب » في دين الاسلام فقال قوم انه حق وقال قوم انه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون مطلقاً . أو في التوحيد (البيضاوي) . وأضاف الزخشري « هو اختلافهم في

٢٠ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ : أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ آتَبَعَنِي .
 وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ : «أَسَلَّمْتُمْ فَإِنْ
 أَسَلَّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ
 بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ .

٢١ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ
 وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
 بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

ان اهل الكتاب الذين يختلف محمد معهم (١٩) هم اليهود وخدمهم بدليل قوله
 انهم « يقتلون النبيين بغير حق » (٢١) ولم يكن ليفعله النصارى اذ لا نبي عندهم
 بين المسيح وأحمد الذي يتكلم . والخلاف ليس على التوحيد، فإنهم، وهم
 « اولو العلم » شهدوا به مع الله والملائكة (١٨) بل على الاسلام أي الشرع
 المبعوث به محمد مبنياً على التوحيد (١٩) أي على طريقة عبادة الله .

ويجبهم على محاججتهم : ليس الشرع بضروري للتوحيد، بل الاصل في
 الايمان والدين هو التوحيد « فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ آتَبَعَنِي »
 يعني « ان ديني دين التوحيد وهو الدين القويم الذي ثبتت عندهم صحته كما ثبتت
 عندي وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه » (الزنجشري) .

نبوة محمد وقيل هو اختلافهم في الايمان بالانبياء . وعندني ان موضوع الخلاف
 ظاهر : هو على الاسلام (١٩) لا على التوحيد (١٨) اذن هو على طريقة عبادة
 الله الأحد أي على شرع او دين الاسلام لا على عقيدة الاسلام أو توحيده .

آية ٢٠ - « الاميين » الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب (الزنجشري)
 ومنه النبي الأمي .

ثانياً : بشارة امرأة عمران بمريم (٣٣ - ٣٧)

٣٣ ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين .

٣٤ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم .

٣٥ اذ قالت امرأة عمران : رب اني نذرتُ لك ما في بطني محرراً فتقبل مني انك انت السميع العليم .

٣٦ فلما وضعتها قالت : رب اني وضعتها انثى ، والله عليم بما وضعت ، وليس الذكر كالانثى . واني سميتها مريم . واني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

٣٧ فتقبلها ربها بقبول حسن . وأنبأها نبأاً حسناً . وكفلها زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم اني لك هذا قالت هو من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب .

ثالثاً : بشارة زكريا يحيى : آل عمران (٣٩ - ٤١)

٣٩ فتادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب : ان الله

آية ٣٩ - آل عمران « مصدقاً بكلمة من الله » اي بعيسى سمّي بذلك لأنه وُجِدَ بأمره تعالى دون أب فشابهه البدعيات التي هي عالم الامر . او بكتاب الله (البيضاوي) . « يحيى اسم اعجمي ، وهو الظاهر ، مُنْعَ صرفه

يَشْرِكُ بِيَحْيَى، مُصَدِّقًا بِكَلِمَةِ مَنْ اللَّهُ، وَسَيِّدًا،
وَحَصُورًا، وَنَبِيًّا، مِنَ الصَّالِحِينَ .

للتعريف والعجمة . (مصدقاً بكلمة من الله) مصدقاً بعيسى مؤمناً به، قيل
هو اول من آمن به، وسمي عيسى كلمة لانه لم يوجد الا بكلمة الله وحدها
وهي قوله: « كن ! » من غير سبب آخر . وقيل مؤمناً بكتاب منه تعالى،
(الزمخشري) .

وقال الرازي . « كلمة من الله : اي كتاب من الله وهو قول ابي عبيدة،
واختيار الجمهور أن المراد بكلمة من الله هو عيسى . وقال ابن عباس ان يحيى
كان اكبر سناً من عيسى بستة اشهر وكان يحيى اول من آمن وصدق بأنه
كلمة الله وروحه ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى . وسمي عيسى كلمة الله من
وجوه : (١) أنه خلق بكلمة الله وهو قوله كن من غير واسطة الأب كما يسمي
المخلوق خلقاً وهو باب مشهور في اللغة ؛ (٢) أنه تكلم في الطفولية وآتاه الله
الكتاب في زمان الطفولية فكان في كونه متكلماً بالغاً مبلغاً عظيماً فسمي
كلمة اي كاملاً في الكلام ؛ (٣) ان الكلمة كما انها تفيد المعاني والحقائق كذلك
عيسى كان يرشد الى الحقائق والاسرار الالهية كما سمي القرآن روحاً ؛ (٤) لانه
حقق كلمة بشارة الانبياء به كما قال وحقق كلمة ربك ؛ (٥) إن الانسان
يسمى « فضل الله و لطف الله » فكذا عيسى عليه السلام كان اسمه العليم
« كلمة الله » و « روح الله » . واعلم ان كلمة الله هي كلامه ؛ وكلامه على قول
أهل السنة « صفة قديمة قائمة بذاته » . والرازي يرفض المعنى الاخير لأنه
يستحيل ان يقال ان كلمة الله القائمة بذاتها هي ذات عيسى ؛ ولا نعلم لماذا
يستحيل ذلك والله هو الموحى به ! واطاف في آل عمران ٤٥ : سمي كلمة الله
كأنه صار عين كلمة الله الخالقة له بوجوده المعجز، أو لأنه أبان كلمة الله
أفضل بيان .

في هذه الآية ينعت القرآنُ يحيى بخمس صفات، اولها انه آمن « بكلمة الله » وهو عَلِمَ للمسيح . فهناك في المحراب (٣٧) اي في الهيكل ، لما رأى زكريا ذلك (اي المعجزة في شأن مريم) ، وعلم ان القادر على الاتيان بالشيء في غير وقته قادر على الاتيان بالولد على الكبر ، دعا ربه ، « فنادته الملائكة ان الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة كائنة من الله ، اي بعيسى انه روح الله - وسمي كلمة لأنه خلق بكلمة : كن ! » (الجلالان) . - ونقول : ان

« سيداً » . قال القاضي : هو المتقدم المرجوع اليه في الدين فيدخل فيه جميع الصفات ؛ وقال الزمخشري : السيد هو الذي يسود قومه أي يفوقهم في الشرف وكان يحيى فائقاً لقومه وفائقاً للناس كلهم في انه لم يركب سيئة قط . « حصوراً » لا بمعنى المفعول بل بمعنى الفاعل وهو اختيار المحققين ، وهو الذي لا يأتي النساء للعفة والزهد لأن الحصور هو الذي يكثر منه حصر النفس ومنعها . « احتج أصحابنا بهذه الآية على ان ترك النكاح أفضل وذلك لأنه تعالى مدحه بترك النكاح » (الرازي) ؛ ٤٥ - ٤٧ سبق تفسيرها : إن الملاك يصف لمريم شخصية مولودها الفريدة : أربعة ألقاب تعنيه : كلمة منه تعالى - اسمه المسيح - عيسى - ابن مريم ؛ وأربع صفات تظهره : وجيهاً في الدنيا بالنبوة وفي الآخرة بالشفاعة - ومن المقربين في السماء بالجلسة ومشافهة الحق - ويكلم الناس في المهد كلام النبوة كما يكلمهم كهلاً - ومن الصالحين الكاملين الخالدي الذكر . قال الزمخشري : « لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وهذه ثلاثة أشياء الاسم منها عيسى ، واما المسيح والابن فلقب وصفة ؟ - الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز بها من غيره فكأنه قيل الذي يُعرف به ويتميز بمن سواه بمجموع هذه الثلاثة » كذلك الرازي والبيضاوي . - نقول حلت هذه الألقاب والنعوت محل الاسم لشهرتها ومعرفته بها .

لاحظ في النص تعبيره « بكلمة منه » : فقوله منه يدل على المصدر الذي

قوله « بان عيسى روح الله وكلمة الله الكائنة من الله (الجلالان) الصادرة من الله بدون توسط اصل (البيضاوي) ، وانه «خلق بأمر الله : ككن !» قول فيه تناقض اذ كيف يمكن لروح الله وكلمة الله، ان «يخلق خلقاً ! ؟ . . . انه لا يخلق خلقاً بل يصدر صدوراً . اذ ان « كلمة الله - كما تقول السنة - صفة قديمة قائمة بذات الله » (الرازي) ؛ «وعيسى عليه السلام كان اسمه العلم (كلمة الله) و (روح الله) » (الرازي) . ويشهد القرآن ان اول من آمن بالمسيح انه كلمة الله وبشر بذلك هو يحيى بن زكريا « الذي لم يعمل خطيئة ولم يهيم بها » .

رابعاً : عذبة مريم في الهيكل (٤٢ - ٤٤)

٤٢ وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على نساء العالمين .

٤٣ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين

٤٤ ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ

يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ

يختصمون .

خامساً : بشاره مريم بالمسيح (يوردها القرآن في آل عمران بعد ان قصتها في سورة مريم) .

صدر منه الكلمة لا على التبويض كما يُظن ودحضه الرازي ؛ وليس فقط كما يقول هو لا ابتداء الغاية فكل ارواح المخلوقين يصح فيها « من » الابتدائية، والمسيح اختص دونهم بهذا الصدور . ولو كان هذا التعبير « كلمة منه » تعني خلق المسيح بأمر الله، لصح ان يطلق هذا الاسم على جميع المخلوقين لانهم كلهم خلقوا بأمر الله . ولكن انفرد المسيح بهذا اللقب، وسماه القرآن بهذا الاسم بسبب ميزة الصدور الوحيدة التي بها صدر « من » الله كروحه وكلمته .

٤٥ اذ قالت الملائكة : يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه
اسمه المسيح عيسى ابن مريم - وجيهاً في الدنيا والآخرة،
ومن المقربين .

٤٦ ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين .

٤٧ قالت أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر ؟ قال : كذلك
الله يخلق ما يشاء، اذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن
فيكون .

٤٨ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل .

٤٩ ورسولاً الى بني اسرائيل : أنى قد جئتكم بآية من
ربكم، أنى أخلق لكم من الطين كهية الطير فأنفخ
فيه فيكون طيراً بإذن الله . وارىء الاكمه والابرص .

آية ٤٨ - فيها قراءتان : يُعلمه أو نُعلمه . « والكتاب ، الكتبة او
جنس الكتب المنزلة، وخص الكتابان لفضلهما » (البيضاوي) ؛ والرازي على
التفسير الاول وهو بعيد الاحتمال . وانما عنى اولا جنس الكتاب المنزل
والحكمة المنزلة ثم خص الكتابان .

آية ٤٩ - « ورسولاً » على مَ 'تحمل' ؟ « هو من المضائق » (الزمخشري) ،
« منصوب بمضمر او بالعطف على الاحوال المتقدمة » (البيضاوي) .

« الى بني اسرائيل » وتخصيهم لخصوص بعثته اليهم . « قد جئتكم بآية »
المراد الجنس لا الفرد .

واحى الموتى بإذن الله . وانبئكم بما تأكلون وما
تدخرون في بيوتكم : ان في ذلك لآية لكم ان
كنتم مؤمنين .

٥٠ . ومصداقاً لما بين يدي من التوراة، ولأجل لكم بعض
الذي حُرِّم عليكم . وجئتكم بآية من ربكم -
فاتقوا الله وأطيعون - :

« اخلق لكم » جميع المفسرين يخففون من قوة اللفظ في تفسيرهم فيقولون
« اقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير » والخلق هو التصوير والتقدير وذلك لانه
ثبت ان العبد لا يكون خالقاً بمعنى التكوين والابداع فوجب تفسير كونه
خالقاً بالتقدير « (الرازي والزحشري والبيضاوي) . - نقول يجب حمل اللفظ
على معناه الاصلي البديهي لا ان نتعامل عليه ونتمحل له ما نريد ؛ ومقدرته على
« احياء الموتى » تؤيد حمل الخلق على اطلاقه .

« انه حكى هنا خمسة انواع من معجزات عيسى . وروي انه عليه الصلاة
والسلام ربما اجتمع عليه خمسون الفاً من المرضى من اطاق منهم اتاه ومن لم
يطق اتاه عيسى ، وما كانت مداواته الا بالدعاء وحده » (البيضاوي) ؛ فأبرأ في
يوم خمسين الفاً بالدعاء ، بشرط الايمان « (الجللان) . والمفسرون يرون مرور
الكرام على « احياء الموتى » ومدلولها العجيب .

٥٠ - « وجئتكم بآية من ربكم » شاهدة على صحة رسالتي وهي « ان الله ربي
وربكم » لان جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه . وقرئ على
الفتح (أن) على البدل من آية . وقوله « فاتقوا الله واطيعون » اعتراض . . .

٥١ إن الله ربي وربكم فاعبدوه : هذا صراط مستقيم .

في هذا النص الرئيسي من المسيح يذكر القرآن ولادته المعجزة من مريم بخلق مباشر فيها دون واسطة أب، ودون واسطة معجزة كعمل الملاك؛ ويقرّر في القاب اربعة وأوصاف اربعة شخصية مولود مريم الفريدة، ولم يخص القرآن احداً قط من الانبياء بمجموع هذه النعوت ولا بمثل سموتها؛

ويدل على عظمة وحيه أنه تعلّم مباشرة من الله، الوحي كلفه، ما سبقه وما نزل عليه : فكانه جمع الوحي فيه .

وذكر خمسة انواع من معجزات عيسى منها ما اشترك به مع غيره من الانبياء مثل الابرء والانبياء بالغيب؛ ومنها ما انفرد به على جميع المرسلين كالمقدرة على الخلق واحياء الموتى وهما من خصائص الخالق .

ويختتم بذكر موضوع رسالته : تصديق التوراة وتخفيف بعض احكامها ثم التبشير بالتوحيد من جديد .

« ومصدقاً لما بين يديّ من التوراة » : يجب على كل نبي ان يكون مصدقاً لجميع الانبياء عليهم السلام، لأن الطريق الى ثبوت نبوتهم هو المعجز، فكل من حصل له المعجز وجب الاعتراف بنبوته فلماذا قلنا بان عيسى عليه السلام يجب ان يكون مصدقاً لموسى بالتوراة؛ ولعلّ من جملة الاغراض في بعثة عيسى اليهم تقرير التوراة وازالة شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين (الرازي) .

ولكن هل في قوله ذاك تعارض مع قوله هذا : و « لأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم »؟ - إن الناسخ والمنسوخ في الاحكام العملية كلاهما حق وصدق، والتصديق للتوراة لا معنى له الا الاعتقاد بان كل ما فيها حق وصواب .

سادساً : آخرة المسيح : آل عمران ٥٢ - ٥٨ وقد ذكرها في مريم على غير تفصيل .

٥٢ فلماً أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصاري الى الله ؟ قال الحواريون : نحن انصار الله ! آمنا بالله ؛ واشهد بأننا مسلمون .

آية ٥٢ - يذكر القرآن ايمان الحواريين بالمسيح و كُفّر باقي اليهود به بل مؤامرتهم لاغتياله (٥٤) .

وينقل لنا الرازي روايات متعددة عن آخرة المسيح وما كان أحراه ينقل رواية الانجيل كما ينقل منه معجزة صيد السمك في اسباب ايمان التلاميذ به . ومن اسباب كفرهم به أنه دعاهم الى دين الله فتمردوا، او عرفوا فيه المسيح الذي يبطل من شرائعهم فتأمروا عليه .

« من أنصاري الى الله » قبل « الى » بمعنى مع أو في أو اللام (البيضاوي) ، وهذا القول كان في أول أمره أو حين اختفائه عنهم أو في آخر أمره . ونصرة الله محال فالمراد اذن نصرته دينه وأنبيائه (الرازي) ؛ والباعث على طلب النصرته اقدمهم على دفع الشر عنه . « قال الحواريون » وهؤلاء الحواريون من كانوا ؟ ينقل الرازي الآراء المختلفة : كانوا من الملوك أو من صيادي السمك أو من القصارين أو من الغسالين أو من هؤلاء جميعاً . هم أعوان دينه ، واصفياؤه واول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً ؛ والاسم مشتق من الحور وهو البياض (وكذا جميع المفسرين في اصل اللفظ ، ويحمل معه دلالة على الاصل الآرامي) ، وقيل كانوا قصارين يحوون الثياب اي يبيضونها (الجلالان) ، وسمي به اصحاب عيسى خلوص نيتهم ونقاء سريرتهم ؛ وقيل كانوا ملوكاً يلبسون (الثياب) البيض استنصر بهم عيسى (البيضاوي) ؛ « وحواري الرجل صفوته وخالصته وفي وزنه الحوالي وهو الكثير الحيلة » (الزمخشري) .

٥٣ ربنا آمنة بما أزلت واتبعنا الرسول (المسيح) فاكثبنا
مع الشاهدين .

٥٤ ومكروا (الذين كفروا) ، ومكر الله ، والله خير الماكرين .

٥٥ اذ قال الله : يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي
ومطهرك من الذين كفروا . وجاعل الذين اتبعوك فوق

«آمنة بالله» يجري مجرى ذكر العلة في نصرتهم له . «واشهد بأننا مسلمون»
فيه قولان : اشهد بأننا منقادون لما تريد ولأمر الله ، أو إن ذلك اقرار منهم
بان دينهم الاسلام وأنه دين كل الأنبياء . واعلم أنهم لما أشهدوا عيسى على
ايمانهم وعلى اسلامهم تضرعوا الى الله (الآية ٥٣) مؤمنين بالله ، وكتب الله ،
ورسول الله ؛ وعند ذلك طلبوا الزلقة والثواب «فاكثبنا مع الشاهدين»
لك بالتوحيد ولأنبيائك بالنبوة ؛ وعن ابن عباس : في زمرة الانبياء . أو من
يكون في شهود جلالك مستعداً للشهادة بالدم (عن الرازي) .

آية ٥٤ - «ومكروا» هموا بقتله «ومكر الله» من باب حمل المعنى على
لفظ ما قبله ، ومكر الله بأن رفع عيسى الى السماء فلم ينالوه . ولفظ المكر في
حقه تعالى من التشابهات ، ولكن ليس كذلك حسب المعنى لأنه عبارة عن
التدبير المحكم ثم اختص في العرف بإيصال الشر . (عن الرازي) .

آية ٥٥ - «يا عيسى اني متوفيك» ونظيره قوله «فما توفيتني»
(المائدة ١١٧) .

«اختلف اهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين (احدهما) اجراء
الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير فيها ، (والثاني) فرض التقديم
والتأخير . اما الطريق الاول فيبانه من وجوه : ١ اني متمم عمرك الى
اجلك ؛ ٢ متوفيك اي يميتك وهو مروى عن ابن عباس ومحمد بن اسحاق ،

الذين كفروا الى يوم القيامة . ثم الي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون .

قالوا مع وهب : توفي ثلاث ساعات ثم رفع ، ومع محمد ابن اسحاق : توفي سبع ساعات ثم احياه الله ورفعهُ ؛ ٣ قال الربيع بن أنس : انه تعالى توفاه حين رفعه الى السماء ؛ ٤ تحمل الالفاظ على ظاهرها من موت ورفع ، ولكن كيف يفعل ؟ ومتى ؟ فلا يذكره ؛ ٥ متوفيك عن شهواتك ؛ ٦ التوفي هو أخذ الشيء وافياً اي كاملاً بجسده وروحه ؛ ٧ متوفيك : اي اجعلك كالمتوفي في نظرهم برفعك ؛ ٨ التوفي هو القبض يقال توفي واستوفي وهو رفعه ؛ ٩ ان يُقدَّر حذف المضاف اي متوفي عمك . - والطريق الثاني : لا بد من تقديم وتأخير في الآية (فالواو) لا تفيد الترتيب ، يقدم الرفع وتأخر الوفاة وتحمل على ظاهرها بالموت . واعلم ان الوجوه التي قدمنا تفني عن التزام مخالفة الظاهر (الرازي) . - فهكذا نرى الرازي وفضل المفسرين يحملون الوفاة على المعنى الوضعي الحقيقي لا المجازي .

وقال الجلالان : « اني متوفيك » اني قابضك اي رافعك ؛ والبيضاوي : « متوفي اجلك ومؤخرك الى اجلك المسمى ، او قابضك من الارض ؛ او متوفيك نائماً ، اذروي انه رفع نائماً ؛ او بميتك عن الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت . وقيل امامه الله سبع ساعات ثم رفعه الى السماء واليه ذهبت النصارى ؛ والزنجشيري : متوفي اجلك وميتك حتف انفك .

وهكذا فالأكثرية من المفسرين تقول ان الآية تشهد بموت المسيح وإحيائه ورفعهُ . « وجاعل الذين اتبعوك » : من هم ؟ قال الزنجشيري : ومتابعوه هم المسلمون لانهم متبعوه في اصل الاسلام وان اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه او كذبوا عليه من اليهود والنصارى . - تفسير مفروض ! وقال البيضاوي : ومتبعوه من آمن بنبوته من المسلمين والنصارى . وكذلك الجلالان . - ونقول لا محل لذكر المسلمين .

٥٦ فأما الذين كفروا (بالمسيح) فأعدّتهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين .

٥٧ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين .

٥٨ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم .

يذكر القرآن نتائج رسالة المسيح بين بني اسرائيل : كَفَرَ الاكثرون به، وآمن الحواريون وكانوا انصار عيسى في سبيل الله .

ويشهد القرآن على اقرارهم بأن دينهم هو الاسلام « واشهدُ بأنا مسلمون » قائلًا انهم آمنوا بالله، وكتب الله، ورسول الله اي المسيح، واتبعوه ونصروه مستعدين للشهادة والاستشهاد في سبيله وسبيل دينه (عن الرازي) .

ويشهد القرآن ايضاً شهادة صريحة بموت المسيح وإحيائه بعد ذلك بمدة وجيزة ورفعـه الى السماء ؛ وبإحيائه ورفعـه الى عالم الملكوت كان الله أشد مكرراً من المتآمرين على المسيح لقتله .

« واعترفوا بان الله تعالى شرف عيسى في هذه الآية (٥٧) بصفات :

آية ٥٦ - ٥٧ - تفصيل الحكم على المؤمنين بعيسى والكافرين به (الزمخشري والبيضاوي) .

آية ٥٨ - « الذكر الحكيم » فيه قولان : (الاول) المراد منه القرآن ، و (الثاني) غير القرآن . وهو اللوح المحفوظ الذي منه نقلت جميع الكتب المنزلة على الانبياء ؛ أخبر انه تعالى انزل هذا القصص عما كتب هنالك . والله اعلم بالصواب ؛ كذلك البيضاوي . والجلالان والزمخشري على الاول . وعندنا انه الكتاب المقدس .

(الاولى) الوفاة المعجزة، و (الثانية) الرفع الى ملكوت الله، الى محل كرامته تعالى، وجعل ذلك «رفعاً» اليه للتفخيم والتعظيم، و (الثالثة) تطهيره من الذين كفروا، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع اليه أخبر عن معنى تخليصه منهم بلفظ التطهير، و (الرابعة) تفوق المؤمنين بالمسيح على الكافرين به، بالقهر والسلطان والاستعلاء الى يوم القيامة، وبالحجة والدليل والبرهان؛ والفوقية بالرفعة والدرجة. انه تعالى بشر عيسى عليه السلام بأنه يعطيه في الدنيا تلك الخواص الشريفة والدرجات الرفيعة العالية؛ واما في القيامة فإنه يحكم بين المؤمنين به وبين الجاحدين برسالته فالحكم في يوم الدين يكون على الايمان بالمسيح وعدمه (الرازي) وهذا القصة ينقله عن الذكر الحكيم الذي نزل من قبل للذكر النازل الآن في القرآن.

سابعاً : شخصية المسيح : آل عمران ٥٩ - ٦٤

انه لتفسير متأخر إضافي :

٥٩ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له : كن ا فيكون .

آية ٥٩ - إن شأن عيسى الغريب عند الله كشأن آدم في خلقه من غير أم ولا أب وهو من تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس (الجلالان) . صفة عيسى كصفة آدم ونظيره .

«خلق آدم» : هنا من تراب . وفي غيرها من الماء «هو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً» وفي غيرها من الطين «وبدأ خلق الانسان من طين» . وفي غيرها «من سلاة من طين» أي مسلوطة من أطف أجزاء الطين وفي غيرها «من طين لازب» . وفي غيرها من «صلصل» من حما مسنون، والصلصال اليابس الذي له صوت، والحمأ الذي استقر في الماء مدة وتغير لونه ورائحته . -

٦٠ الحق من ربك فلا تكن من المكثرين .

٦١ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل :
تعالوا ندعُ أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا
وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين .

٦٢ إن هذا هو القصص الحق . وما من إله إلا الله . وإن
الله هو العزيز الحكيم .

٦٣ فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين .

ولهم اجتهادات في توفيق الآيات الواردة . « ثم قال له كن فيكون » قال
الرازي : « في الآية اشكال وهو انه كان ينبغي ان يقال : كن فكان . والجواب
تأويل الكلام » .

آية ٦٠ - « الحق » خبر مبتدأ محذوف أي أمر عيسى ، قصته ، خبره .
والحق المذكور هو ما ورد في الآية السابقة من خلق عيسى كخلق آدم في
المعجز ، وفي الخلق ذاته يفسرها في الآية ٦٢ : عيسى مخلوق لا اله .

آية ٦١ - اذا امتنعوا عن الاقرار بخلق عيسى ، يدعواهم الى المباهلة اي
الى لعن الكاذب ، والبهلة اللعنة .

آية ٦٢ - إن خلق عيسى هو القصص الحق فما من إله إلا الله لا أحد يساويه
في القدرة التامة والحكمة البالغة ليشاركه في الالهية (البيضاوي) . وهو
جواب لهم : فقدره عيسى محدودة و كلمة عيسى محدودة بخلاف الله .

آية ٦٣ - « إن الله عليم بالمفسدين » وضع المظهر موضع المضمحل ليبدل على
ان التولتي عن الحجج والاعراض عن التوحيد فساد للدين والاعتقاد .

٦٤ قل : يا أهل الكتاب، تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله. فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأننا مسلمون ا

ترك النصوص السابقة في نفس القارئ، فكرة عظيمة عن سمو المسيح حتى لقد تخرج به عن طبقة البشر، وتترك الباب مفتوحاً لاعتقاد النصارى بتأليه عيسى . فجاء هذا النص الاضافي من زمن متأخر يقوم ذلك الشعور ويعتل القضية على هذا النحو : ألا يظن ان معجزة ميلاد المسيح بلا أب قد أظهرته اسمى من البشرية ورفعتة الى رتبة الالهية ؟ - كلاً، انما عيسى مخلوق، وهناك أغرب من طريقة خلقه : إنه وُلِدَ بلا أب، وآدم وُجِدَ بلا أبوين! بأمرٍ من الله : كن ! فكان^٢ .

آية ٦٤ - « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء » (وقرأ الحسن سواءً بالنصب) : دعوة لاهل الكتاب الى الاتفاق على التوحيد الخالص . وقد تكون دعوة خاصة بالنصارى للجدل السابق بحق عيسى . وقد تكون عامة لليهود والنصارى، بانقطاع الحديث السابق واستئناف غيره . وقد تكون خاصة بأهل نجران او يهود المدينة - في الآيتين ٦١ و ٦٢ الخطاب وان كان مع محمد فالمراد به الكل .

« الى كلمة سواء » المعنى هلموا الى كلمة فيها انصاف من بعضنا لبعض لا

(١) ليس مثل آدم كمثل المسيح من حيث المعجزة وخرق العادة الطبيعية : آدم خلق بدون معجزة أوجده الله بدون اسباب مقررة؛ اما وجود عيسى ضمن قانون التسلسل البشري وفوق العادة المقررة فهي المعجزة الدالة على كرامة خاصة له عند الله لم ينلها نبي سواه .

(٢) احتجاج المفسرين لتسمية المسيح « الكلمة » أنه مأخوذ من قوله « كن ، فيكون » غير وارد لأن قوله : « خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون » هو مفسر لخلق آدم بدليل قوله « من تراب » لا لوجود المسيح .

وتلاحظ ان القرآن يسمي مقاتلهم كذباً وفساداً في الدين ؛ ولكنها ليست كفراً ؛ انه لا يصهم ابداً بالكفر لأنه يعتدّم حتى النهاية موحدين مثله « واشهد بأننا مسلمون » (آل عمران ٥٢ و ٨٠) .

وبعد فشل الحجج في الاقناع والاقتناع دعى النبي وفد نجران النصراني الى الملاعنة على الكاذب على المسيح، في قصة الحق : فأبوا . وامتناعهم عن المباهلة (الملاعنة) لا يعني انكارهم لألوهية عيسى أو اقرارهم بنبوته محمد (٦١) لأنهم « تولّوا » تاركين محمداً وشأنه (٦٢) . وقد دعا كفار مكة محمداً الى المباهلة وطلبوا من الله امطارهم بالحجارة ان كان ما يقوله محمد هو الحق، ثم انه لم ينزل العذاب بهم البتة : ليس في الملاعنة من افحام للخصم !

وفي ختام « مؤتمر الأديان الثلاثة » في المدينة يدعو القرآن أهل الكتاب الى كلمة انصاف وحق وعدل في الله : ألا وهي توحيد الخالص، قبلوا بها أم لم يقبلوا : يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة مستوية بيننا وبينكم لا يختلف فيها القرآن والانجيل والتوراة .

دعا المشركين في مكة الى توحيد الآلهة ؛ ويدعو الكتابيين في المدينة الى توحيد الأديان .

ميل فيه لأحد على صاحبه . والسواء هو العدل والانصاف وذلك لأن حقيقة الانصاف اعطاء النصف مساوياً بين نفسه وبين غيره : جعل لفظ التسوية عبارة عن العدل (الرازي) .

« واشهدوا بأننا مسلمون » يعني اظهروا أنكم على هذا الدين ولا تكونوا في قيد ان تحملوا غيركم عليه (الرازي) .

ثامناً : الاسلام هو تعليم انبياء الكتاب : آل عمران ٧٩-٨٠، ٨٣-٨٥ .

٧٩ ما كان لبشر أن يوئيه الله الكتاب والحكم والنبوة
ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن
كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم
تدرسون .

٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً
أأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟

آية ٧٩ - « ما كان لبشر » المقصود منه النفي لا النهي . انما أراد تكذيب
النصارى في ادعائهم ان عيسى قال لهم اتخذوني الهاً (الرازي) . « الكتاب والحكم
والنبوة » : الوحي وفهمه وتبليغه (الرازي) يختلفون كثيراً في فهم معنى
« الحكمة » او « الحكم » وقد ورد اللفظان . - نقول انها اسماء اسفار من
الكتاب حسب تسمية اليهود .

« الرباني » نسبة الى الرب بزيادة الف ونون (الزنجشري) وهو الذي
يَعْلَم وَيُعَلِّم كتاب الرب . « تعلمون » فيه قرآنان ، تعلمون بالتخفيف
من العلم ، وتعلمون من التعليم بالتشديد : وكلاهما صواب (الرازي) .

آية ٨٠ - « ولا يأمركم » قالوا يأمركم بالرفع على الاستئناف ، وقالوا بالنصب
عظماً على « يوئيهكم » . قالوا (لا) زائدة ، وقالوا ثابتة ، وقرأوا : ولن
يأمركم . من هو فاعل يأمر ؟ الله ؟ ام محمد ام عيسى ام الانبياء ؟ (عن الرازي) .
نقول هو البشر المرسل في الآية ٧٩ كما يقول البيضاوي - ولئن الخطاب في
الآية ٨٠ ؟ الذين يعبدون الملائكة ، قيل هم الصابئة (الجلالان) ؛ أم قريش ،
يسمون الالهاتهم بنات الله ويقولون انهن ملائكة (الزنجشري) . وعندنا ان
الخطاب كله في ٧٩ و ٨٠ لأهل الكتاب عن موقفهم من عبادة او تكريم

٨٣ أففير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات
والارض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون .

٨٤ قل : آمناً بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم
واسماعيل واسحاق ويعقوب . والاسباط وما أوتي
موسى وعيسى والنبيون من ربهم : لا نفرق بين أحد
منهم ونحن له مسلمون .

الملائكة والانبياء ، وقوله « ربانيين تعلمون الكتاب » تكفي شاهداً ودليلاً،
فالربانيون هم علماء الناموس اي التوراة .

« أيامركم بالكفر بعد إذ انتم مسلمون » : زعم الزمخشري والرازي
والبيضاوي ان الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون لأن يسجدوا لمحمد؟!
لا نستغرب ذلك منهم يحولون هذه الشهادة الصريحة باسلام اهل الكتاب الى
امتهم : انه لا يجوز لسامع القرآن ان يستأذن محمداً بعبادته، فالكلام كله
اذن عن اهل الكتاب ، وجداهم في اكرام عيسى والانبياء والملائكة .
والمقصود نفي عبادة عيسى (٧٩) واكرام الملائكة والانبياء اكراماً ربانياً
« وهو ادنى من العبادة » والنهي عنه (عن البيضاوي) .

آية ٨٣ - الاسلام مفروض طوعاً وكرهاً على السماوات والارض : كل
ما فيها يشهد بتوحيد الله فكيف يبغون غير هذا الدين !

آية ٨٤ - « لا نفرق بين أحد منهم » التفريق بتفضيل البعض على البعض
أو الايمان ببعض دون بعض كما فرقت النصارى واليهود ؛ أو كما قال ابو مسلم :
لا نفرق ما اجمعوا عليه وهو كقوله : واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .
« ونحن له مسلمون » مثلهم اجمعين .

٨٥ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .

في النص السابق دحض القرآن ألوهية عيسى المستندة الى الادلة النقلية . وهنا يذكر الادلة العقلية : يستحيل ان يطلب نبي العبادة لنفسه من دون الله ؛ فهذا خيانة لنبوته ! ويستحيل ان يأمر نبي اتباعه باتخاذ الملائكة والنبين ارباباً : « أياهم بالكفر قوماً مسلمين » ؟ ! وهذه شهادة صريحة لصحة اسلام اهل الكتاب (٨٠) كالتى سبقتها « واشهد بأننا مسلمون » (٥٢) : فدين الله هو عبادته وحده لا شريك له من الملائكة او النبيين او اُحبار او رهبان : افغير دين الله يبغون ؟ ! وقد وُحّده السماوات والارضون !

التوحيد الصحيح هو الاسلام ومن يتبع غيره ديناً فلن يُقبل منه ! وهذا التوحيد هو ايمان الكتاب والقرآن وتعليم جميع الانبياء : لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون .

تاسعاً : امة عيسى في عصر محمد : آل عمران ١١٠ - ١٢٠ .

أخيراً يذكر القرآن نتائج « مؤتمر الاديان الثلاثة » لأول العهد بالمدينة واصفاً أُمم الكتاب الثلاث :

١١٠ كنتم خير امة اُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المکر وتؤمنون بالله . ولو آمن أهل

آية ٨٥ - الاسلام في هذه الآية يعني عقيدة الاسلام اي دين الله (٨٣) الذي آمن به جميع الانبياء (٨٤) - فيما في الآية ١٩ كان يعني شريعة الاسلام .
آية ١١٠ - « تأمرون بالمعروف » بيان لقوله كنتم خير امة (الزمخشري) .

الكتاب (اليهود) لكان خيراً لهم : منهم المؤمنون
واكثرهم الفاسقون .

١١١ - ١١٢ ضربت عليهم الذلة والمسكنة : ذلك بأنهم
كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ،
ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

١١٣ ليسوا سواهم من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات
الله آناء الليل وهم يسجدون .

١١٤ يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون

آية ١١٣ - من هي الأمة الصالحة المصلحة المذكورة في الآيات ١١٣-١١٥؟
من أهل الكتاب أمة مستقيمة ثابتة على الحق كعبد الله بن سلام واصحابه
(الجلالان) ؛ (ليسوا سواهم) الضمير لأهل الكتاب، (من أهل الكتاب أمة
قائمة) استئناف لبيان نفي الاستواء؛ والقائمة: المستقيمة العادلة وهم الذين أسلموا
منهم (البيضاوي)؛ وقيل عن صلاة العشاء التي يصلّيها المسلمون ولا يصلّيها
أهل الكتاب (الزمخشري) - نقول ليست صلاة العشاء هي المقصودة لأنه
يتكلم عن إحياء الليل كله بالصلاة والتلاوة وهذا لا يفعله سوى رهبان عيسى.
روى الرازي حديثاً: ألا اني نهيت أن أقرأ راعياً أو ساجداً. وقوله « وهم
يسجدون » حال من يتلون آيات الله، فلا تكون حال محمد ولا حال أمته.
بقيت انها حال من يمدح من أهل الكتاب لا من يذمهم. وقال الرازي « في
المراد بأهل الكتاب قولان: (الاول) وعليه الجمهور المراد منه الذين آمنوا
بموسى وعيسى، و (الثاني) المراد بأهل الكتاب كل من أوتي الكتاب من أهل
الاديان وعلى هذا القول يكون المسلمون من جملتهم .

عن المنكر . ويسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين .

١١٥ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه . والله عليم بالمتقين .

١١٦ — ١٢٠ يعود الى ذكر الذين كفروا بنبوته من اهل الكتاب (أي اليهود) .

هذه الفقرة تصف امم الكتاب الثلاث عقب المؤتمر . كان وفد من نصارى نجران قد حضر وباحث النبي في دعوته وفي عيسى، وحضر المجادلة بعض اليهود: فوادعه النصارى وانصرفوا وزاد اليهود كفراً به .

فآية ١١٠ تصف امّة المسلمين : يؤمنون بالله، ويأمرون بالمعروف لذلك صاروا خير امّة .

والآيتان ١١١ — ١١٢ تصفان اليهود : منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . مؤلاء الفاسقون ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق . هذا الوصف من قتل الأنبياء يوضح صراحة ان المعنيين هم اليهود .

والآيات ١١٣ — ١١٥ تستثني من اهل الكتاب أمة مؤمنة تقية صالحة مصلحة ؛ لا شك انها تقصد النصارى ورهبانهم لأنه يستثنيهم من اهل الكتاب الفاسقين، قتلة الانبياء، فضلاً عن ان احياء الليل في السجود وتلاوة آيات الله فيه كانت عادة الرهبان النصارى لا عادة اليهود، ولا عادة المسلمين الذين لم يتكفروا بعد .

و«اعلم انه تعالى مدح الامّة المذكورة في هذه الآية بصفات ثمانية : ١ قائمة أي مستقيمة عادلة ٢ — يتلون آيات الله: وصفهم بالتهجد بالليل ٣ — الصلاة «وهم يسجدون» ٤ — يؤمنون بالله واليوم الآخر، بالمبدأ والمعاد ٥ — يأمرون بالمعروف ٦ — وينهون عن المنكر ٧ — ويسارعون في الخيرات ٨ — واولئك

من الصالحين؛ والوصف بهذا غاية المدح، (الرازي) : يشهد اذن بتقوam
العظيمة (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) ، وصحة دينهم وإيمانهم
واسلامهم (يؤمنون بالله واليوم الآخر) ، وغيرتهم على الاصلاح (يأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر) ، وعلى صلاحهم وكاملهم (يسارعون في الخيرات
واولئك من الصالحين) ، ويعدهم الجنة (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) .

عاشراً : القربان علامة النبي الآتي : آل عمران ١٨٢

بعد ان حرّض على بذل النفس والمال في سبيل الله ، وكان اليهود
يصدّون عن ذلك لقولهم بعدم نبوة محمد، شرع في حكاية شبهات القوم في
الطعن بنبوته :

١٨١ الشبهة الاولى : لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله

فقير ونحن اغنياء

١٨٢ الشبهة الثانية : الذين قالوا : إن الله عهد إلينا ألا

نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربانٍ تأكله النار - قل :

آية ١٨١ - قالت اليهود - والآية تعنيهم وحدهم لقوله « وقتلهم
الانبياء » - من يطلب المال من غيره كان فقيراً محتاجاً ! ونحن نرى اله محمد
يستقرض منا فنحن اغنياء وهو فقير ؟ وبينها عن الربا ثم يعطينا الربا ! لقوله
« من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة » فهذا محال ،
ومحمد يفترى على الله . وليس في الآية جواب ظاهر على الشبهة .

آية ١٨٢ - هي الشبهة الثانية في الطعن في نبوة محمد وتقريرها، انهم قالوا :
إن الله عهد إلينا ان لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربانٍ تأكله النار، وانت
يا محمد ما فعلت ذلك، فليست من الانبياء ولا النبي الذي ننتظره (عن الرازي)
وللعلماء فيما ادعاه اليهود قولان : إن هذا الشرط جاء في التوراة، أو إن ادعاء هذا
الشرط كذب على التوراة - نقول : هذا الشرط غير وارد نصاً ولكن معنى

قد جاءكم رُسلٌ من قبلي بالبينات ، وبالذي قلتم ،
فلمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين ١٩

١٨٣ فإن كذبوك فقد كُذِّبَ رسل من قبلك جاؤوا بالبينات
والزُّبر والكتاب المنير .

جاء وجهاء اليهود وعلماءهم الى محمد وقالوا له : ان الله عهد الينا في التوراة
الا نصدق نبياً حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، وهذا شرط خاص لنا عليه ،
فلا نؤمن لك حتى تأتينا به . اجابهم : القربان من جملة المعجزات فهو وهي
سواء ؛ لقد جاءكم الرسل بالمعجزات ، وبالقربان الذي قلتم فلمَ قتلتموهم إن
كنتم صادقين في طلبكم ؟

من هو الرسول الذي جاء بعد موسى بالقربان المطلوب وقتله اليهود ؟ -
ليس من جواب في آل عمران انما نجده في سورة المائدة : الرسول المذكور
الذي اعطى القربان معجزة له ليصدقوه هو عيسى الذي أنزل عليهم المائدة
من السماء ؛ ولم تذكر التوراة والانجيل والقرآن نبياً فعل ذلك بعد سكوت
الوحي خمس مئة سنة الى المسيح ثم ست مئة سنة الى محمد ، سوى المسيح عيسى
ابن مريم كلمة الله وروح الله .

اي يكون النبي على شريعة موسى التي تأمر بتقديم قربان لله تأكله النار .
والقربان مصدر من قرب كالكفران وهو ما يُتقرب به الى الله . والجواب
على الشبهة : « قل قد جاءكم » يقصد منه انه يقتضي توقيف الصدق على ظهور
مطلق المعجزة المعينة وحدها « وبالذي قلتم » فلو كان الموجب للتصديق هو
الانيان به وكان توقفهم وامتناعهم من الايمان لاجله فمالهم لم يؤمنوا بمن جاء
به ؟ وبمعجزات آخر ؟ واجتروا على قتله « (عن الرازي والبيضاوي) -
قالوا : ان الذين جاؤوا بالقربان تأكله النار وقتلوهم هم زكريا ويحيى ، وليس
هذا وارد في الكتاب المقدس عنهما . بل جاء عن ايليا وحده وظنوا ان ايليا
سيعود بذاته ويجدد معجزته .

النص العاشر : سورة الاحزاب ٧-٨

في مقطع قد لا يمت الى السورة بصلة يذكر الميثاق الذي أخذته الله على الأنبياء حين بعثهم^١ . ومن جملتهم عيسى :

٧ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم . وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً .

آية ٧ - « ميثاقهم » عهدهم بتبليغ الرسالة والدعاء الى الدين القويم (الزمخشري والبيضاوي) . وللجلالين عن الوقت الذي اخذ فيه هذا الميثاق نظرية غريبة : أخذ من النبيين ميثاقهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذرة ! « ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى » خصتهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع . وقدم نبينا تعظيماً له « (البيضاوي) - لاحظ انه هنا قدم محمداً على جميعهم ، وفي موضع آخر قدم نوحاً عليه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك » ، ولهم في ذلك اقوال .

« وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً : عظيم الشأن . او مؤكداً باليمين . والتكرار لبيان هذا الوصف » (البيضاوي والزمخشري) ؛ وقال الرازي : هو العهد المؤكد غاية التأكيد .

(١) هذا النص لا يمت الى السورة بصلة لأنه متباين مع ما قبله ومع ما بعده . ويجوز ان يكون له صلة بعيدة بالآيتين الاولى والثانية : اتبع ما يوحى اليك ولا تطع المنافقين في جعلهم أدياء هم ابناؤهم ، فهذا ميثاق عليك وعلى الرسل . وفكرة الميثاق والعهد فكرة كتابية محضة . والعهد واحد بين الله وشعبه كما نرى في التوراة . فجعل القرآن فكرة العهد مجددة مع كل نبي ، وخاصة مع مشاهير أرباب الشرائع الذين يخصهم بالذكر .

٨ ليسأل الصادقين عن صدقهم . وأعد للكافرين عذاباً أليماً .

يورد في هذا النص ذكر عيسى بين مشاهير ارباب الشرائع ، وهم في عرف
خمة . ويذكر انه أخذ عليهم جملةً وافراداً عهداً، مغلطاً بالأيمان، أن
«أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه» كما قال في موضع آخر . وسبأهم الله عن هذا
العهد يوم الدين، كما سبأ تابعيهم .

وهكذا نرى في القرآن موقفين من عيسى : أحدهما انه يدرجه في جملة
الانبياء (أحزاب ٧ ، شوري ١٢ ، نساء ١٦٢ ، آل عمران ٨٣ ، بقره ١٣٦) ؛
والآخر انه يخصه بالكرامات التي يمتاز بها عن سواه (نساء ١٧٠ ،
آل عمران ٤٥ ، مريم ٣٠ و ٣١) .

آية ٨ - « ليسأل الصادقين عن صدقهم » - في الضمائر غموض . « ليسأل
الله يوم القيامة الانبياء الذين صدقوا عهدهم عما قالوه لقومهم ؛ او تصديق قومهم
ايام نبكيتهم ؛ او المصدقين لهم عن تصديقهم ؛ او ليسأل الله المؤمنين عن
صدقهم عهد الانبياء » (البيضاوي) .

النص الحادي عشر : القسم الثاني من سورة النساء

في القسم الثاني من سورة النساء يحدد القرآن موقفه صراحةً من اليهود (١٤٩ - ١٦١) ومن «الناس» العرب المشركين (١٦٢ - ١٦٩) ومن النصارى (١٧٠ - ١٧٢).

أولاً : حملة القرآن على اليهود لكفرهم بالمسيح وامه : النساء ١٤٩ - ١٦١.

النوع الاول من أباطيلهم : ايمانهم ببعض الانبياء دون البعض : آمنوا بموسى والتوراة وكفروا بعبسى والانجيل (الرازي) .

١٤٩ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون : نوؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً :

١٥٠ اولئك هم الكافرون حقاً . واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً .

١٥١ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم اولئك سوف يؤتيهم اجرهم وكان الله غفوراً رحيماً .

الآيات ١٤٩ - ١٥٠ ، الكافرون حقاً هم الذين يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض (المسيح) كاليهود ؛ او يؤمنون بالله ويكفرون بالرسل كالشركين (عن الزمخشري) .

النوع الثاني من اباطيلهم وجهالاتهم :

١٥٢ قالوا : ارنا الله جهرة... ثم اتخذوا المعجل من بعد ما جاءتهم البيئات .

١٥٣ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم .

١٥٤ فيما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الانبياء .
بغير حق ، وقولهم : قلوبنا غلف - بل طبع الله عليها
بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلاً .

١٥٥ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً .

١٥٦ وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم .

الآيات ١٥٢ - ١٥٣ يذكر لهم ثلاث جنایات فاضحات بعد بيئات من المعجزات واضحات .

الآيات ١٥٤ - ١٥٦ يذكر فيها خمسة أسباب لظلمهم (١٥٨) أو خمساً من مظالمهم ومنها قولهم على مريم بهتاناً عظيماً بنسبتهم اياها الى الزنى . وانما صار هذا الطعن بهتاناً عظيماً لأنه ظهر عند ميلاد عيسى عليه السلام من الكرامات والمعجزات ما دل على براءتها من كل عيب (الرازي) ومنها قولهم إنا قتلنا المسيح !

آية ١٥٦ - فيها اقوال : (١) اليهود اعداء المسيح فكيف يعترفون بالقابه ورسالته « إنا قتلنا المسيح - عيسى ابن مريم رسول الله » ! « قالوه استهزاء » ؛ ويتحمل ان يكون امتثناً من الله بمدحه أو وصفاً للذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح « (البيضاوي والرازي) - لاحظ ان قولهم « إنا قتلنا المسيح »

وما قتلوه ا وما صلبوه ا ولكن شبه لهم .

هي مقالة شعب برمته يؤكّد ذلك بالتواتر منذ ست مئة سنة . ولا يجوز الطعن في المتواتر والا لما بقي للأخبار التاريخية من مستند .

(٢) « وما قتلوه ! وما صلبوه ولكن شبه لهم » : ما معنى قوله شبه لهم ؟
 « شبه » مسند الى ماذا ؟ إن جعلته مسنداً الى المسيح فالمسيح مشبه به وليس بمشبهه ، وإن اسندته الى المقتول (زعموا ان اليهود قتلوا آخر شبيهاً بعيسى) فالمقتول لم يجر له ذكر ! قلت هو مسند الى الجار والمجرور « لهم » كقولك خيل اليهم كأنه قيل وقع لهم التشبيه ؛ ويجوز أن يسند الى ضمير المقتول (الزمخشري والرازي) .

وهناك خلاف بين المفسرين : أقتل أحد بدل المسيح أم لم يقتل ؟
 « ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتول ، أو في الأمر على قول من قال « لم يقتل أحد » ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس (البيضاوي) .

اما الذين قالوا ان تمّ قتيلاً فيبررون تواتر مقالة اليهود بخلق شبه للمسيح بقتل عوضه ؛ قال الرازي : « اختلفت مذاهب العلماء في هذا الموضوع وذكروا طرقاً : الأول ، قال كثير من المتكلمين إن اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله تعالى الى السماء فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامتهم فأخذوا انساناً وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس انه المسيح . الثاني ، إنه تعالى ألقى شبهه على انسان آخر ، ثم فيه وجوه : ١ دخل طيطاوس اليهودي بيتاً كان المسيح فيه فلم يجده وألقى الله عليه شبهه فلما خرج ظن انه عيسى فأخذ وصلب ؛ ٢ وكلوا بعيسى رجلاً يجرسه فرفع عيسى الى السماء وألقى الله شبهه على ذلك الرقيب فقتلوه وهو يقول لست بعيسى ؛ ٣ تطوع احد أصحابه فألقى الله شبه عيسى عليه فأخرج وقتل ، ورفع عيسى ؛ ٤ نافق احد تابعيه ودلهم على عيسى ليقتلوه فلما دخل مع اليهود لأخذه ألقى الله تعالى شبهه

وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه . ما لهم به من علم
آلا اتباع الظن .

عليه فقتل وصلب . - وهذه الوجوه متعارضة متدافعة والله اعلم بحقائق
الأمور .

وقال ايضاً (في آل عمران) : « فكيفما كان ففي القاء شبهه على الغير
اشكالات (الاشكال الاول) انه ان جاز ان يقال ان الله تعالى يلقي شبه
انسان على انسان آخر فهذا يفتح باب السفطة وايضاً يفضي الى القدح في
التواتر : ففتح هذا الباب اوله سفطة وآخره ابطال النبوءات بالكلية ؛
(والاشكال الثاني) ان الله ايده بروح القدس جبريل فهل عجز هنا عن تأييده ؛
وهو كان قادراً على احياء الموتى فهل عجز عن حماية نفسه ؛ (والاشكال
الثالث) انه تعالى كان قادراً على تخليصه برفعه الى السماء فما الفائدة في القاء
شبهه على غيره وهل فيه الا القاء مسكين في القتل من غير فائدة اليه ؛
(والاشكال الرابع) بالقاء الشبه على غيره اعتقدوا (اليهود) ان هذا الغير هو
عيسى مع انه ما كان عيسى فهذا كان القاء لهم في الجهل والتلبيس وهذا لا
يليق بحكمة الله ؛ (والاشكال الخامس) ان النصارى (واليهود) على كثرتهم
في مشارق الارض ومغارها وشدة محبتهم للمسيح وغلوهم في امره أخبروا أنهم
شاهدوه مقتولاً مصلوباً فلو انكرنا ذلك كان طعناً فيما ثبت بالتواتر والطعن
في التواتر يوجب الطعن في نبوة محمد وعيسى وسائر الانبياء ؛ (والاشكال
السادس) الا يقدر المشبه به ان يدافع عن نفسه انه ليس بعيسى ، والتواتر
انه فعل . ولو ذكر ذلك لاشتهر عند الخلق هذا المعنى . فلما لم يوجد شيء من
ذلك علمنا ان الامر ليس على ما ذكرتم . . وبما ان يذكر الجواب على
تلك الاشكالات ويختم بقوله « وبالجملة فالأسئلة التي ذكروها امور تتطرق
الاحتمالات اليها من بعض الوجوه » - لذلك يجب رفض خرافة الشبه الشائعة
بين المسلمين . ورفضها لا يغير من موقف القرآن ومقالته شيئاً . وبقي قول

١٥٧ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه . وكان الله عزيزاً حكيماً .

مَن قال : لم يُقتل احد ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس ، واليه يميل الرازي والبيضاوي . وعليه نجيب كيف يمكن نقض مقالة اليهود والنصارى العامة المتواترة مدة ست مئة سنة قبل سورة النساء !

فقوله « شبه لهم » لا يمكن ان يُسند نصاً الى المسيح أو الى المقتول المزعوم كما يشهد الرازي والزنجشري . بقي ان معناه « خيّل اليهم الأمر » أو « وقع لهم التشبيه في الأمر » اي اشتبه عليهم الأمر ويفسره ما يرد بعده ، كما يفسره الزنجشري والرازي .

(٣) « وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه » لفي تردد ، وكما ان الشك يطلق على ما لا يُرجح أحد طرفيه يُطلق ايضاً على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم ولذلك اكدته بقوله « ما لهم به من علم الا اتباع الظن » . ثم من هو فاعل « اختلفوا » ؟ قالوا انهم النصارى اتفقوا على ان اليهود قتلوا المسيح ، واختلفت النسطورية والملكانية واليعقوبية في كيفية وقوع القتل على الناسوت دون اللاهوت ؛ وقالوا ايضاً ان المراد بالذين اختلفوا هم اليهود (الرازي) - ونقول ليس من محل لذكر النصارى في النص كله . بل الكلام كله في الآية والمقطع عن اليهود .

آية ١٥٧ - ٤) « وما قتلوه يقيناً » قتلاً يقيناً أو متيقنين (الزنجشري والبيضاوي) أو يجعل يقيناً تأكيداً لقوله وما قتلوه (الزنجشري) .

(٥) « بل رفعه الله اليه » : رد وانكار لقتله وإثبات لرفعه (البيضاوي) « ورفع عيسى عليه السلام الى السماء ثابت بهذه الآية . ونظير هذه الآية قوله في آل عمران : اني متوفيك ورافعك اليّ » . ودل ذلك على ان رفعه اليه أعظم في باب الثواب من الجنة ومن كل ما فيها من اللذات الجسمانية . وهذه الآية

١٥٨ وإن من اهل الكتاب ألا ليؤمننَّ به قبل موته .
ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً .

في هذا المقطع يحمل القرآن حملة شعواء على كفر اليهود بالمسيح واهمه .
فبعدد لهم صنفين من مظالمهم : اولاً بطلان ايمانهم ببعض الانبياء دون بعض ؛
ثانياً كفرانهم بمعجزات الله بطلبهم رؤية الله جهرة واتخاذهم العجل الهاً يوم
العهد برفع الطور فوقهم .

ثم بعدد خمساً من جرائمهم : نقض العهد، و كفرهم بآيات الله ومعجزاته،
وقتلهم الأنبياء وقولهم « قلوبنا غلُف » ليست بحاجة الى وحي، وقولهم على

تفتح عليك باب معرفة السعادات الروحانية ، (الرازي) . وقد اجمل الجلالان
الآية : قال تعالى تكذيباً لهم في قتله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)
فظنوه اياه . (وان الذين اختلفوا) في عيسى ان المقتول هو نفسه ما لهم بقتله
من علم الا اتباع الظن . « وما قتلوه يقيناً » حال مؤكدة لنفي القتل .

آية ١٥٨ - « وإن من اهل الكتاب الا ليؤمننَّ به قبل موته » - على
معنى المفرد، وقريء « ليؤمننَّ قبل موتهم » وهذه القراءة ترفع غموض
الضائر في الأولى . فليمن اذن الضائر في « به، موته »؟ ان فيه لقولين : (الاول)
الضمير في « موته » للكتابي وفي « به » لعيسى والمعنى : ما من اليهود والنصارى
(لا ذكر للنصارى في النص) ! أحد الا ليؤمننَّ بأن عيسى عبد الله ورسوله
قبل ان يموت ولو حين ان ترهق روحه ؛ (الثاني) قيل الضمير ان لعيسى والمعنى
انه اذا نزل من السماء آمن به اهل الملل جميعاً ، (البيضاوي) . ولكن « ما
فائدة الاجبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم ؟ - فائدته الوعيد، وليكون علمهم
بأنهم لا بد لهم من الايمان به عن قريب عند المعاينة وان ذلك لا ينفعهم،
بعثاً لهم وتنبيهاً على معالجة الايمان به في اوان الانتفاع به ، (الزمخشري
والرازي) .

مريم بهتازاً عظيماً، وقولهم : إنا قتلنا المسيح . ويردّ على مقالتهم بقتل المسيح أن محاولتهم فشلت بمعجزة من الله : ألا وهي رفع المسيح الى السماء .

وظاهر الآية ١٥٦ ينفي قتل المسيح وصلبه . فهل هذا صحيح ؟ وهل يتفق مع اقواله عن موت عيسى في سورة مريم وعن وفاته في آل عمران وفي المائدة ؟ سنرى ذلك في غير موضع .

ويختم بالوعيد لليهود انهم لا بد لهم من الايمان بالمسيح : « وما من اليهود احد الا ليؤمننَّ قبل موته بعيسى » (الزمخشري) .

ثانياً : موقف القرآن « من الناس » المشككين بنبوته : النساء ١٦٢ -

١٦٩ .

جاء في اسباب النزول للسيوطي : روى ابن اسحاق عن ابن عباس قال : قال عدي بن زيد : ما نعلم ان الله أنزل على بشر من شيء ؛ فنزلت :

١٦٢ إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبين من بعده ،
وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب
والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا
داود زبوراً .

آية ١٦٢ - الخطاب لمن ؟ انه جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله كتاباً من السماء ، واحتجاج عليهم بأن شأنه في الوحي كشأن سائر الانبياء الذين سلفوا (الزمخشري والبيضاوي) - قيل نزلت جواباً لاقتراحهم عليه ان ينزل عليهم القرآن من السماء كتاباً واحداً كما نزلت التوراة لا نجومياً . فأجاب هذه حال جميع الانبياء سوى موسى . واختصاص موسى بالتكليم لا يطعن في نبوة سائر الانبياء .

١٦٣ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم
نقصصهم عليك . وكلم الله موسى تكليماً .

١٦٤ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله
حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزاً حكيماً .

١٦٥ لكن الله يشهد بما أُنزل إليك - أنزله بعلمه -
والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيداً .

١٦٦ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا
خيراً لكم . وان تكفروا فإن الله ما في السماوات
والارض، وكان الله عليماً حكيماً .

نرجع ان الخطاب للناس عامة (١٦٩) جواباً على المشككين بنبوّة محمد:
عن كيفية الوحي اليه (١٦٢ - ١٦٤) ، وعن صحة هذا الوحي (١٦٥) مع
دعوة عامة لقبوله (١٦٩) .

هنا يظهر عيسى حلقة من سلسلة أنبياء الوحي : يعدّد القرآن منهم اثني
عشر سوى موسى ؛ وتسميتهم كما تلاحظ لا تتبع التاريخ المتسلسل . ويظهر

آية ١٦٥ - نزل لما سُئِلَ اليهود عن نبوته فأنكروه (الجلالان) ،
و « لكن » استدراك لما في موقفهم من الشك بالوحي اليه او بنزول القرآن
من السماء (عن الرازي) .

آية ٢٦٩ - « اعلم انه تعالى لما اجاب عن شبهة اليهود بنزول القرآن
نجوماً ذكر خطاباً عاماً يعمهم ويعم غيرهم في الدعوة الى دين محمد فقال
يا ايها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم » (عن الرازي) .

ان هذا النص ما وضع هنا الا ليخفف من سمو ما اختص به عيسى من الكرامات في رفته (١٥٦) كما ورد في المقطع السابق، وفي ألقابه كما يصرح في المقطع التالي (١٧٠) .

ثالثاً : تحذير النصارى من الفلو في اكرام المسيح وامه : النساء

١٧٠ - ١٧٣ .

« اعلم انه لما اجاب عن شبهات اليهود تكلم بعد ذلك عن النصارى في هذه الآية . والتقدير يا اهل الكتاب من النصارى لا تغلوا في دينكم اي لا تفرطوا في تعظيم المسيح : وذلك لأنه لما حكى عن اليهود انهم يبالفون في الطعن في المسيح، وهؤلاء النصارى يبالفون في تعظيمه، وكلا طرفي قصدهم ذميم، فلماذا قال للنصارى لا تغلوا في دينكم، (الرزاي) .

١٧٠ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ا ولا تقولوا على

الله الا الحق ا

آية ١٧٠ - نساء : « لا تغلوا في دينكم » : لا تتجاوزوا الحد . لاحظ ان القرآن يسمي طعن اليهود في المسيح كفراً وهذا الكلام لا يؤخذ الا في حق شؤون الله . ويُسمي افراط النصارى في اكرام المسيح غلو لا غير . « ولا تقولوا على الله الا الحق » : تلاحظ ايضاً أنه لا جدال بين محمد والنصارى في انه بل في غلوهم في تعظيم المسيح - « يعني تنزيهه عن الصحابة والولد » (البيضاوي) « عن الشريك والولد » (الجلالان) .

« كلمته القاها الى مريم » أوصلها اليها وحصلها فيها » (الزمخشري والبيضاوي) .

« انما المسيح . . . » هذا اكمل تعريف للمسيح ورد في القرآن : ان عيسى

انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته - القاها
الى مريم - وروح منه .

ابن مريم هو رسول الله، ومسيح الله، وروح الله . وقد سبق تفسير هذه
الالقباب .

«روح منه» أضيف اليه تعالى تشریفاً له (الجلالان) ؛ وقال الزمخشري :
« قيل له روح الله وروح منه تعالى لأنه ذو روح ومجد من غير جزءٍ من ذي
روح كالنطفة المنفصلة من الأب الحي، وانما اخترع اختراعاً من عند الله
وقدرته الخالصة ؛ والبيضاوي : « وروح منه : ذو روح صدر منه تعالى، لا
بتوسط ما يجري مجرى الاصل والمادة له . وقيل سمي روحاً لأنه كان يجيبي
الاموات او القلوب » والرازي : « وكلمته » : المعنى انه وجد بكلمة الله وأمره
من غير واسطة ولا نطفة . واما قوله : «روح منه فغيبه وجوه : (الاول) انه
جرت عادة الناس انهم اذا وصفوا شيئاً بغاية الطهارة والنظافة قالوا انه روح
فلما كان عيسى لم يتكوّن من نطفة الاب وانما تكوّن من نفخة جبريل عليه
السلام (تناقض : انه وجد من غير واسطة، وهنا جبريل واسطة) لا جرم
وصف بأنه روح . والمراد من قوله «منه» التشریف والتفضيل .

(الثاني) انه كان سبباً لحياة الخلق في اديانهم ومن كان كذلك وصف
بأنه روح .

(الثالث) روح منه أي رحمة منه : فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق
من حيث انه كان يرشدهم الى مصالحهم في دينهم ودنياهم لا جرم سمي روحاً منه .

(الرابع) ان الروح هو النفخ في كلام العرب، فان الروح والريح متقاربان
فالروح عبارة عن نفخة جبريل . وقوله منه يعني ان ذلك النفخ من جبريل
كان بأمر الله واذنه فهو منه . وهذا كقوله : فنفخنا فيها من روحنا .

فآمنوا بالله ورسله . ولا تقولوا : « ثلاثة » !
 انتهوا ! خيراً لكم : انما الله اله واحد . سبحانه ان
 يكون له ولد !

(الحامس) قوله روح، ادخل التنكير في لفظ روح ولذلك يفيد التعظيم .
 فكان المعنى : روح من الارواح الشريفة القدسية العالية . وقوله « منه » اضافة
 لذلك الروح الى نفسه تعالى لاجل التشريف والتعظيم .

« فآمنوا بالله ورسله » اي ان عيسى من رسل الله فآمنوا به كمايمانكم وبسائر
 الرسل ولا تجعلوه الهاً (الرازي) .

ولا تقولوا : « ثلاثة » .

« أي الآلهة ثلاثة : الله وعيسى وامه » (الجلالان) .

« أي الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم ويشهد عليه قوله : أنت قلت للناس
 اتخذوني وامى إلهين من دون الله . أو « الله ثلاثة » إن صح أنهم يقولون :
 « الله ثلاثة أقانيم ، الأب والابن وروح القدس ويريدون بالأب الذات ، وبالابن
 العلم ، و بروح القدس الحياة » (البيضاوي) . - أجل لقد صح ان النصرى
 « الله ثلاثة » الذات والعلم والحياة، فهل في اثبات صفات العلم والحياة لله انكار
 للتوحيد الالهي؟

قال الزمخشري : « إن صحت الحكاية عنهم انهم يقولون هو جوهر واحد،
 ثلاثة اقانيم، اقنوم الأب واقنوم الابن واقنوم روح القدس، وانهم يريدون
 بأقنوم الأب الذات وباقنوم الابن العلم، وبأقنوم روح القدس الحياة : فتقديره
 « الله ثلاثة » . وإلا فتقديره « الآلهة ثلاثة » والذي يدل عليه القرآن التصريح
 منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأن المسيح ولد الله من مريم :
 ألا ترى الى قوله : أنت قلت للناس اتخذوني وامى الهين من دون الله؟ وحكاية

له ما في السماوات وما في الارض ! وكفى بالله وكيلاً !

الله أوثق من حكاية غيره ! - نقول للزنجشري ان المقالة الاولى « الله ثلاثة » هي حقاً مقالة النصارى ، اما المقالة الثانية « الآلهة ثلاثة : الله والمسيح ومريم » فليست مقالتهم بل بدعة من بعض نصارى الحجاز الجهال لا يعرفها أحد غيرهم . وقد كافحها القرآن . ولا تصح نسبتها الى جميع النصارى . فلا محل لقوله : « وحكاية الله أوثق من حكاية غيره » !

ويقول الرازي : « قوله ثلاثة خبر مبتدا محذوف . ثم اختلفوا في تعيين ذلك المبتدأ على وجوه : (الاول) ما ذكرناه أي ولا تقولوا « الاقانيم ثلاثة » المعنى ولا تقولوا « ان الله سبحانه واحد بالجوهر ثلاثة بالاقانيم » . واعلم ان مذهب النصارى مجهول جداً والذي يتحصل منه أنهم أثبتوا ذاتاً موصوفة بصفات ثلاثة . الا انهم وان سموها صفات فهي في الحقيقة ذوات قائمة بأنفسها : فلهذا المعنى قال : « ولا تقولوا ثلاثة انتهوا » . فأما ان حملنا الثلاثة على انهم يثبتون صفات ثلاثة فهذا لا يمكن انكاره وكيف لا نقول ذلك وإنما نقول : هو الله الملك القدوس السلام العالم الحي القادر المريد . ونفهم من كل واحد من هذه الألفاظ غير ما نفهمه من اللفظ الآخر . ولا معنى لتعدد الصفات الا ذلك . فلو كان القول بتعدد الصفات كفر لزم رد جميع القرآن ولزم رد العقل من حيث اتنا نعلم بالضرورة ان المفهوم من كونه تعالى عالماً غير المفهوم من كونه حياً » - نقول هذا هو مذهب النصارى في التثليث بتثبيت صفات العلم والحياة في الله وتمييزهما ، فكيف يناقض الرازي ذاته ويقول : انه محض كفر وبالجملة فلا نرى مذهباً في الدنيا أشد ركاكة وبعداً عن العقل من مذهب النصارى ! - يأتي توهمه وشبهات غيره من قول بعض جهال الحجاز « الهين من دون الله » كما في سورة المائدة ، وهذا القول ما كان قط ليكون قول النصارى .

١٧١ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله - ولا
الملائكة المقربون - ومن يستنكف عن عبادته
ويستكبر، فسَيَحْشُرُهُم إِلَيْهِ جَمِيعاً .

١٧٢ فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجرهم،
ويزيدهم من فضله . وأمّا الذين استنكفوا واستكبروا

(الثاني) آلهتنا ثلاثة كما قال الزجاج مستشهداً بآية المائدة .

(الثالث) قال الفراء: « هم ثلاثة » كقوله سيقولون ثلاثة وذلك لأن ذكر
عيسى ومريم مع الله بهذه العبارة يوم كونها إلهين .

(٧) « له ما في السموات وما في الارض » خلقاً وملكاً وعبداً : والملكية
تنافي الألوهية (الجلالان) لا يماثله شيء من ذلك فيتخذ ولدأ (البيضاوي) .
« انما الله إله واحد » اي واحد بالذات لا تعدد فيه بوجه ما (البيضاوي) .

آية ١٧١ - « لن يستنكف المسيح » لن يتكبر ويأنف (بالاجماع) ؛ قيل:
قال النصارى لمحمد لم تعيب صاحبنا فتقول انه عبدالله؟ قال انه ليس بعباد
ان يكون عبداً لله ؛ قالوا بلى ! فنزلت . « ولا الملائكة المقربون » استطراد
وهذا من احسن الاستطراد ذكر للرد على من زعم أنها آلهة أو بينات الله
(الجلالان) ؛ وقال الزمخشري « أي ولا من هو اعلى منه قدراً وأعظم منه
خطراً وهم الملائكة الكروبيون . . . وذلك ان الناس انما سبق لرد مذهب
النصارى . أجابوا ينتج من هذا القول ان الملائكة افضل من المسيح ومحمد!
قال البيضاوي « لا يستلزم فضل احد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاع فيه،
ونقول انه عطف الملائكة على المسيح بالواو وهي لا تقتضي ترتيباً .
والاستشهاد على ان الثاني يكون ابدأ أعلى رتبة من الاول فعارض بأمثلة
لا تقتضي ذلك .

فيعذبهم عذاباً أليماً . ولا يجدون لهم من دون الله ولياً
ولا نصيراً .

في هذا النص الجوهري يحذّر القرآن النصارى من « الغلو » في تعظيم المسيح
وتكريمه - مستطرداً الى تعظيم الملائكة المقربين - ولكن لا يسمي هذا
الغلو شركاً أو كفراً .

ويعطي عن عيسى ابن مريم هذا التعريف الجميل : انه مسيح الله ! ورسول
الله ! وكلمة الله ! وروح الله ! وهذه الالقاب لا يصف بها احداً من الانبياء
وسائر المخلوقين .

ويقول هنا انه كلمة الله وفي آل عمران « كلمة منه » تعالى . ويقول هنا
ايضاً « روح منه » تعالى . فالمسيح كلمة الله وكلمة من الله . وروح الله وروح
منه تعالى . والتعبير « من » يعني المصدر الذي صدر منه المسيح بدون واسطة
مخلوقة أياً كانت كما يقول البيضاوي . وفي ترادف اللقبين « كلمة وروح » تفسر
لهما وتعريف بها .

ولكن هذه النعوت السامية لا تجعل المسيح « ولداً » لله فإنما الله اله واحد
سبحانه ان يكون له ولد بل كل ما في السماوات والارض ملك له وعبيد . وكفى
بالله وكيلاً في تدبير خلقه شاهداً على توحيده فلا تقولوا : « انهم ثلاثة » اي
الله والمسيح ومريم متوهمين وموهمين « ان المسيح ومريم إلهان من دون
الله » . لا يُستنتج من هذا النص انه يعني حتماً تثليث الله او تثليث الآلهة :
وسياتي ذلك في سورة المائدة .

لاحظ ان الخطاب في القرآن لأهل الكتاب من يهود الحجاز ونصارى
الحجاز لا يتعداهم الى سواهم . فإن أتهمهم القرآن بتفريط أو بإفراط فهذا لا
يعني سواهم من يهود العالم ونصارى العالم . فلا يجوز منا التعميم حيث قصد
القرآن التخصيص .

النص الثاني عشر : سورة الحديد ٢٥ - ٢٩

في القسم الأخير من سورة الحديد^١ موجز لرسالة الانبياء وموقف محمد من اليهود (٢٦) والنصارى (٢٧) ويوجه الدعوة الى النصارى خصيصاً للايمان بمحمد (٢٨ و ٢٩) .

اولاً: عيسى خاتمة المرسلين، فقد اختص أتباعه بالرافة والرحمة والرهبانية (٢٥ - ٢٧) .

٢٥ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد

آية ٢٥ - «لقد أرسلنا رسلنا» اي الملائكة الى الانبياء أو الانبياء الى الامم - وهذا أفضل - بالبينات بالحجج والمعجزات . «وأنزلنا معهم الكتاب والميزان» ليستوي به الحقوق ويقام به العدل كما قال ليقوم الناس بالقسط (البيضاوي) الميزان : العدل (الجلالان) وعن الزمخشري : آلة الوزن . «وأنزلنا الحديد» خلقناه . (بالغيب) غائباً عنهم . وعن ابن عباس ينصرونه ولا يبصرونه . «وليعلم الله» باستعمال اسلحة الحديد من ينصره ورسله (البيضاوي) .

(١) سورة الحديد مختلف عليها هل هي مكية ام مدنية؛ قال الجلالان : مدنية . والزمخشري ، مكية . والبيضاوي : مدنية وقيل مكية . ونحن نجزم بأنها مدنية لأنه يوجه الدعوة صريحاً الى اهل الكتاب ليؤمنوا به وهذا لم يفعله في مكة فقد كان واحداً معهم - ويهاجم المنافقين ولم يكن في مكة منافقون .

ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب
ان الله قوي عزيز .

٢٦ ولقد أرسلنا نوحاً و ابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة
والكتاب : فمنهم مهتدٍ وكثير منهم فاسقون .

٢٧ ثم قفينا على آثارهم برسلنا، وقفينا بعيسى ابن مريم
وآتيناه الانجيل .

آية ٢٦ - « وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب، يعني الكتب الاربعة
التوراة والانجيل والزبور والفرقان فانها في ذرية ابراهيم (الجلالان)، « بات
استنبأناهم واوحينا اليهم الكتب . وقيل المراد بالكتاب الخط، (ابن عباس
والبيضاوي) . « الكتاب » الوحي وهكذا فقد حصر في هذه الآية النبوة في
ذرية ابراهيم .

آية ٢٧ - « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم، اي ارسلنا
رسولاً بعد رسول حتى انتهى الى عيسى » (البيضاوي) « ورهبانية » الفعلة
المنسوبة الى الرهبان وهو الخائف، فعلان من رهب، كخشيان من
خشي . وقريء رهبانية بالضم كأنها نسبة الى الرهبان وهو جمع راهب
كراكب وركبان . وانتصابها بفعل مضر يفسر الظاهر تقديره وابتدعوا
ويجوز ان تكون معطوفة على ما قبلها وابتدعوها صفة، (الزمخشري
والبيضاوي) . ومعناها « ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين مخلصين
انفسهم للعبادة » (الزمخشري) ؛ هي رفض النساء واتخاذ الصوامع (الجلالان) ؛
وهي المبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس (البيضاوي) .

« ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا . . . » فيه تناقض ظاهري : ما كان
مكتوباً لو يكون مبتدعاً من عند انفسهم (الجلالان) وقال البيضاوي :

وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، ورهبانيةً
ابتدعوها، ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله،
فما رعوها حق رعايتها .

فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثير منهم فاسقون .
في هذا المقطع لمحة خاطفة عن تاريخ الوحي وعن النتائج التي وصل اليها
عند اهل الكتاب في زمانه : لقد ارسل الله الأنبياء من ذرية نوح و ابراهيم،
حصراً . وايدم بالبيّنات، بالحجج والمعجزات . وأنزل معهم الوحي والعدل
أي الحقيقة والعدالة . ونصرهم بأسلحة الحديد ليعلم بها من انصاره . وهذه
السلسلة النبوية من الذرية المصطفاة تبدأ من نوح و ابراهيم وتنتهي بعيسى :
« ارسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى الى عيسى » (البيضاوي) : فعيسى
خاتمة المرسلين .

وامتازت رسالة عيسى، ليس فقط بأنها الخاتمة، بل في طابعها الانساني
الرحماني : « وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » . ومن خصائص اتباع
عيسى : الرهبانية . قد تكون مكتوبة عليهم من عيسى وقد تكون مبتدعة
من عند انفسهم، لا يجزم القرآن بذلك . ويلاحظ الفتور الخيم في زمانه
وبلاده على تلك المؤسسة النصرانية : « فما رعوها حق رعايتها » . ثم يخرج
بنتيجة مرّة عن أهل الكتاب من اليهود (٢٦) والنصارى (٢٧) : فمنهم مهتد،
عامل بإيمانه، مثاب عليه، وكثير منهم فاسقون . والفسق ليس الضلال في
الدين بل الطلاح في العمل . لذلك يوجه الدعوة الى اهل الكتاب ليجددوا به
إيمانهم .

« إلا ابتغاء » استثناء منقطع اي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله .
وقيل متصل بمعنى ما تعبدناهم بها الا وهو يخالف قوله ابتدعوها، الا ان يقال
ابتدعوها ثم ندبوا اليها .

ثانياً : دعوة خاصة بالنصارى ليؤمنوا بحمد ويتعاونوا معه (٢٨ و ٢٩)

٢٨ يا أيها الذين آمنوا : اتقوا الله وآمنوا برسوله يُؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ، ويغفر لكم . والله غفور رحيم .

٢٩ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرّون على شيء من فضل الله .

وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

هذه السورة من منتصف العهد بالمدينة، وقد وقعت الواقعة النهائية، بعد واقعة الخلف وتخرّب اليهود مع مشركي العرب على محمد، بين محمد واليهود؛ فالتفت النبي الى النصارى ليستميلهم اليه . ويعدّهم بنصيبين من رحمته لايمانهم

آية ٢٨ – الخطاب لمن ؟ – انه للذين آمنوا بعيسى (الجلالان) او بالرسول المتقدمة . وقيل الخطاب للنصارى الذين كانوا في عصره (البيضاوي) ولا يُبعد ان يثابوا على دينهم السابق وان كان منسوخاً ببركة الاسلام (البيضاوي) . وروى الزمخشري انه لما سمع من لم يؤمن بحمد من اهل الكتاب قوله للمسلمين منهم « يؤتون اجرهم مرتين » فخرّوا على المسلمين وقالوا آما من آمن بكتابكم وكتابنا فله اجره مرتين واما من لم يؤمن بكتابكم فله اجر كأجركم فما فضلكم علينا .

آية ٢٩ – لئلا يعلم : لا زائدة أي ليعلم يؤيده قراءة ليعلم ولكي يعلم ولأن يعلم . وقيل لا غير مزيدة اي لئلا يعتقد (البيضاوي) .

بالانجيل ثم بالقرآن اذا قبلوه ؛ وبالنور، والمغفرة على ما سبق لهم من فسق .
يدعوهم الى الايمان برسول الله الجديد لتحطيم اليهود المتآمرين عليه فيعلموا انهم
لا يقدرّون على شيء من فضل الله . ويعلموا انّ النبوة والملك بيد الله يؤتيهما
مَنْ يشاء... .

(١) يظهر من الآية ٢٨ ان للكتابي (خاصة المسيحي) أجراً كأجر المسلم في الثواب،
وان للكتابي المسلم أجرين عند الله وكفيلين من رحمته اذ « يؤتون اجرهم مرتين » .

النص الثالث عشر : سورة التحريم ١٢

قد مرّ بنا تفسيره فنكتفي بذكره . في آخر سورة التحريم التي نزلت في نساء النبي ، يضرب القرآن لمن مثل النساء الفاسقات امرأة نوح وامرأة لوط ، ليهربن منه ؛ ومثل النساء التقيات ليقندين به كامرأة فرعون ، ومريم بنت عمران :

١٢ ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه (أو فيها) من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .

والمعنى ان مريم صدقت بمواعيد الله وكتبه المقدسة التي نحوها . وهناك قراءة اخرى :

١٢ ومريم ابنت عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وصدقت بكلمة الله وكتابه .

قرأ ابن مسعود « فيها » كما قرئ في سورة الأنبياء ، أي في « مريم » . والمعنى ان مريم صدقت برسالة عيسى وانجيله (بالاجماع) .

النص الرابع عشر : سورة الصف ٦-١٤

جاء في اسباب نزول سورة الصف عن مقاتل أنها نزلت في توليهم يوم أُحُد (السيوطي والبيضاوي) . قالوا : لو كنا نعلم اي الاعمال أحب الى الله وفضل ، فنزلت « يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة » (١٠) فكرهوا الجهاد فنزلت لم تقولون ما لا تفعلون » (٢) وهكذا يكون القسم الثاني (١٠-١٤) متقدماً في النزول على القسم الاول (١-٤) . والقسم الوسط (٥-٧) مزيداً على السورة من زمن آخر، ولو كان في مثل موسى وعيسى من التأسي لمحمد ما فيه .

الاول : التجارة الواجبة هي نصره الله كما نصره الحواريون (١٠-١٤)

١٠ يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ . . .

١٤ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من انصاري الى الله ؟ قال الحواريون : نحن انصار الله ا فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة . فأيدنا الذين آمنوا (بالله وعيسى) على عدوهم فأصبحوا ظاهرين .

(١) الصف : جعلها الرخشي مكينة، والجلالان مدنية، والبيضاوي مدنية ما وقيل مكينة . - وعندنا أنها مدنية لأنها تحرّض على الجهاد، وشريعة الجهاد لم تنزل الا في المدينة وكانت كرازته في مكة « بالحكمة والموعظة الحسنة » ونعجب كيف فاتهم ذلك .

سألوا النبي : اي الاعمال احب الى الله وافضل ؟ قال الايمان والجهاد، تلك هي التجارة الراجحة . ويعطيهم قدوة على نصرته الله الراجحة مثل الحواريين الذين لبوا دعوة المسيح في الحال فنصرهم الله على عدوهم .

ويشهد القرآن بفوز النصارى على اليهود في ايامه ؛ ويعطي السبب في ذلك النصر : « لقد أيد الله الذين آمنوا بالله وعيسى على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » . يلتقي هنا القرآن بالانجيل في جعل خراب اليهود ناتجاً عن كفرهم بالمسيح .

ثانياً : تسلية النبي بمثل موسى وعيسى

٢ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟

٥ واذا قال موسى : يا قوم لم تؤذوني وانتم تعلمون اني رسول الله اليكم . . .

٦ واذا قال عيسى ابن مريم : يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم ، مصداقاً لما بين يدي من التوراة - ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد - فلما جاءهم بالبينات ، قالوا : هذا سحر مبين (او ساحر ميين) .

في هذا النص امران : تسلية محمد عن واقعة فاشلة (أحد او غيرها) وعن

آية ٦ - « يا بني اسرائيل » ولعله لم يقل « يا قوم » مثل موسى لانه لا نسب له فيهم (البيضاوي) لا نسب من حيث الأب . ويعني قوله « ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً من تقدم وتأخر » (الزنجشيري) . « فلما جاءهم » الفاعل احمد او عيسى ؟ « اسمه أحمد » يعني محمداً (البيضاوي) .

تخاذل قومه ، وعن نخوانهم الفارغة ، بمثل موسى اذ خذله قومه بعد ما جاءهم بالبينات في اقواله واعماله ؛ وبمثل عيسى الذي صدق التوراة التي حكم بها الانبياء الاولون، واظهر من البينات ما فاق اسلافه فقالوا ساحر يأتي بالسحر !

وهنا ينسب القرآن الى المسيح نبوة « برسول يأتي من بعده اسمه احمد » . هذه النبوة صورة ثانية لنبوة التوراة والانجيل عن « النبي الاتمي » (اعراف ١٥٧) يقولون إن القرآن قصد بالنبي الاتمي « النبي » الذي تكلم عنه موسى في توراته ، و« بأحمد » روح القدس الفارقليطس الذي ذكره انجيل يوحنا .

نلاحظ انه وان كان احمد ومحمد من أصل واحد، فالصيغة ليست واحدة وليس الاسم واحداً وهذا النص هو الموضع الوحيد في القرآن الذي يرد فيه اسم النبي العربي بهذه الصيغة . وتظهر الزيادة على الآية في هذا المقطع فلو حُذِفَ لما اختلف المبنى والمعنى، ولانسجبت الآية اكثر فاكثر .

ويليه حملة على الظالمين (٧) الكافرين (٨) من المشركين (٩) الذين يرفضون دعوة الاسلام .

النص الخامس عشر : سورة المائدة (متفرقات)

نظن مع المصحف الأميري أن سورة المائدة في مجملها من آخر عهد النبي العربي في المدينة - ولو كان فيها آيات من أوقات سابقة - وسورة المائدة مع آل عمران تجمعان موقف القرآن من المسيح .

اولاً : لقد نسي أهل الكتاب ميثاقهم (١٧ - ٣٠)

يفتتح السورة بحملة على اليهود (١٣) والنصارى (١٥) لأنهم نقضوا الميثاق الذي عقده الله معهم بالايمان بالنبي الآتي . فليسوا بعد أبناء الله وأحباءه كما يدعون (٢٠) . ويعرض نفسه عليهم (١٦) ويخصهم ايضاً برسالته (٢١) «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير : فقد جاءكم بشير ونذير» . ومدة الفترة ٥٦٩ سنة (الجلالان) .

في هذا المقطع آية مستقلة، عن المسيح (١٩) نظنها مزيدة، كورت هنا، وموضعها في (٧٥) .

١٩ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ا -
 قل : فمن يملك من الله شيئاً ان أراد ان يهلك المسيح
 ابن مريم وأمه ومن في الارض جميعاً . والله ملك
 السماوات والارض وما بينهما، يخلق ما يشاء ؛ والله على
 كل شيء قدير .

قال الجلالان : لقد كفروا وقد جعلوه إلهاً، وهم اليعاقبة فرقة من النصارى.

وقال البيضاوي : هم الذين قالوا بالاتحاد منهم . وقيل : لم يصريح به احد منهم !
ولكن لما زعموا ان فيه لاهوتاً، وقالوا لا إله الا واحد، لزمهم ان يكون
هو المسيح، فنسب اليهم لازم قولهم . وقال الزمخشري : معناه بتّ القول
على ان حقيقة الله هو المسيح لا غير . قيل كان في النصارى قوم يقولون ذلك .
وقيل ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدّي اليه حيث اعتقدوا أنه يخلق ويجي
ويعت ويدبّر أمر العالم . وكذلك الرازي .

ثانياً : لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً (٤٤ - ٥٤) : الاستقلال
في الشريعة .

جاء في اسباب نزول هذه الآيات أنه زنى من أهل خيبر محصنان فكرهوا
رجمها، على حد التوراة، مفسّرين الرجم بالجلد، فبعثوا الى بني قريظة من يهود
المدينة أن يسألوا محمداً في ذلك . فأفتاهم بالرجم، وأنهم يحرفون كليم التوراة
عن معانيه التي وُضع فيها . وخيّر النبي في التحكيم بينهم « فاحكم بينهم أو
أعرض عنهم » (٤٥) لأن عند اليهود التوراة فيها حكم الله (٤٦) فتكفيهم،
وعند النصارى الانجيل فيه حكم الله (٥٠) وهو يكفيهم، ولأن الله جعل
لكل أمة من أمم الكتاب الثلاث شرعةً ومنهاجاً خاصاً بها .

٤٥ . . . فإن جاؤك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم فلن

آية ٤٥ - « فاحكم بينهم أو اعرض عنهم » قال البيضاوي : « تخيير
لرسول الله اذا تحاكموا لديه بين الحكم والاعراض . ولهذا قيل لو تحاكم
كتائبان الى القاضي لم يجب عليه الحكم وهو قول للشافعي . والاصح وجوبه

(١) قال الجلالان : هذا التخيير في الحكم بينهم (٤٥) منسوخ بقوله : « وأن أحكم
بينهم » (٥٢) - فتأمل ! ونقول ان الآية ٥٢ لا تنسخ (٤٥) لأنها مكررة عن (٥) التي
تأمر بالحكم أي بما فيه كتابهم لأنه بعدها يعلن بأنه لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً .

يضرُّوك شيئاً ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ،
ان الله يحب المقسطين .

٤٦ وكيف يحكمونك . وعندهم التوراة فيها حكم الله ا
ثم يقولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين .

٤٧ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون
الذين اسلموا ، والرَّبَّانيون والاحبار بما استُحفظوا من

اذا كان المترافعان أو أحدهما ذمياً لأننا التزمنا الذب عنهم ودفع الظلم عنهم ،
والآية ليست في هل الذمة . وعند ابي حنيفة يجب مطلقاً .

وقال الزمخشري : « قيل كان رسول الله (ص) مخيراً اذا نحاكم اليه أهل
الكتاب بين ان يحكم وبين ان لا يحكم . وعن عطاء والنخعي والشعبي أنهم
اذا ارتفعوا الى احكام المسلمين : فإن شاؤوا حكموا وإن شاؤوا اعرضوا .
وقيل هو منسوخ بقوله « وان احكم بينهم بما أنزل الله » . وعند ابي حنيفة إن
اجتكموا اليئسا حملهوا على حكم الاسلام . وان زنى رجل منهم بمسلمة او
سرق من مسلم شيئاً أُقيم عليه الحد . وأما أهل الحجاز فإنهم لا يرون إقامة
الحدود عليهم يذهبون الى انهم قد صلحوا على شركهم وهو اعظم من
الحدود . »

آية ٤٦ - « وكيف يحكمونك » تعجيب من تحكيمهم النبي الذي
لا يؤمنون به وبكتابه مع ان الحكم منصوص في كتابهم . « فيها حكم الله »
جملة مبيّنة لأن عندهم ما يفنيهم عن التحكيم . (الزمخشري والبيضاوي) .

آية ٤٧ - « النبيون الذين اسلموا » يُستدل منها ان ملة الاسلام هي دين
الانبياء كلهم في القديم والحديث (الزمخشري) ؛ يعني انبياء بني اسرائيل او

كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، - فلا تخشوا الناس
واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً - ومن لم يحكم
بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

٤٨ ... ومن لم يحكم بما أنزل الله في (التوراة) فأولئك
هم الكافرون .

٤٩ وقفينا على آثارهم (الانبياء الذين اسلموا) بعيسى ابن
مريم مصداقاً لما بين يديه (قبله) من التوراة ، وآتيناه
الانجيل فيه هدى ونور ، ومصداقاً لما بين يديه من
التوراة وهدى وموعظة للمتقين .

موسى وامن بعده إن قلنا : شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يُنسخ ، وبهذه الآية
تمسك القائل به (البيضاوي) .

« بما استحفظوا من كتاب الله ، بسبب أمر الله زهادهم وعلماءهم بأن يحفظوا
كتابه من التضييع والتحرير ، البيضاوي والرازي على هذا الرأي فيما يتعلق
بأصول الدين والاحكام الشرعية لان الآية نزلت في مسألة الرجم .

« وكانوا عليه شهداء ، اي هؤلاء النبيون والربانيون والاحبار كانوا
شهداء على ان كل ما في التوراة حق وصدق ومن عند الله فلا جرم انهم كانوا
يمضون احكام التوراة ويحفظونها عن التحريف والتغيير (الرازي) - فكيف
يجوز بعد ذلك اتهامهم بالتحريف !!

٥٠. وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأوئك هم الفاسقون.

٥١. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيماً عليه. فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق. لكل جعلنا منكم

آية ٥٠ - «وليتحكم أهل الانجيل» بلفظ الأمر. وقرئ «وليتحكم» وقرئ «وأن ليتحكم» بزيادة ان مع الامر - «قيل ان عيسى كان متعبداً بما في التوراة من الاحكام لان الانجيل مواعظ وزواجر والاحكام فيه قليلة. وظاهر قوله «وليتحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه» يرد ذلك، وكذلك قوله «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً» (الزمخشري). «والآية تدل على ان الانجيل مشتمل على الاحكام... وان عيسى كان مستقلاً بالشرع» (البيضاوي). و«كيف جاز ان يؤمروا بالحكم بما في الانجيل بعد نزول القرآن؟ فالجواب عنه من وجوه ١ ان يؤمروا بالحكم بالدلائل الدالة على نبوة محمد؛ ٢ بما أنزل الله فيه مما لم يصر منسوخاً بالقرآن؛ ٣ المراد زجرهم عن تحريف ما في الانجيل وتغييره» (الرازي) - ونقول ليس في الثلاثة من جواب. بل الجواب الوحيد هو انه جاز ووجب ان يؤمروا بالحكم بما في الانجيل بعد نزول القرآن لان القرآن اقر كل امة من أهل الكتاب على شريعتها.

آية ٥١ - «ومهيماً عليه» شاهداً له (الجلالان) رقيباً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات (البيضاوي والزمخشري)؛ وقرئ «مهيماً عليه» بفتح الميم اي مؤمناً عليه، فقد مؤمن عليه بان حفظ من التغيير والتبديل (الزمخشري)؛ اي رقيباً عليه شاهداً له حافظاً أميناً عليه (الرازي). «لكل جعلنا منكم» ايها الناس، ايها الامم الثلاث (بالاجماع) «شرعة

شريعة ومنهاجاً : ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .
ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات . الى الله
مرجعكم جميعاً فينبشكم بما كنتم فيه تختلفون .

٥٢ - ٥٣ وأن احكم بينهم بما أنزل الله . . . أفحكم الجاهلية
يبغون ، ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

في هذا النص الاساسي النهائي القول القاطع على اتحاد اليهود والنصارى
والمسلمين على التوحيد في الدين ، واستقلال كل ملة منهم بشريعة كتابها ، وأن
شريعة كل كتاب من الثلاثة ملزمة لأهلها دون سواهم : « لكل جعلنا منكم
شريعة ومنهاجاً » . قال الرازي : « الخطاب للامم الثلاث امة موسى وامة عيسى
وامة محمد عليهم السلام بدليل ان ذكر هؤلاء الثلاثة قد تقدم في قوله : إنا
انزلنا التوراة فيها هدى ونور (٤٧) ، ثم قال : وقفينا على آثارهم بعيسى بن
مريم (٤٩) ؛ وقال : وانزلنا اليك الكتاب (٥١) ؛ ثم قال : لكل جعلنا منكم
شريعة ومنهاجاً ، يعني شرائع مختلفة : للتوراة شريعة وللانجيل شريعة وللقرآن
شريعة . واختلاف الشرائع الثلاث واستقلالها من ارادة الله للتنافس في
الخيرات : « ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة » متفقة على شريعة واحدة ودين
واحد لا اختلاف فيه .

ومنهاجاً ، بفتح الشين وكسرها اي شريعة : فالشريعة اول والطريقة آخرة ؛
قال المبرد : الشريعة ابتداء الطريقة والطريقة المنهاج المستمر . واحتج اكثر
العلماء بهذه الآية على ان شرعاً من قبلنا لا يلزم المسلمين لان قوله « لكل جعلنا
منكم شريعة ومنهاجاً » يدل على انه يجب ان يكون كل رسول مستقلاً بشريعة
خاصة وذلك ينفي كون امة احد الرسل مكلفة بشريعة الرسول الآخر ،
(الرازي بالاجماع) .

من هذا المبدأ يتفرع امرُ القرآن الى اهل التوراة ان يحكموا بما انزل الله فيها لأن فيها حكم الله (٤٧) ، وأمره الى اهل الانجيل ان يحكموا بما انزل الله فيه (٥٠) ، وذلك زمن النبي وبعد نزول القرآن : فنزول القرآن اذن لا يغير شيئاً من حقيقة الانجيل والتوراة ولا من شريعتها .

لذلك يجب على اهل القرآن ان يحترموا شريعة اهل الكتاب ، واستقلالها ، ولا يُخضعوهم لأحكام القرآن والاسلام كما زعم الفقهاء ايام الاستبداد والطفيان ، منحرفين عن النهج القويم الذي استنته القرآن لمحمد وامته . فالنبي كان مخيراً في الحكم والتحكيم ما بين اهل الكتاب ، لا مجبراً عليه (٤٥) واذا حكم بينهم فليحكم بما انزل الله في كتابهم (٥١ و ٥٢) كما يدل منطق تسلسل الآيات واستقلال الشرائع الثلاث . وقول بعضهم بأن ذلك التخيير نُسَخَ في الحال بقوله « فاحكم بينهم بما انزل الله » (٥١) غير وارد لان هذا الأمر يتبعه كما قلنا مبدأ استقلال الشرائع .

وقال الرازي : « وانه وصف الانجيل بصفات خمس فقال : فيه هدى للحق ، ونور للاحكام ، وتصديق للتوراة ، وهدى وموعظة للمتقين : فليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه » . فهدى الانجيل ونوره وحكمه وموعظته باقية مع القرآن وبعده .

وقال الرازي ايضاً : « واذا كان القرآن مهيمناً على الكتاب كانت شهادة القرآن على ان التوراة والانجيل والزبور حق وصدق باقية ابدأ . فكانت حقيقة هذه الكتب معلومة ابدأ » (الرازي) .

ثالثاً : القرآن يدعو اهل الكتاب الى « إقامة » التوراة والانجيل
(٦٢ - ٧٣) .

إنه لَفِسِقٌ من أهل الكتاب مقاومة المسلمين وهم مثلهم في الايمان بالله . فلو أقاموا التوراة والانجيل وعملوا بأحكامها لا كلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . لأن الاصل في الأديان كلها الايمان بالله واليوم الآخر :

٦٢ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا ان آمنا بالله
وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل . وان أكثركم
فاسقون . . .

٦٩ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل ، وما أنزل إليهم من
ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . منهم أمة
مقتصدة ! وكثير منهم ساء ما يعملون . . .

٧١ قل يا أهل الكتاب : لستم على شيء حتى تقيموا
التوراة والانجيل ، وما أنزل إليكم من ربكم . ولتزيدن
كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً :
فلا تأس على القوم الكافرين .

٧٢ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى :

آية ٦٩ - أمّا «التوراة» عملوا بما فيها (الجلالان) بإذاعة ما فيها من
نعت محمد، والقيام بأحكامها (البيضاوي) .

آية ٧١ - «لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل» : المراد اقامة
اصولها وما لم يُنسخ من فروعها (البيضاوي) ؛ لستم على شيء من الدين معتدّ
به حتى تعملوا بما في التوراة والانجيل (الجلالان) - نقول : المعنى انه لا
فائدة من الايمان بلا عمل .

آية ٧٢ - «الصابئون» رُفِعَ على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير
عما في حيز إن كما قال الخليل وسيبويه . . . وفي قراءة ابي وابن مسعود وابن
كثير «الصابئين» بالنصب . وقرئ الصابون والصابيون (الزمخشري
والرازي) . وللنحويين في علة القراءة المشهورة وجوه .

من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

يدعو القرآن أهل الكتاب إلى العمل بما في التوراة والانجيل ومنه حسب رأيه الإيمان بالنبي العربي . وفي هذه الدعوة اعتراف منه بصحة الكتابين اللذين في زمانه ، واقرار على دوام إلزامهما لأهلها . وان العمل بما في التوراة والانجيل لباب سعادة على الارض ، يوسع الله عليهم الرزق ويفيض من كل جهة ، ويعطيهم بركات السماء والارض ، وباب سعادة في جنات النعيم : فلهم خير الدارين .

ويختم بقوله : ان المسلمين واليهود والصابئين (فئة من اليهود المنتصرين) والنصارى سواء في الإيمان الواحد بالله واليوم الآخر (مائدة ٧٢) كما أكد ذلك من قبل في سورة البقرة (٦٢) .

رابعاً : مهاجمة بعض نصارى الحجاز على كفورم (٧٥ - ٨٠)

٧٥ لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم ا وقال المسيح : يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ا

آية ٧٥ - « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، تكررت في الآية ١٩ : « هم اليعقوبية ، فرقة من النصارى ، (الجلالان) . وشرع هنا في الكلام مع النصارى فحكى عن فريق منهم انهم قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم ، وهذا هو قول اليعقوبية لانهم يقولون : ان مريم ولدت الها . ولعل معنى هذا المذهب انهم يقولون : ان الله تعالى حل في ذات عيسى وانحد بذات عيسى . ثم حكى عن المسيح انه قال « يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، وهذا تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى لأنه لم يفرق بين

انه من يُشركُ بالله، فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه
النار. وما للظالمين من انصارا

٧٦ لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ! وما من
إله إلا إله واحد .

وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم
عذاب أليم .

نفسه وبين غيره في ان دلائل الحدوث ظاهرة عليه « (الرازي) ؛ « هم الذين
قالوا بالاتحاد منهم . وقيل لم يصرح به أحد منهم بل حكى لسان حالهم ،
(البيضاوي) .

وعندنا أنها مقالة البيقوبية لأنه يدحضها بمقالة النسطورية التي كانت شائعة في
كنائسهم ، نقلًا عن المسيح : « الله ربي وربكم » (مائدة ٧٥) « إني صاعد الى
ابي و ابيكم الى ابي وإلهكم » (يوحنا ٢٠ : ١٧) . ولكن هذه المقالة لا يفهم منها
ما فهمه المفسرون « ان الله تعالى حلَّ في ذات عيسى واتحد بذات عيسى » بل
ليس لعيسى ذات غير ذات كلمة الله : فليس هناك ذاتان بل ذات واحدة
تجسدت اي تدرجت بجسد ؛ وهذا القول بعيد كل البعد عن مذهب الحلول
والحلولية ، ومذهب الاتحاد بين ذات خالقة وذات مخلوقة .

آية ٧٦ - « لقد كفر الذين قالوا : « ان الله ثالث ثلاثة » . وهذا على زعمنا
ككفر ايضاً لمقالة الملكانية كما كان يُتهمهم بها النسطورية : ليس الله ثالث ثلاثة :
الآب والابن والروح القدس ، فالابن والروح ليسا بإلهين من دون الله حتى
يكون الله ثالثهما . وحكى القرآن صورة اخرى عن تهمة الثلاثة انهم الله
والمسيح ومريم (مائدة ٧٨ و ١١٩) وهذه إما كانت تهمة من نساطرة العرب
ضد خصومهم ، واما مقالة من بعض نصارى العرب الجهال حكاهم القرآن عليهم .

٧٧ أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه ؟ والله غفور رحيم .

٧٨ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل

قال الرازي : « في تفسير قول النصارى « ثالث ثلاثة » طريقان :
 ١ قول بعض المفسرين وهو انهم ارادوا بذلك ان الله ومريم وعيسى « آلهة
 ثلاثة » والذي يؤكد ذلك قوله : « أنت قلت للناس اتخذوني وامى الهين من
 دون الله » (١١٩) ، فقوله ثالث ثلاثة اي أحد ثلاثة آلهة أو واحد من ثلاثة
 آلهة ، والدليل ان المراد قوله في الرد عليهم « وما من إله الا واحد » ٢ ان
 المتكلمين حكوا عن النصارى انهم يقولون : جوهر واحد ، ثلاثة اقانيم اب
 وابن وروح القدس ، وهذه الثلاثة اله واحد كما ان الشمس اسم يتناول القرص
 والشعاع والحرارة ؛ وعنوا بالآب الذات وبالابن الكلمة وبالروح الحياة وأثبتوا
 الذات والكلمة والحياة وقالوا : ان الكلمة - التي هي كلام الله ، (كلاً !)
 اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمير واختلاط الماء باللبن (الاتحاد لا يعني
 الاختلاط المستحيل !) وقالوا إن الأب اله والابن اله والروح اله والكل اله
 واحد . ويعقب عليه بقوله : « ان هذا معلوم البطلان ببديهية العقل فإن
 الثلاثة لا تكون واحداً والواحد لا يكون ثلاثة !! - ونقول من حيث
 الجوهر ، بلى ! ومن حيث الخواص والصفات ، كلاً ! يوحّدون جوهر الله
 ويثلاثون خواصه الذاتية وهذا ليس جعل الثلاثة واحداً « حتى لا يرى في
 الدنيا مقالة اشد فساداً واظهر بطلاناً من مقالة النصارى » !!

آية ٧٨ - تقويم للاعتقاد اللازم بالمسيح وامه . وبعد ان اورد برهان
 النقل في (٧٥) اورد هنا برهان العقل على استحالة الهية المسيح وامه « كانا
 يأكلان الطعام » : المقصود من ذلك الاستدلال على فساد قول النصارى من
 رجوه ١ ان كل من كان له ام فقد حدث بعد ان لم يكن وكل من كان
 كذلك كان مخلوقاً لا إلهياً ؛ ٢ انها كانا محتاجين ، لأنها كانا محتاجين الى

وامه صديقة . كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نيين
لهم الآيات ثم أنظر أنى يوثفكون ا

٧٩ قل اتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا
نفعاً ، والله هو السميع العليم .

٨٠ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ،
ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا
كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل .

في هذا المقطع من سورة المائدة يظهر لنا ان القرآن بإيمانه بعيسى وامه
اختار مقالة النسطورية ، وليدة الأريوسية ، التي تسربت الى المدينة من الحيرة
بطريق «العباد» : المسيح إله وابن الله ، بالمجازا لِسُمُو منزلته التي لا يدانيه

الطعام أشد الحاجة والاله هو الذي يكون غنياً عن جميع الاشياء فكيف يعقل
ان يكون الها (الرازي) ؛ «امه صديقة» صدقت بآيات ربها وبكل ما
اخبر عنه ولدها (تحريم ١٢) أو صدقت بكلام جبريل فسميت الصديقة او
لغاية بعدها عن المعاصي وشدة جدتها في العبادة فان الكامل في هذه الصفة
يسمى صديقاً (الرازي) .

آية ٧٩ - هذا دليل قاطع على ان امره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع
ضرراً ولا نفعاً وصفة الرب ان يكون قادراً على كل شيء (الرازي) .

آية ٨٠ - الخطاب لليهود والنصارى (الرازي) وقيل الخطاب للنصارى
خاصة (البيضاوي) .

(١) راجع الرد الجميل للغزالي .

فيها مخلوق؛ ولكن ليس الله المسيح كما تقول اليعقوبية، وليس الله ثالث
ثلاثة: الآب والابن والروح القدس كما تقول الملكانية. - وان فهم بالثلاثة
بعض 'جهال العرب النصارى: الله والمسيح ومريم كما يجكي القرآن عنهم في هذا
النص (٧٧) - او كما كان يتهمهم بذلك النساطرة فنقل القرآن تهتمهم -
فقد وافق القرآن مقالة العباد في المسيح انه كلمة الله وروح الله، ونبذ التعبير
«الله، وابن الله» لما فيه من شبهة على خالص التوحيد، وأكد انه «رسول
فدخلت من قبله الرسل». واما صدّيقة (٧٨) مثل الصديقين والصحابين.

ونقل القرآن براهين النساطرة ضد إلهية المسيح: من النقل على لسان
المسيح «الله ربي وربكم» (مائة ٧٥ ويوحنا ٢٠: ١٧) في خطابه الى مريم
المجدلية. ومن العقل: «كانا يأكلان الطعام» (٧٨) كتابة عن حدوثه وعبارة
عن حاجته الى غيره، والاله منزّه عن كليهما.

ويختم بدعوة النصارى الى نبذ «غلوّهم» في اكرام المسيح وامه: فالكفر
الذي حكاه (٧٥ و٧٦) ليس الا غلوّاً في الدين. وحسب المسيح وامه
ما فضلها به الله من المميزات والكرامات.

خامساً: لعنة اليهود، ومودة النصارى (٨١ - ٩٠)

٨١ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ
وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ

آية ٨١ - «قيل ان اهل ايلة لما اعتدوا في السبت لعنهم داود فسخم الله
فردة. واصحاب المائة لما كفروا دعا عليهم عيسى فاصبحوا خنازير وكانوا
خمسة آلاف» (البيضاوي).

٨٥ لتجدنَّ أشدَّ الناسَ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين
أشركوا .

ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى
ذلك بأنَّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون .

٨٦ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض
من الدمع مما عرفوا من الحق . يقولون : ربنا آمناً
فاكتبنا مع الشاهدين .

٨٧ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع ان
يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين .

آية ٨٥ - «اقربهم مودة» : للذين بجانبهم ورقة قلوبهم وقلة حرصهم على
الدنيا وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل ، (البيضاوي) «علل سهولة مأخذ النصارى
وقرب مودتهم للمسلمين بأن منهم علماء وعباداً ، وأنهم قوم فيهم تواضع
واستكانة ولا كبر فيهم ، واليهود على خلاف ذلك (٨٥) ووصفهم بركة
القلوب وانهم سيكون عند استماع القرآن (٨٦) . وان عداوة اليهود التي
اختصت المؤمنين أشد العداوات واظهرها . وان مودة النصارى التي اختصت
المؤمنين أقرب المودات وادناها وجوداً واسهلها حصولاً (الزمخشري) . -
روي انها نزلت في وفد النجاشي القادمين على محمد من الحبشة (الجلالان) او
في النجاشي واصحابه مما هاجر المسلمون اليهم (البيضاوي) فنقول : ليس الامر
كذلك لأن الكلام عام ولأنه يذكر النصارى الباقين على دينهم لا الذين
اسلموا فالنصارى الذين اسلموا لم يبق منهم قسيسون ورهبان كما يذكر .

آية ٨٧ - «ونطمع» عطف على نؤمن (الجلالان) ومعناه هل يمنع ما جاءنا
من الحق في الانجيل ان نشارك القوم الصالحين في ايمانهم (هذا مما يقوله الزمخشري)

٨٨ فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدن
فيها وذلك جزاء المحسنين .

٨٩ والذين كفروا (الآية ٨١) وكذبوا بآياتنا أولئك
اصحاب الجحيم .

التكفير السابق لا يشمل النصارى كلهم بل «الذين كفروا منهم» (٧٦)
فقالوا «إن الله هو المسيح» (٧٥) بالإحالة والتحوّل، أو «إن الله ثالث ثلاثة»
الله والمسيح ومريم امه (٧٦) يجعل مريم الالهة والثلاثة ثلاثة آلهة . النصارى
لم يقولوا ولا يقولون ذلك على الاطلاق؛ فقد يكون ذلك قد صدر عن بعض
جهال نصارى الحجاز البعيدين عن مرا كز النصرانية الحنيفة؛ ذلك لأن القرآن
بعد أن يحدّد لعنة داود وعيسى ابن مريم على اليهود (٨١) يثبّد بمسودة
النصارى للمسلمين ويمدحهم على صداقتهم لهم، ناسباً ذلك الى رؤسائهم القيسيين
والرهبان (٨٥) . ثم يذكر حسن ايمانهم «ربنا آمننا فاكتمنا مع الشاهدين»
(٨٦) وصدق تقواهم في سماع كلام التوحيد في القرآن «ترى اعينهم تفيض
من الدمع مما عرفوا من الحق» - ويختم بوعدهم بالجنة «فأثابهم الله بما قالوا
جنات تجري من تحتها الأنهار» (٨٨) . قال بعضهم هذا الشاء كان للنصارى
الذين اسلموا وليس للذين بقوا على دينهم! ونقول ان نص الآية ٨٥ يميّز بين
المسلمين «والذين قالوا انا نصارى» بما يدل على انهم بقوا على نصرانيتهم،
ويمدحهم وهم على هذه الحال «لأنهم لا يستكبرون» (٨٥) بينما يلعن اليهود بما
عصوا وكانوا يعتدون (٨١) ويعدهم بالجحيم (٨٩) .

سادساً : استجواب عيسى عن الوهينه في يوم الدين ١١٢ - ١٢٣

يوم يجمع الله الرسل (١١٢) لمحاسبتهم، وبعد ان يذكر عيسى بنعمة الله
عليه وعلى والدته (١١٣) وبمعجزة المائدة التي بسببها آمن الحواريون

به (١١٤ - ١١٨) ، يسأله السؤال الكبير عن الوهيته : هل هو الذي علمها ؟
فينبغيها ويؤكد شهادته للتوحيد (١١٩ - ١٢٠) .

١ المقدمة الأولى لاستجواب المسيح في يوم الدين (١١٢ و ١١٣)

١١٢ يوم يجمع الله الرسل فيقول : ماذا أجبتهم ؟ قالوا : لا
علم لنا إنك انت علام الغيوب .

١١٣ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك
وعلى والدتك :

اذ آيدتكَ بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً
واذ علمتكَ الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ا

آية ١١٢ - مائدة « يوم يجمع الله الرسل في القيامة » (بالاجماع) ؛ « ماذا
أجبتهم ؟ هذا السؤال لتوبيخ قومهم » (البيضاوي) ؛ « لا علم لنا » : تفويضاً
للأمر الى علم سلطانه واتكالا عليه واظهاراً للشكاية وتعظيماً لما حل بهم
منهم . وقيل من هول ذلك اليوم يذهلون عن الجواب « (الزمخشري) ، رأوا
ان الأدب في السكوت وفي تفويض الأمر الى علم الله وعدل الحي القيوم
(الرازي) ؛ وهذه الآية مطلع لمحاسبة المسيح (الزمخشري) .

آية ١١٣ - قال الرازي : « بقوله نعمتي اراد الجمع لأنه مضاف يصلح
للجنس . واعلم ان الله فسّر نعمته عليه بأمرور :

(اولها) قوله « اذ آيدتكَ بروح القدس » اي جبريل ، فالروح هو جبريل ،
والقدس هو الله اضافه الى نفسه تعظيماً له ، او روح عيسى فالله خصه بالروح
الطاهرة النورانية المشرقة العلوية الحية .

واذ تخلق من الطين كهيئة الطير يا ذني فتنفخ فيها
فتكون طيراً يا ذني وتبرئ الأكمة والابرص يا ذني ا
واذ تُخرج الموتى يا ذني ا

واذ كفتُ بني اسرائيل عنك اذ جثتهم بالبينات
فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين .

(وثانيها) قوله « تكلمتم الناس في المهد وكهلاً » من غير ان يتفاوت
كلامه في هذين الوقتين . وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له وما حصلت لاحد
من الانبياء قبله ولا بعده .

(وثالثها) قوله « واذا علمتك الكتاب والحكمة ، والتوراة والانجيل ، :
الكتاب أي الكتابة وهي الخط أو جنس الكتب ، وأما الحكمة فهي عبارة
عن العلوم النظرية والعلوم العملية ؛ وخص التوراة والانجيل بالذكر على سبيل
التشريف او اشارة الى الاسرار التي لا يطلع عليها احد الا اكابر الانبياء . -
وعندنا انها اسماء اسفار من الكتاب كما يسميها اليهود والنصارى وعليه
الزمخشري « خصاً بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة لأن المراد بها
جنس الكتاب والحكمة » .

(ورابعها) قوله « واذا تخلق من الطين كهيئة الطير... » قرأ نافع « طائر »
وطير جمع طائر . انه ذكر هنا « فتنفخ فيها وفي آل عمران « انفخ فيه » : فيها
في الهيئة بحسب المعنى ، وفيه في الطير بحسب الظاهر . وانما أعاد قوله « يا ذني »
تأكيداً لكون ذلك واقعاً بقدره الله وتخليقه لا بقدره عيسى وإيجاده .

(وخامسها) قوله « وتبرئ الأكمة والابرص يا ذني » قال الخليل الأكمة
من ولد اعمى والاعمى من ولد بصيراً ثم عمي .

(وسادسها) قوله « واذا تخرج الموتى يا ذني ، من قبورهم احياء . يا ذني اي

واذ أوحيتُ الى الخواريين : ان آمنوا بي وبرسولي ا

قالوا : آمنا واشهد باننا مسلمون ا

في هذه الآية الفريدة (مائدة ١١٣) يعدد القرآن نِعَمَ الله على عيسى والميزات التي اختص بها دون سواه، والخواص التي رفعته فوق المخلوقين الى مقام يُشعر بالوهيته؛ ويبدأ كل صنف منها بلفظة « إذ » دلالة الابتداء .

ان اساس انعاماته كلها التأييد، الذي يُخصّ به دون سواه، بالروح القدس وهو غير جبريل كما ظنوا لأن جبريل موحى القرآن ايضاً فلا محل لذكره كنعمة خاصة بالمسيح . وليس هو ايضاً « روحه المختص به » كما يقول الرازي وغيره لأنه قوة خارجية بها عمل المسيح معجزاته المذكورة هنا . بقي انه روح الله، فالقدس هو الله، وهذا الروح قادر وأقدر عيسى على الاحياء والابرء والنبوة والمعجزات جميعها .

فالنعمة الاولى التي امتاز بها المسيح عن سواه أنه استنبأه طفلاً وكهلاً (الجلالان)؛ والمعنى الحاق حاله في الطفولية بحال الكهولية في كمال العقل

بفعلي وذكر الاذن في هذه الافاعيل انما هو على معنى اضافة حقيقة الفعل الى الله . (وسابعا) قوله « واذا كفت... اذ جثتهم بالبينات » اللام في البينات للعهد وهي ما ذكر من معجزات، أو للجنس .

(وثامنها) قوله « واذا أوحيتُ الى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي » : من قال انهم كانوا انبياء قال ذلك الوحي هو الوحي الذي يوحى الى الانبياء . ومن قال انهم ما كانوا انبياء قال المراد بذلك الوحي الالهام واللقاء . وانما قدم ذكر الايمان على الاسلام لأن الايمان صفة القلب والاسلام عبارة عن الخضوع في الظاهر . وعن الزمخشري : « قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون » . مخلصون من اسلم وجهه لله .

والتكلم (البيضاوي)، وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده (الرازي) .

والنعمة الثانية هي معرفته العلم كُلتُه، والوحي كله . وذلك منذ طفولته واختص التوراة والانجيل بالذكر إشارة الى الاسرار التي لا يطلع عليها احد الا اكابر الانبياء (الرازي) .

والنعمة الثالثة انه امتاز بمعجزة القدرة على الخلق . ولو كان هذا الخلق بإذن الله اي بقدرته وفعله، فقد مرَّ هذا العمل فيه واقترن به، فشارك الخالق بمقدرته على الخلق، وهذا لم يعطه الله أحداً حسب القرآن .

والنعمة الرابعة شارك الله ايضاً في المقدرة على احياء الموتى واخراجهم من القبور . وهذه صفة الهية محضة شاء الله ان يجربها في المسيح اظهارة لفضله على سواه .

والنعمة الخامسة خص الله عيسى بالحجج والمعجزات التي فاق بها سواه حتى اثمر من كفر من بني اسرائيل بقتله، فمكروا ومكر الله، وكان الله خير الماكرين بمعجزة رفعه الى السماء حياً : وهذه ميزة سامية لم يشاركه فيها أحد .

والنعمة السادسة اوحى الله مباشرة الى رسله فأمنوا به واستشهدوا الله على اسلامهم وتوحيدهم . وربما أوحى الله اليهم كما اوحى اليه فكانوا انبياء الانجيل من بعده . فشاركوه في الوحي والنبوة ولم يحصل لرسول او نبي ان اوحى الله الى صحابته او متابعيه واستنبأهم كما عمل بتلاميذ المسيح وصحابته .

٢ المقدمة الثانية لاستجواب المسيح : معجزة المائدة

١١٥ إذ قال الحواريون : يا عيسى ابن مريم هل يستطيع

آية ١١٥ - « إذ قال الحواريون » بدل من « اذ اوحيت » وبيان لسبب ايمانهم واسلامهم . وبهذا تزول الاشكالات التي استنبطها المفسرون بين الآيتين .

رُبُّكَ ان يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ؟ قَالَ : اتَّقُوا
اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

١١٦ قالوا : نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ونعلم ان
قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين .

١١٧ قال عيسى ابنُ مريم : اللهم ، ربنا ، أنزل علينا مائدةً
من السماء ، تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، وآيةً منك ،
وارزقنا وأنت خيرُ الرازقين .

١١٨ قال الله : إني منزّلها عليكم . فمن يكفر بعدُ منكم
فإني أعدّ به عذاباً لا أعدّ به أحداً من العالمين .

« هل يستطيع ربك » ليس هذا شكاً منهم بالله ، بل باستجابته لعيسى
بهذه المعجزة التي يقترحونها عليه : فقد رأوا منه معجزات أرضية وهنا
يطلبون معجزة من السماء (عن الرازي) ، وسؤالهم لا يعني قلة إيمانهم بل طلب
الازدياد في الإيمان بالاطمئنان عن طريق المعجزة الكبرى وذلك كقول ابراهيم
« ولكن يطمئن قلبي » .

آية ١١٧ - « تكون لنا عيداً » نعظمه ، وقيل العيد هو السرور العائد .
روي انها نزلت يوم الاحد فلذلك اتخذها النصارى عيداً ، (البيضاوي) ، وكذلك
الرازي والزنجشري . - ومعلوم ان النصارى اتخذوا الاحد عيداً اسبوعياً
لهم اكراماً لقيامه المسيح فيه . فما معنى اذن ذكر عيد النصارى في زمن محمد
مقروناً بآية المائدة ؟ اننا لا نجد له تفسيراً صحيحاً عند المسلمين ؛ ولعل له اصلاً
فيما ذكرناه في المتن .

في هذا النص اختص بالذكرى من بين معجزات المسيح التي ذكرها (١١٣) المعجزة الكبرى التي فاق بها المسيح سواء من الانبياء وكانت سبب ايمان الرسل النهائي به : ألا وهي معجزة المائدة . واعتبرها القرآن مع النصارى عيداً ابدياً لهم على مدى اجيالهم .

إنهم طلبوها معجزة من السماء ولسان حالهم يقول : « ان جميع تلك المعجزات التي طلبتها كانت معجزات ارضية، وهذه معجزة سماوية وهي اعجب واعظم فإذا شاهدناها كنا عليها من الشاهدين نشهد عليها عند الذين لم يحضروها ونكون عليها من الشاهدين لله بكمال القدرة ولك بالنبوة » (الرازي) ؛ ووعدوا ان يتخذوا يوم نزولها عيداً لهم مدى الاجيال . قالوا بالاجماع : « ونزلت يوم الاحد فاتخذه النصارى عيداً » . فعيد النصارى شهادة دائمة لتلك المعجزة الكبرى .

وهناك جدال في هل نزلت المائدة أم اكتفوا بالسؤال وخافوا من وعيده . قال الرازي الجمهور الاعظم من المفسرين أنها نزلت لأنه تعالى قال : اني منزلها عليكم، وهذا وعد بالانزال جزماً من غير تعليق على شرط، فوجب حصول هذا النزول . وقال البيضاوي : « وقيل لما وعد الله انزالها بهذه الشريطة استعففوا وقالوا لا نريد، فلم تنزل . وعن مجاهد : ان هذا مثل ضربه الله لمقترحي المعجزات . وعن بعض الصوفية : المائدة هنا عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح » . وقال الزمخشري : « وعن الحسن : والله ما نزلت، ولو نزلت لكان عيداً الى يوم القيامة لقوله وآخرون ؛ والصحيح انها نزلت ، وعندنا ان القرآن يذكر معجزة وقعت كما ذكر المعجزات السابقة كواقعة . ومن ذكر البيضاوي لتفاصيل المعجزة يظهر انها منقولة عن الاناجيل المنحولة .

وقد علق الرازي على صلاة المسيح في الآية ١١٧ بقوله : تأمل في هذا الترتيب، فان الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها اغراضاً فقدموا ذكر الاكل فقالوا « نريد ان نأكل منها » واخبروا الاغراض الدينية الروحانية

والجمهور الاعظم من المفسرين انها نزلت لانه قال « إني منزلها عليكم » وهذا وعد بالانزال جزماً من غير شرط فوجب حصول النزول . وبسبب نزول هذه المعجزة السماوية التي لا يُفهم بعدها انكار نبوة المسيح قال « فمن يكفر بعدئذ منكم فاني اعذبه عذاباً لا اعذبه أحداً من العالمين » .

ولكن ايّ معجزة قصد القرآن بآية المائدة ؟ لا يدرون سوى انها معجزة قائمة بذاتها اختص بها المسيح لتأكيد رسالته ونبوته وقد يكون لها اصل كما وردت في الاناجيل الابوكريفية التي كتبها المسيحيون الاولون ؛ بل نجد لها اصلاً وهيكلًا في قصة المائدة التي نزلت على الرسول سمعان بطرس وهو يصلي في يافا (اعمال الرسل ١٠) ، ونفهم معناها عن الخبز الحيّ النازل من السماء الذي كنى به المسيح عن تعليمه وجسده الحامل للحياة (يوحنا ٦) وفي ضمهم آية المائدة الى الاحد قد عني وقصدوا ذبيحة القربان التي يحتفل بها النصارى في كل أحد عيداً لهم ، لأولهم وآخرهم ، جيلاً بعد جيل . وفهم القرآن وصدق عنهم انها « مائدة نازلة من السماء » . فالعيد المذكور هو أحد النصارى . والمائدة هي ذبيحة القربان المقدس عندهم على مائدة الهيكل .

« وتطمئن قلوبنا . . . » فأما عيسى فإنه لما طلب المائدة وذكر اغراضه فيها قدم الاغراض الدينية وأخر غرض الاكل حيث قال « وارزقنا » . وعند هذا يلوح كل مراتب درجات الارواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية . ثم ان عيسى عليه السلام لشدة صفاء دينه واشراق روحه لما ذكر الرزق بقوله « وارزقنا » لم يقف عليه بل انتقل من الرزق الى الرازق فقال « وانت خير الرازقين » ؛ فقوله « ربنا » ابتداء منه بذكر الحق سبحانه وتعالى . وقوله « انزل علينا » انتقال من الذات الى الصفات . وقوله « تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا » اشارة الى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث هي نعمة بل من حيث انها صادرة عن المنعم . وقوله « آية منك » اشارة الى كون هذه المائدة دليلاً لأصحاب النظر والاستدلال . وقوله « وارزقنا » اشارة الى حصة النفس . وكل ذلك نزول من حضرة الجلال . فبانظر كيف ابتداء بالاشرف فالأشرف نازلاً

هذا المشهد من ارواح المشاهد التي يذكرها القرآن ، وقد بلغ القرآن الذروة في استنكار إلهية المسيح : هناك في يوم الحشر ، والقول الفصل ، في حضرة الله ، وعلى مشهد ومسمع من الملائكة والرسول والعالمين بعد ان يعدد الله للمسيح انواع المعجزات التي اختصه بها دون سواه ، ليستدرجه بذلك الى السؤال العظيم عن البدعة الكبرى المنسوبة اليه ؛ يسأله :

١١٩ وإذ قال الله : يا عيسى ابن مريم ، أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟؟؟

قال : سبحانك ! ما يكون لي أن أقول ما ليس بحق !
إن كنتُ قلتُهُ فقد علمته : تعلم ما في نفسي ولا أعلمُ
ما في نفسك ! انك انت علام الغيوب .

الى الادون فالأدون . ثم قال « وانت خير الرازقين » وهو عروج مرة اخرى من الخلق الى الخالق . وعند ذلك تلوح كل شمة من كيفية عروج الارواح المشرقة النورانية الالهية .

آية ١١٩ - متى كان هذا السؤال ؟ قيل يوم رُفع عيسى الى السماء والأصح يوم القيامة استناداً الى ١١٢ و ١٢٢ (عن الرازي) وما معنى السؤال ؟ انه استفهام انكاري (الرازي) جاء في معرض التوبيخ لمن قال به (البيضاوي) .
« إلهين من دون الله » صفة لاهين أو صلة اتخذوني . ومعنى « دون » أما المغايرة اي عبادتها مع الله ، وأما القصور اي عبادتها بلا الرب : فإنهم لم يعتقدوا أنها مستقلان باستحقاق العبادة ، وإنما زعموا ان عبادتها توصل الى عبادة الله عزّ وجلّ ، وكأنه قيل اتخذوني وامي إلهين متوصلين بنا الى الله تعالى (البيضاوي) . وقال الرازي : « إنه كان عالماً بأن عيسى لم يقل ذلك ، فلم

١٢٠ ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به : أن اعبدوا الله ربي
وربكم .

خاطبه به؟ فإن قلتُ الغرض منه توبيخ النصارى وتقريعهم، فنقول ان أحداً من النصارى لم يدعب الى القول بإلهية عيسى ومريم مع القول بنفي إلهية الله؛ فكيف يجوز أن ينسب هذا القول إليهم مع ان أحداً منهم لم يقل به؟ والجواب عن الاول انه استفهام على سبيل الانكار؛ والجواب عن الثاني: قولهم إن عيسى هو صاحب المعجزات التي صدرت منه كأنه نفى ان تكون من الله فصح انهم اثبتوا في حق بعض الاشياء كون عيسى ومريم الهين، فصح بهذا التأويل هذه الحكاية والرواية - والافضل ما قاله البيضاوي .

« سبحانك! ما يكون ان اقول ما ليس بحق » ما ينبغي لي ان اقول قولاً لا يحق لي ان اقله (البيضاوي) ؛ « فلم يقل بأني ما قلتُ هذا الكلام لأن هذا يجري مجرى دعوى الطهارة والنزاهة، والمقام مقام الخضوع والتواضع . ولم يقل بأني قلته بل فوض ذلك الى علمه المحيط بالكل » (الرازي) .

« إن كنتُ قلته فقد علمته » بيّن انه ليس له ان يقول هذا الكلام ثم شرع يبيّن أوقع هذا القول منه أم لا فقال « إن كنتُ قلته فقد علمته » وهذا مبالغة في الادب وفي اظهار الذل والمسكنة في حضرة الجلال وفي تفويض الامور بالكلية الى الحق سبحانه . ثم قال « تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك » والمفسرون ذكروا فيه عبارات . والمراد: تعلم معلومي ولا اعلم معلومك، ولكنه ذكر هذا الكلام « نفسك » على طريق المطابقة والمشاكلة وهو من فصيح الكلام » (الرازي والبيضاوي عن الزمخشري) .

آية ١٢٠ - استنكر المسيح مبدئياً نعمة الألوهية في ١١٩ بأنها قول ليس بحق، وبأنه لا يمكن ان يقوله المسيح، وبأن علام الغيوب يعلم انه لم يقله . ثم

وكنتم عليهم شهيداً ما دمت فيهم . فلما توفيتني
كنت انت الرقيب عليهم . وانت على كل شي شهيد .

١٢١ إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وان تغفر لهم فإنك انت
العزیز الحكيم .

١٢٢ قال الله : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم .

شرح باستنكار العمل المنسوب اليه « ما قلت لهم الا ما امرتني به » نصريح
بنفي المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه .

« أن اعبدوا الله ربي وربكم » راجع في الزمخشري الاشكالات في تفسير
« أن » حرف التفسير يحمل فعل القول على معناه اي ما امرتهم الا بما امرتني
به . والبيضاوي : انها عطف بيان للضمير في به (أو بدل منه) ؛ « والاصل
ان يقال ما امرتهم الا بما امرتني به الا انه وضع القول موضع الامر نزولاً على
موجب الادب الحسن لئلا يجعل نفسه وربه أمرين معاً » (الرازي) .

« وكنتم عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني » فسر القرآن في الآية
ذاتها الشبهة بالرقيب . ههنا ترد الوفاة عكس الحياة فلا بد من تفسيرها بمعنى
الموت بما اوقع المفسرين في حيرة من امرهم : فالزمخشري يمر عليها مرور
الكرام . والجلالان يقولان : توفيتني أي « قبضتني بالرفع الى السماء » ولا يزيد .
والرازي الذي يطول شرحه في كل شيء يقتضب ههنا الى حدة الاعجاز :
« والمراد منه وفاة الرفع الى السماء من قوله إني متوفيك ورافعك إلي » . لم
يصرح بمعناها الحقيقي الا البيضاوي : « توفيتني : بالرفع الى السماء لقوله تعالى :
إني متوفيك ورافعك . والتوفي أخذ الشيء وأفياً والموت نوع منه ، قال
تعالى : يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها » .

لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً
رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم .

١٢٣ لله ملكُ السماوات والارض وما فيهن وهو على كل
شيء قدير .

على استجواب الله الرائع المخرج، يجيب المسيح بأدب لا حد له مستنكراً
التهمة من كل وجوهها . قال : « سبحانك » تنزيهاً لله عن مثل ذلك القول !
وفي هذا الهتاف البديهي مجمل الجواب . وعقب باستنكارٍ مبدئي : القول بذاته
ليس بحق ، فلا يكون للمسيح ان يقوله وهو الرسول الامين . واستغنى عن
الجواب بتفويض الأمر الى علم الله المحيط بالكل فإنه « علام الغيوب » يعلم ما
يبدو وما يخفى . ثم ردّ التهمة المنسوبة اليه بالحقيقة الواقعة : « ما قلت لهم الا
ما أمرتني به : ان اعبدوا الله ربي وربكم » . وذكر انه ظلّ رقيباً على أتباعه
يمنعهم من مثل هذا القول ما بقي حياً فيهم ؛ ومن بعده كان الامر لله .

وفي الآية ١٢٠ تعليم صريح لا يقبل الجدل على موت المسيح الذي يعبر
القرآن عنه بلفظ الوفاة (آل عمران والمائدة) : « وكنتم عليهم شهداء ما
دمت فيهم = فلما توفيتني... » قال البيضاوي : التوفي أخذ الشيء وافياً،
والموت نوع منه . وهنا يعني صراحة الموت لأن الوفاة ترد معارضة للحياة
« ما دمت فيهم » .

وكما كان جواب المسيح لله بأدب بالغ رائع، كان استعطافه وشفاعته لأمتة،
التي غلّت في اكرامه بتأليهه، بالغاً حدود الفصاحة والبلاغة : « إن تعذبهم
فإنهم عبادك ؛ وان تغفر لهم فإنك انت العزيز الحكيم » (١٢١) . ولما كان
الله لا يغفر ان يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (نساء ٤٧ و ١١٥)
فاستغفار عيسى للنصارى في موقف الصدق يعني ان « غلوهم » في اكرام المسيح
وامه ليس شركاً ولا كفراً يستوجبان الهلاك الابدي . ويختم بموافقة الله على
صدق اقرار عيسى .

النص السادس عشر : صدر سورة التوبة (او براءة) ١ - ٣٨

روى البخاري عن هذه السورة انها الأخيرة في النزول (الجلالان) ولها أسماء عديدة منها براءة والتوبة (البيضاوي) . وقد اختلف اصحاب الرسول فقال بعضهم ان الانفال وبراءة سورة واحدة، كلتاهما نزلتا في القتال، وقال بعضهم هما سورتان . وهما معاً تعدّان من السبع الطوال في القرآن، وهما السابعة (الزمخشري) . وقد صدروا القرآن بالسور السبع الطوال على غرار المعلقات السبع .

وعندنا أن سورة التوبة تصف حياة الاسلام في السنتين الاخيرتين من حياة محمد، فبعد ان اخضع مكة دانت له الجزيرة العربية كلها، وزال المشركون واليهود من الوجود الرسمي فيها . وكثر المنافقون جداً (١٠٢) . ولذلك نزلت سورة التوبة كلها (الا صدرها) في بيان احوال المنافقين وجهادهم .

ولما فرغ محمد من قلب الجزيرة حيث كان يربض أسد قريش، وجهه جيوشه الى اطرافها . فاكتسح علي بن ابي طالب وخالد بن الوليد اليمن بسهولة . ولما توجهت الجيوش الى الشمال اصطدمت بقوة النصاري، ومن بينهم العرب المنتصرين . وختمت حياة النبي بأساءة « جيش العسرة » (١١٨) . وقد تركت حملاته الى الشمال في نفسه أثراً مريراً من العرب النصاري الذين تركوا سيّد قومهم ليوالوا الاجانب ويحموا لهم اطراف بمالكهم . لذلك بعد ان وادعهم طيلة حياته أمر قبل موته بقتالهم .

وأصدر ذلك الأمر في يوم مشهود حجّ فيه ابو بكر بالناس الحج الأكبر (٣) . فبعث النبي في إثره عليّاً فأذن يوم النحر بمضى : أن لا يجمع بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة، وان يتم الى كل ذي عهد عهده .

ونلا علي صدر سورة براءة (١ - ٣٧) في وجوب قتال المشركين حتى يُسَلِّمُوا فَيَسْلَمُوا (٦) وقاتل الكتابيين حتى يدفعوا الجزية (٣٠) خاضعين لدولة الاسلام فيسلموا . ويبرر قتال المشركين بشركهم وقتالهم للمسلمين (٩ و ١٤ و ٢٥) ويبرر ايضاً قتال الكتابيين بما « يضاهي » الشرك في اقوالهم وصدتهم عن سبيل الله (٣١ - ٣٦) . ويختم : « قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (٣٧) .

٦ فإذا انسلك الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم . وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم .

ويبين الاسباب الداعية الى قتالهم (٧ - ٢٩) .

٣٠ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا

آية ٣٠ - قال الجلالان « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وإلا لآمنوا بالنبي (ص) ولا يجرّون ما حرم الله ورسوله كالتجر، ولا يدينون دين الحق الثابت الناسخ لغيره من الاديان وهو دين الاسلام من الذين اتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى حتى يعطوا الجزية، اي الخراج المفروض عليهم كل عام، عن يد اي منقادين أو بأيديهم لا يركلون بها، وهم صاغرون اذلاء منقادون لحكم الاسلام .

وقال البيضاوي : « لا يؤمنون بها على ما ينبغي فان ايمانهم كلا ايمان، ولا يجرّون ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة . وقيل « رسوله » هو الذي يزعمون اتباعه ؛ والمعنى يخالفون اصل دينهم اعتقاداً وعملاً . ولا يدينون دين الحق الثابت . حتى يعطوا الجزية أي ما تقرّر عليهم ان يعطوه . « عن يد » أي عن

يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق
من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد
وهم صاغرون ا

ويبين الاسباب الاربعة الداعية الى قتالهم :

٣١ وقالت اليهود : عزيز ابن الله ا وقالت النصارى :
المسيح ابن الله ا ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون

يد مؤاتية بمعنى منقادين أو عن يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم ولذلك مُنع من
التوكيل فيه . أو عن غنى ولذلك قيل لا تؤخذ من الفقير . أو عن يد قاهرة
عليهم بمعنى عاجزين أذلاء . أو عن انعام عليهم . أو من الجزية بمعنى نقداً
مسلمة من يد الى يد ؛ وأضاف البيضاوي : ومفهوم الآية يقتضي تخصيص الجزية
بأهل الكتاب . وأما سائر الكفرة فلا تؤخذ منهم الجزية عندنا . وعند ابي
حنيفة تؤخذ منهم الا من مشركي العرب . - ونحن نؤيد نظرية ابي حنيفة
لأن القرآن كله يقصد مشركي العرب والكتابين من العرب لا يتطع الى
سواهم .

وقال الزمخشري : نفى عنهم الايمان بالله واليوم الآخر لأنهم فيه على خلاف
ما يجب . وتحريم ما حرّم الله ورسوله اي القرآن والسنة ؛ وعن أبي روق : لا
يعملون بما في التوراة والانجيل . ودين الحق الاسلام . « عن يد » يد المعطي
أو الآخذ . واختلف فيمن تضرب عليه الجزية : فعند ابي حنيفة تضرب على
كل كافر الا على مشركي العرب ، وعند الشافعي لا تؤخذ من مشركي العجم .
وعند ابي حنيفة لا تؤخذ ممن لا كسب له وعند الشافعي بلى تؤخذ .

آية ٣١ - « عزيز ابن الله » هو قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة وما هو
بقول كلهم ، (الزمخشري) ؛ « انما قاله بعضهم من متقدميهم أو ممن كان بالمدينة »

(يضاهون) قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله
أنى يؤفكون ا

٣٢ إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمسيح
ابن مريم . وما أئروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً . لا إله
إلا هو سبحانه عما يُشركون ا

٣٣ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن
يُتمَّ نوره ولو كره الكافرون ا

(البيضاى) . «المسيح ابن الله» هو ايضاً قول بعضهم : وانما قالوه استحالةً
لأن يكون وُلِدَ بلا أب أو لأن يفعل ما فعله مَنْ لم يكن إلهاً» (البيضاوى)
«قولهم بأفواههم» : إمّا تأكيداً لنسبة القول اليهم أو إشارة الى انه قول
مجرد عن برهانٍ . «يضاهون» - والهمز لغة فيه - قول الذين كفروا من
قبلهم والمراد قدماؤهم على معنى ان الكفر قديم فيهم غير مستحدث . أو
المشركون الذين قالوا : الملائكة بنات الله . أو اليهود على ان الضمير في
يضاهون للنصارى أي يضاهاى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزيز ابن الله
لأنهم اقدم منهم» (الزمخشري والبيضاوى) .

آية ٣٢ - «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» بأن أطاعوهم
في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرّم الله . وعن عدي بن حاتم : «في هذه الطاعة
عبادتهم» (البيضاوى والزمخشري) . - نقول هل يوجد رئيس دين من أهل
الكتاب يتجاسر على مثل ذلك ويطيعونه ! كلا لعمرى : بل اتخذوا منهم
أولياء فأكرمواهم فتحكى انهم عبدوهم . وبمشابهته بين اكرامهم للمسيح والاولياء
من الاحبار والرهبان يظهر ان محمداً لم يطلع على الفارق بينها .

٣٤ هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

٣٥ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم (نار جهنم ٣٦) .

٣٧ قاتلوا (بعد انقضاء الأشهر الحرم الأربعة) المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة . واعلموا ان الله مع المتقين .

انه يوحد بين اكرام المسيح واكرام الأولياء من الاحبار والرهبان - ولا يوجد أحد من النصارى فعل ذلك . وقد يكون التوحيد بينهما من حيث شبهة الشرك .

آية ٣٤ - « ليظهره » الفاعل الله والمفعول عائد الى الرسول او الى دين الحق (بالاجماع) . - وعندنا ان الآية مزيدة هنا لأنها تخص « المشركين » وتقطع سياق الحديث عن الكتابيين (٣٣ - ٣٥) .

آية ٣٥ - يذم في الاحبار والرهبان خصلتين : اخذ الرشوة وكنز الاموال (الزمخشري) ؛ « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها » يجوز ان يكون اشارة الى الكثير من الاحبار والرهبان ويجوز ان يراد المسلمون الكاذبون غير المنفقين (الزمخشري والبيضاوي) - لذلك نضرب صفحاً في المتن عن التعليق عليها (٣٥ - ٣٨) .

آية ٣٧ - « الجمهور على ان حرمة المقاتلة فيها منسوخة . وعن عطاء : قاله ما يحمل للناس ان يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم الا ان يقاتلوا وما

تلك هي وصية محمد الاخيرة لامته أذاعها عليهم يوم الحج الاكبر (٣) يطلب فيها منهم قتال المشركين الدائم حتى يُسلموا (٦) وقاتل الكتابيين الدائم حتى يخضعوا للجزية (٣٠) .

وفي غاية القتال مع الفريقين بوت شاسع وتفاوت ساطع : لا سلام للمشركين الا بالاسلام ؛ ولا سلام للكتابيين الا بالخضوع للجزية . يطلب من المشركين الاستسلام للدين الاسلامي، ومن الكتابيين ان احبوا البقاء على دينهم، القبول بالجزية عنوةً واقتداراً . لا محل للشرك في دار الاسلام، ويباح لأديان الكتاب الوجود الرسمي في الدولة الاسلامية . لذلك يفرض القرآن على امته، في وصية محمد الاخيرة، اخضاع المشركين للدين الاسلامي واخضاع الكتابيين للدولة الاسلامية . وشتان ما بين المطلبين !

ونلاحظ ايضاً ان قتال المشركين فريضة عامة مطلقة . بينما قتال الكتابيين مقصور « على الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق » منهم . فهل من أهل الكتاب من لا يؤمن بالله واليوم الآخر؟ حتى يصعّ قتاله !

يفسر القرآن في الآيات (٣١ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٥) معنى هذه التهمة (٣٠) ويوضح الاسباب الموجبة لقتال أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين :

١ أنهم بقولهم «عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله» يظاهرون قول المشركين «الذين كفروا من قبلهم» وهذا «إفك» يستحقون عليه القتال (٣١) ؛
٢ وزادوا بأن اتخذوا أحبارهم (اليهود) ورهبانهم (النصارى) أرباباً مع الله، كما اتخذوا المسيح ابن مريم، وقد أمرهم الكتاب بالتوحيد، «سبحانه عما يشركون» : فقد استحقوا القتال (٣٢) ؛ ٣ ويريدون أن يطفئوا نور الاسلام : ويأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كرهوا (٣٣) ؛ ٤ أخيراً كثير

نسخت، (الزمخشري والبيضاوي) - وهكذا فقد احل بقوله ومثله حرمة الأشهر الحرم لقتال المشركين .

من الاحبار والرهبان يأخذون الرشوة ويكثرون الاموال ولا ينفقونها في سبيل الله بل يصدون الناس عن الاسلام: ألا قاتلوم حتى يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون!

وبكلمة يستبيح قتال اهل الكتاب من اليهود والنصارى لأنه يرى في قولهم بأفواههم « لا بقلوبهم » (الزنجشيري) شيئاً ونوعاً من « الافك والشرك والكفر » الذي « يضاهاى قول الذين كفروا من قبل » من المشركين الحقيقيين.

فما هو بالحقيقة « شرك » بل « شبه شرك »: مضاهاة اي مشابهة لقول المشركين (الجلالان والبيضاوي) . فالنص صريح قاطع لا يجمع بين المشركين والكتابيين على صعيد واحد: فإنه يأمر بقتال المشركين حتى يُسلموا ولا مندوحة لهم عن الاسلام، وبقتال الكتابيين حتى يعطوا الجزية للدولة الاسلامية وهم فيها على دينهم . لا يعترف بوجود وكيان رسمي للمشركين في دار الاسلام ويعترف لليهود والنصارى بالحربة والكيان الرسمي بعد دفع الجزية.

ثم انه بعد هذه الحملة العنيفة تحريضاً على قتالهم يعود في آخر سورة التوبة، أي في آخر ما نزل من القرآن، فيجمع بين الكتب الثلاثة في منزلة واحدة ودرجة واحدة: « إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون: واعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن . ومن أوفى بعهد من الله » (١١٢) .

الى اليوم كان محمد يستبيح قتال اليهود وحدهم لا لخلاف في الدين بل في السياسة، بسبب مؤامراتهم، والآن في وصيته الأخيرة يبرر قتال اليهود والنصارى بعد ان اصطدم معهم في شمال الجزيرة بحجة الخلاف الديني . مع أنه قد أشاد منذ قليل بصدق مودة النصارى للمسلمين (مائدة ٨٥) ولم يُسمّر عبادتهم للمسيح إلا « غلوآ في الدين » لا غير (مائدة ٨٠ ، نساء ١٧٠) .

وقد استخلص الزنجشيري من سورة التوبة هذا المبدأ: « من دُعِيَ الى الله عز وجل فأجاب، ودُعِيَ الى الجزية فأجاب: فقد اتبع الهدى » .

الجزء الثاني : تحليل النصوص القرآنية في المسيح

«انا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته
ألقاها الى مريم وروح منه» (نساء ١٧٠).

عيسى ابن مريم آية في مولده
عيسى ابن مريم آية في حديثه
عيسى ابن مريم آية في رسالته
عيسى ابن مريم آية في آخرته

رأي القرآن في موت المسيح
رفع المسيح الى السماء حياً

عيسى ابن مريم «علم للساعة» وآية في يوم الدين
المسيح ويوم الدين
شفاعة المسيح

عيسى ابن مريم آية في قداسته وكماله

عيسى ابن مريم آية في شخصيته

إلهية المسيح في القرآن

ألقاب المسيح في القرآن

خاتمة : شخصية المسيح في القرآن تسمو على جميع الانبياء.

عيسى ابن مريم آية في مولده

« قال ربك: هو علي هين! ولنجعله
آية للناس ورحمة منا! » (مريم ٢١)

نسط القرآن في خبر مولد المسيح في سورتي مريم (١٥ - ٢٣) وآل عمران
(٣٣ - ٤٧)؛ وأوجزه في الانبياء (٩١) والمؤمنون (٥١) والتحريم (١٢)
والنساء (١٥٦) .

ان قصة ميلاد المسيح في القرآن لمقطع من البلاغة الرائعة، فقد تكون
شعراً لا يجارى بلغ اوج الوحي والسمو في سورة مريم؛ وقد وفاه القرآن
وصفاً يجعله من بتول لم يمسهما بشر، تحمل وتلد بقوة من الله وتلبث عذراء.
والمعجزة الالهية تكتنف اطوار الولادة كلها. قال الجلالان « وكان الحمل
والتصوير والولادة في ساعة! »

وما اعظم مشهد البشارة بالمسيح! الله يرسل ملاكه (مريم) بل ملائكة
(آل عمران). من السماء ليبشروا امه مريم « بالغلام الزكي، الطاهر، النامي
على الخير والصلاح! انه طاهر منذ الحبل به، فلا يحتاج الى تطهير بعد مولده! .
كلها المسلاك شفاهاً كرامة لها (البيضاوي) ولم يتفق ذلك لاني غيرها
(الرازي) .

(١) لقد نقلنا في ما تقدم الحديث الشريف عن البخاري « كل آدمي يطعن الشيطان
بجنبه حين يولد الا عيسى وامه عليها السلام، جعل بينهما حجاب فلم ينفذ اليهما شيء
منه . وهو تفسير لصلاة حنة وهي تحمل بمريم ام عيسى « واني اعوذها بك وذريتها من
الشيطان الرجيم » قال البيضاوي « معناه ان الشيطان يطمع في اغواء كل مولود بحيث
يؤثر منه الا مريم وابنها فان الله تعالى عصمها ببركة الاستعاذة » .

تمثل لها بشراً سوياً تام الخلق والخلق . قالت من غاية عفافها لما وقف امامها : « اني اعوذ بالرحمن منك ! ان كنت تقياً . . . » . لم يدعها الملاك في ريبة من شخصه، ولم يتركها تستكمل تعوينها؟ « قال : انما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً » ! فاستغربت هذه البشرية وهي العذراء البتول التي لم يمسه رجل قط : « قالت انى يكون لي غلام ولم يمسنى بشراً ولم أك بغياً » !؟ ليس لبشر أو لمخلوق يد في ذلك، انما الامر كله لله « الله يخلق ما يشاء اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون (آل عمران ٤٧) فأجابها الملاك : « هو كذلك كما تقولين . قال ربك : هو عليّ هين ان يكون لك غلام بدون ميس بشر . ولنجعله آية للناس ورحمة منا ! وكان امراً مقضياً . » .

اتخذ بعض الجهال من قول الملاك « لأهب لك » ذريعة للقول بأن الملاك قام مقام الرجل في الحبل بالمسيح ! والقرآن يعتبر مجرد التفكير بذلك كفراً شنيعاً . وقوله « لأهب لك » حكاية قول الله لا لسان حال الملاك، يؤيد ذلك قراءة « ليهب لك » (البيضاوي) . ورواية آل عمران تقضي على كل شك في هذا الشأن : الحمل كان بمعجزة مباشرة من الله (٤٧) « اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون » !

قال كثير من المفسرين : لم يقم جبريل مقام الرجل، بل كان الواسطة المعجزة للحمل البتولي كما جاء في سورة الانبياء : « والتي احصنت فرجها فننفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » (٩١) نفخ جبريل في جيب درعها فحملت بعيسى (الجلالان) . قد يكون هذا التفسير محتملاً اذا اقتصرنا على السور المكية ؛ أمّا سورة آل عمران، والنساء فلا تدع مجالاً لمثل هذا التأويل فعيسى روح الله وكلمته القاها الى مريم (نساء ١٧٠) ، هو روح من الله ألقى اليها (الزمخشري) .

وعندنا ان بين السور المكية (مريم، الانبياء) والسور المدنية (آل عمران والنساء) تطوراً : فبينما يظهر الملاك في الاولى وكأنه الواسطة المعجزة للحمل البتولي، يظهر الحمل في المدنية معجزة إلهية مباشرة يقتصر دور الملاك فيها على

البلاغ: ألقى الله روحه الى مريم، قائلاً يا عيسى كن! فكان (نساء ١٧٠، آل عمران ٤٧). وهكذا يظهر معنى قوله «ونفخنا فيها من روحنا» (انبياء ٩١، نحریم ١٢) انه محمول على المفعول، فالمنفوخ هو المسيح روح الله. قال أحدهم «نزل نفخ الروح في عيسى، لكونه في جوف مريم، منزلة نفخ الروح في مريم فبتر بما يفهم ظاهر هذا».

وفاتهم جميعاً أن الملاك روح لا جسده، ولو تمثل لها بشراً سوياً، انما ذلك تمثيل لا تحقيق، فالملائكة كما يقول الانجيل «لا يزوجون ولا يتزوجون».

فالمسيح «آية» البشرية وآية الدهور بسبب ولادته البتولية. وهذا شرف لم ينله ابراهيم حجر الزاوية في الدين الحنيف، ولم يحظ به موسى كليم الله، ولم ينسب مطلقاً الى محمد «خاتم النبيين». فالنبي العربي وُلد كسائر الناس، ولم يطهر الا بعد ان شرح له الله صدره ووضع عنه وزره (الشرح ١) وموسى و ابراهيم لم يتقربا من الله الا في كهولتهما.

ومعجزة المسيح لم تكن في الولادة البتولية بل ايضاً في الولادة الطاهرة من مسّ الشيطان، ومن كل أذى للخطيئة: فالملاك يبشراهم «بغلام زكي» طاهر، ينمو على الصلاح من يوم الى يوم. فهو ليس بحاجة الى شرح صدر: فقد ظهر للوجود منذ الحمل به مشروح الصدر، طاهراً وابن الطاهرة!

والمعجزة ليست في الحمل فقط، بل هي ايضاً في الحمل السريع الذي قد يقتصر على ساعة حسب تأويلهم. وهي كذلك في الولادة المعجزة. لا يرضى احد من المسلمين حسب الرأي العام أن يراها كسائر النساء، أو أمهات الانبياء. لقد انفرد المسيح بميلاد غريب فريد لا شبيه له. حاولوا تفسيره بقولهم «كما حملته نبتته» اي بمعجزة. ويرينا النص الكريم دهشة مريم ذاتها لما يجري بها، وخشيتها الا يصدق الناس آية ولادتها. ولم تقاس ألم المخاض بل تراها واقفة لدى جذع النخلة تهزّ بجذعها لتساقط عليها رطباً جنياً، ثم تحمل وليدها في الحال وتأتي به قومها تريم الصبي النبي!

تتعدد الخوارق لتثبت المعجزة الكبرى : فالرحمان يطعم الوالدة العذراء من نخلة يابسة زمن الشتاء تهزها فتساقط عليها رطباً جنياً ! كما اطعمها من الجنة في حدائها وهي في المحراب . ويسقيها من جدول ماء سري كانت قد جفت . فنادها الملاك من تحتها الا تحزني . . . فكلي من النخلة واشربي من السري وقرّي عيناً ! « لم تقع التسلية بهما من حيث انها طعام وشراب، ولكن من حيث انها معجزتان تريان الناس انها من اهل العصمة » (الزمخشري) .

ويختم القرآن خوارق ميلاد المسيح بخاتم النبوة التي تؤيدها . «نطقُ المسيح ونبوّته من مهده : جاءت به قومها تحمله ، قالوا ، وقد عرفوها بكرأ بتولاً : يا مريم لقد جنّت شيئاً فرياً ! فأشارت اليه ان اسألوه ! قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صيباً؟ هل تهزئين بنا؟ قال : «إني عبد الله ، آتاني الكتاب وجعلني نبياً منذ مولدي !» . بهذا النطق المعجز شهد لنفسه ولأمه .

ومعجز آخر انفرد به المسيح دون سائر الانبياء والمرسلين : تنبأ منذ مولده (مريم ٣٠) ! استنبأ الله الانبياء جميعهم «رجالاً كهولاً»، وهو وحده استنبأه طفلاً! «تكلم الناس في المهد وكهلاً» (آل عمران ٤٧، مائدة ١١٥) دون تفاوت في النبوة بين الطفولة والكهولة (البيضاوي) . هم صاروا انبياء في كهولتهم، وهو وحده وُلِدَ نبياً ! لم يقرب منه الا سابقه يحيى بن زكريا فقد «آتاه الله الحكم صبياً» (مريم ١١) ليسؤمن ويصدق بكلمة الله (آل عمران ٣٩) ١ .

(١) قارب خبر مولد يحيى في القرآن خبر مولد عيسى ولكن لم يلحقه . اجبل ذكر القرآن بعض الخوارق عن مولد يحيى : فقد ولد من ابوين طاعنين في السن ، منها ام عاقر عجوز (مريم ٤ و ٨) وآتاه الحكم صبياً (١٢) فكان تقياً (١٣) برّاً بوالديه (١٤) ولم يكن جباراً عصياً (١٤) ويسنق الصلاة والسلام في مولده وموته وانبعائه (١٥) . ولكن شتان ما بين معجزة ميلاد المسيح من ام بتول ومولد يوحنا من ام عاقر عجوز مولداً طبيعياً من والدين كسائر الناس . وفي الكتاب سيرة عواقر كثيرات حملن طبيعياً بأمر الله . ولكن ليس في الكتاب ولا في القرآن ولا في تاريخ البشرية ان عذراء حملت

لم يجمع القرآن الالقاب العظيمة والصفات الفريدة في كلامه عن نبي كما جمعها في خبر مولد المسيح : فالملاك يصف للوالدة مولودها العجيب ! بأربعين القاب تعنيه : ان الله يبشرك بكلمة منه ! اسمه المسيح ! عيسى ! ابن مريم ! انه ابن مريم والقرآن يخصه بهذا اللقب شهادة منه دائمة بمعجزة امومه والدته البتولية : ينسبه الى امه لأنه لا نسب له من سواها ويهاجم اليهود والكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ، (نساء ١٥٦) . انه عيسى وهو اسمه الذاتي الذي يحمل معنى نبويّاً في أصله اللغوي : اي المخلص . إن المسيح الذي ظهر ممسوحاً منذ مولده من الخطايا والأوزار، ممسوحاً بدهن النبوة، ممسوحاً بالقدرة الحارقة على المعجزات . وما ذلك كله الا لأنه كلمة الله ، كلام الله القائم في ذاته تعالى (الرازي) وكلام الله الذي به كلم البشر شخصياً ! ثم بأربع صفات تظهر ما له من الميزات الفريدة في عالم النبوة : « وجيهاً في الدنيا والآخرة » مقدماً على البشر في الدنيا بنبوته ، وفي الآخرة بشفاعته وعلو منزلته ! « ومن المقربين » الى عرش الجلالة ! في الدنيا « يكلم الناس في المهدي وكهلاً » وعن الرازي « قال ابو مسلم معناه انه يكلمهم حال كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة وذلك لا شك انه غاية المعجز » . وفي الآخرة يكون « من الصالحين » الخالدين .

وما ان ظهر المسيح حتى أيتد منذ اللحظة الاولى بشارة الملائكة عنه . قال : « اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً » : واللقبان مترادفان، انه عبد الله الذي يعمل بنبوته في سبيل الله منذ وجوده . انه المصطفى حبيب الله طيلة حياته « وجعلني مباركاً ايها كنت » . انه رجل الله قبل كل شيء ، ومدى

وولدت ابناً وهي عذراء غير مريم ام عيسى عليها السلام . وشتان ما بين الصفات الممتازة التي يتصف بها يوحنا بن زكريا وعيسى ابن مريم : فذاك كان « سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين » (آل عمران) وعيسى كان « ابن مريم وحدها ، مسيح الله وروح الله وكلمة الله » (نساء ٧٠) . ولا يقول القرآن مطلقاً عن يوحنا انه بشخص آية ! ولا يقول عن مولده انه معجزة للملائكة والانس والجن !

الحياة «وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً» ! وليس برجل الدنيا يعمل
لسلطان أو لدولة «ولم يجعلني جباراً شقيماً» !

حياة فريدة تستحق الصلاة والسلام من المهد الى اللحد : «السلام عليّ»
يوم ولدتُ ويوم اموتُ ويوم ابعثت حياً ! ، سلام الله عليه في هذه الاحوال
لأنها أوحش المواطنين (الزنجشيري) وفي هذا السلام نبوة عن موت عيسى
وبعثه للحال، تؤيد تلك النبوة المستقبلية معجزة نطقه في المهد وهي حاضرة.

حياة تبدأ بمعجزتي النطق والنبوة في المهد، وتتكلل بمعجزتي الانبعاث
والرفع حياً الى الله : ان صاحبها أقوى من الموت والحياة . هل ذكر القرآن
شيئاً من هذا بحق نبي أو رسول ؟ وان مجموع هذه الألقاب والنعوت والصفات
مدعومة ومحفوفة بالحوارق والمعجزات، لتجعل من عيسى ابن مريم آية الانبياء
 والمرسلين .

وقد استحوذت معجزة مولد المسيح الخارقة على افكار نبي القرآن وملكنت
عليه مشاعره . فهو يؤكدها في كل مناسبة : في مكة (مريم ٢١ ، انبياء ٩١ ،
مؤمنون ٥١) وفي المدينة (آل عمران ٤٥ ، نساء ١٥٦ ، تحريم ١٢) . وهو
كيفما نظر اليها وجد فيها آية المسيح الكبرى التي ترفعه فوق سائر البشر، آية
للناس، ورحمة من الله :

«قال ربك : هو عليّ هين ! ولنجعله آية للناس ! ورحمة منا ! وكان امرأ
مقضيّاً» . (مريم ٢١) .

عيسى ابن مريم آية في حدائمه

« وجعلنا ابن مريم وامه آية وآويناها الى ربوة ذات قرارٍ ومعين » (مؤمنون ٥١)

هذه الآية يوجز القرآن حدائمه عيسى ابن مريم : لقد آواها الله الى ربوة منغزة . لا يذكر القرآن اين كانت هذه الربوة ، والمفسرون مختلفون حيارى . على كل حال ليست ببعيدة عن الهيكل الذي تربت فيه مريم ، ولا عن بلد القدس الشريف الذي خلقت فيه .

يصف تلك الربوة بأنها « ذات قرار » أي مستوية يستقر عليها ساكنوها (الجلالان) . وقيل ذات ثمار وزروع فإن ساكنيها يستقرون فيها لأجلها (البيضاوي) . ويذكر انها ذات « معين » أي ماء جارٍ تراه العيون . اذن كانت خلوتها في جنة غناء على رابية ، أليس في هذا الوصف صورة لبلدة الناصرة التي يذكر الانجيل ان يسوع قضى حدائمه فيها مع امه ؟

حسب القرآن باشر المسيح نبوته منذ طفولته : « قال اني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً » (مريم ٣٠) . ودرج على النبوة في حدائمه : « يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك ، اذ ابدتك بروح القدس ، تكلم الناس في المهد وكهلاً » (مائدة ١١٣) . وبالنبوة فطرت معه تعلمها من الله حين ظهوره للوجود (مريم ٣٠) وكانت وحياً شاملاً « وبعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل (آل عمران ٤٨ ، مائدة ١١٠) . ونبوته من المهد في طفولته وحدائمه « خاصة شريفة كانت حاصلة له وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله وبعده » (الرازي ، مائدة ١١٣) :

منذ حدائمه يظهر المسيح عنوان التقوى والفضيلة والقداسة « يكلمكم

الناس في المهد وكهلاً، ومن الصالحين، (آل عمران ٤٦) قال الرازي: «ولا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً ومعلوم ان ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين؛ فلما ذكر بعض المقامات اردفه بهذا الكلام الذي يسدل على أرفع الدرجات». لا غرو في ذلك فهو الصديق ابن الصديقة (مائة ٧٨) خاتمة الذرية النبوية (آل عمران ٣٣) المصطفاة على العالمين.

وولد على الهدى ونشأ على البركة الالهية؛ «جعلني مباركاً أينما كنت» وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً (مريم ٣١). بركة الله تكتنفه أينما كان، ويقضي حياته في الصلاة والزكاة جاعلاً فيها وحدها قرّة عينه وما كان بحاجة مثل غيره ليشرح له الله صدره ويضع عنه وزر الصغر والكبر (الشرح ١)، ولا في عوز مثل ابراهيم جد الأنبياء الى استغفار ربه عن شركه في حدائته وجهالته. إنه المبارك في كل زمان ومكان.

ويذكر القرآن من عجائب المسيح في حدائته تسليته في خلق الطيور: «ورسولاً الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فانفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله» (آل عمران ٤٩). ويرجع الى ذكر هذه الاعجوبة في سورة المائدة: «واذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني» (١١٠). ولئن «خلق بإذن الله» فإن فيه، على كل حال، مرت هذه القدرة الالهية، ولم يكن أحد غيره أهلاً لها، وما ذكر القرآن قط ان الله اعطى نبياً مثل هذا السلطان الالهي.

فتلك الحدائث الحارقة، التي لا يذكر القرآن مثلها لغيره من الأنبياء والمرسلين امتازت، مثل حياة المسيح كلها، بنعمة خاصة من الله عليه وعلى امه، وبتأييد خاص من روح القدس اي روح الله: «يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك، اذ أيدتك بروح القدس» (مائة ١١٣). بهذه النعمة الالهية، وبهذا التأييد الروحي كانت حدائث المسيح عيسى ابن مريم ولم تزل آية للعالمين: «وجعلنا ابن مريم وامه آية وآوينسأهما الى ربوة ذات قرار ومعين» (مؤمنون ٥١).

عيسى ابن مريم آية في رسالته

« وآتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس » (بقرة ٨٧ ، ٢٥٣ ، مائدة ١١٣)

ان رسالة المسيح في القرآن قد امتازت وانفردت بتأييد «روح القدس» .
تعليم القرآن عن «الروح» غامض : « يسألونك عن الروح ؛ قل الروح من امر ربي . وما اوتيتم من العلم الا قليلاً » (اسراء ٨٥) بيد انا نشعر ان روح القدس الذي اختص به عيسى ابن مريم دون سائر الناس ودون سائر الانبياء ، هو غير سائر الارواح ، وإضافته ونسبته الى القدس تجعله في صلة خاصة مع الله تعالى ، فقد جعلوا «القدس» مرادفاً لله : فلا يذكر القرآن ان نبياً اختص بهذا الأيد، ولا ينسب هذا الأيد العلوي الى «خاتم النبيين» نفسه ؛ أجل يقول القرآن عن تنزيل الوحي على محمد «نزله روح القدس من ربك بالحق» (نحل ١٠٢) ولكن روح القدس هنا مرادف للروح الأمين ، (شعراء ١٩٣) الذي هو جبريل : « قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله » (بقرة ٩٧) . «فروح القدس» الموحى الى محمد هو جبريل ، وبهذا التصريح يتمتر عن «روح القدس» الذي خص القرآن تأييده بالمسيح . وروح المسيح هذا ليس فقط روح وحي بل هو ايضاً روح قدرة إلهية ، به أحيا عيسى الموتى ، وخلق من الطين طيوراً . اجل صفة «القدس» واحدة في وصف روح محمد وروح عيسى ، ولكنها شخصية مختلفة ذات قدرة متفاوتة : فجبريل روح من أمر الله « وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا » (شوري ٥٢) ، اما روح القدس فهو روح الله الذي يحيي الموتى ويخلق الطيور بواسطة المسيح .

فرسالة المسيح وحدها وكرازته وحدها ايدهما الله بروحه القدوس . عندما

يفصل القرآن ميزات الرسل في باب المفاضلة بينهم يختص عيسى ابن مريم بهذا التأييد: «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض: منهم من كلم الله؛ ورفع بعضهم درجات؛ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس» (بقرة ٢٥٣). وعندما يوجز تاريخ النبوة ينفرد المسيح بتأييد الروح القدس: «ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس» (بقرة ٨٧). ويصرح القرآن بأن هذا التأييد كان نعمة خاصة من الله بالمسيح: «اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك - وعلى والدتك - اذ ايدتك بروح القدس» (مائدة ١١٣).

فالمسيح بقوة الروح القدس «يكلّم الناس في المهّد و كهلا» (مائدة ١١٣)؛ وبقوة الروح القدس ينطق بمعجزة في المهّد؛ وبقوة الروح القدس يعلم الغيب، ويعلم الناس سبيل الله. وهو بقوة الروح القدس ايضاً يبرئ الآكّة والابرص، ويخلق الطيور ويحيي الموتى. أجل، البينات نزلت مع كل الرسل «لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب» (حديد ٢٥) وجاء موسى بالبينات (بقرة ٩٢) ومحمد اعطاه الله «آيات بيّنات» (بقرة ٩٩) لكنها آيات خطابية لا عملية. ولكن البينات التي ظهرت على يد عيسى ابن مريم بتأييد روح القدس لا شبيه لها «وآتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس» (بقرة ٨٧).

وهذا التأييد الالهي ميزة وخاصيّة ونعمة، والصفة الفارقة لرسالة المسيح حسب القرآن. الامر الذي يدل على سمو تلك الرسالة، وعلى سمو تلك الكرازة وذلك الوحي.

فالروح القدس علم المسيح كل انواع الوحي، وهو بعد طفل: «اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك - وعلى والدتك - اذ ايدتك بروح القدس... واذا علمت الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل» (مائدة ١١٣). لكن الله اختص عيسى بالانجيل «وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم صدقاً لما بين يديه من التوراة، وآتينا الانجيل فيه هدى ونور» (مائدة ٤٦). لقد حصر

النبوة والكتاب في بني اسرائيل ، والمسيح منهم ، ولكن ميّزه بالانجيل :
« ولقد ارسلنا نوحاً وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ... ثم
قفينا على اثرهم برسلنا . وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل ، (حديد ٢٩) .

بقوة الروح القدس وُلد المسيح نبياً : « قال اني عبد الله آتاني الكتاب
وجعلني نبياً » (مريم ٢٠) ، وجاء رسولاً الى بني اسرائيل « اذ قال عيسى ابن
مريم : يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم » (صف ٦) . منذ كونه في بطن
امه جعله « رسولاً الى بني اسرائيل اذ قد جئتم بآية من ربكم اذ اخلق لكم من
الطين ... » (آل عمران ٤٩) . وقد صار منذ وجوده على الارض نبياً
ورسولاً بمسحة الروح القدس التي مَسَحَتْهُ مسيحاً « اذ قالت الملائكة يا مريم
ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح » (آل عمران ٤٥) .

ويظهر القرآن فضل رسول الانجيل وسمو رسالته بالألقاب التي وصفه بها
دون سائر الانبياء « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى
مريم وروح منه » (نساء ١٧١) رسول الانجيل مُسَحَّ مَسِيحاً بقوة الروح
القدس لأنه كلمة الله وروح منه تعالى حلَّ في مريم ومنها ظهر على الارض
يهدي الناس الى سبيل الحق .

ولكن ماذا علّم المسيح عيسى ابن مريم؟ - علم الاسلام المسيحي : بشر
بدين الله ابي الايمان بالله واليوم الآخر . من المهد نادى : الله ربي وربكم فاعبدوه
هذا صراط مستقيم » (مريم ٣٦) . وطاف يكرز ويقول : « جئتمكم بآية
من ربكم فاتقوا الله وأطيعون : ان الله ربي وربكم فاعبدوه ، هذا صراط
مستقيم » (آل عمران ٥١) . وبطل الحياة كلها عاكفاً على نشر التوحيد
بالحكمة ، مؤيداً دعوته بالبيّنات : « ولما جاء عيسى بالبيّنات قال قد جئتمكم
بالحكمة ولإبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون : ان الله
ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » (زخرف ٦٤) . وهذا الاسلام
المسيحي أوحاه الله الى الحواريين تلاميذ المسيح : « واذا كفت بني اسرائيل
عنك اذ جئتهم بالبيّنات ، فقال الذين كفروا : إن هذا الا سحر مبين . واذا

أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي. قالوا: «آمنا واشهد بأننا مسلمون» (مائدة ١١٤) فقبل الحواريون توحيد عيسى وكفر ساثر اليهود: «فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون! ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين» (آل عمران ٥٠ - ٥٣). «ان ذلك اقرار منهم بأن دينهم الاسلام وأنه دين كل الانبياء» (الرازي) ولم يبشر المسيح عيسى ابن مريم الا بالتوحيد الشديد: «وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم: إنه من يُشركُ بالله فقد حَرَّمَ اللهُ عليه الجنة ومأواه النار» (مائدة ٧٢). وفي استجواب المسيح يوم الدين، يوم يجمع الله الرسل، يستنكر كل تعليم الا التوحيد الخالص: «واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله؟ قال: سبحانك! ما يكون لي أن أقول ما ليس بحق. ان كنتُ قلته فقد علمته. تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب! ما قلت لهم الا ما أمرتني به: أن اعبدوا الله ربي وربكم» (مائدة ١١٧).

ومن أهداف رسالة المسيح ان يثبت التوراة ويصدقها: «ورسولاً إلى بني اسرائيل... مصداقاً لما بين يدي من التوراة» (آل عمران ٤٩-٥٠)، وشهادته للتوراة شهادة لرسالته: «واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة» (صف ٦). فجاء الانجيل نوراً وهدى وموعظة للمتقين تصديقاً للتوراة: «وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور، ومصداقاً لما بين يديه من التوراة، وهدى وموعظة للمتقين» (مائدة ٤٦).

بيد ان هذا التصديق لا يمنع المسيح من تخفيف شدة بعض شرائع التوراة: «ورسولاً إلى بني اسرائيل... مصداقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم» (آل عمران ٥٠).

ومن مقاصد كرازة المسيح ان يوفق بالحكمة التي اوتيتها، بين البشر فيما

اختلفوا فيه : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ، فاتقوا الله واطيعون ، (زخرف ٦٤) .

واما طريقة تعليمه فقد كانت بالتصريح البسيط عن التوحيد ، وبالإيجاز المعجز : « ان الله ربي وربكم : فاعبدوه ! هذا صراط مستقيم ، (مريم ٣٦ ، زخرف ٦٤ ، آل عمران ٥١ ، مائدة ١١٦) فالصراط المستقيم هو التوحيد المسيحي ! وكانت طريقته بالاقوال والامثال ، الا ان القرآن لم يذكر منها شيئاً كثيراً ؛ فقد حفظ ذكر مثل الزرع : « ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطئه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، (فتح ٢٩) .

وجمعت الطريقة المسيحية الحكمة الى البينات : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ، (زخرف ٦٣) . بينات من الحكمة والهدى خلبت لبهم حتى عدوها سحراً : « واذا كفت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم : ان هذا الا سحر مبين » (مائدة ١١٠) وكانت تلك البينات معجزات من الاقوال والاعمال لم يسبق لها مثيل ، فصلها كأسهم نارياً في سورة المائدة (١١٣) : يكلم الناس في المهدي وكهلاً ، ويخلق الطيور وبجي الموقى ! وتلك الحوارق التي انفردت بها رسالة المسيح كانت بسبب تأييد الروح القدس الذي اختص به عيسى ابن مريم دون سواه : « وآتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس » (بقره ٨٧ و ٢٥٣) .

ومن خصائص رسالة المسيح معرفة الغيب والنبوءات : كان المسيح مطمئناً على سرائر الناس واسرارهم : « وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم : ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » (آل عمران ٤٩) . وكان يعرف الغيب المجهول من الغد . ويورد القرآن في سورة مريم نبوة المسيح الكبرى عن آخرته : سوف يموت ويبعث في الحال حياً . ويعطي القرآن معجزة نطقه في المهدي دليلاً على صحة نبوته هذه وصدقها : « والسلام علي يوم ولدت ويوم

اموتُ ويوم ابعث حياً» (مريم ٢٣) فهل اعجب واعظم من نبوة كهذه، ذات أثر دائم، ينطق بها وليد في مطلع وجوده؟ انها معجزة خارقة تؤيد نبوة خارقة! وانها نبوة مدهشة تشهد لمعجزة مدهشة!

وخاتم رسالة المسيح في القرآن المعجزات التي عجز عن مثلها جميع الانبياء. وهي على نوعين: المعجزات التي تمت في شخصه: الحبل والميلاد باعجوبة، والنطق حال وجوده، والتنبيؤ طفلاً، وارتفاعه حياً الى الله في آخر حياته الارضية - مات ام لم يميت - فهو آية للعالمين في شخصه منذ دخوله العالم الى حين خروجه منه.

ثم المعجزات التي تمت في غيره على يده، يوجزها القرآن في مقطعين: في آل عمران: «ورسولاً الى بني اسرائيل اناي قد جئتكم باية من ربكم: اناي اخلق لكم من الطين كهية الطير فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله. وابريء الآكمة والابرص. واحيي الموتى باذن الله» (آل عمران ٤٩) ثم في المائدة: «واذ تخلق من الطين كهية الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني. وتبريى الآكمة والابرص باذني. واذا تخرج الموتى باذني» (١١٠).

ردّد القرآن على الدوام هذه الحوارق الباهرة التي أجراها المسيح تأييداً لرسالته. ولا يذكر لنبي مها سما، ولا لمحمد نفسه، معجزة مثلها أو تدنو منها. وهو يصف عيسى ابن مريم بصفات هي أقرب الى الخالق منها الى المخلوق: إنه يخلق أحياء من الجماد، وانه يخرج الموتى من القبور أحياء، واعمال الإحياء والخلق من صفات الله عز وجل.

والمعجزة الكبرى التي اكتسحت ايمان الحواريين هي أنه أنزل عليهم مائدة من السماء: «إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا

وآخرنا، وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين . قال الله : وإني منزلها عليكم
 فمن يكفر بعد منكم فأني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، (مائدة ١١٥ -
 ١١٨) قال الرازي والجمهور الاعظم من المفسرين : « انها نزلت . . . وليس
 هذا شكاً منهم بالله بل باستجابته لعيسى بهذه المعجزة التي يقترحونها عليه :
 فقد رأوا معجزات أرضية وهنا يطلبون معجزة من السماء . وأي نبي اعطاه
 الله معجزة كهذه من السماء ؟ ! فآمن الحواريون بنزولها وآمن العالم على شهادتهم
 بها وظلت عيداً لهم لأولهم وآخرهم الى يوم القيامة .

لا يذكر القرآن رسالة لنبي حتى محمد، تأيدت بالحوارق مثل رسالة المسيح:
 معجزات حياة المسيح ومعجزات كرازته رفعت رسالته، بشهادة القرآن، فوق
 جميع الرسالات .

عيسى ابن مريم آية في آخرته

« إذ قال الله : يا عيسى ابن مريم إني متوفيك
ورافعك إليّ » (آل عمران ٥٥) .

مفرد

نصل الى نقطة حساسة من شهادة القرآن للانجيل والمسيح موضوعها نهاية
المسيح على الارض؟

إن الانجيل المقدس يكرس ثلاث صفحاته ليسرد تفاصيل استشهاده
المسيح بيد اليهود في أيام ولاية بيلاطس البنطي من قبل رومة على اليهودية ،
تأيداً منه لرسالته وتعليمه اللذين لم ينكرهما أمام الموت المحتوم : لقد زكسى
شهادته بتضحية حياته ؛ والشهادة المطبوعة بخاتم الدم لا تنقض . فيخبرنا
الانجيل أن المسيح قد أوقف وحوكم وتألّم وصلب ومات على الصليب ثم قام
من القبر في اليوم الثالث وصعد حياً الى السماء . والانجيل كله ، والدين المسيحي
كله مبني على فداء البشرية من خطاياها باستشهاده المسيح . فهل يمكن أو يعقل
أن يزوّر كتاب برمته تغديه الملايين من الناس بالمهج والارواح ، وهؤلاء
الملايين قد اختلفوا في عقائدهم المستمدة منه وفي فهم بعض آياته الخطيرة ،
ولكن لم يختلفوا في نص الكتاب الذي ائتمنوا عليه وكانوا عليه شهداء .

والنصارى انتشروا في كل زمان ومكان ، وافترقوا فرقاً وجماعات مدة
٦٠٠ سنة قبل ظهور القرآن ، وراحوا يبشرون في كل موضع بحقيقة موت
المسيح التاريخية على الصليب . فكيف يمكن ان تكذب شعوب برمتها ،
اتفقت جميعها ، مع اختلافها في غير أمر ، على هذه الشهادة لحادث جليل
محسوس مشاهد منقول بالتواتر ؟

والقرآن ينقل لنا ايضاً شهادة شعب اليهود تحت كل سماء، ونبجّتهم بكفرهم وقولهم: «إنا قتلنا المسيح، عيسى ابن مريم» (نساء ١٥٧)؛ شعب بكامله يشهد لحادث خطير محسوس قاموا بتثليله، ونقلوا خبره بالتواتر حيث رحلوا وحلتوا، ونأتي فنكذب شهادتهم ونكذب عيونهم وأيديهم وآذانهم وألسنتهم؟ وذلك بعد ٦٠٠ سنة من جريان الحوادث وتواتر الشهادة، التي لم يرتفع صوت من النصارى أو اليهود أو الوثنيين ينقضها أو يطعن فيها!!

وقد شعر العلماء المسلمون بهذا الاشكال الضخم يوجه الى مقالة من أنكر موت المسيح من المسلمين. ونقل العلامة الرازي: «الاشكال الخامس: ان النصارى على كثرتهم في مشارق الارض ومغاربها وشدة محبتهم للمسيح وغلوهم في أمره أخبروا أنهم شاهدوه مقتولا مصلوباً فلو أنكرنا ذلك كان طعناً في ما ثبت بالتواتر، والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوة محمد وعيسى وسائر الأنبياء».

اذن موت المسيح حقيقة تاريخية رددت الشعوب المختلفة والاجيال المتعاقبة صداها مدة ٦٠٠ سنة قبل القرآن. فهل في القرآن صدى هذه الحقيقة التاريخية، أم انه ينفي، كما يزعمون، قتل المسيح وموته؟

ان موقف القرآن العام من هذا الموضوع لرائع!

فهو يشهد أنه كما دخل المسيح العالم بمعجزة فريدة خرج منه بمعجزة فريدة لا مثل لها في تاريخ البشرية، وتاريخ الانبياء والمرسلين. فعيسى ابن مريم - مات ام لم يم - قد ارتفع حياً الى السماء حيث لم يزل حياً عند الله الى قيام الساعة: «اذ قال الله، يا عيسى ابن مريم اني متوفيك ورافعك الى وجاهل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة» (آل عمران ٥٥). ونقول ان معجزة ارتفاع المسيح الى السماء حياً في آخر حياته على الارض - دون ان يذوق طعم الموت شأن كل بشر وكل نبي ورسول - أغرب واعظم في جانبه من موته وقيامته وصعوده: في هذه المقالة مجد جديد للمسيح لم يحلم به بشر أو نبي إلا

وهو استثناءه من فريضة الموت العامة التي لا يستثنى منها احد! فبذل معجزة واحدة لآخرة المسيح يجدون معجزتين: استثناءه من الموت، وارتفاعه حياً الى الله.

اولاً : شهادة الفرائد بموت المسيح

« وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلما توفيتني
كنت انت الرقيب عليهم » (مائدة ١٢٠)

أ- النصوص التي تذكر آخرة المسيح بحسب تاريخ نزولها

(١) سورة مريم: « والسلام عليّ يوم ولدتُ ويوم اموتُ ويوم أُبعثُ
حياً » (٣٣).

(٢) سورة البقرة: « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيناً من بعده بالرسول
وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وايدناه بروح القدس: أفكلما جاءكم رسول بما
لا تهوى أنفسكم استكبرتم: ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » (٨٧) (قد يكون
فيه تلميح لموت المسيح).

(٣) سورة آل عمران: « قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى ياتينا
بقربان تأكله النار. قل قد جاءكم رسل قبلي بالبيّنات وبالذي قلتم فلم قتلتموه
إن كنتم صادقين » (١٨٣). (قد يكون فيه تلميح لموت المسيح).

وايضاً: « إذ قال الله: يا عيسى ابن مريم إني متوفيك ورافعك اليّ ومطهرك
من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الي يوم القيامة » (٥٥).

(٤) سورة النساء: « وقولهم (اليهود): إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم،
رسول الله! - وما قتلوه! وما صلبوه! ولكن شبه لهم. وإنّ الذين اختلفوا

فيه لفي شك منه . ما لهم به من علم الا اتباع الظن . وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ، (١٥٦) . (هذا النص هو سبب كل جدل) .
وأيضاً : « وإن من اهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ، (١٥٧) .

٥) سورة المائدة : « واذ قال الله : يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ - قال، سبحانك، ما يكون لي أن أقول ما ليس بحق : إن كنتُ قلتُ فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب . ما قلتُ لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم . و كنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم = فلما توفيتني كنتُ أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ، (١١٦ - ١٢٠) . (وهذا النص هو آخر ما نزل في آخرة السيد المسيح) .

٢ تحليل ونقد

نرى من جميع هذه النصوص المذكورة انها تؤكد تصريحاً أو تلميحاً « وفاة » المسيح ، ما خلا الآية ١٥٧ من سورة النساء « فيظهر » أنها تنفي القتل والصلب ، وتخلق بذلك المتناقضات بين التاريخ العام الذي تدعمه شهادة النصارى واليهود والرومان والتاريخ الخاص الذي تبدؤه هذه الآية الوحيدة ؛ وبين الانجيل المبني جميعه على حادث الصلب الفدائي وبين القرآن الذي يحصره معطياته ، بدون مبرر ، في هذه الآية ؛ واخيراً بين سورة النساء وسائر السور التي قبلها (آل عمران ، مريم) والتي بعدها (المائدة) .

وازاء هذه المشكلة المستعصية يذهب المفسرون مذاهب متباينة متناقضة :

أ) القائلون بالجماز : يجنح اكثر المتأخرين من المسلمين على قصر رواية القرآن عن آخرة المسيح على سورة النساء ، وعلى تفسير كل ما تبقى من سائر

السور على ضوءها . وقد يجمع هؤلاء القوم على أخذ « الوفاة » المذكورة في آل عمران ٥٥ والمائدة ١٢٠ بالمعنى المجازي اي وفاة النوم استناداً الى قوله « وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه » (انعام ٦٠) وقوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها : فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (زمر ٤٢) .

ولكن هؤلاء القوم نسوا ان القرآن يأخذ « الوفاة » بالمعنى الحقيقي اي الموت خمساً وعشرين مرّة . ولم ترد بالمعنى المجازي الا في الموضعين المذكورين بسبب قرينة لفظية تحملها على المجاز « يتوفاكم بالليل » (انعام ٦٠) و « يتوفى الانفس في منامها » (زمر ٤٢) . وبدون قرينة لفظية أو معنوية تقيّد المعنى يجب حمل اللفظ على معناه الحقيقي الوضعي البديهي . والقرآن ذاته يشعر بأن المعنى الحقيقي « للوفاة » هو الموت « الله يتوفى الأنفس حين موتها » لذلك لما اخذ « الوفاة » على المجاز اضطر الى تبيان ذلك بقرينة لفظية فأضاف « الله يتوفى الانفس حين موتها ، والتي لم تمت ، في منامها » . وفي النصوص كلها التي تذكر « وفاة » المسيح لا توجد ادنى قرينة لفظية أو معنوية تحمل معنى الوفاة على المجاز بل بالعكس فالقرائن المعنوية واللفظية تتطلب وفاة الموت .

٢ القائلون بالاستيفاء : وهناك فئة تفسر معنى « الوفاة » لغة « بالاستيفاء » من استوفى الشيء وتوفى الشيء أي أخذه كاملاً . فقوله « اني متوفيك معناه مستوفى أجلك المسمى » . وهذا ما ذهب اليه الزمخشري والبيضاوي ، لتستقيم نصوص القرآن وتنسجم في شأن آخرة المسيح .

وفات هؤلاء القوم أن الكلام مركب من ألفاظ تستكمل معانيها في تركيبها وإن احتملت لغةً ومفردةً معاني عديدة . فالوفاة قد تعني « الاستيفاء » بحد ذاتها ولكن في تركيب الكلام المفيد لا تعني في لغة العرب ولغة القرآن كله الا الموت ، ما لم تخرج بها قرينة لفظية أو معنوية عن هذا المعنى .

وقد اختصر الرازي تفاسير المفسرين بقوله: «يا عيسى اني متوفيك» (آل عمران ٥٥) ونظيره قوله: «اني متوفيك» (مائدة ١٢٠): اختلف اهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين (احدهما) اجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير، (والثاني) فرض التقديم والتأخير. أما الطريق الاول فبيانه من وجوه: ١ اني متمم عمرك الى أجلك؛ ٢ متوفيك أي بميتك وهو مروى عن ابن عباس قال مع وهب توفي ثلاث ساعات ثم رفع، ومع محمد بن اسحاق توفي سبع ساعات ثم احياه الله ورفعته اليه؛ ٣ قال الربيع بن أنس انه تعالى نوفاه حين رفعه الى السماء؛ ٤ يحمل الالفاظ على ظاهرها من موت ورفع ولكن كيف ومتى فلا يذكره؛ ٥ متوفيك عن شهواتك؛ ٦ التوفي هو أخذ الشيء وافياً أي كاملاً أي اخذه بجسده وروحه؛ ٧ متوفيك أي اجعلك كالمتوفي في نظرهم برفعك؛ ٨ التوفي هو القبض، يقال توفي واستوفي، وهو رفعه؛ ٩ أن يقدر حذف المضاف اي متوفي عمك. - والطريق الثاني لا بد من تقديم وتأخير في آية آل عمران، فالواو لا تفيد الترتيب، فيُقدّم الرفع وتؤخر الوفاة وتحمل على ظاهرها بالموت. واعلم ان الوجوه التي قدمنا نغني عن التزام مخالفة الظاهر.

وهكذا ما أخذ «الوفاة» بمعنى «الاستيفاء» الا قول من عشرة أقوال. وأكثر الاقوال تقتضي حمل اللفظ على ظاهره بمعنى الموت.

٣ الآخذون بمبدأ النسخ: تشهد حيرة المفسرين لاستنباط تفسير منسجم بين النساء من جهة وآل عمران والمائدة من جهة اخرى. وهذه الحيرة وهذا الارتباك شاهد على وجود اشكال لم يسلكوا بعد الى حله السبيل السوي.

وظن قوم آخرون ان لهم مخرجاً في مقالة الناسخ والمنسوخ فقالوا: ان ما جاء في سورة النساء ينسخ ما ورد في آل عمران ومريم. وعليه ظل الرأي العام الاسلامي على ان المسيح لم يميت. ولكن فوات هؤلاء القوم ان النسخ - إن قبل كعبداً في تفسير كلام الله - لا يقع إلا في الاحكام من أمر أو نهي،

ولا يجوز البتة ان يُسند الى الاخبار : فالخبر أمر جرى على وجه معين لا تقدر قدرة ان تجعله لم يكن ، « وكان امر الله مفعولاً » . فبعد ان شهد في مريم وآل عمران ان المسيح سيموت ويمات فلا يجوز أن يكذب هذا الخبر بقوله في النساء : « وما قتلوه وما صلبوه ! . . . وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه » ! اي انه لم يميت بأي حال من الاحوال .

وهب وقوع النسخ في هذا الخبر بعينه ، فالمعروف بديهياً ان النسخ يتناول ما قبله ، ولا يقع فعله على ما بعده . وهب ان الآية ١٥٦ من النساء قد نسخت وفسرت ما قبلها من سورة مريم وآل عمران ، فكيف تنسخ ما بعدها من سورة المائدة التي لم تكن بعد قد نزلت ، ولما نزلت لم يرد شيء بعدها عن آخرة المسيح ؟ فما النسخ هنا كما ترى سوى المَسْخُ بعينه !

٤ اسطورة الشبه : وهناك اسطورة غريبة يتناقلها القوم ، ويسفُّ بعض المفسرين الى الأخذ بها ، ألا وهي قصة « الشبه » ؛ ومضمونها انه لما مكر اليهود بالمسيح ليقتلوه مكر الله بهم ، فألقى شبه عيسى على غيره فأخذ هذا الغير المسكين وُقْتِلَ بِدَلِّ الْمَسِيحِ فيما المسيح عيسى ابن مريم يُرْفَعُ حياً الى السماء (نساء ١٥٧) وكان الله خير الماكرين (آل عمران ٥٤) .

فهذا التعبير « شبه لهم » من هذه الآية « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » (نساء ١٥٦) أصل الرواية التي اخرجوها . وقد اثار جدلاً طويلاً عقيماً وانقسم القوم حول الموضوع فرقاً : هل قُتِلَ احد بدل المسيح ام لا ؟ وعند من قالوا بقتول بدل المسيح هل ألقى على المقتول شبه عيسى ام لا ؟ وهل يجوز القاء شبه انسان على انسان آخر ؟ وبعد ان يسرد الرازي برصانته المعهودة روايات الشبه الملقى بختم بقوله : « وهذه الوجوه متعارضة متدافعة ، والله اعلم بحقائق الامور » .

(١) نقلناه في تعليقنا على سورة النساء .

ثم يورد الرازي اشكالات ستة لا مرد لها على فساد نظرية « الشبه » الذائفة بين عامة المسلمين : « فكيفما كان ففي القاء شبه عيسى على الغير اشكالات : (الاول) انه ان جاز ان يقال ان الله تعالى يلقي شبه انسان على انسان آخر فهذا يفتح باب السفسطة ويفضي ايضاً الى القدح في التواتر : ففتح هذا الباب اوله سفسطة وآخره ابطال النبوءات بالكلية . (الثاني) ان الله ايدته بروح القدس جبريل ، فهل عجز هنا عن تأييده ؟ وهو نفسه كان قادراً على احياء الموتى فهل عجز عن حماية نفسه ؟ (الثالث) ان الله تعالى كان قادراً على تخليصه برفعه الى السماء فما الفائدة في القاء شبهه على غيره ، وهل فيه الا القاء مسكين في القتل من غير فائدة اليه ؟ (الرابع) بإلقاء الشبه على غيره اعتقدوا أن هذا الغير عيسى مع انه ما كان عيسى ، فهذا كان إلقاء لهم في الجهل والتلبيس ، وهذا لا يليق بحكمة الله . (الخامس) ان النصارى على كثرتهم في مشارق الارض ومغاربها وشدة محبتهم للمسيح وغلوهم في امره أخبروا أنهم شاهدوه مقتولاً مصلوباً ، فلو أنكرونا ذلك كان طعننا فيما ثبت بالتواتر والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوة محمد وعيسى وسائر الانبياء . (السادس) ألا يقدر المشبوه به ان يدافع عن نفسه انه ليس بعيسى ، والمتواتر انه فعل . ولو ذكر ذلك لاشتهر عند الخلق هذا المعنى . فلما لم يوجد شيء من ذلك علمنا ان الامر ليس على ما ذكرتم .

لذلك يجب رفض خرافة « الشبه » الشائعة بين المسلمين الى حيث لا رجعة . ورفضها لا يغير من موقف القرآن ، ومقالة النساء ، شيئاً .

هـ القائلون بالارجاف : بقي قول من قال : « لم يُقتل أحد ، ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس » ، واليه يعيل الرازي . قال البيضاوي ايضاً : « وشبه مسند الى الجار والمجور » لهم ، كأنه قيل : ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتول ، او وقع لهم التشبيه في الأمر على قول من قال لم يُقتل أحد ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس . - نقول لا تجوز فرية على شعوب مختلفة مدة مئات السنين ! . ولا شيء ينقض تعليل الزمخشري ونفسيره

لقوله « شبه لهم » : « شبه مسند الى ماذا ؟ إن جعلته مسنداً الى المسيح فالمسيح مشبهٌ به ، وليس بمشبه . وإن اسندته الى المقتول ، فالمقتول لم يجر له ذكر ! - قلتُ هو مسند الى الجار والمجرور (لهم) كقولك خيّل اليهم . وهكذا فليس من ضرورة لغوية لاسطورة الشبه والتشبيه .

ومعنى التعبير بسيط له امثاله في العربية : « شبه لهم » اي « خيّل اليهم » (الزمخشري) أو « وقع لهم التشبيه في الأمر » (البيضاوي) أو اشتبه الامر عليهم . فاسطورة « الشبه » ومقالة المقتول بدل المسيح ، باطلة لغوياً ومنطقياً وتاريخياً فيجب طرح هذه السخافة نهائياً .

٦ استنتاجات وتطبيقات : وبناءً على ما تقدم نقول :

أولاً : إن التعارض في آي القرآن عن آخرة المسيح موجود لا سبيل الى انكاره اذا أصرت القوم على فهم الآية ١٥٦ من سورة النساء حسب « ظاهرها » الذي ينكر موت المسيح وقتله وصلبه^١ . ان صراحة وشدة نفى القتل والصلب والموت في سورة النساء حمل القوم على « تدبر » معنى الوفاة في آل عمران والمائدة على غير معناها الحقيقي . وهي محاولة فاشلة كما رأيت .

فقبل سورة النساء يعلن القرآن مرتين تصريحاً ومرتين تلميحاً بموت المسيح وقتله .

(١) ففي سورة مريم المكية يتنبأ المسيح في مهده عن حياته وآخرته بقوله « والسلام عليّ يوم ولدتُ ويوم أموتُ ويوم ابعثتُ حياً » (٣٣) .

(١) تخدلق قوم فقالوا : ان الآية ١٥٦ من سورة النساء لا تنفي الموت بل القتل والصلب لا غير . - إن فهم هؤلاء قصير لأنّ تصريحات القرآن عن رفع المسيح حياً تنفي كلّ موت بقتل أو بغيره « وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله اليه » : ان التمسك بظاهر الآية يقضي استثناء المسيح من كل انواع الموت .

قال قوم لا يذكر القرآن هنا موت المسيح الوهمي الذي حصل عند مجيئه الاول بل موته الحقيقي الذي سيتم عند مجيئه الثاني قبل قيام الساعة .

لا شك ان القرآن يعني موت المسيح الحقيقي وبعثه الحقيقي كما يعني مولده الحقيقي الذي يقص خبره . ولا شك ان القرآن يعني موته الحقيقي الذي ختم به حياته بعد ظهوره الاول على الارض كما عني ذلك عن يحيى بن زكريا الذي ختم ذكره بالكلام ذاته «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً» : فكما مات يحيى مات عيسى : فالمشهور ان هذا السلام يصف حادثاً تاريخياً مماثلاً، وموتاً حقيقياً لا مجاز فيه ليحيى كما للمسيح .

ولا تنسَ أن كلام عيسى عن نفسه في مهده (٢٩) نبوءة منه عن آخرته، مدعومة بمعجزة نطقه الحارقة : فإذا كان المسيح لم يمت كانت نبوءته كاذبة، وشهادته لنفسه بهاتين المعجزة والنبوءة كاذبة ! ومعجزة نطقه في مهده زوراً وبهتاناً ! وحاشى ! واذا حملنا تحقيق النبوءة الى آخر العالم، ضاع مغزاها على اهل زمانه والاجيال المتعاقبة اذ لا يدري احد متى تتحقق .

فعندنا في سورة مريم شهادة صريحة لا ريب فيها على حقيقة موت المسيح وانبعائه في شكل نبوءة ترتكز على معجزة . وقول من قال : الموت لا يعني القتل، أو هو الموت الآجل لا العاجل، حذقة فارغة ينقضها سياق الحديث في السورة كلها .

(٢) في سورة آل عمران المدنية يسرد قصص آل عمران مطولاً ويختتمه بهذا التصريح عن آخرة المسيح لما مكر اليهود به ليقتلوه (٥٤) : «اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك اليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة» (٥٥) .

هذا ايضاً اقرار لا ريب فيه عن حقيقة وفاة المسيح وانبعائه ورفعته الى السماء . وتفسير الوفاة هنا بمعنى النوم كما يريد البعض . أي رفعه الله اليه في سنة الكرى - تفسير سخيف لا قرينة لفظية او معنوية تدل عليه . وجمهور

المفسرين على ان القرآن يعني وفاة الموت كما يتضح جلياً من سورة المائدة (١١٧) حيث الوفاة ترد معارضة للحياة .

قال الرازي : « روي عن ابن عباس ومحمد بن اسحاق انها قالوا : متوفيك اي يميتك ثم أقامه الله ورفعته الى السماء . وقال وهب توفى ثلاث ساعات ثم رفع الى السماء . وقال محمد بن اسحاق توفى سبع ساعات ثم احياه الله ورفعته . وختم البيضاوي بقوله : « وقيل أماته الله سبع ساعات ثم رفعه الى السماء واليه ذهب النصارى » .

لا يوجد مفسر واحد في الاسلام وغيره يستطيع ان يجزم بأن الوفاة هنا لا تعني ايضاً الموت؛ قال البيضاوي: «التوفي أخذ الشيء وافياً والموت نوع منه». وسياق الحديث (٥٤-٥٦) يؤيد ذلك : مكر اليهود بالمسيح وقتلوه، فمكر الله بهم فتوفاه ورفعته اليه، وهكذا «كان الله خيراً الماكرين» .

(٣) وهناك في سورة البقرة نلميح يتضمن معناه الكامل قتل المسيح : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا ابن مريم البيئات وايدناه بروح القدس : أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم؟ ففريقاً كذبتم! وفريقاً تقتلون! » (٨٧) . يذكر المفسرون من الفريق المقتول زكريا ويحيى ، لا عيسى . مع ان القرآن لا يذكرهما هنا بل يسمي صراحة موسى وعيسى ، ويشمل بينهما باقي الرسل بكلمة عابرة ، أفلا يقع التكذيب على موسى والقتل على عيسى ؟

(٤) وتلميح آخر في آل عمران أوضح : « قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار . - قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبيئات وبالذي قلتم فلم قتلتم قتلتم ان كنتم صادقين؟ » (١٨٣) - من هو الرسول الذي جاء بالقربان « الذي قلتم » وقتلوه؟ راجع قصص القرآن كله عن الانبياء جميعاً ، فلا ترى غير عيسى ابن مريم وحده قد أنزل على تلاميذه قرباناً او مائدة من السماء (مائدة ١١١-١١٥) . فهو اذن رسول القربان الذي قتلوه (١٢٠) .

وبعد سورة النساء التي ظاهرها ينفي موت المسيح وقتله يعود القرآن في آخر حياة النبي العربي يشهد بحقيقة موت المسيح في سورة المائدة التي بعدها لا ينزل شيء عن آخرة المسيح :

« و كنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم = فلما توفيتني كنتَ انت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد » (١٢٠) .

هذا النص هو الصخرة التي تتحطم عليها جميع محاولات الذين ينكرون شهادة القرآن بموت المسيح . فالوفاة هنا تعني الموت والموت دون سواه، وتعني الموت الحقيقي لأنها ترد معاكسة للحياة : « ما دمت فيهم = فلما توفيتني » . فهي شهادة صريحة وما من شك فيها . ويريد القرآن موت المسيح في ختام رسالته، لا موته في آخر العالم قبل قيام الساعة ، لأن الله يستجوبه عن عبادته بعد رسالته : « أنت قلت للناس اتخذوني واممي الهين من دون الله » (١١٩) فينكر المسيح ان رسالته تضمنت شيئاً من ذلك (١١٩ - ١٢٠) ويقول شهدت فهم بالتوحيد ما دمتُ فيهم فلما توفيتني صرتَ انت الرقيب عليهم (١٢٠) فالوفاة عقب رسالته في الحال . وموت المسيح عند قيام الساعة لا يتروك مجالاً لأحد كي يعبد إلهاً من دون الله . وهذه الشهادة على لسان المسيح نفسه لا مرد لها لأنها من يوم الدين حيث ينفع الصادقين صدقهم (١٢٢) . وهي شهادة نهائية لا ينسخها شيء ولا يفسرها شيء لأنها آخر شيء ورد في القرآن عن آخرة المسيح .

وهكذا فقد تبين لنا بوضوح ان القرآن قبل سورة النساء في مكة والمدينة، وبعد سورة النساء، في آخر القرآن (سورة المائدة) يشهد دون التباس البتة بحقيقة موت المسيح في ختام رسالته . فاذا تمسكنا بظاهر الآية ١٥٦ من النساء « وما قتلوه وما صلبوه » بمعنى انكار موت المسيح وقتله، نجد انفسنا أمام تناقض صريح فاضح .

ثانياً : ان الطريق التي سلكوا إلى ازالة هذا التناقض الظاهر ليست بالطريق السوي : إنهم يفسرون الكل بالبعض ! يريدون ان يفهموا كل آي

القرآن عن آخرة المسيح على ضوء آية واحدة (نساء ١٥٦). لا تؤخذ نظرية او عقيدة في كتاب منزل أو غير منزل من نص واحد، بل من مجموع النصوص الواردة في المعنى ذاته. وعندنا في القرآن أربعة أو ستة نصوص عن آخرة المسيح، تشهد جميعها الا واحداً بموت المسيح وقتله، فهل من العقل والمنطق ان نهمل الكل لنتمسك بجزء واحد؟!

أنخلق بهذا الموقف الشاذ تناقضاً في القرآن بين سوره، وبين الانجيل والقرآن، وبين تفسيرهم المخطئ والتاريخ العام عند النصارى واليهود والامميين؟ وقد قال القرآن عن نفسه: « افلا يتدبرون القرآن؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، (نساء ٨٢) .

إن الطريق السوي هي في فهم آية النساء الوحيدة على اضواء جميع آيات القرآن عن حقيقة موت المسيح وقتله. فالمنطق يقتضي فهم البعض على نور الكل. والطريق السوي هي عكس التي سلكوا.

لقد « تدبرنا » الآية ١٥٦ من سورة النساء على انوار ما قبلها وما بعدها فوجدناها لا تتعارض معها. وسياق الكلام في النص المشبوه يؤكد ما نحن ذاهبون اليه: فالقرآن يسفه اليهود على زعمين: « كفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً! وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم ». قال البيضاوي: « وإنما ذمهم الله تعالى بما دلّ عليه الكلام من جرأتهم على الله وقصدهم قتل نبيه المؤيد بالمعجزات القاهرة، وتبجحهم به، لا بقولهم هذا على حسب حسابهم ». إنه يسفههم على تبجحهم الفارغ، لا على حقيقة القتل والصلب والموت لأن مكر الله بهم بإحياء المسيح ورفع حياً الى السماء كان أشد من مكرهم بنبيه. فقتلهم اياه ليس بالقتل الذي يتوهمون وصلبهم اياه ليس بالصلب الذي يظنون اذ ما لبث ان انبعث حياً للحال وصعد الى السماء حيث رفعه الله اليه. نقل الرازي: « اجعلك كالمتوفى في نظرهم برفعك اليّ ».

ظنوا انهم قضاوا على المسيح عيسى ابن مريم رسول الله قضاءً مبرماً ولاشوا

ذكره الى الابد ، فلا حاجة اذن لأن يذكره النبي العربي لهم . ولكنهم قد خاب ظنهم فما قتلوه نهائياً وما قضاوا عليه قضاءً مبرماً أي «وما قتلوه يقيناً، اذا حياه الله في الحال ورفع اليه وكان الله عزيزاً حكيماً، ومن ثم فلا بد لهم من الايمان به .

ومجموع التعابير في الآية يؤيد ان تبجحهم بالقضاء نهائياً على المسيح: غرور (١) شبه لهم وخيل اليهم انهم قضاوا عليه قضاءً نهائياً : «وما قتلوه ذلك القتل وما صلبوه ذلك الصلب، ولكن شبه لهم، واشتبه الأمر عليهم . (٢) وهم ايضاً مختلفون فيما بينهم على زعمهم ذلك وفي شك من قولهم : «وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه» . (٣) تبجحهم الفارغ من باب الظن لا من باب العلم اليقين : «ما لهم به من علم الا اتباع الظن» . (٤) أجل «ما قتلوه يقيناً» أي نهائياً وما قضاوا عليه الى الابد كما يفتخرون، بل رفعه الله اليه حيث لم يزل حياً عند الله . (٥) فالذي قتلوه وصلبوه ثم هو قام منبعثاً حياً ورفع الله اليه كان كأنه لم يقتل ولم يصلب، وكان الله عزيزاً حكيماً، قادراً على اجراء هذه المعجزة.

والآية ١٥٧ التي تؤكد موت المسيح صراحة نوجب علينا فهم الآية ١٥٦ كما رأيت . يقول : «وان من أهل الكتاب الا ليؤمننَّ به قبل موته» . يوجد غموض في الضمائر . ولكن سياق الحديث كله من ١٥٤ - ١٥٧ يدل على ان المقصود بها جميعاً عيسى ابن مريم : لا بد لكل كتابي ان يؤمن بالمسيح قبل موته . فأمنوا بالمسيح يا يهود، ولا تبجحوا بقتله : فلا مندوحة لكم عن الايمان به .

فاستنتج أنه اذا كان ظاهر القول ينفي قتل المسيح وصلبه فإن باطنه يؤكد . وهكذا تنسجم جميع تصريحات القرآن عن آخرة المسيح ؛ اما اذا أصر القوم على موقفهم بأن الآية ١٥٦ من النساء تنفي قتل المسيح وصلبه، فإن التناقض بينها وبين سور مريم وآل عمران والمائدة قائم لا يزول على الاطلاق . وعلى كل حال ان كان ثمت تطور أو تعارض فقد استقر رأي القرآن

وانتهى بصراحة المائدة : فإنه لا اشكال على شهادة القرآن بعد تصريح سورة المائدة : « و كنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم » (١٢٠) .

ثانياً : صعود المسيح الى السماء

« بل رفعه الله اليه » (نساء ١٥٨)

معها يكن من مسألة موت المسيح التاريخية في القرآن فالقرآن الكريم يشهد بأن آخرة المسيح على الارض ختمت بمعجزة كما بدأت بمعجزة .

فسواء مات المسيح وقام أم لم يميت بل ظل حياً الى الأبد ، فهذا لا يقلل من قيمة شهادة القرآن للانجيل والمسيح : فالمسيح حيٌ « رفعه الله اليه » (نساء ١٥٨) ولا يزال حياً عند الله . وتلك ميزة انفرد بها المسيح على جميع البشر وعلى جميع الانبياء والمرسلين . فعيسى ابن مريم آية في مولده للعالمين ، وهو آية أعظم في آخرته : وهاتان المعجزتان الفريدتان هما افضل شهادة شهد بها الله لولي أو نبي أو رسول أو مخلوق أبياً كان .

والقول بان المسيح لم يميت او لم يذوق طعم الذل الأكبر كسائر البشر المحكوم عليهم بالموت لا يُستثنى منهم أحد ، قول أعظم من الاعتراف بموته وقيامته لو فطنوا : انه ينقل عيسى ابن مريم من صف البشر المائتين الى صف غير البشر الخالدين .

« ورفع المسيح حياً الى الله » عقيدة راسخة في القرآن ، يؤكدتها في مكة والمدينة ثلاث مرات : في سورة مريم : « والسلام علي يوم ولدت يوم اموت يوم أبعث حياً » (٣٣) يتنبأ منذ ميلاده عن بعثه حياً ، ويخاطبه الله مؤكداً رفعه اليه : « يا عيسى ابن مريم اني متوفيك ورافعك الي » (آل عمران ٥٥) ؛ وقد ينكر قتله ولكن يشدد على التأكيد برفعه : « وما قتلوه يقيناً ! بل رفعه

الله اليه! (نساء ١٥٨) : ما قتلوه نهائياً كما فعلوا بغيره من الانبياء، لان الله رفعه حالاً اليه فكأنه لم يقتل ، وكأنه لم تسر عليه سنة الموت ، فهو اقوى من الموت !

هل قال القرآن مثل هذا عن بشر؟ هل نسب مثل هذا الى نبي او رسول؟ هل أشار القرآن الى ان محمداً ، « خاتم النبيين » ، قد نال شيئاً من هذا؟ فالقرآن والحديث والتاريخ العام تشهد جميعاً بأن محمد قد مات كسائر الانبياء، وحواه قبر في المدينة المنورة : « فما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم؟ » (آل عمران ١٤٤) .

ويقول القرآن عن مصير « خاتم النبيين » : « عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً » : فالقرآن اذن يؤكد ان المسيح صعد في الحال حياً الى السماء فيما ينتظر محمد ان يُبعث مع سائر الناس يوم يبعثون ؛ ويؤكد انه « عسى » ان يبعث محمد « مقاماً محموداً » ، بينما يجزم ثلاث مرار ان « الله رفع عيسى اليه » وهو عنده حيّ الى الأبد « ومن المقربين » . قال الرازي : « رفع عيسى عليه السلام الى السماء ثابت بهذه الآية . ونظير هذه الآية قوله في آل عمران « رافعك اليّ » ودلّ ذلك على ان رفعه اليه أعظم في باب الثواب من الجنة ومن كل ما فيها من اللذات الجسمانية . وهذه الآية تفتح عليك باب معرفة السعادات الروحانية » .

ثم ما معنى قوله « عسى » ؟ . . . وما مدى اليقين في هذا التمني ؟ . . .

وهكذا يشهد القرآن أن واحداً لا غير بين البشر ، ودون الانبياء والمرسلين بلا استثناء، كان اقوى من الموت ، فلم يكن له عليه من سلطان : الا وهو عيسى ابن مريم . بهذه المعجزة الفريدة جعل القرآن المسيح نهائياً ، فوق البشر اجمعين لا يستثنى أحداً من الانبياء والمرسلين .

فكان عيسى ابن مريم في آخرته كما كان في مولده آية للعالمين .

عيسى ابن مريم آية في يوم الدين

« وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ » (زخرف ٦١)

تتعدد الميزات التي انفرد بها المسيح بين الانبياء والمرسلين حسب شهادة القرآن الكريم . وها هو يُسند الى المسيح دوراً عظيماً في آخر العالم ، ويوم الدين ، لم يسنده الى غيره .

اولا : عيسى ابن مريم « عَلَّمَ » للساعة

نقرأ في سورة الزخرف : « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا : آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ؟ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَبِيثُونَ . ان هُوَ الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون . وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ : هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . »

قرأنا « عَلَّمَ » للساعة ، وبعضهم يقرأ « عَلَّمَ » للساعة . قال الزمخشري « وانه لَعَلَّمَ » للساعة أي شرط من أشراطها يُعَلِّمُ بها فسُمي الشرط علماً لحصول العلم به . وقرأ ابن عباس « لَعَلَّمَ » وهو العلامة . وقرئ « لِلْعَلِّمِ » . وقرأ أبي « وَإِنَّهُ لَذَكَرٌ لِّلسَّاعَةِ » على تسمية ما يذكر به ذكراً كما سُمي ما يُعَلِّمُ به علماً . وعن الحسن : « ان الضمير للقرآن لأن فيه الإِعلام بالساعة » ؛ كذلك البيضاوي .

لا يمكن ان يعود الضمير في « وانه » الى القرآن اذ لا ذكر له في المقطع كله . وسياق الحديث كله ، من قبل ومن بعد ، يعود الى موضوع واحد لا

رب فيه « عيسى » . قال الجلالان : « وانه (عيسى) لتعليم الساعة (نعلم بتزوله) . وقوله عن عيسى انه « عَلِمَ » للساعة اي علامة لها يُعرف ذنوبها من مجيئه وظهوره ثانية ، أو « عَلِمَ » للساعة اي معرفة لها بظهوره كشرط من اشراطها، قولان يتقاربان .

هذه الآية إخبار عن دور المسيح قبل يوم الدين، حين تحين « الساعة » الآذنة بحلول الدينونة . ومعلوم ان لفظ « الساعة » مرادف ليوم الدين . وقد ورد الخبر عقب جواب جدلي عن شخصية المسيح . قال لهم : « وَسئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسَلِنَا أَجْعَلُنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ ؟ » (٤٥) . فأجابوه : « والنصارى أهل كتاب وهم يعبدون عيسى ويؤمنون انه ابن الله، والملائكة أولى بذلك . وقالوا : « آلهتنا خير أم هو ؟ » - ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك بنو قريش منه يصدون ويضجون فرحاً، ظناً منهم أنهم حاجوه . فجاء الجواب الشافي : « إن هو الا عبد أنعمنا عليه، وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل » . وأضاف اليه قوله : « وانه لتعليم الساعة » اي علامة ودليل على قرب اليوم الآخر . فهو يجعل ظهور المسيح ثانية على الارض شرطاً من اشراط حلول يوم الدين، وذكراً ومعرفة له، وعلامة تدل على وقوعه .

وفي هذا التعليم تصريح عن مجيء المسيح ثانية في آخر الازمان . وفيه صدى لمقالة الانجيل واعتقاد النصارى : « كذلك المسيح سيظهر ثانية لا ليكفر الخطيئة بل لخلاص الذين ينتظرونه » (عب ٩ : ٢٨) .

ومن هنا انتشرت رواية « المهدي » ذاك الإمام الذي يظهر في آيات الایام ويرد الدين الحنيف الى اصله . ومن تتبع مغزى الرواية وجد أن عمل المسيح الموصوف والمهدي المذكور واحد . قالوا في المهدي (وهو اسم بلا مسمى) ما قيل عن المسيح .

وهذا ايضاً دور فريد اختص به القرآن عيسى ابن مريم دون سائر الانبياء والمرسلين ؛ وفيه ميزة وخارقة : ميزة ظهور المسيح « عَلِمًا » للساعة، وخارقة

رجوع المسيح الى العالم ثانية في آخر الازمان، مما لم يُقلْ مثلهُ عن نبي أو رسول . ولم يقل القرآن عن ابراهيم او موسى أو محمد أنهم سيظهرون أيضاً قبل يوم الدين للدعوة الاخيرة الى الله التي لا دعوة بعدها .

وفي هذا التعليم ايضاً تصريح ضمني بأن عيسى ابن مريم سيكون فعلاً خاتمة الانبياء والمرسلين اذ لا رسول ولا نبي معه او بعده في يوم الدين عند قرب « الساعة » .

ففي قوله « وانه لعلم للساعة » قد جعل عيسى ابن مريم آيةً للعالمين منذ ظهوره الى يوم الدين !

ثانياً : عيسى ابن مريم « وجهه » وشفيع في يوم الدين

الشفاعة توسط النبي بين الخالق والمخلوق في يوم الدين لينقذ من يتوسط له من النار ، فيغفر له الله خطاباً حياته على الارض ويدخله جنات تجري من تحتها الانهار (مؤمن ٧ و ٨) .

وإذا تفحصنا القرآن فهل نراه يميز الشفاعة في يوم الدين؟ انه في مواضع ينفىها (في البقرة) : « من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ... واتقوا يوماً ... ولا تقبل منها شفاعة ... ولا تنفعها شفاعة » . ويهاجم العرب على اتخاذهم آلهتهم شفعاء عند الله حيث يقولون « ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى » (زمر ٣) ، فيجيب : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء؟ قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون! قل لله الشفاعة جميعاً : له ملك السماوات والارض ثم اليه ترجعون » (٤٣ - ٤٤) . ويحصر الشفاعة في الخالق وحده : « الله الذي خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش : ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ، افلا تذكرون » (سجدة ٤) . فالشفاعة في القرآن من حقوق الله المحفوظة له دون سواه .

وفي مواضع يثبتها في معرض النفي - إذ يرتضي بالشفاعة ويأذن بها -

لَمَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ . « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى » (أنبياء) « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ (بقرة) « مَا مِنْ شَافِعٍ إِلَّا مَنْ بَعْدَ إِذْنِهِ » (بونس) « وَمَنْذِرٌ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ (طه) « وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » (سبأ) « وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ » (زخرف) .

فَكَانَ نَفْيُ الشَّفَاعَةِ الَّتِي يَدْعُونَ لِأَهْلَتِهِمْ ، وَاعْتِرَافُهَا لِلْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا : « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ؛ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ » (المؤمن ٧ و ٨) . فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَعْرِيفٌ بِالشَّفَاعَةِ وَاعْتِرَافٌ بِهَا .

وَلَا يَذْكُرُ الْقُرْآنُ شَفَاعَةَ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . وَمُحَمَّدٌ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ بِجُرْمِهِ الْقُرْآنَ حَتَّى حَقَّ الشَّفَاعَةُ فِي الدُّنْيَا : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ : إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ! ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » (توبة ٨١) : يَبَيِّنُ لَهُ حَسْمُ الْمَغْفِرَةِ بِآيَةٍ : « أَسْتَغْفِرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ » (الْجَلَالَان) يَرِيدُ بِهِ التَّسَاوِي بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي عَدَمِ الْإِفَادَةِ لَهُمْ (الْبِيضَاوِي) ، بَلْ يَعِدُ الْقُرْآنُ اسْتَغْفَارَ مُحَمَّدٍ لَهُمْ عِبْثًا . وَبِجُرْمِهِ حَقَّ الشَّفَاعَةُ فِي الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ : « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ : أَفَأَنْتَ تَنْقُذُ مَنْ فِي النَّارِ ؟ ! » (زمر ١٩) كَوَّرَتْ الْهَمْزَةَ فِي الْجُزْءِ لِتَأْكِيدِ الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِبْعَادِ ، وَوَضَعَ مَنْ فِي النَّارِ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِذَلِكَ وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَنْ حُكِمَ عَلَيْهِ بِالْعَذَابِ كَالْوَاقِعِ فِيهِ لَامْتِنَاعِ الْخَلْقِ فِيهِ (الْبِيضَاوِي) .

وَإِبْرَاهِيمُ جَدُّ الْأَنْبِيَاءِ يَطْلُبُ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ خَطِيئَتَهُ يَوْمَ الدِّينِ : « رَبِّ الْعَالَمِينَ ... الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ... وَالَّذِي يَمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ... رَبِّ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ... وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ » (٧٧ - ٩٠) . فَمَنْ كَانَ بِمُجَابَةِ

الى شفاعته لا يقدر أن يشفع في غيره، مَنْ يطمع في ان يغفر الله له خطيئته يوم الدين، لا يقدر أن ينقذ مَنْ في النار .

ومع ذلك فيظهر أن القرآن قد أعطى عيسى ابن مريم حق الشفاعته في الآخرة حيث يقول : « إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين » (آل عمران ٤٥) : انه وجيه في الآخرة ايضاً، وانه من المقربين .

أجمع المفسرون على ان وجاهة الآخرة هي الشفاعته . قال البيضاوي : «الوجاهة في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعته» ؛ وقال الجلالان : «وجيهاً اي ذا جاه في الدنيا بالنبوة وفي الآخرة بالشفاعة والدرجات العلى» ؛ وقال الزمخشري : «الوجاهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعته وعلو الدرجة في الجنة» ؛ وقال الرازي : «الوجاهة في الدنيا هي النبوة، أو استجابة دعائه أو براءته من العيوب، وفي الآخرة بالشفاعة أو علو درجته ومنزلته أو كثرة ثوابه» .

وفي قوله «ومن المقربين» رُفِعَ لمنزلة المسيح حتى الملائكة المقربين، وتمثيل لشفاعته كما يستغفرون هم للذين آمنوا (المؤمن ٧ و ٨) ؛ وقيل هو اشارة الى علو درجته في الجنة أو رفعه الى السماء وصحبته الملائكة (الزمخشري والبيضاوي) . وقيل : جعل ذلك كالمدح العظيم للملائكة فألحقه بمثل منزلتهم (الرازي) فالقربى من الله في الجنة دالة على الله ومقام شفاعته واستغفار للمخلوقين .

فعيسى ابن مريم له في الآخرة دنوة من الله، وتقرب منه تعالى، وحظوة لديه، ووجاهة عنده، ودالة عليه : وكل ذلك ألا يعني الشفاعته كما يفسرون ؟

ومهما يكن من معنى هذه الآية فهي تدل على كل حال ان للمسيح عند الله في الآخرة ميزة الوجاهة على الناس والانبياء، التي كانت له على الارض . وقد

رأينا أنه انفراد بهذه الوجاهة في الدنيا، فكذلك ينفرادها في السماء على العالمين والمرسلين. والقرآن لا يذكر لنبي معها سما شيئاً من ذلك.

وهكذا يصادق القرآن قول الكتاب: «إن المسيح لم يدخل الى اقداس منعها الأيدي رموزاً للحقيقة بل دخل الى السماء بعينها ليتراءى الآن امام الله من اجلنا (عب ٩: ٢٥)؛ وايضاً: فإنه بعد أن قرب عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس عن يمين الله الى الابد... فمن ثم يقدر ان يخلص على الدوام الذين يتقربون به الى الله اذ هو حي كل حين ليشفع فيهم». (٢٥: ٧) فالقرآن بعد الانجيل يشهد ان المسيح حي في السماء يشفع في العالمين؛ ومن ثم فعيسى ابن مريم آية في الدنيا والآخرة للعالمين.

عيسى ابن مريم آية في قداسته وكماله

« انما أنا رسول ربك لأهب لك
غلاماً زكياً » (مريم ١٨)

القداسة، هي التقوى والفضيلة الكاملة؛ بل هي مجموع الفضائل، وعنوان الكمال. وقد تفرق القداسة بالعصمة من الرذائل والخطايا إذا اقتضى الأمر في وظيفة سامية ينتدب الله إليها مخلوقاً، كالنبوة مثلاً.

والقداسة صفة من صفات الله عز وجل. لا يسبغها الا على من اصطفى من عباده ليختمه بخاتمه الالهي. وهي ميزة منه تعالى لختاريه، ومعجزة عظيمة جداً يشهد بها الله لأنبيائه وأوليائه: لا توجد في بشر الا بئنة ونعمة سامية من جودة المولى الجواد. فلا يقدر مخلوق خلق وجبل من لحم ودم أن يُنزه عن الخطيئة والاثم الا بفضل خاص ونعمة خاصة من الرحمن الرحيم: «ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكيتكم من أحد أبداً ولكن الله يزكيت من يشاء» (نور ٢١).

ولقد اختلف المسلمون في عصمة الانبياء من الضلال والخطيئة. فمنهم من قال بعصمتهم على الاطلاق. ومنهم من قال بعصمتهم بعد سن البلوغ ونسب إليهم الخطأ في الصغر. ومنهم من قال بعصمتهم في تبليغ الرسائل فقط، وامكان ارتكاب الخطيئة فيما سوى ذلك: فالعصمة تكون عندهم من الضلال لا من الرذيلة والخطيئة. والرأي الاخير هو ما كان يعتقد الامام محمد عبده مفتي الديار المصرية.

(١) راجع المؤيد (عدد ٣٣٢٨).

والقرآن لا يستثني أحداً من الضلال والخطيئة . فالنفس خلقت أمارة بالسوء : « ان النفس لأتارة بالسوء » (يوسف ٥٣) التعريف فيها للجنس لا للفرد، و« أمارة » من صنيع المبالغة، واللام فيها للتحقيق ؛ « قال ذلك يوسف الصديق من حيث انها بالطبع مائلة الى الشهوات فتهمُّ بها وتستعمل القوى والجوارح في أثرها كل الاوقات » (البيضاوي) . وبسبب هذا الميل الفطري الى الشرك كان حتماً على كل بشر أن يرد جهنم : « وإن منكم الا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننتجي الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيها جثياً ، (مريم) قال الرازي : « ولا يجوز ان يقال (ثم ننجي) الا والكل واردون النار . وعن جابر : « الورود وهو الدخول : لا يبقى برُّ ولا فاجر الا دخلها . وقال البيضاوي : « منكم ، التفات الى الانسان ، واردها اي واصلها وحاضر دونها بمرئها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم . كان على ربك حتماً مقضياً ، كان ورودهم واجباً اوجبه الله على نفسه وقضى بأن وعد به وعداً لا يمكن خلفه وقيل أقسم عليه . »

وجاء الايمان بالله عوناً على الشر وتركه منه : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من احد أبداً » (نور ٢١) لذلك فالشيطان قريب للكافرين : « وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » (زخرف ٣٥) .

فالانسان من طبعه ميال بالفطرة الى الضلال والخطيئة ، وما الهدى والفضيلة الا من فضل الله ورحمته .

وينسب القرآن الخطيئة الى كل الانبياء .

الى آدم وزوجه « فأزلتها الشيطان » (بقرة ٣) ، « وعصى آدم ربه فغوى » (طه ١٢١) ، « وقد اعترف بخطيئته (اعتراف ٢٢) . والى نوح : « ربني اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي » (نوح ٢٨) . والى ابراهيم ، جد المؤمنين والانبياء : « فقد كفر ثم اهتدى (انعام ٧٦) وكان يصلي هكذا : « ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » (ابراهيم ٤١) ، فلقد شمله الائم الذي يس كل

البشرية (بقرة ٢٦، أنبياء ٦٤) ؛ والى موسى ، سيد الشريعة الذي كلم الله تكليماً (نساء ١٦٣) فقد وكز المصريّ ففضى عليه فقال « هذا من عمل الشيطان ! قال ربي فاغفر لي ! فغفر له » (قصص ١٦) كذلك شعراء ١٩ ، اعراف ١٤٩ . والى داود ، النبي والملك ، صاحب الزبور : « وظن داود أنا فتنّاه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأتاب فغفرنا له » (ص ٢٤ - ٢٥) والى يوسف الذي همّت به امرأة سيده وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه (يوسف ٢٤) . الى سليمان ، فخر الملوك ، الذي سخر له الله الانس والجن والطير « إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ... قال ربي اغفر لي » (ص ٢٩ - ٤٠) . الى يونس الذي نجا من الحوت في البحر « إذ أبقّ الى الفلك المشعون ، (صافات ١٣٩) .

وهكذا الى جميع الأنبياء والمرسلين الذين هم صفوة البشرية .

وكنّا نأمل ان ينزّه القرآن محمداً ، خاتم النبيين ، ومثال الكمال المأمول ، عن الخطيئة . فإذا به ينسبها اليه كما نسبها الى غيره :

فيقول : عن طفولته وحداثته : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ! » (شرح ١ - ٣) ؛ ووزر ينقض الظهر ليس هو بالصغير ولا الحقير ! وفي المدينة ، عندما استفحل أمره ، وبلغ أوج مجده بدعوة التوحيد ، يقال له بعد « فتح » الحديدية : « إنّنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (فتح ٢) سبق له ذنوب ويتبعها ذنوب ! وقد شعر محمد بحاجة دائمة الى الاستغفار : « واصبر انّ وعد الله حق : واستغفر لذنبك » (غافر او المؤمن ٥٥) ؛ ويؤمر مراراً وتكراراً بالاستغفار « واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيماً » (نساء ١٠٦) . انها حاجة ملحة فيه كما في سائر المؤمنين والمؤمنات : « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » (محمد ١٩) . فالخطيئة مرض بشري وقع فيه محمد كما وقع فيه غيره من الأنبياء والمرسلين .

ثم الا ينسب القرآن الشكّ الى محمد في قوله : « فإن كنت في شك بما اتزلنا

إليك فسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك : لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، (يونس ٩٤) ؟ والميلان عن القضاء بالحق في قوله : « ولا تكن للخائنين خصيماً » ؟ والركون الى المشركين في قوله : « لقد كنت تركزن اليهم شيئاً قليلاً » (اسراء ٧٦) ؟ والاذن للمنافقين بالانحياز عن الجهاد في قوله : « عفا الله عنك لما أذنت لهم » (توبة) ؟

أما الخطيئة فقد جاء في الحديث أنه كان يستغفر ربه سبعين مرة في اليوم وعلى قول بعضهم مئة مرة في اليوم ! فتلك الحاجة الماسة للاستغفار، يؤكدها أمر من فوق، تدل على شعور الضمير بالاثم الذي أتعب وجدان البشرية جمعاء لا يُستثنى منها أحد.

بلى ! واحد أحد بين الناس، وبين الانبياء والمرسلين، لا يذكر له القرآن اثماً ولا علاقة بالاثم على الاطلاق ! هو عيسى ابن مريم . فهو لا ينسب اليه خطيئة أبداً . ولا نرى منه انه يشعر بحاجة الى الاستغفار . ولا نقرأ أنه أمر بطلب الغفران . ولا نسمع في القرآن أو في الانجيل أنه تاب ، أو احتاج الى توبة ، أو طلب صفحاً عن اثم . بل في الانجيل يتحدثى خصومه بهذه الجراءة الكاملة : « من منكم يثبت علي خطيئة » (يوحنا) .

قبل ميلاده عظم واثمه من الشيطان الرجيم « واني اعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » (آل عمران ٣٦) ؛ وحده هو واثمه بين صفوة المختارين حبل به وولد في نجوة من خطيئة الجنس البشري (الآية نفسها) . وجاء عن هذه الآية في صحيح البخاري وصحيح مسلم : « كل آدمي يطعن الشيطان في جنبه حين يولد الا عيسى وامه عليها السلام جعل بينها حجاب فأصاب الطعنة الحجاب ولم ينفذ اليها شيء منه » . فالقرآن والحديث يعلمان المسيح وامه من مس الشيطان وطعنته وكل أذى يؤتبه : انها عصمة مبدئية مقررة قبل ميلادهما ونرى في مولد المسيح من أم بتول لم يمسهما بشر معجزة تفسر عصمتها من خطيئة الجنس البشري .

والملاك الذي يبشر العذراء بالحبل المعجز يبشرها « بالغلام الزكي » :
« انما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً » (مريم ١٩) أي « طاهراً من
الذنوب، كما يفسره البيضاوي، نامياً على الخير، مترقياً من سن الى سن على الخير
والصلاح ». ملاك الله يعلن لأمه انه سيكون طاهراً من كل اثم، زكياً،
طيلة حياته . وهذه البشرية من قبل ان يولد تؤكد من السماء لطهارته ونبوة
بقداسته .

وهذه الطهارة وهذه القداسة آتاه الله إياها، واوصاه بها طيلة حياته في كل
زمان ومكان : « وجعلني مباركاً ابن ما كنت ! واوصاني بالصلوة والزكاة
ما دمت حياً ! وبراؤ بالذي ! ولم يجعلني جباراً شقيماً ! » (مريم ٣٠ - ٣٢) .
فهو ليس بجبار، رجل حروب وغزوات، وليس بشقي يُرعب الناس وينتصر
بوسائل الارهاب : بل هو رجل الله، رجل الصلاة والزكاة ما دام حياً !
ليس له سوى امه، من صلات الدم، فهو « برّ بها » وهذه الصفة تحوي
كل واجبات الولد نحو والدته .

وهناك حديث مشهور ايضاً عن قتادة قوله : « وذكروا لنا انها
(المسيح وامه) كانا لا يصيبان من الذنوب كما يصيب سائر بني آدم » . شهد
له بالعصمة الفعلية كما شهد له بالعصمة المبدئية . ونجد في انتصار المسيح على الموت
يرفعه الى السماء حياً تفسيراً كاملاً لعصمته في حياته من سلطان الخطيئة .

لذلك، هو وحده، أُعطي مثلاً وقدوة لبني اسرائيل وسائر الناس : « إن
هو إلا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل » (زخرف ٧٩) . ولا
ينص القرآن عن غيره انه اعطي مثلاً يقتدى به في جميع اعماله واقواله .

وهكذا اجمع القرآن والحديث والتفسير على عصمة المسيح المبدئية والفعلية
من كل خطيئة . فجمعه القرآن في الدنيا « من الصالحين » وفي الآخرة « من
المقربين » (آل عمران ٤٥ و ٤٦) . وهكذا استثنى المسيح من صف البشر
الحاطين الخاضعين بطبيعتهم لسلطان الشر .

ونعرف جميعنا بالخبرة الشخصية، وأولياء الله وأنبياءه خبروا معنا، ان

نفس الانسان ، كل انسان ، امارة بالسوء . فكبار المختارين من ابراهيم الى موسى الى محمد لم يسلّموا من شر الخطيئة . واحد وحده ، عيسى ابن مريم ، مسيح الله وكلمته وروحه ، يشهد له الكتاب والقرآن انه تبرأ من الاثم ، وعصم من الخطيئة ولم يكن للشر عليه من سلطان على الاطلاق . بل « انه قدوس بريء زكي متنزه عن الخطاة قد صار أعلى من السموات » (عب ٧ : ٢٧) .

بهذه القداسة الفائقة معجزة الكمال التي انفرد بها المسيح دون سائر الانبياء والمرسلين ، قد صار عيسى ابن مريم « غلاماً زكياً » « أعلى من السموات » و« آية للعالمين » .

عيسى ابن مريم آية في شخصه

«انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله و كلمته
القاهما الى مريم وروح منه» (نساء ١٧٠)

نصل الى نقطة الخلاف الكبرى بين النصرانية والاسلام : اعني ألوهية المسيح^١ . وهو الخلاف الوحيد أو يكاد بين الانجيل والقرآن . ونظن أنه على كل حال خلاف ظاهري ، لا حقيقي ولا جوهري ، لاختلاف وجهات النظر الى الموضوع الواحد في الكتابين^٢ .

فالألوهية التي ينكرها القرآن على المسيح ليست بالتي ينسبها الانجيل اليه . والتثليث الذي ينكره القرآن ليس بالتثليث المسيحي . والألقاب التي يصف بها القرآن المسيح هي أقرب الى الخالق منها الى المخلوق .

(١) النسبة الى إله يسميها البيضاوي « ألوهية » والزنجشيري « لاهوتية » والرازي والغزالي « إلهية » .

(٢) القرآن تعليم ابتدائي لقوم بدائيين عن توحيد الله ، فلا يطلب منه في المحيط الذي نزل فيه أبحاثاً أو حقائق عن « ذات الله » : قبل ان يعرفوا ما هو الله في ذاته ، يجب عليهم ان يوحدوه ، وهذا ما يسمى اليه القرآن فلا يجوز أن نطلب منه أكثر مما يريد . ونقلوا لنا حديثاً شريفاً : « البعث عن ذات الله كفر » . وفي اجمال القرآن لمقائد النصرانية الخاصة ، أو في نكرانها إلا ينسجم مع موقف فرق نصرانية عاصرتة كالآريوسية والنسطورية أو تعاصرنا كأحرار البروتستنتية ، وشهود يهوه .

بحث أول : ألوهية المسيح في القرآن

« قل إن كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين » (زخرف ٨١)

ينكر القرآن أشدّ الإنكار تعدّد الآلهة بناءً على شهادة الأنبياء المتعاقبين: « وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا، أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ » (زخرف ٤٥) ، ومنطق العقل البديهي : « قل لو ان في السماء والارض إلهين لفسدتا » (انبياء) .

ويشهد للتوحيد الخالص في كل صفحاته : « شهد الله أنه لا إله الا هو، والملائكة وأولو العلم – قائماً بالقسط – لا إله الا هو العزيز الحكيم، (آل عمران ١٨) » .

ينفي القرآن الولادة في الله، ولا يقدر ان يتحمل تأليه أحد مع الله، بولادة أو بسواها : « قل هو الله أحد، الله الصمد! لم يلد ولم يولد! ولم يكن له كفواً أحد » (الاخلاص) . لا تناسل فيه، ولا مثله أحد يتخذه ولداً، فوحدانيته لا يشاركه فيها احد .

وينكر أشد الإنكار بنوّة أيّ مخلوق من الله : « وقالوا اتخذ الله ولداً! – سبحانه بل له ما في السموات والارض، كلُّ له قانتون : بديع السموات والارض، واذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون » (بقرة ١١٧) . لا يمكن للاله ان يكون مخلوقاً ولا يمكن للمخلوق ان يصير إلهاً، بالبنوّة أو بالتبني : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً! – لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الارض، وتخرّ الجبال هدداً : أن دعوا للرحمن ولداً! وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولداً: إن كلُّ من في السموات والارض الآتى الرحمن عبداً » (مريم ٨٨-٩٣) .

ينكر حتى البنوّة المعنوية التي يدعيها اليهود والنصارى لأنفسهم من الله:

«وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه! - قل فليم يعذبكم بذنوبكم؟ بل انتم بشر من خلق» (مائدة ٢٠). وينكر هذه البنوة المعنوية حتى في الانبياء والملائكة: «ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً! أياؤمكم بالكفر بعد إذ انتم مسلمون؟» (آل عمران ٨٠) لأنها تقود الى الشرك: «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً!... وجعلوا له من عباده جزءاً: إن الانسان لكفور مبين» (زخرف ١٥ و ١٩).

حتى عيسى ابن مريم، رسول الله وكلمته وروحه، لا يمكن لله ان يتخذه ولداً أو يصيره إلهاً، لأن كل مخلوق عبد لله بطبيعته. «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون» (نساء ١٧٢) فبتأليه عيسى «ضاهى» النصارى قول الذين كفروا من قبل من المشركين: «وقالت النصارى: المسيح ابن الله! ذلك قولهم بأفواههم، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل: قاتلهم الله أنى يؤفكون» (توبة ٣١).

واما الاسباب التي دعت الى هذا التكفير والنكران فتتخصر في نظريتين:

(١) النظرية الاولى ان كل بنوة او ولادة تنسب الى الله لا يمكن ان تكون الا جسدية تناسلية: «بديع السموات والارض، أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة» (انعام ١٠١): لا يفهم القرآن البنوة والولادة، أياً كانت إلا بزوجة وزواج. فكل بنوة عنده هي مخلوقة بشرية جسدية تناسلية. فهو يجهل البنوة المعنوية أو ما يسمى التبني الالهي. وهو يجهل ايضاً مفهوم الولادة المجردة، لان الولادة بحد ذاتها هي انحدار حي من حي. انحداراً ينتج عنه، بفعله الذاتي، مشابهة تامة في الطبيعة. وهذا الانحدار قد يكون جسدياً كما في الانسان، وقد يكون عقلياً كالذي يسنده الانجيل الى المسيح.

(٢) والنظرية الثانية، المنبثقة عن الأولى، هي امتناع صاحبة والولد عند الله لانه «اتخاذ» لا تناسب فيه ولا تكافؤ في طبيعة الآخذ والمأخوذ:

« وانه تعالى جدُّ ربنا : ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، (الجن ٣) تنزه جلاله وعظمته عما تُنسب اليه من الزوجة والولد (الجلالان) . لذلك ينتفي تأليه المسيح أو غيره لانه « اتخذ » : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبين أرباباً (آل عمران ٨٠) ، اتخذوا احبارهم ودهبانهم ارباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم (توبة ٣٢) ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق ، الذي فيه يمترون : ما كان لله ان يتخذ من ولد ، سبحانه » (مريم ٣٤) .

ويساوي القرآن بين تأليه المسيح وتأليه آلهة العرب : كلاهما اتخذ وضم « جزء » خارج عن الله إليه تعالى ! « وجعلوا له شركاء الجن وخلقهم ! وحرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ! بديع السماوات والارض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة » (انعام ١٠٠ - ١٠٢) ، « وقالوا اتخذ الله ولداً ! سبحانه ، بل له ما في السماوات والارض ، كلُّ له قانتون ، بديع السماوات والارض ، واذا قضى امرأً فإنما يقول له كن فيكون » (بقرة ١١٧ و ١١٨) ، نزلت لما قال اليهود « عزيز ابن الله » والنصارى « المسيح ابن الله » ومشركو العرب « الملائكة بنات الله » (البيضاوي) .

وفسروا فلسفة استحالة الاتخاذ ، استناداً الى قوله (بقرة ١١٧) وانعام (١٠١) ؛ « وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه : ١ ان من مبدعاته السماوات والارضون وهي مع انها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها . ٢ ان المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وانثى متجانسين والله تعالى منزّه عن المجانسة . ٣ ان الولد كُفُوُ الوالد ، ولا كُفُوُ له بوجهين ان كل ما عداه مخلوق فلا يكافئه ، وانه لذاته عالم بكل المعلومات ولا كذلك غيره . بالاجماع ، (البيضاوي) . فهم ايضا لم ترق احلامهم الى ما فوق الولادة الجسدية الجنسية التناسلية .

وفسّر القرآن استحالة التأليه ، والاتخاذ إلهاً بما خلق بقوله : « وجعلوا له من عباده جزءاً : ان الانسان لكفور مبين » (زخرف ١٥) . فالاتخاذ والتأليه

يصم الى الله «جزءاً» خارجاً عنه... وهكذا تفهم حملة القرآن العنيفة
الصاخبة على فكرة البنوة والولادة منسوبة الى الله .

ولكن ليس من «مضاهاة» بين بنوة عيسى من الله ، وبنوة عزيز عند
اليهود، وبنوة آلهة العرب المشركين :

فبنوة آلهة العرب تناسلية : وقد فهم القرآن «قومه» على حقيقتهم . فلا
بدع ان ينتفض القرآن لهذه الفكرة السمجة تنسب الى الله : فما اتخذ صاحبة
ولا ولداً (جن ٣) وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ! لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السماوات
يتفطرن منه وتنشق الارض وتخرّ الجبال هدأً : أن دعوا للرحمن ولداً ،
(مریم ٨٨) .

وبنوة عزيز عند اليهود معنوية قد تجرّم الى مشاكلة المشركين
«فيضاهئون» بقولهم قول الذين كفروا من قبلهم (توبة ٣١) .

ولكن بنوة عيسى في الانجيل ليست تناسلية، وليست معنوية . بل هي
بنوة روحية محضة من ولادة عقلية محضة :

للمسيح في الانجيل اسمان : اسم شعبي تفهمه الجماهير : ابن الله وابن الانسان؛
واسم علمي فلسفي لاهوتي اوحى به الله في مطلع انجيل يوحنا يبيّن طبيعة
هذه البنوة : انه كلمة الله : «في البدء كان الكلمة» والكلمة كان لدى الله،
وكان الكلمة الله : به كوّن كل شيء وفيه كانت الحياة» (١ : ١ - ٤) .
وهذا الاسم يشرح معنى بنوة المسيح من الله وفي الله : بما أنه كلمة الله فبنوته
فكرية عقلية ، لا علاقة لأي جسد فيها ، بل هي قبل كل جسد . وبما أن الله
روح محض ، وعقله روح محض ، وفكره وكلمته روح محض ، فالولادة روحية
من جوهر الله وفيه ، لا يشاركه فيها أحد . وهكذا يسمي الانجيل التفاعل
الجوهري الالهي «ولادة» والتسلسل العقلي الالهي «بنوة» بلغة بشرية يفهمها
جميع الناس : فكلمة الله هو ابن الله ، وابن الله هو كلمة الله . ولا علاقة لمریم
أو لمخلوق بهذا التفاعل والتسلسل الالهيين .

وليس في هذا «اتخاذ» بضم جزءٍ من خارج الله الى الله، أو تأليهٌ يرفع مخلوق الى منزلة الخالق وطبيعته، أو تناسل جسدي باستيلاد الله عيسى من مريم، فالله لا جسده! بل جلُّ ما في ذات الله من صرِّ الحياة السرمدية والوجود الفيّاض، أنه في الجوهر الالهي الفرد تفاعل روعي وتسلل عقلي في الله، ومنه، ومعه: فكلمة الله هو فكر الله الناتج عن عقل الله في جوهره الروحي نتوج الابن عن ابيه، ولذلك يجوز بكل حق ان نسمي الله «أباً» وفكره الجوهرى «ابناً».

واذن فالألوهية التي ينفىها القرآن عن المسيح ليست بالألوهية التي يثبتها الانجيل له. والبنوة التي يسندها الانجيل الى المسيح ليست كالتي ينفىها القرآن عنه.

ان بنوة عيسى في القرآن تناسلية جسدية، كأن الله اتخذ مريم صاحبة واستولدها عيسى: «ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون: ما كان لله ان يتخذ من ولد!»، (مريم ٥٩). والقرآن على حق حين يسمي مثل هذه الولادة السبجة، منسوبة الى الله، افكاً: «ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل، وامه صديقة، كانا يأكلان الطعام! انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أني يؤفكون» (مائدة ٧٨). والقرآن على حق حين يسمي بنوة كهذه كفراً: «لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم: قل فمن يملك من الله شيئاً إن اراد ان يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن في الارض جميعاً» (مائدة ١٩).

ان ألوهية عيسى التي ينكرها القرآن تستند الى هذه البنوة الجسدية والولادة التناسلية، ومن ثم فلا بدع ان يثور ويصبح: «لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم!» (مائدة ١٩ و ٧٥) كأن الانسان ابن مريم صار الله!! أو كأن الله استحال عيسى ابن مريم!! لذلك ينزه القرآن المسيح عن ادعاء تأليه كهذا: «ما كان لبشر ان يؤتبه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله» (آل عمران ٧٩)؛ فحسب!

المسيح فخراً أن يكون عبداً لله : « لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله - ولا الملائكة المقرَّبون » ! (نساء ١٧٢) .

وقصارى القول ليست لاهوتية المسيح كتأليه المشركين لآلهتهم . وليست بنوّة المسيح العقلية الروحية في الله كبنوّة وولادة الآلهة المتأهين من الله . هذه غارقة في اللحم والدم ، والجسد والصاحبة ، في دنيا المحسوسات ، وتلك ضمن الجوهر الالهي الفرد ، الروح المحض ، والعقل المحض ، في عالم الأزل قبل الزمان والمكان ، وقبل المحسوسات والمعقولات والاجساد والارواح : « في البدء كان الكلمة ! والكلمة كان لدى الله ! وكان الكلمة الله » (يوحنا ١ : ١) .

وهكذا فليست البنوة الروحية التي ينسبها الانجيل الى المسيح مثل البنوة الجسدية التي ينفبها القرآن عنه . وليست الالهية التي يثبتها الانجيل للمسيح ، روح الله وكلمة الله ، مثل التأليه الذي يستنكره القرآن فيه ، ولاهي « الاتخاذ » الذي يضم الى الله « جزءاً » ليس منه .

حاول وفد نجران الى النبي الجديد ، بعد أن أنيسوا منه اعترافه بنبوّة عيسى ، ان يحمله على الاقرار بينوّةه ايضاً ، واتخذوا من ولادته البشرية المعجزة من مريم بلا أب دليلاً على ولادته الالهية من الله دون أمٍّ أو علاقة مخلوق . فأجابهم ولادته المعجزة من مريم بلا أب ليست أغرب من خلق آدم بلا أب وأمٍّ معاً : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون : الحق من ربك فلا تكن من الممترين... إن هذا هو القصة الحق » (آل عمران ٥٩ - ٦٣) .

وأردف يقول : هذا المعجز الحقيقي في ميلاد المسيح لا يرفعه الى رتبة الالهية لأن الصدور عن الله لا يكون الا بمخلوق ، ويستحيل على مخلوق أن يتخذه الله إلهاً من دونه : « ذلك عيسى قول الحق الذي فيه يمترون : ما كان

الله ان يتخذ من ولد! سبحانه! اذا قضى أمراً فإنما يقول له كُن فيكون،
(مریم ۳۴ - ۳۶) .

السؤال قاصر، والجواب قاصر، ولا غرابة في ذلك: فالبيئة لا تحتل أكثر!
خلطوا بين البنوة بالصدور والبنوة بالاتخاذ، وهذه مستحيلة اذ كيف
يمكن أن يصير إلهاً من هو بشرٌ يأكل الطعام كالحيوان! وما المسيح ابن مریم
الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة: كانا يأكلان الطعام!..
(مائدة ۷۸) .

وشابه قوم من نصارى العرب حال مریم بحال ابنها فالتهوها، فاستنطق
ذلك منهم، ووصل الاستغراب الى الله عز وجل فاستجوب عيسى عن ذلك:
«اذ قال الله يا عيسى ابن مریم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون
الله؟ - قال: سبحانك! ما يكون لي أن أقول ما ليس بحق!»، (مائدة ۱۱۹).

فالقضية في القرآن هي دائماً قصة «اتخاذ» و«تأليه»، دون تمييز بين حال
وحال .

وليس تأليه عيسى - وامه - منه بل من بعض أتباعه كما يظهر من جواب
المسيح لله في يوم الدين (مائدة ۱۱۹ - ۱۲۲)، وهو «غلو» من قوم قد ضلوا
من قبل وأضلوا كثيراً. لذلك يعتبر القرآن اعتقاد النصارى في الوهية المسيح
«غلو» منهم في دينهم لا غير ويردعهم عنه: «يا أهل الكتاب لا تغلوا في
دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق: انما المسيح عيسى ابن مریم رسول الله وكلمته
القاها الى مریم وروح منه: فآمنوا بالله ورسوله» (نساء ۱۷۰)؛ فلا تتبعوا
أهواء من سبقكم: «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا
تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل»،
(مائدة ۸۰) . لذلك يدعوهم الى التوحيد الخالص: «قل يا أهل الكتاب
تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا
يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله» (آل عمران ۶۲) .

ذلك هو اعتقاد القرآن في ألوهية عيسى كما فهمها بعض نصارى العرب
الجهال : وهو بعيد كل البعد عن تعليم الانجيل وایمان النصارى :

فليست الوهية عيسى تأليهاً ولا اتخذاً! هذا مستحيل !

وليست بنوته العقلية الروحية في جوهر الله الفرد بنوة مخلوقة بشرية
جسدية جنسية تناسلية : كل بنوة من هذا النوع منسوبة الى الله افك
وشرك وكفر ! (توبة ٣١ - ٣٣) . كأن الله اتخذ مريم الالهة صاحبة
واستولدها عيسى الهاً من دون الله! ان مجرد فكر كهذا لكفر محض، ! كفر
لا يقول به الا من أوغل في الهمجية ، وما قدر الله حق قدره ! يُنزل الخالق
منزلة المخلوق ! وينسب اللاهوت لغير الله ! يا قوم الارحمة بعقولكم وعقولنا !
ألا انصافاً لكتابكم وكتابنا ! نحن أعدل من هذا ! وأنتم اعدل من هذا !

أجل لقد كفر الذين جعلوا الملائكة والنبیین أرباباً من دون الله !
(آل عمران ٨٠) .

أجل لقد كفر الذين اتخذوا الاحبار والرهبان أرباباً من دون الله !
(توبة ٣٢) .

أجل « لقد كفر الذين قالوا : عزيز ابن الله ! » (توبة ٣١) .

أجل « لقد كفر الذين قالوا : امُّ المسيح الالهة من دون الله أو مع الله ! »
(مائدة ١٢٠) .

أجل « لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم » . (مائدة ١٩
و ٧٥) فجعلوا المسيح الهاً آخر دون الله !

أجل « لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة » (مائدة ٧٦) أي الالهة
ثلاثة ، ! او الذات الالهية ثلاث !

أجل ، أجل ! لقد كفروا : فالذات الالهية واحدة ، والجوهر الالهي فرد
أحد ! وليست بنوة « كلمة الله » منبته تعالى جسدية ، ولا معنوية ، ولا

اتخاذاً، ولا تبنياً، ولا تأليهاً، حتى ولا إلهية بمعنى انها غريبة عن جوهر الله الفرد، ومن خارج الذات الالهية الواحدة.

فالمسيح «روح الله»، وبنوته روحية في الله ذاته.

والمسيح «كلمة الله»، وبنوته عقلية.

وهكذا فالخلاف على الوهية المسيح بين الانجيل والقرآن خلاف ظاهري : وليس بينهما خلاف جوهري لاختلاف وجهات النظر : ليست الوهية عيسى ابن مريم - تلك الالهية الكاذبة التي حاربها القرآن عند بعض نصارى العرب الاميين الجاهلين - بالوهية المسيح الحقّة التي يعلمها الانجيل . واعتقد كل الاعتقاد أنه لو وصل تعليم الانجيل الى محمد سالماً لاعتنقه ودان به : «قل إن كان للرحمن ولد فأنا اول العابدين» (زخرف ٨١) .

بحث ثانٍ : التثليث في القرآن

« يا عيسى ابن مريم ء انت قلت للناس اتخذوني
وامي الهين من دون الله » (مائدة ١١٩)

كما حارب القرآن « تأليه » عيسى ابن مريم عند بعض نصارى العرب الجاهل، حارب كذلك عقيدة «التثليث» عند قوم آخرين منهم ضلوا عن الانجيل والقرآن.

فالتثليث الذي ينكره القرآن ليس بالتثليث المسيحي .

فالتثليث المسيحي هو من صميم التوحيد، من صميم وحدانية الله، في وحدة الذات الالهية .

١ التثليث الذي ينكره القرآن

هناك ثلاثة نصوص توحيه لنا :

الاول من سورة النساء :

١٧٠ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق : إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فآمنوا بالله ورسوله، ولا تقولوا : ثلاثة انتهموا، خير لكم إنما الله إلهٌ واحد اسبحانه ان يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى به وكيلًا

١٧١ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله، — ولا الملائكة المقربون — ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر، فسيحشرهم إليه جميعاً.

والثاني من سورة المائدة :

٧٠ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . .
٧٦ لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم .

والثالث من سورة المائدة أيضاً، أبان فيه تلميحاً ثم تصريحاً من هم «الثلاثة» :

٧٧ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرون ، والله غفور رحيم :

٧٨ ما المسيح ، ابن مريم، إلا رسول قد خلت من قبله

الرسول . و امه صدّيقة . كأننا يأكلان الطعام . انظر كيف
 نبين لهم الآيات ؛ ثم انظر انى يُوفكون !»

١١٩ وإذ قال الله : يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس
 اتخذوني وامي إلهين من دون الله ا - قال : سبحانك ا
 ما يكون لي أن أقول ما ليس بحق ا إن كنتُ قلته
 فقد علمته ا . . ما قلتُ لهم الا ما أمرتني به : أن
 اعبدوا الله ربي وربكم .

فالخطاب في سورة النساء لأهل الكتاب عامة : « يا أهل الكتاب . . لا
 تقولوا « ثلاثة » (١٧٠) . والخطاب في سورة المائدة خاصٌ بفئتين أو ثلاث
 من أهل الكتاب العرب يفسّرون معنى « الثلاثة » : فئة تدّعي أن الله هو
 المسيح ابنُ مريم ! وفئة تدّعي ان الله ثالث ثلاثة !

وإذا سألت القرآن عن « الثلاثة » التي يزعمون، أجاب تليحاً (مائدة ٧٧)
 ثم تصرّيحاً (مائدة ١١٩) بأنهم : الله، وعيسى ابن مريم، ومريم أم عيسى : فهما
 إلهان مع الله !

ذاك هو التثليث أو الثالث الذي كان يدين به بعض نصارى العرب،
 فأنكره القرآن عليهم، وكفرهم به من النقل على لسان المسيح : « وقال
 المسيح : يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم » (مائدة ٧٥) : « ما قلتُ لهم
 الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم » (مائدة ١١٩) ؛ ومن المنطق
 والعقل أنه « ما من إله الا إله واحد (٧٦) وقد كان المسيح و امه يأكلان
 الطعام (٧٨) قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً » (٧٩) .

اعتبر القرآن ذلك الاعتقاد الفاسد قولاً من بعضهم « الذين قالوا » (٧٥)
 و (٧٦) الذين كفروا منهم » (٧٦) ؛ ثم اعتبره غلوّاً من جميعهم (نساء ١٧٠) ،

مائة ٨٠) . لذلك يدعوم الى نبذ الفلوة في تأليه المسيح والتثليث المذكور
 « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق : انما المسيح
 عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ؛ فآمنوا بالله ورسله
 ولا تقولوا « ثلاثة » ، انتهوا خيراً لكم ، (نساء ١٧٠) « قل يا أهل الكتاب لا
 تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا
 كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » (مائدة ٨٠) .

٢ موقف المفسرين من قول القرآن : ولا تقولوا : « ثلاثة » (نساء ١٧٠) .

قال الجلالان : « أي الآلهة ثلاثة : الله وعيسى وامه » .

وقال البيضاوي : « أي الآلهة ثلاثة : الله والمسيح ومريم ، ويشهد عليه
 قوله : أنت قلت للناس اتخذوني وامى الهين من دون الله - او الله ثلاثة : إن
 صح أنهم يقولون : الله ثلاثة اقانيم الآب والابن وروح القدس ويريدون بالآب
 الذات ، وبالابن العلم وبروح القدس الحياة » . - ونقول : وان صح ان
 النصارى يعنون « بالآب الذات وبالابن العلم وبروح القدس الحياة » ، فذلك لا
 يدل على تعدد الذات الالهية ، لان العلم والحياة في الله هما ذات الله بعينها .
 وهكذا تختلف جوهرياً مقالة القرآن عن مقالة الانجيل في التثليث .

وقال الزمخشري : « إن صحت الحكاية عن النصارى انهم يقولون : هو
 جوهر واحد ثلاثة اقانيم : اقنوم الآب ، واقنوم الابن ، واقنوم روح القدس ،
 وأنهم يريدون باقنوم الآب الذات وبقنوم الابن العلم وبقنوم روح القدس
 الحياة : فتقديره « الله ثلاثة » ، والا فتقديره « الآلهة ثلاثة » : والذي يدل
 عليه القرآن هو التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة وان المسيح
 وُلِدَ اللهُ من مريم : الا ترى الى قوله « أنت قلت للناس اتخذوني وامى الهين
 من دون الله » ، وحكاية الله أوثق من حكاية غيره !! - أجل حكاية الله أوثق
 من حكاية غيره ، لكن القرآن بقوله ما تقديره : الآلهة ثلاثة ، الله والمسيح
 ومريم ، وان المسيح وُلِدَ اللهُ من مريم ، حكى حكاية بعض نصارى العرب

الذين يكفروهم ، وليس حكاية الانجيل والنصارى عامة الذين يقولون : الله جوهر واحد ، في ثلاثة اقانيم ، وهذه المقالة لا تنافي التوحيد ، ولا دخل لمريم في هذا التثليث ولا لولادتها الجسدية لعيسى ، وهي تختلف تماماً عن مقالة القرآن «الآلهة ثلاثة ، الله وعيسى ومريم» أو الاله صار ثلاثة «الله وعيسى ومريم» .

والرازي المدقق يقول : «قوله ثلاثة خبر مبتدأ محذوف . ثم اختلفوا في تعيين ذلك المبتدأ على وجوه : (الاول) ما ذكرناه اي ولا تقولوا : «الأقانيم ثلاثة» ؛ (الثاني) آهتنا ثلاثة كما قال الزجاج مستشهداً بآية المائدة ؛ (الثالث) قال الفراء : «هم ثلاثة» كقوله «سيقولون ثلاثة» وذلك لان ذكر عيسى ومريم مع الله بهذه العبارة يوهم كونهما إلهين . ثم يفسر رأيه «الأقانيم ثلاثة» : اي والمعنى ولا تقولوا «ان الله واحد بالجواهر ثلاثة بالأقانيم» ؛ واعلم ان مذهب النصارى مجهول جداً ، والذي يتحصل منه أنهم أثبتوا ذاتاً موصوفة بصفات ثلاث ؛ الا انهم وان سموها صفات فهي في الحقيقة ذوات قائمة بأنفسها (!) فلهذا المعنى قال «ولا تقولوا : ثلاثة ، انتهوا» . فأمّا ان حملنا الثلاثة على أنهم يثبتون صفات ثلاثاً فهذا لا يمكن انكاره ، وكيف لا نقول ذلك وإنّا نقول : هو الله الملك القدوس العالم الحي القادر . . . ونفهم من كل واحد من هذه الالفاظ غير ما نفهمه من اللفظ الآخر ، ولا معنى لتعدد الصفات الا ذلك . فلو كان القول بتعدد الصفات كفر لزم رد جميع القرآن ، ولزم رد العقل من حيث انا نعلم بالضرورة أن المفهوم من كونه تعالى عالماً غير المفهوم من قوله حياً .

وانّا لنستغرب قول الرازي «ان مذهب النصارى مجهول جداً» ، وقد عرفه تمام المعرفة «ان الله واحد بالجواهر ثلاثة بالأقانيم» وأنهم اي النصارى «أثبتوا» على قوله ، ذاتاً موصوفة بصفات ثلاث . وفي كلا القولين ليس من تعدد ينقض التوحيد . ولكن ضلّ عندما اراد ان يطبق مذهبهم على مقالة القرآن القائلة «بثلاثة آلهة» فاستنتج منه «انهم وان سموها صفات فهي في

الحقيقة ذوات قائمة بأنفسها «!! كلا ليست» الاقانيم الثلاثة «ذوات قائمة بأنفسها مما يُشعر بأنها ثلاثة آلهة، بل هي علاقات ذاتية قائمة بالذات الالهية الواحدة؛ وقد اشعر هو نفسه ان ذلك ممكن حيث قال: «فأما ان حملنا الثلاثة على انهم يثبتون صفات ثلاثاً فهذا لا يمكن انكاره... فلو كانت القول بتعدد الصفات كفر لزم رد جميع القرآن ولزم رد العقل من حيث نعلم بالضرورة ان المفهوم من كونه تعالى عالماً غير المفهوم من قوله حياً»، وبهذه المقالة يلتحق بالزنجشري والبيضاوي حيث يصف مذهب النصارى انه: «جوهر واحد، ثلاثة اقانيم: اقنوم الآب واقنوم الابن واقنوم روح القدس؛ وانهم يريدون باقنوم الآب الذات وبقنوم الابن العلم وبقنوم روح القدس الحياة». وما كان ضررهم لو قالوا بقول النصارى وانجيلهم القائم على توحيد الجوهر الالهى الفرد: فانه واحد في ثلاثة اقانيم اي علاقات جوهرية غير قائمة بأنفسها بل قائمة في الذات الالهية الواحدة؟

فمقالة «الثلاثة» او الثالث او التثليث لها وجه مقبول ينسجم مع التوحيد الصارم ولها وجه مردود ينقض التوحيد ويعني تعدد الالهة. وما نهام القرآن عنها «ولا تقولوا: ثلاثة» إلا لأن العرب، او بعض نصارى العرب الجهال قد فهموا التثليث المسيحي على غير حقيقته فمالوا به الى تعدد الآلهة أو تعدد الذات الالهية، وأقحموا فيه ما ليس منه «مريم ام المسيح»، ونسبوا الى الله ما يقشعر له المرء ابى استيلاده عيسى من مريم كما سيظهر من مقالاتهم في ما يلي:

«الله ثالث ثلاثة» (مائدة ٧٦)

إن بعض نصارى الحجاز قد فهموا بالثالث أو «الثلاثة» أن «الله ثالث ثلاثة» (مائدة ٧٦)، ولا يجوز فهم هذا التعبير كفهم سابقه «ولا تقولوا: ثلاثة» لأنه في حد ذاته يجعل الله أحد ثلاثة فيعدد الآلهة، أو يعدد الذات الالهية. وهذا كفر كما نعتة القرآن. وتلاحظ انه يكفر مقالة «الله ثالث ثلاثة» فيما ينعت مقالة «الثلاثة» **بالفلاو** (نساء ١٧٠).

وقد تُفسّر هذه المقالة بأنّ « الابن والروح إلهان من دون الله » وهي تعني حتماً تعدد الآلهة ؛ وقد تُفسّر بأنّ « المسيح ومريم إلهان من دون الله » وظاهرها يعني أيضاً تعدد الآلهة . ويميل القرآن الى التفسير الثاني لأن الآية ٧٨ من المائدة بيان للآية ٧٦ منها . وكلا القولين كفر كما نعتها القرآن ؛ بيد ان القرآن لا ينسبهما الى عموم نصارى الحجاز بل الى الذين « كفروا منهم » (٧٦) .

قال الجلالان : أي أحدُ آلهةٍ ثلاثة والآخريان عيسى وامه . وهم فرقة من النصارى .

وقال البيضاوي : أي أحد ثلاثة وهو حكاية عما قاله النسطورية (?) والميلكانية منهم القائلون بالاقانيم الثلاثة وما سبق (٧٥) قول البيهقي القائلين بالاتحاد .

وقال الرازي ناقلاً رأي المفسرين ورأي المتكلمين : « في تفسير قول النصارى « ثالث ثلاثة » طريقان : (الاول) قول بعض المفسرين وهو انهم أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة والذي يؤكّد ذلك قوله : « أنت قلت للناس اتخذوني وامى الهين من دون الله » ، والدليل أنه المراد، قوله في الرد عليهم « وما من إله الا واحد » ؛ (والثاني) ان المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون : جوهر واحد، ثلاثة اقانيم : آب وابن وروح القدس، وهذه الثلاثة اله واحد، كما ان الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة . وعنوا بالآب الذات وبالابن الكلمة وبالروح الحياة ؛ وأثبتوا الذات والكلمة والحياة، وقالوا ان الآب اله والابن اله والروح اله والكل اله واحد . - نقول لقد أنصفهم المتكلمون ، وظلمهم المفسرون بنسبة مقالة بعض نصارى العرب الكفار الى عموم النصارى . وعقب الرازي على حكاية المتكلمين : « ان هذا معلوم البطلان ببديهة العقل فإن الثلاثة لا تكون واحداً والواحد

(١) قد تكون مقالة الملكانية « الله ثالث ثلاثة » ولا يمكن ان تكون بحال من الاحوال مقالة النسطورية الذين لا يعترفون بأومة مريم الالهية، وبخطون من كرامتها!!

لا يكون ثلاثة! - اجل من وجه واحد، كلا من وجوه مختلفة، فالنصارى يوحدون جوهر الله أو طبيعته الالهية، ويثلاثون اقانيمه الذاتية، وهذا لا يعني جعل الثلاثة واحداً والواحد ثلاثة حتى يجوز القول انه « لا يرى في الدنيا مقالة أشد فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى » (الرازي) فلا يراها المتكلمون كذلك، ولا الراسخون في العلم!!

فمقالة بعض نصارى الحجاز « الله ثالث ثلاثة » تفسير خاطيء فاسد لا يجوز تعميمه على سائر النصارى .

« إلهان من دون الله » (مائدة ١١٩)

ان بعض نصارى الحجاز كانوا يقولون « عيسى ومريم امه إلهان من دون الله » (مائدة ٧٨ و ١١٩) وهذه المقالة ايضاً تفسير آخر فاسد لمقالة النصرانية بالثالوث أو « بالثلاثة » الاقانيم .

فمقالة تلك الفئة الضالة تعني صراحة تعدد الآلهة ، لا بل تأليه مخلوقين مع الله، الانسان عيسى ابن مريم، وامه . لذلك يستفظعها الله يوم الدين ويستجوب عيسى عنها : « اذ قال الله (يوم يجمع الرسل) : أنت قلت للناس اتخذوني وامى الهين من دون الله ؟ ! » فيستنكر عيسى التهمة ويشهد للتوحيد ؛ ويستغفر لمن قال بها .

ويرد القرآن على هذه المقالة الفاسدة ببراہين عدة : « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، اي ما هو الا رسول كالرسل قبله خصه الله بآيات كما خصهم بها (البيضاوي) ؛ « وامه صديقه » : وان كل من كان له ام فقد حدث بعد أن لم يكن وكل من كان كذلك كان مخلوقاً لا إلهاً (الرازي) ؛ و « كانا يأكلان الطعام » : اي انها كانا محتاجين ، لأنها كانا محتاجين الى الطعام أشد الحاجة والاله هو الذي يكون غنياً عن جميع الاشياء فكيف يعقل ان يكون إلهاً (الرازي) ؛ و « قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً؟ أي أن عيسى وامه لا يملكان الضر والنفع مثل الله حتى يكونا إلهين .

ونقول انها براهين سديدة تنقض مقالة جهال الحجاز من النصارى لأنها تعني تأليه مخلوقين مع الله . ولكن قولهم ليس بقول النصارى الحق ، ولا تعنيهم أدلة القرآن الواردة . فالاله في عيسى ليس ما ولد من مريم أي ناسوته أو طبيعته الانسانية ، بل من ألقى الى مريم من جوهر الله دون انقسام أي « كلمة الله » الذي هو « روح منه » تعالى .

« الله هو المسيح » (مائدة ٧٥)

وان بعض نصارى الحجاز كانوا يقولون « إن الله هو المسيح ابن مريم » (مائدة ٧٥) ومقاتلهم هذه هي تفسير ثالث لعقيدة النصارى العامة في التثليث أي « الثلاثة » الاقانيم .

ومقالة اولئك تفسير خاطيء لأنها تعني أن جوهر الله كله ، وذات الله كلها ، وطبيعة الله كلها ، قد صارت عيسى ابن مريم . أو تعني على الاقل « ان الله تعالى حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى » (الرازي) وهذا هو مذهب الحزب الذي يجيز على الله ما لا يجوز أي أن يتغير أو يتبدل أو يتحول .

قال الجلالان : لقد كفروا حيث جعلوا ابن مريم إلهاً ، وهم اليعقوبية ، فرقة من النصارى .

وقال البيضاوي : هم الذين قالوا بالاتحاد منهم ؛ وقيل لم يصرح به أحد منهم بل حكى لسان حالهم .

وقال الرازي : حكى عن فريق منهم انهم قالوا « ان الله هو المسيح ابن مريم » وهذا هو قول اليعقوبية لأنهم يقولون : ان مريم ولدت إلهاً . ولعل معنى هذا المذهب انهم يقولون : ان الله تعالى حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى .

ونقول : ان النصارى يكفرون مع القرآن هذه المقالة : ليس لعيسى ابن مريم ذات غير ذات الكلمة الملقاة الى مريم روحاً من الله : فليس هناك ذاتان

بل ذات واحدة تجسدت من مريم اي تدرّعت بجسد منها . وهذا القول بعيد كل البعد عن مذهب الحلول والحلولية ، ومذهب الامتزاج بين ذات خالقة وذات مخلوقة .

تلك هي التفاسير الثلاثة التي قال بها بعض نصارى العرب الجاهلين ، البعيدين عن مراكز النصرانية الحنيفة الرسمية ، في ما يتعلق بعقيدة التثليث النصرانية ، اي الاقانيم « الثلاثة » في الله الواحد ، وتلك مقالات فاسدة جعلت القرآن يكفر اصحابها واحداً واحداً ، وينهاهم عن الاعتقاد « بالثلاثة » على الاطلاق : « ولا تقولوا : ثلاثة ! انتموا ، خير لكم » (نساء ١٧٠)^١ .

(١) فذلكة تاريخية : هل وراء اقوال نصارى الحجاز مذاهب نصرانية معروفة وصلت الى قلب الجزيرة ؟ قد يكون الامر كذلك على ما يؤخذ من نصوص القرآن واجتهادات المفسرين ، كما رأينا .

قبل مبعث النبي العربي كان يتقاسم العالم امبرطوريتان ضخمتان ، الفرس في الشرق من الجزيرة العربية ، والروم في الغرب . وقد تنصرت دولة الروم ، وبدأت النصرانية تغزو دولة الفرس ، وهذا سبب ما كان بينهما في مطلع القرن السابع من حرب سجال ، علاوة عن المنافسة على سيادة العالم ، وتنازع البقاء .

وقد غزت النصرانية الجزيرة وتوغلت الى الحجاز ، آتية من الشرق ومن الغرب معاً . وقد حاولت نصرانية الفرس ان تقرب بين المسيحية والدين القومي « المزدكية » القائلة بالهين ، اله الخير واله الشر أو اله النور واله الظلمة ، فطلعت علينا ببدعة المانوية التي تسربت الى قلب الجزيرة ونجد لها صدى في قول القرآن « وقال الله : ولا تتخذوا إلهين اثنين ، انما هو اله واحد » . (نحل ٥١) . قال الشهرستاني هذه المقالة تنقل تعليم المانوية والديبصائية ، من مارقة نصارى ، القائلين بعنصرين أو إلهين ، اله الخير وهو النور ، واله الشر وهو الظلمة ، (كتاب الملل والنحل ج ١ ص ١٤٣) .

كما غزت الحجاز النصرانية الغربية بفرقها الثلاث المعروفة آنذاك : الملكائية ، واليعقوبية ، والنسطورية وليدة وحليفة الأريوسية المصرية . فكان آريوس يدعي ان المسيح عبد الله ورسوله فهو مخلوق قبل غيره ، وبه كبروا سطة خلق الله العالم ، فهو غير الله ، فتبرأت النصرانية منه ، ودانت بالتثليث . وافترقت النصرانية الغربية ثلاث فرق في فهم هذا التثليث : فقالت اليعقوبية ، أتباع يعقوب البرادعي ، « بالاقانيم الثلاثة » إلا انهم قالوا انقلببت الكلمة لحماً ودماً نصار الاله هو المسيح ، وهو الظاهر بجسده بل هو هو وعنهم أخبرنا القرآن :

استنتاج وتطبيق

نستنتج مما تقدم ان التثليث الذي ينكره القرآن غير التثليث المسيحي الذي يعلمه الانجيل . كل من الانجيل والقرآن يقصد غير ما يعنيه الآخر . والمسيحيون يعتقدون غير ما ينكر المسلمون .

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم ! ». وقالت الملكائية أتباع الملك والمجمع النصراني « بالاقانيم الثلاثة، الا انهم قالوا ان الكلمة اتحد بجسد المسيح وتدرع بناسوته » ففهم العرب من ذلك ان الله صار « ثالث ثلاثة » فحكى عنهم القرآن : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » . وقالت النسطورية « وهي من الملكائية كالمعتدة من السنة » وم اتباع نسطور : ان مريم هي ام المسيح لا ام الله، فليست مريم بآله، ولا ولدت الله، وهذا قد ينكرون عرضاً ألوهية المسيح كما قالت اليعقوبية، والتثليث كما قالت الملكائية . ونظن مع عبد المسيح الكندي، ان القرآن في قبوله نبوة المسيح، ونكرانه بشوئته قد انتهى الى مقالة النسطورية، فكفر معهم اليعقوبية والملكائية من النصرانية الغربية كما كفر النصرانية الشرقية ونهى عن القول بالتثليث « لا تقولوا : ثلاثة ! انتهوا » ففيه مزلفة عن التوحيد . كما نهى عن القول بالثنائية : « ولا تتخذوا إلهين اثنين » ففيه نكران للتوحيد . وننقل على سبيل الاطلاع ما كتبه الشهرستاني المؤرخ الديني : « واثبتوا لله تعالى اقانيم ثلاثة . قالوا : الباري تعالى جوهر واحد يعنون به القائم بالنفس، لا التحيز والحجبية، هو واحد بالجوهريّة ثلاثة بالأقنومية، ويعنون بالاقنومية الصفات : كالوجود والعلم والحياة أي الآب والابن وروح القدس . وانما العلم تدرع وتجسد دون سائر الاقانيم (١٧٢) ... وقالت الملكائية : ان الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته ويعنون بالكلمة اقنوم العلم . ويعنون بروح القدس اقنوم الحياة . ولا يسمون العلم قبل تدرعه به ابناً بل المسيح مع ما تدرع به ابن ... وصرحت الملكائية بأن الجوهر غير الاقانيم وذلك كالوصوف والصفة . وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث (١٧٣) ... وعنهم أخبر القرآن : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » ... وحسب رأي النسطورية، وهي من الملكائية كالمعتدة من السنة : ان الله تعالى واحد ذو اقانيم ثلاثة، الوجود والعلم والحياة، وهذه الاقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو . واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام على طريق الامتراج كما تقول الملكائية (?) ولا على طريق الظهورية كما قالت اليعقوبية ولكن كإظهار الشمس في كوة أو على بلور أو كظهور النقش في الخاتم . وأشبه المذاهب بمذهب نسطور في الاقانيم أحوال أبي هاشم من المعتدة فإنه يثبت خواص مختلفة لشيء واحد (١٧٤) . واليعقوبية أصعب يعقوب قالوا بالاقانيم الثلاثة كما ذكرنا إلا أنهم قالوا انقلبوا الكلمة لهما ودماً فصار لإله هو المسيح، وهو الظاهر بجسده بل هو هو . وعنهم أخبرنا القرآن الكريم : لقد كفر

فالثالث المسيحي مبني في الانجيل على وحدانية الله، لا إله الا هو. سُئل السيد المسيح: «أي وصية هي أولى الوصايا جميعاً؟ فأجاب الاولى هي: اسمع يا اسرائيل: الرب الهنا هو الرب الوحيد فأحب الرب الهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك وكل قوتك. فقال له الكاتب: حسن يا معلم لقد أصبت اذ قلت انه الوحيد ولا آخر سواه» (مرقس ١٢: ٢٨ - ٣٤). ومع هذا الاقرار الصريح بالوحدانية الالهية فالتصريح بالتثليث لا ريب فيه، وقد ختم المسيح حياته ورسالته وانجيله بقوله لتلاميذه الحواريين: «لقد دُفِع الي كل سلطان في السماء وعلى الارض، فاذهبوا وتلمنوا جميع الامم. وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلوهم ان يحفظوا جميع ما أوصيتكم به وما أنا ذا معكم كل الايام الى انقضاء الدهر» (خاتمة متى).

فهذا الاعلان النهائي سبقته تصاريح متعددة عن الوحدة بين المسيح الابن والله الآب: «ورفع عيد التجديد في اورشليم وكان شتاء وكان يسوع يذهب ويجيء في الهيكل في رواق سليمان فتحلق اليهود حوله وقالوا له: «حتى م تريب انفسنا؟ انت كنت انت المسيح فقله لنا جهراً! أجاهم يسوع: لقد قلته لكم ولا تصدقون، والاعمال التي اعملها باسم أبي هي تشهد لي...» (ثم قال) انا والآب واحد! حينئذ تناول اليهود من جديد حجارة لكي يرمئوه. فأجاهم لقد اريتكم اعمالاً حسنة كثيرة من عند الآب فلاي عمل منها

الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم. ففهم من قال المسيح هو الله ومنهم من قال ظهر اللاهوت بالناسوت (١٧٦). وزعم آريوس ان الله واحد سماه أباً، وان المسيح كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء وهو مخلوق قبل خلق العالم وهو خالق الاشياء. وزعم ان الله تعالى روحاً مخلوقة أكبر من سائر الارواح وأنها واسطة بين الآب والابن تؤدي اليه الوحي. وزعم ان المسيح ابتداء جوهراً لطيفاً روحانياً خالقاً غير مركب ولا ممزوج بشيء من الطبائع وانما تدور بالطبائع الاربع عند الاتحاد بالجسم المأخوذ من مريم. وهذا آريوس قبل الفرق الثلاث فتبرأوا منه لخالفتم إياه في المذهب» (١٧٨) (كتاب الملل والنحل).

ترجوني؟ اجابه اليهود: لسنا لعمل حسن نرجمك بل لأجل التعديف ولأنك تجعل نفسك الهاً وأنت انسان! فأجابهم يسوع: أوليس مكتوباً في ناموسكم: «أنا قلتُ إنكم آلهة»؟ فإن كان يدعو آلهة اولئك الذين صارت اليهم كلمة الله - ولا يمكن ان ينقض الكتاب - فأنا الذي قدسه الآب وارسله الى العالم تقولون لي انك تجدّف! لكوني قلتُ: أنا ابن الله؟ ان كنت لا اعمل اعمال أبي فلا تصدّقوني، ولكن ان كنتُ اعملها ولا تريدون ان تصدّقوني فصدّقوا هذه الاعمال لكي تعلموا وتعرفوا ان الآب فيّ وأني في الآب، (يوحنا ١٠: ٢٢ - ٤٢) .

فهذه الوحدة بين الله الآب والمسيح الابن ليست معنوية بل جوهرية، والمسيح هو ابن الله ليس على طريق الاصطفاء أو على سبيل المجاز، بل حسب الطبيعة «لكي تعلموا وتعرفوا ان الآب فيّ وأني في الآب» (١٠: ٣٨)؛ ثم يعود الى الشهادة ذاتها مع تلاميذه: «قال له فيلبس: يارب، أرنا الآب وحسبنا، قال له يسوع: أنا معكم كل هذا الزمان ولا تعرفني؟ يا فيلبس، من رأني فقد رأى الآب! فكيف تقول انت: أرنا الآب! أفلا تؤمن أنني أنا في الآب وأن الآب فيّ؟ الأقوال التي أكلمكم بها لا اتكلم بها من نفسي بل الآب المقيم فيّ هو يعمل اعماله. صدّقوني أنني أنا في الآب والآب فيّ. والا فصدّقوا من اجل الاعمال» (يوحنا ١٤: ٣) .

وقد سبقته ايضاً، تصاريع عن الوحدة القائمة بين الابن وروح القدس . فالروح القدس هو المحامي عن الحواريين في نشر الايمان لأنه روح الحق الذي ينبثق من الآب: «ومتى جاء المحامي الذي ارسله اليكم من لدن الآب، روح الحق الذي ينبثق من الآب، فهو يشهد لي، وأنتم ايضاً تشهدون بما أنكم معي منذ البدء» (يوحنا ١٥: ٢٦)؛ وروح الحق ينزل بعد رفع المسيح: «غير أنني أقول لكم الحق: ان في انطلاقي خيراً لكم: فإن لم أنطلق لا يأتكم المحامي وأماً اذا انطلقت فاني ارسله اليكم (١٦: ٧)، ولكن متى جاء هو، روح الحق، فإنه يرشدكم الى الحقيقة كلها لأنه لا يتكلم من عند نفسه بل يتكلم بما

يكون قد سمع ويخبركم بما يأتي . انه سيمجدني لأنه ياخذ مما لي ويخبركم . جميع ما للآب فهو لي : من أجل هذا قلت لكم إنه ياخذ مما لي ويخبركم » (١٦ : ١٢ - ١٥) .

٢ تحليل التصريح :

وهكذا يعلمنا الانجيل أن « الله روح » محض لا دخل للجسد ولشؤون الجسد فيه تعالى ، « والذين يعبدونه يجب ان يعبدوه بالروح والحق » (يوحنا ٤ : ٢٥) ؛ ويعلم الانجيل ان يسوع المسيح هو « ابن الله » و « كلمة الله » لأنه « كما أن الآب له الحياة في ذاته كذلك اعطى الابن ان تكون له الحياة في ذاته » (يوحنا ٥ : ٢٦) . ان الله هو الوجود، والوجود هو الحياة، والله هو « الحي القيوم » (آل عمران ٢ ، بقرة ٢٥٥ ، طه ١١١) ، يحيا ويتفاعل ويتسلسل في ذاته الواحدة . والانجيل بتسميته « الابن كلمة الله » (يوحنا ١ : ١) - كذلك القرآن نساء ١٧٠ - أفهمنا ان هذا التفاعل والتسلسل روحي عقلي . فالمسيح هو ابن الله ، أي فكر الله الجوهرى ، او نُطق الله الجوهرى . فهل يمكن ان يكون الله بدون عقل ؟ وهل يكون عقله الا غير محدود كذاته . وفكره الذي هو منتج عقله ، وهو غير محدود في الله كعقله ، هو ما يسميه الانجيل بلفظ علمي فلسفي لاهوتي « كلمة الله » ، وبتعبير شعبي تفهمه الجماهير « ابن الله » والشعب البسيط نفسه ألا يسمي الافكار بنات العقل ؟ وعندما يستعمل الانجيل لفظه « كلمة » يدل بصراحة على أن بنوّة الابن من الآب وفي الآب ، ضمن الذات أو الطبيعة الالهية الواحدة ، هي بنوّة فكرية نطقية عقلية ؛ وأن الولادة في الجوهر الالهي الفرد هي روحية إلهية ، فوق الزمان والمكان ، وفوق الجسد والمخلوق . يتسلسل كلمة الله من جوهر الله كما يصدر نطقنا من عقلنا . وهذا الصدور أو التسلسل غير المخلوق ، نتيجة التفاعل الالهي ، لا يمكن التعبير عنه تماماً بكلام مخلوق ، فيسميه الانجيل بلغة بشرية تقرّب غير المدرك من ادراكنا « ولادة وبنوّة » ثم « أباً وابتناً » . فكلمة الله أو نطق الله الصادر عن القوة العاقلة في الله ، هو في وضع يشبه عند البشر وضع ابن من أبيه ، وفي علاقة

ولادة روحية وبنوة عقلية تشبه فينا ولادة الفكر من العقل . فليس في ذلك اذن رفع مخلوق الى صفة الخالق ، ولا حطّ الخالق الى درجة المخلوق ؛ بل هو تفاعل روحي وتسلسل عقلي ؛ بل هو ولادة روحية وبنوة عقلية في الذات الالهية الواحدة .

✳ وكما انه لا بدّ من الاعتراف في الجوهر الالهيّ الفرد بقوة عاقلة كذلك لا بدّ من الاعتراف فيه بقوة محبة ، كما قال الانجيل : « الله نور ، و الله محبة » . فالطبيعة الالهية الواحدة هي ذاتها قوة عاقلة وقوة محبة . والقوة العاقلة فيها تنتج فكرها او « ابنها » ، والقوة المحبة في الآب والابن تنتج ، عن طريق التبادل ، ثمراً حبيّاً هو الروح القدس الذي يعرفه النصارى « محبة الآب والابن المتبادلة » . وحياة الحيّ القيوم هي حياة قوة ذاته العاقلة وحياة قوة ذاته المحبة : فان الله هو فكر الله الجوهرى ، وروح الله او روح القدس هو حبّ الله الجوهرى . ولكي يقرب لنا المسيح فهم هذه الحياة الالهية وكيفية تفاعلها في داخلها عبّر لنا بكلام بشري عن ذات الله وعن ثمرة عقله الجوهرية وثمره حبه الجوهرية ، اذ لا عرض في ذات الله ، انها « الآب والابن والروح القدس » وان « الثلاثة » هي الاله الواحد ، لا اله الا هو .

وهكذا فالروح اسم وحقيقة للمحبة المتبادلة في ذات الله ؛ والابن اسم وحقيقة لثمرة القوة العاقلة في جوهر الله ؛ والآب اسم وحقيقة لمصدرهاتين الثمرتين في الذات الالهية الواحدة . وهكذا فالآب والابن والروح جوهر واحد ، طبيعة واحدة ، ذات الهية واحدة ، هو الله لا إله الا هو . ومن ثم فاذا بشر الانجيل بالتثليث ضمن الطبيعة الالهية الواحدة فهو لا يجعل مع الله إلهاً آخر ، ولا يجعل الله « ثالث ثلاثة » ، ولا يجعل الله « ثلاثة » آلهة ؛ بل هو تثليث علاقات اقنومية قائمة في الذات الالهية الواحدة ، هو تثليث في التوحيد الخالص .

وقد نجد عند ارسطو والغزالي ما يشبه من بعض الوجوه هذا التحليل :

فأرسطو يقول - على حد ما نقل عنه الشهرستاني : « المسألة الثالثة في ان واجب الوجود لذاته عقل لذاته ، وعقل ومعقول لذاته - عُقِلَ من غيره أم لم يُعقل - اما انه عقل فلأنه مجرد عن المادة ، منزّه عن اللوازم المادّية ، فلا يجب ذاته عن ذاته ؛ واما انه عاقل لذاته فلأنه مجرد لذاته ؛ واما انه معقول لذاته فلأنه غير محجوب عن ذاته بذاته او بغيره » (ص ٣١٣) : فانه اذن عاقل وعقل ومعقول في ذاته الواحدة ؛ ومثل هذا « التثليث » في الذات الواحدة لا يتنافى مع وحدانية الله .

وقال حجة الاسلام الإمام الاول الغزالي : « يعتقدون أن ذات الباري واحدة ولها اعتباران : فان اعتبرت مقيدة بصفة لا يتوقف وجودها على تقدم وجود صفة قبلها ، كالوجود ، فذلك المسمى عندهم بأقنوم الآب . وان اعتبرت موصوفة بصفة يتوقف وجودها على تقدم وجود صفة قبلها ، كالعلم ، فإن الذات يتوقف اتصافها بالعلم على اتصافها بالوجود فذلك هو المسمى عندهم بأقنوم الابن والكلمة . وإن اعتبرت بقيد كون ذاتها معقولة لها فذلك المسمى عندهم بأقنوم روح القدس . فيقوم اذن من الآب معنى الوجود ، ومن الابن أو الكلمة معنى العالم ، ومن روح القدس كون ذات الباري معقولة له . هذا حاصل هذا الاصطلاح ، فتكون ذات الاله واحدة في الموضوع موصوفة بكل اقنوم من هذه الاقنوم . ومنهم من يقول : انّ الذات ، ان اعتبرت من حيث هي ذات ، لا باعتبار صفة البتة ، فهذا الاعتبار عندهم عبارة عن العقل المجرد وهو المسمى بأقنوم الآب . وان اعتبرت من حيث هي عاقلة لذاتها فهذا الاعتبار عندهم عبارة عن معنى العاقل وهو المسمى بأقنوم الابن والكلمة . وان اعتبرت بقيد كون ذاتها معقولة لها فهذا الاعتبار عندهم هو المسمى بأقنوم معنى المعقول ، روح القدس . فعلى هذا الاصطلاح يكون العقل عبارة عن ذاته بقيد كونها عاقلة لذاتها ، والابن أو الكلمة مرادفين له ؛ والمعقولة عبارة عن الاله الذي ذاته معقولة له ، وروح القدس مرادفاً له ^(١) . هذا هو اعتقادهم

(١) لاحظ ان الغزالي قلب ترتيب ارسطو : فهذا يقول ذات الله عقل وعقل ومعقول

في هذه الأقانيم . وإذا صحت المعاني فلا مشاحة في الالفاظ ، (ص ٤٣) .

فيعود تحليله الى قوله : الذات الالهية موصوفة بخواص جوهرية ثلاث الوجود والعلم والمعنوية ، وهي الآب والابن والروح القدس الاله الواحد ؛ أو الى قوله : الذات الالهية هي عقل وعقل وعقل ومعقول معاً وهي الآب والابن والروح القدس الاله الواحد : فهل في هذا « التثليث » ما ينافي التوحيد ؟

وقد رأيت أن المعسرین أخذوا بالاصطلاح الأول ، فيما المتكلمون يأخذون بالاصطلاح الثاني . وقد فسّر الشهرستاني بعدم عقيدة التثليث المسيحية بقوله : « وأثبتوا لله تعالى أقانيم ثلاثة ؛ قالوا : البارئ تعالى جوهر واحد ، يعنون به القائم بالنفس ، لا التحيز والحجمية ؛ فهو واحد بالجوهريّة ثلاثة بالاقنوميّة ؛ ويعنون بالاقنوميّة الصفات كالوجود والعلم والحياة ، الآب والابن وروح القدس ؛ وان العلم تدرّج وتجسد دون سائر الأقانيم (ص ١٧٢) : قد اوجز الشهرستاني عقيدتي « التثليث » والتجسد : فهل في مثل هذا ما ينافي التوحيد ؟

لقد ثبت لنا بالنقل والعقل ان التثليث المسيحي الذي يعلمه الانجيل ويدين به النصارى لا ينافي التوحيد ، بل يقوم عليه ، وهو من صلبه ، وهو تفسير سام حياة « الحي القيوم » في ذاته ، لا إله الا هو سبحانه وتعالى .

فالتثليث المسيحي اذن هو من صميم وحدانية الله ، في وحدة الذات الالهية .

اما في القرآن فقد رأيت ان التثليث الذي يذكره في تعابيره الاربعة : « الثلاثة » (نساء ١٧٠) و « الله ثالث ثلاثة » (مائدة ٧٦) و « الله هو المسيح ابن مريم » (مائدة ٧٥) و « عيسى وامه الهان من دون الله » (مائدة ١١٩) يعود الى نكران وحدانية الله ، وتعدّد الذات الالهية وايجاد ثلاثة آلهة أي

معاً ؛ والغزالي يقول ذات الله عاقل وعقل ومعقول . راجع الرد الجليل على إلهية المسيح ص ٤٣ . ولاحظ ايضاً ان الغزالي يقبل بهذا التثليث في كتاب يرد به على إلهية المسيح !

إلهين غريبين مع الله هما الانسان عيسى ابن مريم وامه . وهذا التثليث القرآني كفر محض ينكره الانجيل كما ينكره القرآن ، لأنه يعني « تأليه » عيسى وامه « واتخاذهما » الهين من دون الله . والانجيل لا يعرف اتخاذاً ولا تأليهاً . فقول كهذا يعني ثلاثة آلهة ، وتعدد الذات الالهية ، بما لا أثر له في الانجيل ولا في اعتقاد النصارى .

وبما يستفز النصارى اتهامهم بتأليه مريم ام المسيح كما فعله « المرعيون » او « الكليريون » من نصارى العرب الجهال فحكى القرآن حكايتهم . وها هي كتب النصارى ومؤلفات علمائهم تملأ العالم منذ الف سنة فلا تجد فيها أثراً لهذا التثليث الذي ينكره القرآن على نصارى العرب : الله والانسان عيسى ابن مريم ، وامه ؛ ولا تجد فيها ذكراً لاشراك امّ المسيح من قريب أو بعيد في عقيدة التثليث . فهل « جنّ » جميع النصارى منذ الف سنة حتى يؤمنوا بثلاثة آلهة ؟ ! هل توصل جهلهم وحمقتهم الى ان يؤلّوها مخلوقاً الانسان عيسى ابن مريم ، او امرأة هي مريم بنت عمران ام عيسى ؟ ! فالنصارى قبل ايمانهم بالوهية المسيح ، وقبل ايمانهم بالثالوث الاقدس يدينون بوحدةانية الله الخالصة . واذا كان في الوهية المسيح او التثليث الالهي ما ينافي وحدة الطبيعة الالهية فهم يرفضونها .

لذلك فالتثليث الذي ينكره القرآن ليس بالتثليث المسيحي . فلا النصارى يؤمنون ولا الانجيل علّم ولا المسيح قال للناس : « اتخذوني وامى الهين من دون الله » (مائدة ١١٩) .

ثالث : ألقاب المسيح في القرآن

« إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكنهه
لقاها الى مريم وروح منه » (نساء ١٧٠)

الاسم دليل المسمى... وبما يزيدنا معرفة لمنزلة المسيح الفريدة في القرآن،
ما يضيفه على عيسى ابن مريم من الألقاب . وإنك لتراه يسبغ عليه من النعوت
والصفات، والألقاب والاسماء ما يجعله وحيداً بين الأنبياء، وسيداً للمرسلين .
نجد في القرآن ألقاباً نبوية تجعل المسيح « وجيهاً » بين الرسل الذين خلوا
من قبله .

ونجد في القرآن ألقاباً إلهية - أجل إلهية - ينفرد بها المسيح على سائر
الانبياء والمرسلين، بل ترفع المسيح من رتبة المخلوق الى صلة ذاتية خاصة
بالمخلوق .

أولاً : ألقاب المسيح النبوية في القرآن

« قال اني عبد الله آتاني الكتاب
وجعلني نبياً » (مريم ٣٠)

يسمى القرآنُ المسيحَ عادةً : « عيسى ابن مريم » .

هو « عيسى » : بالعبرية « إيشوع » (البيضاوي والزمخشري) أو بالحري
« يشوع » ومعناه في لغتهم « المخلص » . هذا اسمه الشخصي المعروف به، اسم
العلم الذي به يُعلّم . وصحيح الاسم « يشوع » بالعبرانية، و« يسوع »
بالسريانية فمن أين نقله على هذه الصورة « عيسى » ؟ الأرجح أنها منقولة ومنحوتة
عن الرومية السريانية في صيغة المنادى « إيسُو » فوصلت الى قلب الجزيرة
على هذه الصورة « عيسى » .

ومعروف عند الشرقيين ما للاسم من مغزى وأمل .

وهو « ابن مريم » نسبة الى امه^١ . وينسبه الى امته تشریفاً له ولها . وليس في هذه النسبة أية اهانة أو تحقير لأن هذه الأم قد « اصطفها الله على نساء العالمين » (آل عمران ٤٢) وينسبه الى امه ليس لأنه مجهول الأب ، فتلك اهانة ينتفض لها القرآن ويكفر اليهود الذين يقولون بها (نساء ١٥٧) بل هي شهادة دائمة من القرآن لأئمة مريم البتولية ، ولمولد عيسى المعجز الفريد من بتول لم ينسها بشر .

ويرد هذا اللقب « ابن مريم » مسنوداً الى عيسى كناية له : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم » (بقرة ٨٧ ، نساء ١٧٠ ، مائدة ٤٦) « وآتينا عيسى ابن مريم البينات » (بقرة ٨٧ و ٢٥٣ ، مائدة ٤٩) ، و « اذ قال الله يا عيسى ابن مريم » (مائدة ١١٣ و ١١٩) ؛ وهذا الاسم تصح به نسبة عيسى .

ويورد اللقب « ابن مريم » مستقلاً بنفسه ، كناية علمية على الطريقة السامية : « وجعلنا ابن مريم وامه آية » (مؤمنون ٥١) « ولما ضرب ابن مريم مثلاً (زخرف ٥٧) وفي هذه الكناية تشریف ، وتفضيل ، واستشهاد ، وشهادة .

ويدعوه « عبد الله » أي رجل الله ، وهي صفة يتصف بها أنبياء الله ورسله . فهو قال عن نفسه « اني عبد الله » (مريم ٣٠) حينما نطق طفلاً ؛ والله يدعوه عبده « ان هو الا عبد انعمنا عليه » (زخرف ٥٨) ؛ ويجعل القرآن هذه الصفة ميزة رسالته . وحسبه فخراً انه عبد الله « لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله » (نساء ١٧١) .

وهو « النبي » : وولد نبياً بشهادته لما نطق حال ولادته « اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً » (مريم ٣٠) ؛ بل نبوته ترتقي الى ما قبل الولادة ،

(١) قال البيضاوي : لما كان صفة تميز تمييز الاسماء ... تنبيهاً على انه يولد من غير أب اذ الاولاد تنسب الى الأب ولا تنسب الى الام الا اذا فقد الاب .

اذ هو « كلمة الله القاها الى مريم ، وروح منه » (نساء ١٧١) . وقد انفرد هذا « النبي » بخوارق شخصه ورسالته .

وهو « الرسول » ايضاً : لا يجعل القرآن عادة فرقاً بين النبي والرسول . وقالوا ان الرسول هو النبي الذي اختصه الله بشرع جديد ، مثل ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد . انه رسول الله « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » (نساء ١٧٠) . انه « رسول الى بني اسرائيل » (آل عمران ٤٩) امتازت رسالته بتمام الوحي فيه « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولاً الى بني اسرائيل » (آل عمران ٤٨ و ٤٩) . فانفردت رسالته بخوارق لا مثيل لها في تاريخ النبوة والرسالة من ابراء ، الى احياء ، الى خلق (آل عمران ٤٩) . واختصت بتأييد الروح القدس ، روح الله (بقرة ٧٨ و ٥٣ ، مائدة ١١٣) .

وهو « الغلام الزكي » (مريم ١٨) جسداً ونفساً ؛ وحده وولد بحال البتولية ، وحده وولد بدون مسّ الشيطان ، وحده عاش « طاهراً بريئاً من الذنوب » (البيضاوي) ، وحده عاش « لا يصيب من الذنوب كما يصيب سائر بني آدم حتى الانبياء منهم » (قتادة) ، وحده لا يُنسب اليه اثم على الاطلاق .

وهو « المبارك » أينما كان : حمل هذه البشرية معه منذ مولده « وجعلني مباركاً ابن ما كنت » (مريم ٣١) ؛ وظل في كل لحظة ، وفي كل موقف من مواقف حياته « المبارك » أينما كان . فأَيُّ نبيّ خصه الله بمثل هذه البركة في كل دقائق حياته « ابن ما كنت » ؟ من لا تتغلب عليه في ساعة من ساعات حياته عوامل البشرية ، ومواطن الضعف ، فلا يكون فيها « مباركاً » ؟ لقد جاء عن محمد ، خاتم النبيين : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك ، لتفتري علينا غيره ، وأذن لاتخفوك خليلاً . ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً » (اسراء ٧٣) وايضاً « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (فتح) ؛ وجاء عن سائر المرسلين :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ، الا اذا تمسنى (قرأ) ألقى الشيطان في أمنيه ، ! انما واحد احد رافقته البركة والنعمة ، وتأيد الروح القدس من المهد الى اللحد ومن الدنيا الى الآخرة » وجعلني مباركاً ابن ما كنت ، ، هو عيسى ابن مريم .

وهو « البتول » دائماً : وُلد من بتول ، وعاش بتولاً ، وارتفع بتولاً ؛ لا يذكر له القرآن والانجيل زوجة ولا أولاداً ، ولا يُسندان اليه كنية ولد ، ولا يلحان الى علاقة له بالنساء ، ولم يمد عينيه الى ما متع به الله أزواجاً منهم . بينما القرآن يزخر بحوادث النساء عند غيره ، ولم يكتف في نفسه ما الله مبدية ... وحده مع يحيى بن زكريا كان « حصوراً » ارتفع فوق حاجة الرجل الى امرأة . إنه البتول .

وهو « المثل » الأعلى : « وجعناهُ مثلاً لبني اسرائيل » (زخرف ، ٥٨) ؛ والقرآن لا يعرض غيره مثلاً . فقد حقق المثل الاعلى في التقوى والفضيلة والقداية : « وأوصاني بالصلوة والزكوة ما دمت حياً ! و برّاً بوالدي ! ولم يجعلني جباراً شقياً ! » (مريم ٣٢) . ويكفيه فخراً أن القرآن ينزله عن كل اثم ومنقصة . فهو المثل الذي لا تشوبه شائبة .

هو « الوجه في الدنيا والآخرة » (آل عمران ٤٥) قالوا بالاجماع ، كما رأينا ، الوجاهة في الدنيا هي النبوة ، وفي الآخرة هي الشفاعة . زاد الرازي هي براءته من العيوب في الدنيا وكثرة ثوابه في الآخرة ، واستجابة دعائه في الدنيا ، وعلو درجته ومنزلته في الآخرة . لا بل أكثر من ذلك ، فوصفه بالوجاهة يعني زعامة في النبوة ، وزعامة في الشفاعة ، والتقدم ، والدرجات العلى . هو « وجّه » الأنبياء والمرسلين ، المقدم في الدنيا عليهم ، والمقرب في الآخرة من عرش الجلالة « فقد ارتفع الى السماء وجلس عن يمين الله » (خاتمة انجيل مرقس) .

(١) كان للمؤمنين في رسول الله محمد « اسوة حسنة » في الصبر في الحروب والغزوات ؛ لأنها اسوة محدودة خاصة .

وهكذا، فألقاب المسيح النبوية تظهر المسيح وحده «آية للعالمين» بين الأنبياء والمرسلين. قبل ظهوره يقول القرآن عنه «قال ربك: هو عليّ هين: ولنجعله آية للناس ورحمة منا! وكان أمراً مقضياً» (مريم ٢١) وبعد ظهوره يقول «وجعلناها وابنها آية للعالمين» (أنبياء ٩١) شركاً الأم في شرف ابنها فهو آية بشخصه، آية بحياته، آية برسالته. ففي تاريخ النبوة المسيح وحده «آية الله للعالمين»: وهذه الصفة موجز كل الألقاب.

هذه الألقاب النبوية تجعل وحدها عيسى ابن مريم نبي الأنبياء في القرآن. وتدل وحدها دلالة كافية على سمو رسالته وشخصيته اللتين انفرد بها.

ثانياً: ألقاب المسيح الالهية في القرآن

«انما المسيح، عيسى ابن مريم، رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه» (نساء ١٧٠)

هناك في القرآن الكريم، بين النعوت والصفات، والاسماء والألقاب التي تكلل هامة المسيح بمجد لا يُداني، ثلاثة ألقاب انفرد بها المسيح دون سواه من الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين، والملائكة المقربين: «انما المسيح، عيسى ابن مريم، رسول الله، وكلمته القاها الى مريم وروح منه» (نساء ١٧٠).

فعيسى ابن مريم هو مسيحُ الله

وعيسى ابن مريم هو كلمة الله

وعيسى ابن مريم هو روح الله

في هذه الصفات والألقاب تعريف بالمسيح أبلغ وأسمى من كل تعريف. فهي بمجد ذاتها، مهما كان معناها، تحديد لشخصيته يرفعها فوق الجميع؛ وهي كما فسرها المسلمون تبين عظمة المسيح الوحيدة في العالمين. وهي في معناها

الكامل - على ضوء التوراة والنبئين والانجيل حيث اقتبسها القرآن وصدقها وشهد لها - ترفع المسيح فوق المخلوقين الى صلة ذاتية خاصة مع الخالق .

ونقرّ منذ البدء أن لنا الحق كله بأن نفهم على ضوء التوراة والنبئين والانجيل ما غمض في القرآن من النقاط المشتركة لأن القرآن ذاته، في حالة الشك من شهادته أو من فهمها، يحيلنا الى الكتاب : « فإن كنت في شك بما أنزلنا اليك فسئَل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » (يونس ٩٤) .

١ - عيسى ابن مريم هو مسيح الله

« اذ قالت الملائكة : يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح » (آل عمران ٤٥)

عيسى ابن مريم هو المسيح « انما المسيح، عيسى ابن مريم » (نساء ١٧٠) .
المسيح هو اسم لعيسى ابن مريم، وليس لقباً فقط : « يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه : اسمه المسيح » (آل عمران ٤٥) .

الملائكة تبشّر بهذا الاسم، وهي تحمله معها من السماء الى الارض . والله ذاته يبشّر به العذراء، بواسطة الملائكة : « اذ قالت الملائكة : يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح » .

فهو اسم سماوي إلهي أوحى به الله مباشرة .

وعندما يوحى الله اسماً يعلّق عليه رسالة خاصة : فالاسم دليل الشخص .
ومهما كان معنى هذا الاسم العجيب، فإنه يعني أن (الله مسحه وارسله) « رحمة وآية للعالمين » .

لقد سبق الله في التوراة والأنبياء فأخبر عنه، ووصف شخصه ورسالته . ولما جاء القرآن، وصدق هذا الاسم لعيسى ابن مريم، وشهد للانجيل والتوراة، دلّ على ان عيسى ابن مريم هو مسيح الله المنتظر، موضوع أحلام وآمال البشرية

www.christianlib.com

جيلاً بعد جيل ؛ ودلّ دلالة واضحة على انه هو حامل الرسالة العظمى التي تنبأ عنها الانبياء ووصفوها في شخصه .

ولمّا اعلن القرآن ان عيسى ابن مريم هو المسيح الموعود به شهد لما قالته التوراة عنه، وشهد لما قاله الانجيل عنه . وباعتراف القرآن لعيسى بهذا الاسم اقرّ بأنه أتم الرسالة التي علقها كتاب الله على هذا الاسم الجليل .

التوراة والانبياء سمّوا « النبي » الاعظم باسمه « المسيح » . والانجيل والقرآن يشهدان ان عيسى ابن مريم هو المسيح اي النبي الموعود به « اسمه المسيح » (آل عمران ٤٥) .

ولو فتشت القرآن كله كما وجدت سوى عيسى ابن مريم وحده ، بين الانبياء والمرسلين ، قد انفرد باسم « المسيح » ، وانفراده به ميزة خصّ بها دون سواه .

وقد ذهب المفسرون في تفسير هذا الاسم الفخيم ، المثقل بنبوءات الانبياء الاولين ، مذاهب شتى . ولكن كلها تنطوي على عظمة شخصية المسيح وعلى عظمة رسالته اللتين دلّ عليها « اسمه المسيح » .

قال البيضاوي : « المسيح لقبه . وهو من الالقاب المشرفة كالصديق . راصه بالعبرية « مشيحا » ومعناه المبارك . سمي كذلك :

— لأنه مُسحَ بالبركة (ولم يُمسح غيره بالبركة) .

— او مُسح بما طهره من الذنوب (ولم ينل غيره مسحة طاهرة مطهرة مثله) .

— او مسح الأرض ولم يقم في موضع (وهل يستطيع غيره ذلك) ؟

— او مسحه جبريل صوتاً له من مسّ الشيطان (ولم يُصن أحد غيره

بمثل هذه المسحة) .

(١) « مشيحا » معناه مسيح اي مسح . وقد تكون المسحة دلالة بركة خاصة .

وقال الرازي : « المسيح : هل هو اسم مشتق او موضوع ؟ أصله بالعبرية « مشيحا » فعربته العرب وغيّروا لفظه : وعلى هذا القول لا يكون له اشتقاق . والاكترون انه مشتق موضوع :

— قال ابن عباس : انما سمي مسيحاً لأنه ما كان يمسح بيده اذا عاهة الا برئ من مرضه .

— قال احمد بن يحيى : لأنه كان يمسح الارض اي يقطعها في المدة القليلة .

— قال غيره : لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى .

— لأنه مسح من الاوزار والآثام .

— لانه كان ممسوحاً بدهن طاهر مبارك يُمسح به الانبياء ولا يمسح

به غيرهم^٢ .

— لأنه مسحه جبريل بجناحه وقت ولادته ليكون له ذلك صوتاً من مس

الشیطان .

— لأنه خرج من بطن امه ممسوحاً بالدهن .

تعود تفاسير مسحة المسيح الى معنيين : إنه مسح من الخطيئة ، في ولادته « مسحه جبريل بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوتاً له من مس الشيطان » ، وفي حياته كلها « مسح بمسا طهره من الذنوب ، مسح من الأوزار والآثام » . ثم نال مسحة النبوة الكاملة « مسح بالبركة . انه كان ممسوحاً بدهن طاهر مبارك يُمسح به الانبياء » . وذلك من بطن امه « انه خرج من بطن امه ممسوحاً بالدهن » ، وفي هذه المسحة من بطن امه للرسالة الكاملة

(١) والاكترون انه مشتق : قال الزمخشري : « ومشتقها (المسيح عيسى) من المسح والعيس كالراقم في الماء . وقال البيضاوي واشتقاقها من المسح والعيس تكلف لا طائل فحته » .

(٢) لماذا ما سمي غيره مسيحاً لو كلهم مسحوا ؟

سرّ شخصيته وسرّ عظّمته التي يحوم حولها المفسرون ولا يجراؤن على التصريح بها .

والمعنى الكامل لاسم « المسيح » يجب ان نفهمه في القرآن على ضوء الانجيل والانبياء الاولين والتوراة، التي يأخذ القرآن عنها (اعلى ١٨ و ١٩، مريم ١٥) ويصدقها (بقرة ٤١ و ٨٩ و ٩١ و ١٠١) .

فموسى يعتبر المسيح « النبي » خاتمة سلسلة انبياء الكتاب .

وداود في زبوره يدعوه : **الرب والملِك والكاهن** . وداود اول من يسميه المسيح .

وأشعيا يسمي المسيح المنتظر « **عمانوئيل أي الله معنا** » وينشد متنسأ في شأن مولده : « **قد وُلد لنا ولد، وأعطي لنا ابن ؛ صارت رئاسته على كتفه ، ولا حد لسلامه ؛ ويدعى اسمه رسول المشورة العظيمة ؛ مشيراً عجيباً ؛ إلهاً قوياً ؛ سلطاناً ؛ رئيس السلام ؛ أبا الدهر الآتي ؛ ومخارجه منذ الارل** » .

ودانيال يراه **دياناً للعالم آتياً على سحاب السماء في « هبة ابن الانسان »** . فلقب المسيح في الكتاب مثقل بالمعاني النبوية الكثيرة .

وقد نقل الشهرستاني^١ نظرية الكتاب كما يقول بها المسيحيون : « **كإل الشخص الانساني في ثلاثة اشياء : نبوة وإمامة وملكية** . وغيره من الانبياء كانوا موصوفين بهذه الحصال الثلاث^٢ أو ببعضها . والمسيح عليه السلام درجته فوق ذلك لأنه الابن الوحيد فلا نظير له ، ولا قياس له الى غيره من الانبياء ؛ وهو الذي به غفر زلة آدم عليه السلام . وهو الذي يجاسب الخلق » .

(١) كتاب الملل والنحل : في اصل النصرانية (١٧٢) .

(٢) لم يكن أحد من الانبياء موصوفاً بها معاً بل جميعهم بواحدة منها أو اثنتين . مثلاً موسى كان نبياً وقائداً ولم يكن إماماً أو كاهناً بل هارون . وداود كان نبياً وملكاً ولم يكن كاهناً . وإرميا كان نبياً وكاهناً ولم يكن ملكاً . المسيح وحده جمع الحصال الثلاث .

فمسحة المسيح التي مسحها الله بها هي «نبوة وإمامة وملكية». فالمسيح هو النبي الأعظم والامام أو الكاهن الأعظم والملك الأعظم. واختصاصه «باسم المسيح»، لهذه المسحات الثلاث، دليل على كمالها فيه حتى عُرف بها وعرفت به.

والقرآن الكريم، على آثار التوراة والانبياء والانجيل، اذ يعترف لعيسى ابن مريم، باختصاصه «باسم المسيح» (أل للتعريف والفردية)، يقرّ له بكل تلك الحُصَال. فمسحة النبوة ومسحة الامامية أو الكهنوت ومسحة الملكية انتهت اليه واستُكملت فيه.

فهو «مسيح الله» بين الانبياء والمرسلين من قبل أن يظهر ومن بعد: «إذ قالت الملائكة: يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه، اسمه المسيح». ذلك هو معنى «المسيح» في القرآن والانجيل والتوراة.

٢ عيسى ابن مريم هو كلمة الله

«انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله
وكلمته القاها الى مريم» (نساء ١٧٠)

النصوص:

كل البشارات في القرآن تبشر بعيسى ابن مريم أنه «كلمة الله».

الله يبشر زكريا بيحيى، وعلامة نبوته تصديقه بكلمة الله: «فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب: ان الله يبشرك بيحيى، مصدقاً بكلمة من الله، وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين» (آل عمران ٣٩). اولى صفات

(١) وكال هذه المسحات الثلاث في الانجيل: مسحة الالهية «مسحك الهك، يا الله، بدهن البهجة أفضل من شر كائنك» (عبر ١: ٨)، «مسح الله بالروح القدس يسوع الناصري الذي اجتاز يحسن الى الناس لأن الله كان معه» (اعمال ١٠: ٨).

يجب أنه مصدق بكلمة من الله أي بعيسى ابن مريم ، انه كلمة « كائنة » من الله (الجلالان) .

الله يبشر مريم مباشرة بكلمة منه : « اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين » (آل عمران ٤٥) . اولى صفات مولود مريم واول القاب التي نسمع به مريم هو انه « كلمة الله » .

ومريم صدقت بالمسيح وانجيله فسميت « الصديقة » (مائدة ٧٨) : جاء في سورة التحريم في قراءة صحيحة : « ومريم ابنت عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا . وصدقت بكلمة ربها وكتابه وكانت من القانتين (١٢) .

والقرآن الكريم عندما اراد ان يستجمع اوصاف والقاب المسيح ليعترف به يلقيه بهذا اللقب العظيم الفريد : « يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق : انما المسيح ابن مريم ، رسول الله ، وكلمته - القاها الى مريم - وروح منه . فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا « ثلاثة » ! انتهوا ، خير لكم : انما الله اِله واحد ! سبحانه ان يكون له ولد ، له ما في السماوات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلاً . لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » (نساء ١٧٠ و ١٧١) .

ان وجود هذا اللقب الوحيد الذي يخص القرآن به عيسى ابن مريم وحده ، يخلق اشكالا ومشكلة في القرآآت : فالقرآن تدل على أنه يختلف في مفهومه ومدلوله عما يصرح به القرآن عن عيسى ابن مريم ؛ وهو حجر عثرة ايضاً عند المفسرين فهم يخبطون خبط عشواء في تفسيره : يرون فيه أكثر مما يقرّون ولا يجهرون . ولا يُفهم معنى اللقب الكامل الا بمقارنته بالانجيل الذي نقل عنه وقد سبق الى تعريف المسيح به .

معناه في القرآن :

ما معنى هذا اللقب الفريد في القرآن ؟

لا نجهل ان هذا اللقب السامي لا يحمل في القرآن عامة أدنى معنى للالهية . فالقرآن ينكر بوجه عام بنوّة المسيح الالهية من الله، وان قبل نبوءته ورفعها فوق الجميع (وموقف القرآن من هذا اللقب خصوصاً يتضح من تعريفه الشهير في الآية ١٧٠ من سورة النساء : **إِنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ** ! ولكن ليس لهذا الكلمة صفة الالهية : صدر الآية ينهى عن هذا الغلو في الدين : **« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْإِلَهَ إِلَّا الْحَقُّ »** ؛ وعجز الآية بعدد ثمانية دلائل تنفي الالهية هذا الكلمة : **١** انه رسول من رسل الله **« فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ »** ، **٢** الاقرار بالهوية الكلمة ينتهي الى القول **« بِالثَّلَاثَةِ »** ولا تقولوا : **ثلاثة** ، **٣** **« انتهوا ، خير لكم ، ٤ »** **« إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ »** فلا يمكن ان يكون الكلمة الهاً معه ، **٥** وكيف يكون الكلمة إلهاً الا بولادة الله له ، **« سبحانه ان يكون له ولد »** ، **٦** **« فكل ما عدا الله ملك وعبيد لله »** له مسا في السماوات وما في الارض ، **٧** **« ولنا بحاجة الى غير الله »** وكفى بالله وكبلاً ، **٨** **« فالكلمة عبد لله مثل الملائكة المقربين ، لا إله »** لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون .

أمّا في الانجيل فمعنى هذا اللقب الالهي صريح : مطلع انجيل يوحنا يكفي برهاناً قاطعاً . والمشكلة بين الكتابين في هذا : كيف نقل القرآن عن الانجيل هذا اللقب الالهي مجرداً عن ألوهيته ؟ والحلّ الصحيح ليس في نقض الانجيل أو القرآن بل في التوفيق بينهما ما أمكن ...

(١) راجع خصوصاً النصوص الاضافية التفسيرية : مريم ٣٥ ، زخرف ٥٩ ، آل عمران ٦٣ ، ٥٩ .

وبين المفسرين ايضاً تقوم المشكلة على هذا : هل يعني تعبير « الكلمة » اسم شخص أم مجرد « امر » إلهي ؟

لقد أجمع القوم على ان « كلمة الله » تعني « أمره » . وقد تعني « وحيه » أو « كلامه الموحى به » .

جاء في الجلالين عن آل عمران ٣٩ « مصدقاً بكلمة من الله » : كائنة من الله اي بعيسى أنه روح الله . وسمي كلمة لأنه خلق بكلمة كن ! ، وفي آل عمران ٤٥ ير على التعبير دون ان يشرحه بما يدل على تحذّر . وفي سورة النساء ١٧٠ ير بالاسم مرور الكرام ؛ مكثفياً بالاشارة الاولى : « سمي كلمة لانه خلق بكلمة كن ! » - ونقول لماذا وحده سمي بهذا الاسم « كلمة الله » وقد خلق البشر كلهم والانبياء والمرسلون ، والملائكة المقربون بكلمة « كن » ، ولم يقل الانجيل والقرآن والتوراة عن أحد من المخلوقين أن « اسمه كلمة الله » ؟ ثم كيف « روح الله » يكون مجرد أمر ؟ أليس في التفسيرين تناقض وارتباك ؟!

وجاء في البيضاوي : « مصدقاً بكلمة من الله » (آل عمران ٣٩) اي بعيسى ، سمي بذلك لأنه وُجدَ بأمره تعالى دون أبٍ فشابه البدعيات التي هي عالم الأمر ؛ او بكتاب الله . - ليس المعنى الثاني مقصوداً . ثم أليس كل الانبياء والصالحين وجدوا « بأمره » تعالى ؟ فلماذا لم يسمّ الانجيل والقرآن أحداً منهم « كلمة الله » ، واختص عيسى ابن مريم وحده بهذا الاسم ؟ وعلى الآية ٤٥ منها يمرّ مرور الكرام مع إنه يعدد الاسماء والأحوال التي يصف القرآن بها « الكلمة » الذي يبشر به الله مريم . كذلك في الآية ١٧٠ من النساء . كأنه يشعر بخطر هذا اللقب فيتحاشى عن سبر معانيه .

وقال الزمخشري : « مصدقاً بكلمة من الله » ، مصدقاً بعيسى مؤمناً به ؛ قيل هو اول من آمن به ؛ وسمي عيسى كلمة لأنه لم يوجد الا بكلمة الله وحدها وهي قوله « كن » من غير سبب آخر . وقيل مؤمناً بكتاب منه تعالى : - ولكن

ليس المعنى الثاني مطلوباً لأن اوصاف يحيى نبوة عنه للمستقبل وليس إخباراً عن الماضي حتى تعني الكتاب المنزل قبله . ونجيب الزمخشري وساير المفسرين الذين قَصَرُوا معنى «الكلمة» على امره تعالى «كن» من غير سبب آخر : لماذا آدم لم يسمَّ القرآن والانجيل والتوراة «كلمة» مع ان خلقه أغرب من خلق عيسى كما يذكر «ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن ، فيكون !» (آل عمران ٥٩) فأدم احق البشر بلقب «كلمة» لأنه اول من وُجد بكلمة «كن» الخَلْقة من غير سبب آخر البتة ؟ !

وقال الرازي : « مصدقاً بكلمة من الله » اي كتاب من الله ، وهو قول ابي عبيدة ؛ واختيار الجمهور ان المراد بكلمة الله هو عيسى . وكان يحيى اول من آمن وصدق بأنه كلمة الله وروحه . وسمي عيسى كلمة الله من وجوه : ١ انه خلق بكلمة الله وهو قوله «كن» من غير واسطة الاب كما يسمي المخلوق خلقاً وهو باب مشهور في اللغة ؛ ٢ انه تكلم في الطفولية وآتاه الله الكتاب في زمان الطفولية فكان في كونه متكلماً بالغاً مبلغاً عظيماً فسمي كلمة أي كاملاً في الكلام ؛ ٣ ان الكلمة كما انها تفيد المعاني والحقائق كذلك عيسى كان يرشد الى الحقائق والاسرار الالهية كما سمي القرآن «روحاً» ؛ ٤ انه حقق كلمة بشارة الانبياء به كما قال «وحقت كلمة ربك ؛ ٥ إن الانسان يسمي فضل الله ولطف الله فكذا عيسى عليه السلام كان اسمه العلم «كلمة الله وروح الله» . واعلم ان كلمة الله هي كلامه ، وكلامه على قول اهل السنة صفة قديمة قائمة بذات الله . واذاف في آل عمران (٤٥) : «سمي كلمة الله كأنه صار عين كلمة الله الخالقة له بوجوده المعجز او لانه أبان كلمة الله افضل بيان» ؛ وفي النساء ١٧٠ يختار منها ما اجمع عليه القوم : «المعنى انه وُجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة» .

ونجيب عليها جميعاً : كل هذه التعريفات تنطبق على ساير الأنبياء ، في عرفهم ، وخصوصاً على خاتم النبيين : فلماذا لم يسم القرآن محمداً «كلمة الله» ، وهو عندهم «أول خلق الله» ، وخاتم رسل الله واكملهم في الكلام المعجز ،

وقرآنه «روح من امره» تعالى، وقالوا انه هو النبي الأمي المكتوب عندهم في التوراة والانجيل فيه حقت اكثر من عيسى كلمة الله، وقد جاء رحمة للعالمين كافة فهو أحق ان يكون «عين كلمة الله»، وقد أبان كلمة الله الاخيرة، خير بيان وأفضله؟! . فالقرآن يشهد بأن عيسى وحده دون العالمين «خص» بهذا اللقب العظيم، حتى صار اسم علم له. وليس ذلك مجرد اسم علم، بل دلالة على ان كلمة الله هي كلامه، «وكلامه صفة قديمة قائمة بذات الله» على قول اهل السنة.

وهكذا فاختيار الجمهور ان «كلمة الله» لقب لعيسى ابن مريم؛ وهذا اللقب يعني كلام الله الخارجي لا كلام الله الداخلي القائم بذات الله على حد قول اهل السنة.

اجتهادنا:

وعندنا ان النصوص واضحة تعني اسم شخص لا مجرد أمر إلهي.

فإنه تعالى يبشر زكريا بيحيى ويصفه بأنه أول من يصدق بعيسى انه «كلمة الله» (آل عمران ٣٩)؛ ويحيى ليس أول من آمن بكلام الله ولا افضل من آمن به، بل يحيى أول من آمن بعيسى انه «كلمة الله» وهو يصدق بشخص اسمه «كلمة الله» وليس بمجرد أمر أو صفة. وجاء يحيى ليصدق ويبشر «بكلمة الله» الشخص المنتظر.

ومريم آمنت «بكلمة ربه» وكتابه (تحریم ١٢) والنص هنا يوضح بأن كلمة الرب غير كتاب الرب. فهي آمنت بعيسى وانجيله؛ آمنت بابنها النبي وبكتابه.

الملائكة تبشر مريم بولد وليس بأمر أو مجرد كلام: «اذ قالت الملائكة: يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه، اسمه المسيح عيسى ابن مريم» (آل عمران ٤٥) ليس اوضح ولا اصرح: «فالكلمة» المبشّر به «اسمه المسيح» ويؤكدته «عيسى، ابن مريم»: ثلاثة اسماء علم مشهورة تصف «الكلمة».

ومن يقرأ هذه الآية باخلاص «انما المسيح، عيسى، ابنُ مريم : رسول الله، وكلمته ألقاها الى مريم، وروح منه» (نساء ١٧٠) لا يستطيع الا الاقرار بديهياً ان «الكلمة» اسم شخص لوروده بين الاسمين «رسول الله . . . وروح الله»، فهو مرادف للاسماء المحيطة به، وهو خبر ثانٍ معطوف على رسول الله وكلاهما خبران للمسيح عيسى ابن مريم؛ «وروح منه» خبر ثالث معطوف على «كلمته» بوضعه ويؤكد كده . فكلمته لقب بين القباب تعني شخص المسيح فكيف يكون مجرد أمر؟! .

والى ذلك فان لفظ «الكلمة» ورد في آل عمران (٤٥) مذكراً «بكلمة اسمه المسيح» فالهاء في «اسمه» تعود الى كائن ذكر؛ واما قوله في النساء «كلمته ألقاها الى مريم» فأنتها حملاً على اللفظ، لان معنى التذكير صريح من الاسماء الثلاثة المحيطة به «رسول الله وكلمته وروح منه» .

فهذا «الكلمة» الملقى الى مريم هو «روح من الله» فكيف يكون مجرد أمر؟ هو «رسول الله» فكيف يكون مجرد كلام؟ هو «المسيح عيسى ابن مريم» فكيف يكون شيئاً لا شخصاً؟ لا جرم ان الامر الالهي خلاق ولكن ليس له صلة مولود برحيم مريم .

«والكلمة» المبشر به له اسم معروف «اسمه المسيح عيسى ابن مريم» (آل عمران ٤٥)، «والكلمة» الملقاة الى مريم اسم شخص له خمسة ألقاب غيرها تحييط بها وتوضحها (نساء ١٧٠)؛ فوجودها بينها يدل على انها مثلها اسم علم لعيسى .

«ألقاها» : فالكلمة الملقاة كائنة قبل أن تلقى الى مريم وقبل مريم : فهذا الابن الذي سيولد، موجود قبل امه !!

«يبشرك بكلمة منه» مولود مريم كائن قبل مريم وهو «منه» اي من الله لا من العدم ! بل لا يمكن ان يكون من العدم كسائر المخلوقين لانه «كلمة من الله» .

« منه » تدل على صلة المصدر : قال البيضاوي « ذو روح صدر منه » اذن عن طريق الصدور لا عن طريق الخلق ؛ وإلا فما معنى هذه التأكيدات التي خصّ بها : « كلمته ، كلمة منه ، روح منه » اذا كان يتساوى في طريقة واصل وجوده مع سائر الناس ؟

ورسول الله ، المسيح عيسى ابن مريم ، امتاز بين الرسل بأنه « كلمة الله وروح الله » (نساء ١٧٠) ولقب روح الله بوضع ان الكلمة شخص لا مجرد كلام . وان هذا الشخص « الكلمة » هو « روح الله » أو « روح من الله » على السواء . وهذان اللقبان يصفان رسول الله المسيح افضل واكمل وصف يميزه عن سائر الأنبياء والمرسلين ، بعلاقة مصدرية افنومية عقلية روحية إلهية .

« فكلمة الله » المسيح عيسى ابن مريم ، رسول الله وروحه ، ليس هو اذن كلام الله الخارجي الذي يخلق به الله أو يأمر به أو يوحي به : بل هو كلام الله الداخلي الجوهرى « القائم بذات الله » .

« صفة قديمة قائمة بذات الله » :

لقد حدد « أهل السنة » أن كلمة الله صفة قديمة قائمة بذات الله ، (الرازي) فكلام الله الخارجي مخلوق حتماً إذ يستحيل ان يتجزأ الخالق ، وهذا هو كلام الخلق والوحي . أما كلام الله الذي به يعقل ذاته وبذاته يعقل غيره ، فهو غير مخلوق ، هو منه وفيه ؛ فذاته تعقل ذاتها ، لذلك كلام الله الذاتى صفة قديمة قائمة بذات الله . هذا ما فهمه الراسخون في العلم منهم وإن أبوا تطبيقه على اسم المسيح « كلمة الله » . لذلك ، فان « كلمة الله » ، الاسم العلم لعيسى ابن مريم ، كائن من قبل أن يُلقى الى مريم ، انه « صفة قديمة قائمة بذات الله » . وهذا ما يتضح جلياً من انجيل يوحنا حيث ورد هذا اللقب الفخيم علماً للمسيح لأول مرة :

قال في وصف جوهره : « في البدء كان الكلمة

والكلمة كان لدى الله

وكان الكلمة الله ؛ »

وقال يصف عمله : « كان ذاك منذ البدء لدى الله .

به كَوْن كل شيء ؛ وبدونه لم يكن شيء واحد مما كَوْن .
فيه كانت الحياة . . .

أما النور الحقيقي الذي ينير كل انسان، فكان آتياً الى العالم . . .

وقال يصف اتصاله بخلقه ، بواسطة تجسده من مريم بمعجزة إلهية :

« والكلمة صار جسداً وسكن في ما بيننا .

وقد شاهدنا مجده ، مجداً من الاب لابنه الوحيد، الممتلئ نعمة وحقاً
فإن الناموس قد أُعطي بموسى ؛ واما النعمة والحقيقة فبيسوع المسيح
قد حصل . »

وختم يصف مصدر معرفة هذه الاسرار الالهية : سر وجود الكلمة الالهي ،
وعمله في الخلق ، وإلقاءه الى مريم فيتجسد :
« الله لم يره أحد قط :

الاله، الابن الوحيد ، الذي في حضن الآب هو نفسه قد أُخبر . »
(يوحنا ١ : ١ - ١٨) .

ويبرهن الانجيل كله ، من أعمال وأقوال عيسى ابن مريم ، أن عيسى هو
المسيح الكلمة الازلي الذي القاه الله الى مريم آية للناس ورحمة منه تعالى .
والقرآن يشهد ضمناً بذلك بأخذ لقب « الكلمة » عن الانجيل واستاده الى
المسيح عيسى ابن مريم ، وإن هو نفى ظاهرياً الوهية المسيح « كلمة الله » ، فانما
ينكر لاهوتاً غريباً عن ذات الله الواحدة ، ولا يقصد الى انكار لاهوت
« كلمة الله » « القائمة بذات الله » ، والتي بها الذات الالهية تعقل ذاتها : « قل
ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » (زخرف ٨١) ! ان في هذه الآية لمفتاح
النور الذي يكشف التعارض القائم بين موقف القرآن الظاهري من نفى الوهية
المسيح وموقفه الحقيقي الناتج من النصوص التي بها يسمي عيسى ابن مريم « كلمة
الله » كاسم علم بوضع سر شخصيته . وهكذا يشهد القرآن للانجيل ويصدق .

ذاك هو « القول الحق » الذي فيه يمترون . قال الاستاذان مصطفى خالدي وعمر فروخ^١ في الرد على تفسيرنا « النصراني » الذي به نفهم نصوص القرآن عن اسم المسيح « كلمة الله » : « وفي بعض الاحيان يختار المبشرون موضوعات اسلامية لها مقابل في النصرانية ثم يموتون الحقائق ويقفزون فوق الفروق . ان القرآن الكريم يسمي المسيح « كلمة الله » . ومعنى ذلك ان الله تعالى القى كلمته اي امره (!) بأن يولد المسيح على ذلك الوجه المعجز في التاريخ . ولكن المبشرين يأخذون « كلمة الله » ليفسروها التفسير النصراني . ووجه الخلاف ان كل شيء في هذا العالم ، كما يرى المسلمون ، كان بأمر الله « انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون » (يس ٨٢) ؛ اما النصارى فيعتقدون ان التعبير « كلمة الله » تعبير خاص بالنصرانية يجب ان يفهم على ان المقصود به عيسى ابن مريم وحده ، وأنه دال على الالهية في المسيح . وللمبشرين ان يفهموا ذلك كما يريدون ؛ ولكن ليس لهم ان يقولوا على الاسلام ما لا يعلمون . ان كل موجود وكل حادث في العالم امر يُلقى من الله « انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون » . وفي القرآن آيات كريمات تجعل عيسى كآدم مثلاً ، وتجعل آدم يتلقى من ربه « كلمات » لا كلمة واحدة^٢ : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (آل عمران ٥٩) « فتلقى آدم من ربه كلمات ، فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » (بقره ٣٧) .

لقد وضعنا امام القارئ المنصف ، مسلماً كان ام مسيحياً ، عناصر القضية

(١) كتاب التبشير والاستعمار ، بيروت ١٩٥٣ .

(٢) في هذا الاستدلال التمويه الحقيقي الذي يقفز بين الفروق في الاسم العلم « كلمة الله » وفي « كلمات الوحي » التي نزلت على آدم وسائر النبيين دون أن تنفذ : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » (كهف ١١٠) .

كلها ليري هل نحن في التفسير النصراني « لكلمة الله » الذي يسمي به القرآن عيسى ابن مريم ، « نموّه الحقائق ونقفز فوق الفروق ، ونقول على الاسلام ما لا نعلم إرضاءً لشهوة التبشير . بل هو قول الحق ، حسب الدرس العلمي السنوي . فنصوص القرآن الكريم عن « كلمة الله » عيسى ابن مريم أقرب في مبنائها ومعناها الى انسجام حقيقي خفي بين الانجيل والقرآن منها الى تعارض ظاهر يتعلق به الذين لا يعلمون « وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ قل : « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه » .

٣ عيسى ابن مريم هو روح الله

« انما المسيح عيسى ابن مريم...
روح منه » (نساء ١٧٠)

« الروح » في القرآن :

ياخذ القرآن « الروح » بمعاني عديدة مختلفة :

فمرات يظهر ان الروح ملاك : « تنزل الملائكة والروح فيها (ليلة القدر) بإذن ربهم » (قدر ٤) ثم « يوم يقوم الملائكة والروح صفاء » (نبا ١٣٨) ثم « نخرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة » (معارج ٤) .
ومرات يظهر أن الروح سيد الملائكة : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء » (نحل ٢) .

ومرات يجعل الروح من نصيب كل الانبياء : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ليتلد يوم التلاق » (غافر ١٥) ومرات يجعل الروح وحيًا : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » (شوري ٥٢) : فتارة الروح وحي ، وتارة الروح واشطة الوحي .

بل يجعل الروح من نصيب كل المؤمنين يؤيدهم في ايمانهم : « اولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » (مجادلة ٥٢) : فهل الروح هنا ملاك ام قوة من الله أم عون معنوي ؟ . .

والروح ، والروح الامين ، وروح القدس هو جبريل أوحى الى محمد : « وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا » (شورى ٥٢) « نزل به الروح الامين على قلبك » (شعراء ١٩٣) « قل نزلهُ روح القدس من ربك بالحق » (نحل ١٠٢) « قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزلهُ على قلبك » (بقرة ٩٧) . وبما أن القرآن يسمي الروح الذي يوحى الى محمد، اي جبريل، فلا سبيل بعد الى تأويل الروح الامين او روح القدس المذكور هنا بغيره، ولا الى خلط «روح القدس» الموحى الى محمد «بروح القدس» الذي أيد المسيح .

فالروح الذي أيد المسيح يتصف بالقدس اختصاصاً، وامتيازاً له عن غيره : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وايدناه بروح القدس » (بقرة ٨٧ و ٢٥٣) . بهذا الروح القدس امتازت شخصية المسيح ورسالته بالحوارق الخارقة : « يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ ايدتك بروح القدس ... فيعمل معجزات على الارض ومعجزات من السماء كإزالة المائدة » (مائدة ١١٣-١١٩) . وروح القدس هذا يتميز عن الروح الذي بشر مريم بعيسى : « فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » (مريم ١٦) فهذا الروح ملاك من ملائكة البشارة : « اذ قالت الملائكة : يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح » (آل عمران ٤٥) .

وروح البشارة يتميز عن الروح الملقى أو المنفوخ في مريم : « والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا » (انبياء ٩١) « ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » (تحریم ١٢) . في هذين النصين قد يكون الروح نافخاً أو منفوخاً ؛ فعلى معنى الفاعل « من روحنا » يعني الملاك النافع وعلى معنى المفعول « من روحنا » يعني الروح المنفوخ في مريم أو في فرجها أي

روح عيسى الذي كونه في رحم امه مريم . وهذا الروح الذي كونه هو روح من الله القاه الى مريم : « انما المسيح عيسى ابن مريم ، رسول الله وكلمته - ألقاها الى مريم - وروح منه » (نساء ١٧٠) .

وهكذا فالروح في القرآن اما شيء واما شخص ؛ و « الشخص الروح ، ملاك من الملائكة كجبريل الذي بوحي الى محمد ، أو كالملاك الذي يبشر زكريا أو مريم او ملاك آخر ؛ « والروح - الشخص » الذي يؤيد المسيح في رسالته غير الروح الذي منه تكوّن عيسى في رحم مريم .

فالمسيح « روح الله أو روح من الله » غير روح القدس الذي أيده .

والقرآن بإسناده هذا اللقب « روح منه » (نساء ١٧٠) الى المسيح يعطي عيسى ابن مريم اسماً يفوق كل اسم ، به تُعرّف شخصيته ويحدد معنى اللقب السابق « كلمته ألقاها الى مريم » (نساء ١٧٠) .

«الروح» عند المفسرين :

فما معنى قوله « عيسى ابن مريم روح منه تعالى » في الآية الشهيرة ؟

قالوا معناه ما ورد عن آدم « فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقَعوا له ساجدين » (حجر ١٩) ، « ثم سَوّاه ونفخ فيه من روحي » (سجدة ٩) ؛ وعن مريم « فنفخنا فيها من روحنا » (انبياء ٩١) ، « فنفخنا فيه من روحنا » (تحریم ١٢) بدليل المبدأ العام « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون » (آل عمران ٥٩) . فكما نفخ الروح في آدم نفخ أيضاً في مريم !

(١) ازاء هذه الاحتمالات العديدة المختلفة اضطررب المسلمون وسألوا النبي عن الروح فقال : « يسألونك عن الروح ؟ قل الروح من امر ربي ، وما اوتيتم من العلم الا قليلاً » (اسراء ٨٥) أي لا أدري . فقال احدم : « مضى محمد ولما يدر ما الروح ! »

وفاتهم الفرق العظيم والبون الشاسع بين التعبيرين : فعن آدم ومريم فالروح نافخ فيها، أما عن المسيح فهو روح منفوخ، ملقى الى مريم .

في الاول الروح وآدم أو مريم متميزان ، أما في الثاني «فروح منه» والمسيح شخص واحد على حدّ التحديد : «انما المسيح... روح منه» : فروح منه خبر ثالث من المبتدأ اي المسيح .

وهب ان قوله «من روحي» (حجر ٢٩، سجدة ٩ وغيرها) تُحمَل على المفعول فتعني الروح المنفوخ في آدم أو المنفوخ في مريم فهذا يعني مشاكلة الصدور، ولا يعني قطعاً مشابهة الروح الصادر من الله .

على ان بين التعبيرين فرقاً ظاهراً «فنفخنا فيه» (في آدم وفي فرجها) من روحنا، ثم «روح منه» : ففي الاول يكون آدم والمسيح من روح الله ؛ وفي الثاني يكون المسيح «روح الله» .

فكما ان المسيح هو كلمة الله ، فهو ايضاً روح الله ؛ والقرآن يجمع بين التعبيرين في شأن المسيح فهو روح الله الذي ألقاه الى مريم بنفخة من روحه .

ففي قوله «من روحه» يعبر عن صدوره من الله ؛ وفي قوله «روح منه» يعبر عما هو في ذاته .

فلفظ «روح منه» تعريف بالمسيح وبشخصه يدل على مصدره الذي هو الله . فهل الروح المكونة للمسيح والتي صارت المسيح في مريم هي منسوبة الى الله نسبة خلق أم نسبة مصدر؟ نقول : إنها نسبة مصدر لأنها تفسر للقب السابق «كلمته وروح منه» . ولنلاحظ ان القرآن يعطف «روحاً منه» على قوله «كلمته» : فالاسمان يفسر احدهما الآخر : فالمسيح هو كلمة الله وروح الله : كلمة الله من حيث الاقنوم، وروح الله من حيث الطبيعة .

وبما أن «روحاً منه» خبر من المسيح في الآية ١٧٠ المذكورة فلا يجوز ان نموت فيه بكل انواع التعابير التي وردت في القرآن عن الروح اذ بتغير معنى «الروح» من آية الى آية، كما رأيت ؛ ويهل على المعنى المقصود النص المحيط به

والقرآن اللفظية والمعنوية الداخلة عليه . ففي تحديد المسيح، في سورة النساء،
تعبير مستقل عما سواه : يظهر منه جلياً ان المسيح روح الله، قد صدر منه،
صدر الفكر من العاقل، صدور كلمة الله من الله .

فروح الله اسم آخر للمسيح غير كلمة الله ، وهو معطوف عليه لتفسيره ،
وكلاهما معطوفان على «رسول الله» لبيان شخصية هذا الرسول الفريدة :
فاللقاب الثلاثة تتساند، ويوضح بعضها بعضاً ، ويفسر بعضها بعضاً ويكمل
بعضها بعضاً : «انما المسيح عيسى ابن مريم : رسول الله وكلمته وروح منه» .

وفي تفاسيرهم لهذا اللقب الفريد حيرة وتعظيم : يشعرون انه يعني صلة
خاصة بالله، ولكن لا يجروون على اعلانها :

قال الجلالان : روح، اي ذو روح (منه) أضيف اليه تعالى تشریفاً له
وليس كما زعمتم ابن اله أو الها معه أو ثالث ثلاثة : لأن ذا الروح مركب والاله
منزه عن التركيب ونسبة التركيب اليه . - تفسير مفروض يضعف قوة
النص : المسيح روح الله لا ذو روح من الله فقط ! ثم اين الاشارة في النص الى
فلسفة التركيب التي يذكر ؟ !

وقال الزمخشري : « قيل له روح الله أو روح منه تعالى لأنه ذو روح وجسد
من غير جزء من ذي روح كالنطفة المنفصلة عن الأب الحي » ؛ وانما اختراع
اختراعاً من عند الله وقدرته الخالصة . - أفلا ينفرد المسيح عن البشرية جمعاء
بهذا الاختراع الفريد ؟ ألا يدل هذا الاختراع الفريد على شخص وحيد، له
علاقة فريدة بالله ؟

وقال البيضاوي : « وروح منه : ذو روح صدر منه تعالى ، لا بتوسط ما
يجري مجرى الاصل والمادة له . وقيل سمي روحاً لأنه كان يجي الاموات أو
القلوب » . - فالروح الذي يجي الاموات أو القلوب إحياء حقيقياً ومعنوياً ،
وينفرد بعمل يدل عليه اسمه الفريد ، إلا يصدر عن الله صدوراً خاصاً لانقاً
به ؟ ألا يكون له صلة خاصة بالله دون سائر المخلوقين الذين ليسوا «روح الله» ؟

وقال الرازي مستجمعاً انواع تفاسيرهم لهذا اللقب العظيم : « أما قوله روح منه ففيه وجوه : ١ انه جرت عادة الناس انهم اذا وصفوا شيئاً بغاية الطهارة والنظافة قالوا إنه روح : فلما كانت عيسى لم يتكون من نطفة الاب وانما تكون من نفخة جبريل عليه السلام لا جرم وصف بأنه روح . والمراد من قوله « منه » التشير والتفضيل ؛ - ٢ انه كان سبباً لحياة الخلق في أديانهم . ومن كان كذلك وصف بأنه روح ؛ - ٣ روح منه اي رحمة منه : فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث انه كان يرشدهم الى مصالحهم في دينهم ودنياهم لا جرم سمي روحاً منه ؛ - ٤ ان الروح هو النفخ في كلام العرب فان الروح والريح متقاربان ، فالروح عبارة عن نفخة جبريل ، وقوله منه يعني ان ذلك النفخ من جبريل كان بأمر الله واذنه فهو منه ، وهذا كقوله فننفخنا فيها من روحنا ؛ - ٥ قوله روح ، أدخل التنكير ليفيد التعظيم . فكان المعنى : روح من الارواح الشريفة العالية القدسية . وقوله منه اضافة لذلك الروح الى نفسه تعالى لأجل التشير والتعظيم .

ومن هذه الوجوه كلها تتضح شخصية المسيح الفريدة التي لا يدانيها نبي او رسول ، ويرفع المسيح فوق المخلوقين الى صفة خاصة بالله . فهو روح من الارواح الشريفة العالية القدسية ، ولم يرد عن بشر انه منها ولو كان خاتم النبيين ؛ وقول الرازي هذا أو من نقل عنه يفترض أن روحاً علوية أي أحد الملائكة المقربين قد تجسد وظهر في شخص المسيح ؛ ومن يقول بذلك فالأجدر به ان يقول مقالة الانجيل « إن كلمة الله تجسد وصار انساناً » .

وهو روح من نفخة جبريل : اذا قصدوا جبريل كمصدر للمسيح فهذا قول هراء فليس جبريل بخالق ولا عنده نفخة خلاقة ! واذا قصدوا انه الواسطة المعجزة فما اتوا بتفسير لشيء اذ انه روح الله بمعزل عن جبريل . وعلى كل حال فشرف الواسطة يدل على شرف الغاية .

أما قوله سمي روحاً لأنه كان رحمة من الله على الخلق : ليس هذا من باب التفسير بل من باب المقارنة التي لا تفيد . ومع ذلك ففيه اقرار بفضل المسيح

على الخلق كلهم : ولم يرد مثل هذا الفضل لأحد من البشر كما ينسب القرآن والمفسرون الى المسيح .

أما قوله سمي روحاً لغاية طهارته في مولده فمن باب الاستدلال لا من باب التفسير، وان كان فيه اقرار بسمو تكوين المسيح الذي انفرد به .

وقد قارب المفسرون من فخامة الاسم وعظمته وجلاله بقولهم : سمي روحاً لأنه كان سبباً لحياة الخلق (الرازي) ، لأنه كان يجي الاموات والقلوب (البيضاوي) فجعلوه سبب الحياة الطبيعية والروحية والمعنوية ؛ وما ذلك الا صدى لقول المسيح في الانجيل « أنا الطريق والحقيقة والحياة » (يوحنا ١٠ : ٢٥) : فهو روح الله الحي المحيي .

وقد دلوا على معنى « منه » في التحديد المذكور بقولهم : « ذو روح صدر منه » (البيضاوي) اي ذو روح منه تعالى (الجلالان) فالتعبير يحتمل معنى المصدر الالهي للمسيح، اذ من اين يصدر « روح الله » الا من الله ؟ فالروح الذي يصدر من الله كيف يتميز عنه ؛ وبما انه ليس في الله انقسام ولا تجزؤ ، أليس هو والله واحداً كذات الله ونورها ؟ وهذا ايضاً صدى لتعليم الانجيل : « قد خرجت من الآب وأتيت الى العالم ... بهذا تؤمن انك من الله خرجت » (يوحنا ١٦ : ٢٨ و ٣٠) . أليس هذا هو المعنى الكامل الذي قصده القرآن في تعريفه المسيح : إنه كلمة الله وروحه ؟ انه لا ينطبق على مجموع الالقاب في الآية ١٧٠ الا هذا المعنى : المسيح روح صدر من الله ككلمته ونطقه الجوهري ؛ وكلمة الله ليست مجرد كلام خارج عن الله بل هو كلامه الداخلي كروحه .

وهكذا يلتقي القرآن والانجيل في تعريف المسيح : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان لدى الله، وكان الكلمة الله... فيه كانت الحياة وكانت نور الناس » أي « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه » : والحياة والروح بمعنى واحد ؛ وبمقارنة التحديد ينجلي معناها

العميق . اذا لم يكن التعبير واضحاً كل الوضوح في القرآن فلنستوضحه من الانجيل لأن القرآن أخذ عنه وهو يميلنا الى الكتاب وأهله في حالة الشك والريب (نحل ٤٣، شعراء ١٩٣) ، بل يأمر محمداً نفسه ان يستوثق من ايمانه لدى الذين يقرؤون الكتاب من قبله (يونس ٩٤) .

خاتمة بحث :

تلك هي الالقاب الالهية الثلاثة التي بها يُعرف القرآن المسيح في آية النساء ١٧٠ .

أجل المسيح هو عيسى ، ابن مريم ، عبد الله ونبية ورسوله .

ولكن فوق ذلك هو مسيح الله وكلمة الله وروح الله .

القاب واسماء يكمل بعضها بعضاً ويدعم بعضها بعضاً ويفسر بعضها بعضاً في هذا التعريف الغني بالمعاني . وهذه الالقاب الثلاثة لا تدل على صلة الخلق بين الله وعيسى ، بل تستوعب صلة شخصية عقلية روحية بجوهر الله . فمما قللوا من دلالتها العميقة فهي تحتمل وتحمل معنى إلهياً بجد ذاتها كما يشرح من تفاسيرهم . نحن لا نستجلب المعاني ، ولا نفترضها بهذه الاسماء الوحيدة التي انفرد بها المسيح دون العالمين ، بل نظهر ما تستوعبه على نور الانجيل الذي نزل من قبل هدى ونوراً . « وكفى بالله شهيداً وامن عنده علم الكتاب ، (رعد ٤٥) .

إنه مسيح الله : مسحه الله « بقوة الروح القدس » (لوقا ١ : ٣٥) اي « أيده بروح القدس » (بقره ٨٧ ، ٢٥٣ ومائدة ١١٣) .

إنه « كلمة الله التي القاها في الزمن الى مريم (نساء ١٧٠) لأن الكلمة الذي كان منذ البدء لدى الله صار جسداً وسكن في ما بيننا » (يو ١ : ٢ ، ١٤) .

إنه « روح الله » الصادر « منه » (نساء ١٧٠) ، فهو شبيه به لأن المصدر

والصادر واحد في الله، وهو منه وفيه، لأن الله لا يتجزأ. وروح الله هو
وضياء مجده وصورة جوهره، (عبر: ٣١) .

نعلم جيداً ان القرآن ينكر كل تعدد أو تجزؤ في اللاهوت، ويستنكر
كل بنسوة من خارج الله، وكل شرك وغلو في الدين. ونحن نؤيده ونؤمن
بقوله. لكنه لا يذكر شيئاً عن حياة «الحي القيوم» في وحدة ذاته، عن
حياته العاقلة ذاتها، وعن حياته المحبّة ذاتها. فجاءت هذه الالقاب الالهية
تلقي ضوءاً عما انجب هنا.

ومها يكن من فهمها الصحيح، فهذه الصفات والنعوت والالقاب والاسماء
التي اختص بها القرآنُ المسيح دون سواه من الانبياء والمرسلين، والملائكة
المقربين، تجعل المسيح في صلة شخصية وحيدة، عقلية وروحية وخاصة مع الله.
ومها قالوا في تفسيرها فهي ترفع المسيح فوق العالمين، من صفة المخلوقين،
الى حالة اللاهوت.

بهذه الالقاب النبوية، والالقاب الالهية، جعل القرآن عيسى ابن مريم
مسيح الله وكلمة الله وروح الله (نساء ١٧٠) واذن آية في شخصه: «وجعلنا
ابن مريم - وامه - آية» (مؤمنون ٧١).

سؤال: هل من ثبوت في القرآن؟

لا جرم ان القرآن ينتفض عند هذا السؤال، ويجيب: «قل هو الله احد،
الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً احد!»

بيد ان القرآن الكريم ينفي «الاثنين» (نحل ٥١)، وينفي «الثلاثة»
(نساء ١٧٠) التي تتعارض مع وحدة الله، مع وحدة الذات الالهية، مع وحدة

الجوهر الالهي الفرد؛ ولا يفكر البتة في حياة «الحي القيوم» الداخلية وتفاعلها وتسلسلها. انما هناك آية تدل على انه اذا كان في الجوهر الالهي الواحد بنوّة لا تناقضه، فهو يقبل بها: «قل، ان كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين» (زخرف ٨١).

وبناء عليه فهل يرفض القرآن الهية الكلمة والهية الروح اذا كانت ضمن لاهوت الجوهر الالهي الواحد؟ هل تراه يرفضها اذا كان الكلمة الازلي عبارة عن الفكر الجوهرية، ثمرة القوة العاقلة في الذات الالهية الواحدة، وكان الروح القدس عبارة عن ثمرة الحب الجوهرية في الذات الالهية الواحدة؟.. لا نظن. فإن لقب «الكلمة» في القرآن يحمل معنى الهياً، لأن «الكلمة» الملقى الى مريم هو شخص له اسمه الخاص وكائن قبل إلقائه اليها، وهذا الكلمة هو روح منه تعالى، وروح الله، يصدر منه ويبقى معه في كامل الوحدة الجوهرية (نساء ١٧٠).

ولقب «الروح» الغامض بسبب تنوع مدلوله، اذ يضيفه القرآن الى المخلوق كما يضيفه الى الخالق، يتضح ويتحدد مفهومه باسناد القدرة الخالقة اليه: «فإذا سوتته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» (حجر ٢٩) «ثم سواه ونفخ فيه من روحي» (سجدة ٦) وهكذا خلق الله آدم بنفخة من هذا الروح الخلاق، كما كوّن «المسيح كلمة الله وروحي» في رحم مريم بنفخة ايضاً من هذا الروح السامي «فنفخنا فيها من روحنا» (انبياء ٩١ وتحريم ١٢)؛ وهذا الروح الخلاق بنفخته ليس ملاكاً، وليس الروح المنفوخ الحاصل من الفعل بل هو روح مستقل بذاته، يتمتع بالقدرة على الخلق، وهو الواسطة التي بها يخلق الله ويكوّن، وبها كوّن المسيح في مريم «روحاً من الله»: ففي تكوين عيسى في مريم يظهر ثلاثة ارواح: روح مبشر هو الملاك، والروح النافع، وروح الله الملقى الى مريم بالنفخة المكوّنة. وقد جمعها الانجيل وميّرهما بقوله: «فأجاب الملاك (الروح المبشر)، وقال لمريم: الروح القدس يأتي عليك (يقابل الروح النافع) وقدرة العلي تظلك، ومن اجل ذلك فالقدوس

الذي يولد منك (يقابل الروح الملقى) يُدعى ابن الله (لوقا ١: ٣٥) : فروح
القدس مستقلٌ عن الملاك، وعن روح عيسى المتأنس في مريم . وهكذا فالروح
في القرآن والانجيل يحمل معنى الهياً . ومن ثمّ ففي القرآن تثليث يتألف من
الله والكلمة والروح او روح القدس ؛ ونكون من الكافرين اذا جعلنا هذا
التثليث خارجاً عن التوحيد، ونكون في الصراط المستقيم اذا كان تفسيراً لحياة
«الحي القيوم» متفاعلة متسلسلة، لا اله الا هو .

شخصية المسيح في القرآن

إِنَّهُ وَحْدَهُ « آية للعالمين »
(مریم ٢٠، انبياء ٩١، مؤمنون ٥١)

لنستجمع الآن الحُطوط التي تتكون منها شخصية المسيح في القرآن الكريم كما رسمها لنا . لقد أوجزها بلفظة واحدة : انه « آية للعالمين » .

أعز الاشخاص على النبي العربي هم : ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد نفسه . ولا يخط القرآن لواحد منهم صورة تداني الصورة التي يرسمها لعيسى ابن مريم ، مسيح الله وكلمة الله وروح الله . فإن اجمل وصف واكمل تعريف حلاه القرآن بالنعوت الغنيّة والالقب السامية هو خبر عيسى ابن مريم ؛ وإن اسمى شخصية فيه تستلفت العقول وتستهيوي القلوب هي شخصية يسوع المسيح . واليك الحُطوط الكبرى التي تتكون منها صورة المسيح في القرآن ؛ انها مجموع ميزات خارقة انفردت بها شخصيته على العالمين .

ظهوره المعجز .

عيسى ابن مريم منذ مولده شخص فوق البشرية ، شخص عجيب غريب فريد وحيد .

جميع الانبياء ، حتى محمد بن عبد الله « خاتم النبيين » ، ولدوا بحسب ناموس الطبيعة البشرية . اما المسيح فوحده وُلِدَ من امّ بتبول لم يمسه بشر (مریم ٢٠ ، آل عمران ٤٥ ، نساء ١٥٦ ، انبياء ٩١ ، مؤمنون ٥١) ؛ ملاك متقدم على الملائكة المقرّبين يبشر به امه ؛ وروح القدس يظلل مريم وينفخ فيها فتحمل وتلد وهي عذراء ؛ وهذه المعجزة الوحيدة في تاريخ البشرية ترفع

المسيح منذ مولده على كل البشر والانبياء والمرسلين لأنها دليل خاص فائق على ان الله اصطفاه على العالمين كما اصطفى امه على نساء العالمين « وجعلنا ابن مريم وامه آية » (مؤمنون ٥١) .

طهارته المعجزة :

نخطى الله من اجل المسيح لبس سنة الطبيعة فحسب بل سنة النعمة ايضاً .
فقد حفظه الله كما حفظ امه من مسّ الشيطان ومن أذاه لكل مولود، حين ميلادهما : « اني اعيدتها بكّ وذريتها من الشيطان الرجيم » (آل عمران ٣٦) ؛
وأى مسّ للشيطان وأي أذى يلحق منه بالمولود سوى الخطيئة التي يولد بها أبناء آدم ؟ حدث أبو هريرة عن النبي العربي قال : « سمعتُ رسول الله يقول : ما من مولود من بني آدم يولد الا نخبه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من نخبه إياه الا مريم وابنها » . وقد اخرج الصحيحان هذا الحديث بقولها : « كل ابن آدم يطعنه الشيطان في جنبه باصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب ليطعن فطعن في الحجاب » . لقد عبّروا عن خطيئة الجنس البشري، الموروثة بالتناسل، بطعنة الشيطان للمولود ومسّه ونخبه . وقد صور القرآن حالة النفس الطبيعية الناتجة عن مسّ الشيطان بقوله : « وان النفس لأمارة بالسوء » . فعمم القرآن والحديث المسيح وامّه من هذه الوصمة الأصلية . ونجد في ميلاد المسيح من بتول لم يمسه بشر دليلاً وتفسيراً لعصمة المسيح من الخطيئة، ونجد في الحوارق التي اكتنفت الولادة المعجزة والطهارة المعجزة بياناً لها وبرهاناً .

وكما عصم الله المسيح من الخطيئة الاصلية التي يولد بها كل الناس حتى الانبياء عصمه أيضاً من اخطايا الفعلية التي يصيبها سائر بني آدم، حتى الاولياء والصالحين والمرسلين، طيلة حياتهم . روي عن قتادة : « وذكروا لنا انها كانا (المسيح وامه) لا يصيبان من الذنوب كما يصيب سائر بني آدم » . ورأى المفترسون في

اسم المسيح إشارة الى انه 'مسح بما طهره من الذنوب مبدئياً (البيضاوي) ودليلاً على انه مسح من الأوزار والآثام فلم يكن لها عليه من سبيل (الرازي). فقد «مسح بالبركة» وظل «مباركاً ابن ما كان» (مريم ٣٠). وقد نسب القرآن الاثم والخطيئة الى كل الناس وكل الانبياء، وواحد أحد في العالمين يقول عنه القرآن والحديث والتفسير أنه كان - واه - معصوماً من الخطيئة. ونجد في انتصار المسيح في آخرته على سلطان الموت تفسيراً كاملاً لانتصاره في حياته على سلطان الخطيئة.

الحداثة الخارقة :

وتتوالى الحوارق الالهية في طفولة المسيح وحداثته .

قال الجللان : كان الحمل بالمسيح والتصوير والولادة في ساعة . وقال الزمخشري : حملته في ساعة وصوّر في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها . وقالوا غير ذلك . وعن ابن عباس : كانت مدة الحمل ساعة واحدة وكما حملته نبذته : حملت بمعجزة وولدت بمعجزة ؛ فأمه هي الام البتول وحدها بين النساء .

وأطعم الله الوالدة من نخلة يابسة في الشتاء، وسقاها من «سري» ناشف : «لم تقع التسلية بها من حيث انها طعام وشراب ولكن من حيث انها معجزتان تريان للناس انها من أهل العصمة» (الزمخشري) .

والوليد يتكلم للحال منذ مولده : «نطقه معجزة»، وكلامه نبوة ، وكلاهما ميزة فريدة «فأشارت اليه . قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً؟ - قال : اني عبد الله . . .» (مريم ٢٦) ، قال الرازي : «هي خاصة شريفة كانت حاصلة له ، ولا حصلت لأحد من الانبياء قبله ولا بعده» .

لقد استنبأه الله طفلاً : «يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك

اذ ايدتك بروح القدس : 'تكلّم الناس في المهد وكهلاً ، (مائدة ١١٣) :
ان ابراهيم وموسى ومهداً وسائر الانبياء صاروا انبياء بعدما تخطوا الكهولة اما
المسيح فوحده وُلِدَ نبياً، واستنبأه الله طفلاً . قال الشهرستاني « جميع الانبياء
بلاع وحيهم اربعون سنة ، وهو قد أوحى اليه انطاقاً في المهد ، وأوحى إليه
ابلاغاً عند الثلاثين ، (١٧١) .

منذ مولده تعلم من الله مباشرة « الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ،
(آل عمران ٤٨) فيما يتخذ الله بينه وبين انبيائه الملائكة واسطة يوحي بهم
الى عبده : « يُنزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده لينذروا
يوم التلاق ، (نحل ٢ ، غافر ١٥ ، شورى ٥٢) ؛ واتخذ جبريل واسطة لوحي
محمد : « قل من كان عدواً لجبريل ؟ فانه نزله على قلبك بإذن الله » (بقرة
٩٧) . قال الشهرستاني « نفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه ، ونطقه
من غير تعليم سالف » (١٧١) ؛ فلا غرو ان ينفرد بالوحي منذ مولده بين
العالمين : فهو « كلمة الله » فلا حاجة له الى من ينقل اليه كلام الله وهو « روح
الله » فلا حاجة له الى من يُسرّ اليه اسرار الله .

وكانت إعالته مع امه على رابية غناء معجزة أخرى : « وجعلنا ابن مريم
وامه آية ، وأويناها الى ربوة ذات قرار ومعين » (مؤمنون ٥١) .

ولا يذكر القرآن لمحمد او لغيره من الانبياء معجزة في حدائته فيما يذكر
للمسيح معجزة الخلق : « واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها
فتكون طيراً باذني ، (مائدة ١١٣ ، آل عمران ٤٩) : يسوع يتسلّى بخلق
الطيور في حدائته ! إنها لبداية ملأى بالحوارق والمعجزات .

معجزة العفة

حسب القرآن الكريم قضى المسيح حياته كلها في البتولية ، في عفة لا
يدانيه فيها نبي من كل من يذكر . فلا ينسب الى عيسى ابن مريم أدنى علاقة
بالزواج والنساء ؛ فيما يتكلم عن اعمال الانبياء وخطاياهم وأخطائهم ، وعن

أزواجهم ومشاكلهن^(٤٠)، ويتطرق إلى كلام عن النبي العربي، وعن أزواجه يحتاج إلى شرح كثير حتى نستيفه؛ المسيح وحده ارتفع فوق حاجة الرجل إلى حواء، فعاش بتولاً ورُفِع بتولاً: وفي هذا ما فيه من الكمال الذي انفرد به. وليس ذلك من نوع التقصير الجنسي كما يفهم الاستاذ العقاد حيث قال: «قال لنا بعض المستشرقين: إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية. قلنا: إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط. فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء»^١ ولكن هذا دليل على أنه خضع لعازة الرجل إلى المرأة حسب القول المأثور^٢: «المرأة شرٌ كلها وشرٌ ما فيها أنها لا بد منها»، فيما سماه المسيح فوق هذه العازة البشرية سموّاً كاملاً لا يدانيه فيه أحد.

معجزة القداسة:

وشهد القرآن أيضاً للمسيح بالقداسة الكاملة التي لا يرسم لنا عنها مثيلاً للمثله: «ولدت غلاماً زكياً» (مريم ١٨) وعاش قديساً «وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً» (مريم ٣١). لم يكن له في العالم من صلة سوى أمه فكان «براً بوالديه» (مريم ٣٢). عاش بعيداً عن كل ما يمت إلى السلطان والطغيان والسيف بصلة «ولم يجعلني جباراً شقيماً» (مريم ٣٢): بُعث رحمة للعالمين فكيف يكون غير الرحمة (مريم ٢١). لقد عاش كرجل الله بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فلا يفطن إلا لما لله. فقد يهمل أمور الحياة والزواج والرزق والتسلية، قد يترك أمور جسده ودنياه حتى لا يفكر إلا بمناجاة الحق ودعوى الناس إلى الإيمان بالله وحبّه. لم يكن مثل غيره منازل لأزواجه قرب المسجد، ليختلف كل ليلة إلى واحدة منهنّ بعد صلاة العشاء^٣، بل كان يقضي ليلته في

(١) عبقرية محمد للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٧٨.

(٢) عن علي بن أبي طالب.

(٣) حسين هيكل: حياة محمد ص ٤١٣.

الصلاة الى الله (لوقا ٦ : ١٣ ، يوحنا ٦ : ١٣) ؛ لم يكن ليفزؤ ولا ليُقرع بين نسائه، فأتهنَّ خرج سهمها خرج بها معها كأنه لا يقدر ان يستغني عن المرأة حتى في معامع الحروب ؛ بل كان يقول لتلاميذه : إن طعمني ان اعمل مشيئة من أرسلني واقتم عمله (يوحنا ٤ : ٣٤) . لم يكن بحاجة في اول امره الى ان « يشرح الله له صدره ليضع عنه وزره الذي انقض ظهره » (الشرح ١ و ٢) ، ولا في آخر عهد أن « يغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » (فتح ٢) ؛ فهذه القداسة السامية التي يفترضها القرآن في المسيح هي أكبر نعمة واعظم ميزة يقدر الله ان يتحف بها مخلوقاً . ان عيسى ابن مريم أكمل مثال للكمال كما صوره القرآن .

كيف ادى المسيح رسالته ؟

أذاها كمثل للنبي والرسول الذي يهدي الى الله بأقواله واعماله : « لقد أحسن في كل ما صنع ، هكذا شهد له الشعب اليهودي ؛ والشرطة الرومانية المكلفة بتوقيفه ولم تفعل أجابت : « إنه ما نطق انسان قط بمثل ما نطق هذا الرجل » (يوحنا ٧ : ٤٦) . كان يهدي الناس لا عن طريق الرهبة والقوة ، ولا عن طريق الرغبة والمال : فلا يذكر القرآن ان المسيح شرع جهاداً لتوطيد حقيقة دينه بل ترك لسلطان الايمان ان يفتح للحق مغاليت العقول والقلوب ؛ ولا يذكر القرآن ان المسيح قام بفزؤ أو حاصر قوماً : لم يفزؤ قوماً ولم ينهض على بسلا! ولا ستر السرايا والغزوات ليجلب لرجاله المال والمعيشة بل كان يعيش من حسنات الشعب، ووصى مبعوثيه لنشر دينه « ألا يحملوا في الطريق لا عصاً ولا زاداً » . بل عاش فقيراً ومحباً للفقراء والمساكين محرماً « عبادة الربين : الله والمال » . لم يهدِ المسيح العالم الى الله بسلطان السيف، ولا بسلطان المال ، ولا بسلطان الاغراء بطيبات الدنيا والآخرة ، ولا بسلطان العلم

(١) حسين هيكل : حياة محمد ص ٣٢٤ .

والفلسفة ، ولا بشيء من مغريات الحياة الدنيا ؛ بل فرض احترامه واحترام دينه بالزهد ، والقداسة ، والنبوءات والمعجزات .

يشهد القرآن ان الله اختص رسالة المسيح بتأييد الروح القدس : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس » (بقرة ٨٧ ، ٢٥٣) . أجل ، لا نفهم صريحاً ما يقصد القرآن بروح القدس ؛ غير اننا نرى ملياً انه أيدّ علوي فريد لم ينكأ أحد من الأنبياء قبله او بعده . فقد ميّز الله المسيح بين الانبياء والمرسلين بتأييد الروح القدس ، وقد لا ينعت « الروح » بالقدس الا في كلامه عن المسيح : « اذ قال الله يا عيسى اذكر نعمتي عليك - وعلى والدتك - اذ ايدتك بروح القدس » (مائدة ١١٣) : فهذا التأييد كان نعمة كبرى وميزة عظمى من الله . وان رسالة يؤيدها روح القدس هي افضل رسالة .

وقد شهد الله للمسيح بمعجزة النبوءات التي لم يفه بمثلها لغيره : يصرّح القرآن مراراً عن محمد بن عبد الله أنه لا يعلم الغيب (انعام ٥٠ ، ١٢٤) ، فعلم الغيب من خصائص الله : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو » . بل هي صفة الهية من صفاته تعالى « إنك انت علام الغيوب » (مائدة ١٢٠) . فاذا اشرك الله احداً في هذه الميزة يكون قد شهد له افضل شهادة . والقرآن يقرّ ان المسيح أوتي علم الغيب : « وانبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم : ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » (آل عمران ٤٩) . وتنبأ من هذه أكبر نبوءة عن آخرته : « والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث

(١) مرة واحدة ينمت جبريل الموحى الى محمد بروح القدس . وروح القدس هنا مرادف لجبريل (نحل ١٠٢) .

حياً (مريم ٣٣) : منذ مولده يتنبأ انه سوف يبعث حياً وقد تحققت النبوة لما « رفعه الله اليه » (نساء ١٥٧) . فهل يذكر القرآن لرسول معرفة الغيب بهذه الصراحة وهذه القوة ؟ وهل حققت الايام قولاً كما حققت نبوة المسيح .

وشهد القرآن للمسيح ايضاً بمعجزة العجائب الباهرة : العجيبة فعل يفوق طاقة المخلوق ومعجزة الهية لا يقدر ان يجترحها الا الله القادر على كل شيء . فإذا اختص الله عبداً له بشيء من هذه القدرة الالهية فذلك دليل ساطع على ان الله اصطفاه على سواه . والقرآن لا ينسب لنبي من المعجزات كما نسب للمسيح . وفيما يصرح القرآن مراراً ان الآيات والحواريق مُنعت عن محمد « وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون » (اسراء ٥٩) ، يشهد مراراً للمسيح باجتراح المعجزات العظام : « ورسولاً الى بني اسرائيل ، اني قد جئتكم بآية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وابرى الاكهم والابصر ، واحيي الموتى » (آل عمران ٤٩) ؛ يعود الى ذكرها ايضاً في آخر عهده (مائدة ١١٣) : فأني خارقة اعظم من احياء الموتى واعظم من القدرة على الخلق ؟؟ هل ينسب القرآن الى بشر او نبي او مخلوق ما ينسبه الى المسيح من حوارق في شخصه وفي رسالته ؟ وتتخطى معجزاته نطاق الأرض الى السماء فيُنزل على الحواريين تلاميذه مائدة من السماء يأكلون منها فتطمئن قلوبهم ، ويؤمنون به مستشهدين في سبيله (مائدة ١١١ - ١١٥) : فظلت « عبداً لأولهم وآخرهم » واعظم آية من الله في تاريخ الانبياء والمرسلين .

ولكن شهادة الشهادات في القرآن عن المسيح، وميزه الميزات التي انفرد

(١) ذكر الكتاب لبعض الانبياء إقامة موتى ، وذكر ايضاً انها كانت بإذن الله ؛ فيما ينقل الانجيل ان عيسى كان يعلم الموتى بقدرته الذاتية : « أنا اقول لك ، قم ! فقام الميت واستوى » .

بها المسيح ومعجزة المعجزات التي بها اختص الله عيسى ابن مريم دون سائر الأنبياء والمرسلين بلا استثناء هي ان «الله رفعه اليه» فهو حي نفساً وجسداً عند الله والى ما شاء الله: «وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً» (نساء ١٥٧).

البشر كلهم يموتون، وينتهي امرهم بالموت. ويولدون ليموتوا: الاولياء والصالحون، والأنبياء والمرسلون، ماتوا جميعاً. ومحمد «خاتم النبيين» قد مات كغيره وقبره في المدينة المنورة «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قُتِل انقلبتم على أعقابكم» (آل عمران ١٤٤) فالموت سلطان السلاطين! الموت آخره كل شيء: آخره القداسة والنبوة، وآخره العلم والفلسفة والسلطان: واحد وحده لم يكن للموت عليه من سلطان، هو عيسى ابن مريم، مسيح الله!

فهو وحده حي عند الله! وإذ هو وحده حي فيما غيره قد مات وصار رميماً فرسالته دائمة، وهدايته دائمة، وشفاعته دائمة. أليست رسالة الحي الدائم أفضل من رسالة الميت؟ أليست شفاعته الحي عند الله أفضل من شفاعته الميت الذي صار تراباً؟ قال المسيح في الانجيل: «أنا القيامة والحياة: من آمن بي وإن مات فسيحيا» (يوحنا ١٤: ٢٦). وقال القرآن: «إذ قال الله: يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي، ومطهرتك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة» (آل عمران ٥٥).

وهكذا فقد اتفقت شهادة الانجيل والقرآن للمسيح أنه حي عند الله. فهذه ميزته الخاصة التي انفرد بها دون العالمين؛ وهي ميزة الميزات ومعجزة المعجزات.



فلا عجب بعد ذلك اذا سمعنا القرآن يصف عيسى ابن مريم باللقاب ترفعه فوق المرسلين، وسائر المخلوقين الى صلة خاصة شخصية مع الله.

لقد عمر القرآن المسيح باللقاب نبوية قد يشترك فيها غيره، ولكن القرآن

قد خص ابن مريم باللقاب غريبة سماوية، وأسماء إلهية : فقد اعطاه مع الانجيل اسماً يفوق كل اسم : «إنما المسيح عيسى ابن مريم : رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه» (نساء ١٥٧) فعيسى ابن مريم، رسول الله هو بالحقيقة مسيح الله، وكلمة الله، وروح الله ! مها يكن من معنى هذه الألقاب الفريدة التي لا ينسبها القرآن لأحد من المرسلين والعالمين، فهي تجعل المسيح وحده في صلة شخصية خاصة مع الله، صلة مصدرية عقلية روحية، ترفعه فوق صفة المخلوق.

لقد كتب الاستاذ العقاد «عبقرية محمد» فجمع في النبي العربي مجموع العبقريات والبطولات . وقد يكون ذلك . ولكن ليست العبقرية الخطابية، ولا العبقرية العسكرية، ولا العبقرية السياسية، ولا العبقرية الادارية، ولا العبقرية الشخصية في الصديق والزوج والاب والسيد المطاع، والرجل الفرد المحبوب ... ليست كلها بشيء إزاء هذه الألقاب الالهية التي وصف بها القرآن المسيح عيسى ابن مريم .

لقد عرّف القرآن شخصية المسيح بأنه وحده في العالمين : مسيح الله، وكلمة الله، وروح الله !

ولخص عظمته بكلمة لم يقلها في غيره : «إنه آية للعالمين» .

«وجعلنا ابن مريم وامه آية» (مؤمنون ٥١) .

«وجعلناها وابنها آية للعالمين» (انبياء ٩١) .

«قال ربك هو عليّ هين : ولنجعله آية للناس ورحمة منا . وكان أمراً مقضياً» (مريم ٢١) .

كلمة الختام

« لا حجة بيننا وبينكم . الله يجمع
بيننا . وإليه المصير » (شورى ١٥)

نوجزها بلمحتين خاطفتين :

أ موقف اهل الانجيل من القرآن ونيته

انهم يعترفون بأن محمداً بن عبد الله الهاشمي القرشي تطوع لاسمى رسالة
يمكن ان يتطوع لها بشر : رسالة التوحيد ! اي دعوة الناس الى الايمان بالله
واليوم الآخر .

ويشهدون من القرآن ذاته أنها لم تكن رسالة مستقلة عما تقدمها في التوراة
والانجيل ، بل انما جاءت تصديقاً وتفصيلاً لرسالة الكتاب (انعام ١١٤ ،
يونس ٣٧) وشاهدة عليها (مائدة ٥١) وواحدة معها (بقرة ١٣٦ ، ٢٨٥
وآل عمران ٨٤ ونساء ١٦٣ وتوبة ١١٢) .

ويؤكدون مع القرآن ان محمداً اخلص لرسالته كل الاخلاص ، وعمل لها
بالقلم والسيف ما استطاع سبيلاً حتى توصل الى غايته . فأنشأ امة وديناً ودولة
قادت شطراً من العالم أجيالاً ولم يزل لها وزنها الثقافي والدولي .

ولا يقلل من عظمة سيد العرب في نظر التاريخ انه لبس الدعوة مندفعاً
من نفسه أو مدفوعاً من عل : فقد كان الرسول عظيماً والرسالة عظيمة
ونتاؤها عظيمة .

ونرى اليوم ضرورة رسالة التوحيد أكثر من كل زمن مضى عندما ترى
تيارات الاحاد الجارف تجتاح البشرية أو تكاد من هباب الريح الاربعة .

فالإيمان بالله واليوم الآخر هما الدعامتان اللتان لا بد منهما للبشرية لكي تصعد ولا تهبط، لكي تتقدم ولا تتأخر، لكي تسعد ولا تشقى: وهذا كان عمل القرآن ونبيه.

فكم هو جميل مشهد هذه المآذن الشواهد المنتشرة في العالم والتي تمثل اشتياق الأرض إلى السماء، وسواعد البشرية المؤمنة المرتفعة فوق كل فضاء تنادي إلى الإيمان بالله وعبادته!

٢ موقف القرآن من الانجيل

من يطلع بإخلاص على شهادة القرآن للانجيل رأى في القرآن مدخلا إلى الانجيل.

لقد آمن القرآن ونبيه الإيمان كله بنبوة المسيح ورسالة الانجيل، وما كان هذا الكتاب الذي بين يديك الا رسماً صادقاً لهذا الإيمان: فليس في القرآن شخصية نداني شخصية المسيح، وليس في القرآن - بين الرسالات التي يخبر عنها - رسالة تسمى إلى رسالة الانجيل.

ولكن النبي العربي لم يعترف بنبوة المسيح لانه لم يعرفها حق معرفتها. فقد ظن ان كل نبوة تخضع حكماً وضرورةً لناموس الجسد، ولا تكون الا بامرأة وزواج: «بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة» (انعام ١٠١)، وظن ان النبوة في عالم الروح حاجة كما في عالم الاجساد «وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً: إن كل من في السموات والأرض الا آتى الرحمن عبداً» (مريم ٩٣)؛ ليست النبوة في الروح حاجة «ما اتخذ صاحبة ولا ولداً» (الجن ٣) بل هي فيض جودته، وضياء مجده. ونقول جازمين لو ان النبي العربي عرف نبوة المسيح حق معرفتها لاعترف بها دون ما تردد: «قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» (زخرف ٨١).

تلك هي بعض الابحاث عن الكتاب والانجيل في القرآن . فيها كل ما من شأنه أن يجمع ويؤلف بين أهل الكتاب وأهل القرآن . فإن ما حفظ القرآن عن المسيح والانجيل والنصارى مفخرة للمسلمين والمسيحيين اذا تجردوا عن تفاسير الشحناء والبغضاء .

وفصل الخطاب، على حد قول القرآن، ان هناك إلهاً واحداً، ووحياً واحداً، وكتاباً واحداً منزلاً، ورسالةً واحدة، وديناً واحداً في أصله، وإيماناً واحداً هو الايمان بالله واليوم الآخر (بقرة ٦٢، ١٧٧ ومائدة ٦٢، ٧٢) ؛ يعطيه اسماً جديداً عربياً « الاسلام » اي التوحيد ؛ وان كان جديداً بالمبنى فليس جديداً بالمعنى « هو سماًكم المسلمين من قبل (في الكتاب) وفي هذا (في القرآن) » (الحج ٧٨) وقد ختم القرآن شهادته بمكة بقوله : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن - الا الذين ظلموا منهم - وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون » (عنكبوت ٤٦) ؛ وختم القرآن رسالته في المدينة في آخر آية تقريباً من آخر سورة فيه بقوله : « إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة... وَعَدَّاءُ عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ » (توبة ١١٢) .

وحسن الحتام في الصورة التي رسمها القرآن للانجيل والمسيح : ليس بين الكتب المنزلة حسب قوله أسى من الانجيل، وليس بين الانبياء المرسلين أفضل من المسيح . لقد أعجبنا بتلك الصورة فجمعنا بعض خطوطها . ففي كل قصه عن الانبياء والمرسلين لا يرسم القرآن الكريم صورة أسى وأكمل من شخصية المسيح عيسى ابن مريم . لقد كان للانجيل وقع عميق في نفس النبي الأمي، وكان لتأثير شخصية المسيح على وجدان النبي العربي صدى بعيد فمالت عظمة المسيح، الذي وحده بين البشر والانبياء انتصر على الموت والحياة وارتفع حياً الى الله، كل مشاعره فرسمها بذلك الرسم الخالد .

أعظم الأنبياء في القرآن هم ابراهيم وموسى وداود وعيسى ومحمد . وكلهم

جاء بكتاب . وأعظم شخصية بينهم حسب القرآن هو المسيح عيسى ابن مريم
لا يصف أحداً بما وصف به عيسى ابن مريم . ولا يلقب أحداً بما لقب به المسيح:

عيسى ابن مريم هو وحده مسيح الله

عيسى ابن مريم هو وحده كلمة الله

عيسى ابن مريم هو وحده روح الله

فالمسحة السرية، والكلمة من الله، وروح الله، نعتي صِلَة ذاتية حقيقية لا
مجازية، بين المسيح والله دون العالمين اجمعين .



المؤلف والمجموعة



مجموعة
الأستاذ الحدّاد
القرآنية
والإنجيلية

أولاً: المؤلف

الأب يوسف درّة الحدّاد (١٩١٣ - ١٩٧٩)، المعروف أيضاً بـ «الأستاذ الحدّاد»، من يبرود (القلمون) مولداً، ومن خرّيجي إكليريكية القديسة حنة (الصلاحية) في القدس ثقافة. خدم النفوس بعد سيامته الكهنوتية (١٩٣٩) في أبرشيّة حمص وبعليّك، ثم انقطع زهاء عشرين سنة للبحث والكتابة في حقل استهواه منذ أيام التلمذة، حقل الشؤون القرآنية على وجه عام، والمعضلات الإسلامية المسيحية، والدراسات الإنجيلية والكتّابية على وجه خاص. فأكبّ يجلّد على العمل، قلّ أن يضاهي بمثله، وبقدرة على الاستساغة والتأليف تثير الإعجاب، فانتج نتاجاً ضخماً جداً، بعضه نشر وبعضه لا يزال مخطوطاً أو قيد الطبع.

ثانياً: المجموعة

مجموعة الأستاذ الحدّاد من أبرز المجموعات الدراسية التي ظهرت في الآونة الأخيرة، ومن أوسعها موضوعاً، وأعمقها تحليلاً، وأنزهها هدفاً. وأسلمها أسلوباً. وهي تتألف من ثلاث

سلاسل : سلسلة الدروس القرآنية ، وسلسلة الحوار الإسلامي المسيحي ، وسلسلة الدراسات الإنجليزية .

وفي كل سلسلة طائفة من البحوث القيّمة قلّمًا عرض لها مفكرٌ مثلما عرض لها الأستاذ الحدّاد ، وقلّمًا تعمّق في حقائقها عالمٌ كما تعمّق وكشف عن أسرارها وخفاياها الأستاذ الحدّاد ، وذلك كله بفكرٍ ثاقب لا يكاد يخطئ هدفًا ، وعلم واسع لا يعرف إلا الدقّة والتدقيق أسلوبًا ، وقلم صريح لا يخشى إلا خيانة الحقيقة والتقصير في خدمتها ، وجلّد لا مثيل له بتتبع أوثق المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، فيجول في عالمها جولة قدير ، ويقارن ما بين نصوصها مقارنة ناقد حاذق ، لا تلهيه القشور ، ولا تغشي بصره الميول . انه رسول حقيقة ، في عالم من الاضطراب والمفارقات .

وهكذا كانت مجموعة الحدّاد ، على ما فيها من بعض الشوائب التقنيّة ، موسوعة ضخمة ، لا عهد لنا بفرد طوى في ميدانها بقدر ما طوى هو وبمثل ما طوى . ولهذا كانت مرجع الباحث الذي يطلب العلم ، ومنهل الوارد الذي يطمح الى المعرفة .

(الأب جورج فاخوري البولسي)

للمؤلف

١ دروس قرآنية

- ١ - الإنجيل في القرآن (طبعة ثانية)
- ٢ - القرآن والكتاب
• الكتاب الأول : بيئة القرآن الكتابية
• الكتاب الثاني : أطوار الدعوة القرآنية
- ٣ - نظم القرآن والكتاب
• الكتاب الأول : إعجاز القرآن
• الكتاب الثاني : معجزة القرآن

(طبعة ثانية)

٢ في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي

- ١ - مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي
- ٢ - القرآن دعوة «نصرانية»
- ٣ - القرآن والمسيحية
- ٤ - أسرار القرآن
- ٥ - المسيح ومحمد في عرف القرآن
- ٦ - سيرة محمد وسره
- (مخطوطة)
- (مخطوطة)
- (مخطوطة)

٣ دراسات إنجيلية (مصادر الوحي الإنجيلي)

١ - الدفاع عن المسيحية
(في الإنجيل بحسب متى وبحسب مرقس)

٢ - تاريخ المسيحية
(في الإنجيل بحسب لوقا وفي سفر أعمال الرسل)

٣ - فلسفة المسيحية

• الكتاب الأول : الرسول بولس

• الكتاب الثاني : رسائل بولس

٤ - صوفية المسيحية

• الكتاب الأول : في الإنجيل بحسب يوحنا

• الكتاب الثاني : في سفر الرؤيا

٥ - المسيح في الإنجيل

٦ - «إنجيل» بولس

٧ - سيرة المسيح وسره

٨ - دروس إنجيلية

٩ - الدفاع عن المسيحية من تاريخها وتعليمها

(مخطوطة)

(مخطوطة)

(مخطوطة)

(مخطوطة)

(مخطوطة)

